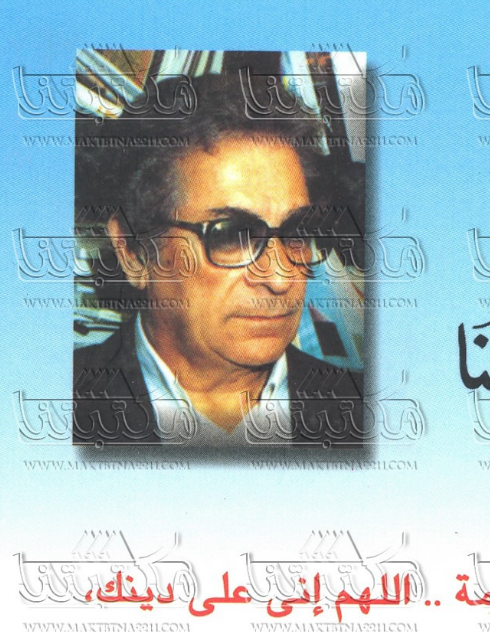

252
أنيس منصور
عبد الناصر
المُفترَى عليهِ والمفترِي علينا
وخِطاب مُصطفى أمِين إلى الرئيس عبد النَّاصِر
http://www.maktbtna2211.com/
Ahmed Mady
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع





المفترَى عليه والمفترِى علينا

وخطاب مصطفى أمين إلى الرئيس عبد الناصر

«اللهم اجعل دمى لعنة عليه إلى يوم القيامة .. اللهم إنى على دينك، وفى سبيلك ، وأموت عليه .. اللهم هذا الطاغوت تكبر وتجبر .. اللهم رحمتك وجنتك يا أرحم الراحمين .. وإنا لله وإنا إليه راجعون !!».

لقد كان ـ يرحمه الله ـ طويلاً شاحبًا .. يتساند على جلاديه .. لم يكن خائفًا .. وإنما كان مريضًا .. لم يكن خائرًا ، وإنما كان شيخًا ، لم يكن ثقيل الخطى .. وإنما كان علمًا وقرآنًا .. لم يكن بشرًا .. لقد كان جبلاً من الإيمان والصبر واليقين ..

بحثت عن يدىَّ ألطم بهما خدَّىَّ .. لم أجدهما .. ما الذى انتابنى؟ .. ما الذى أصابنى فأرى «سيد قطب» العالم الجليل والشهيد الكريم ، صديقى فى حب الأستاذ العقاد والإعجاب به ، أحد الأنوار الكاشفة للإيمان والغضب النبيل من أجل الله وفى سبيله؟ .. هل هو فرنٌ ذلك الذى وقفنا به ؟ .. فكل شىء لونه أحمر .. الجدران .. الأرض .. الوجوه الجامدة .. هل انفتحت جهنم جديدة .. حمراء باردة؟ .. هل حمراء ملتهبة؟ ولكن الأعصاب هربت.. نزعوها، جعلوها حبالاً يتدلى منها سيد قطب.. هل هو عندما دخل .. نزل .. مشى .. سحب أرواحنا .. فأصبحنا أشباحًا .. موتى وهو الحى الحقيقى ؟! هل هذا الجسم الهزيل الشاحب قد جمع كل قواه وقوانا وحشدها فى حنجرته فزلزل بها المكان : لا إله إلا الله .. والله أكبر .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .. لبيك اللهم لبيك .. اللهم إن الموت حق .. وإنك أنت الحق.. لبيك اللهم لبيك ؟!

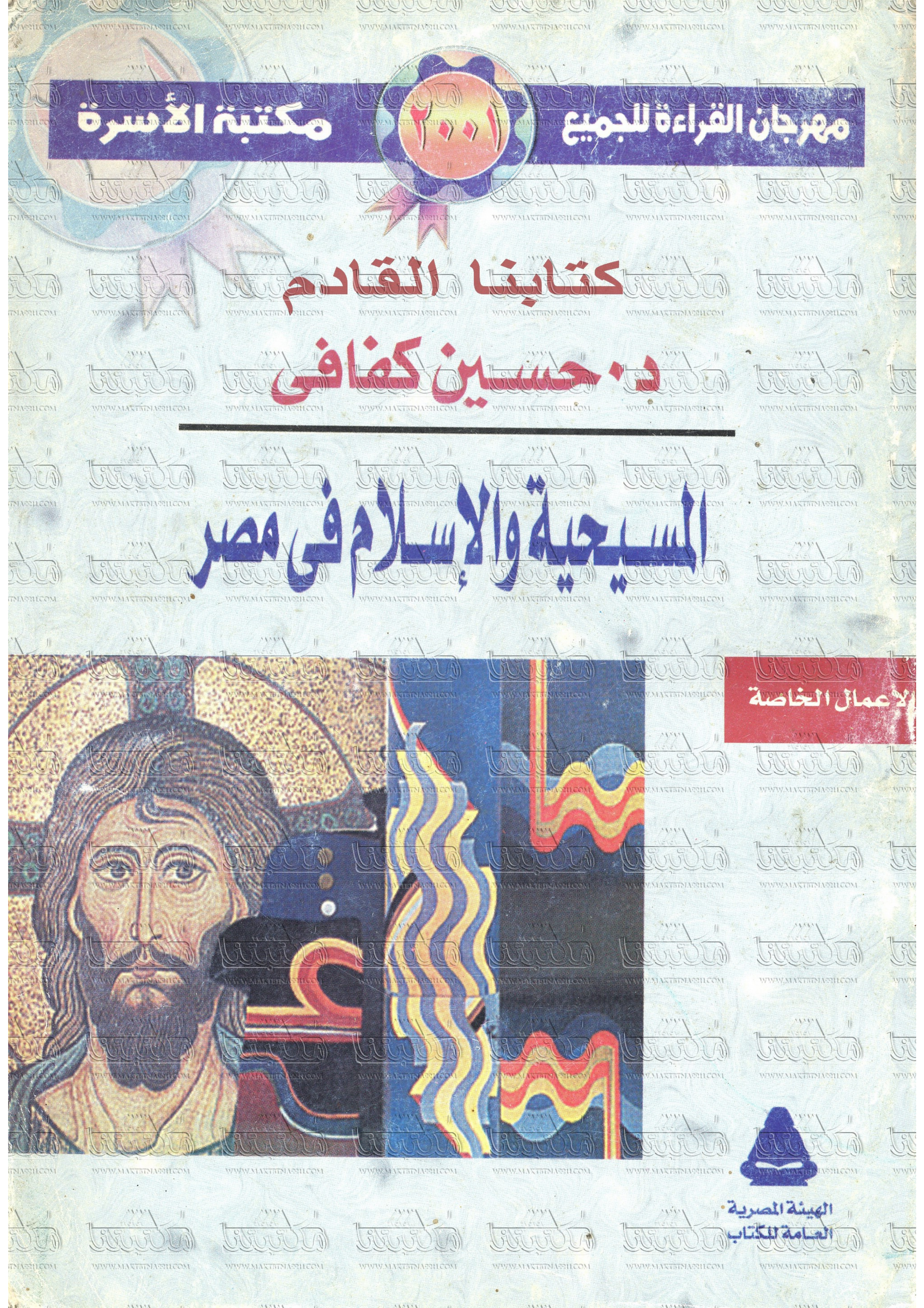
هل كان هذا صوته .. أم صوت الجدران والأبواب والنوافذ ؟! هل استولى على حناجرنا ؟.. هل قفزت إلى قلبه قلوبنا وانضمت إلى صدره صدورنا؟ .. وبحثت عن رأسى فلم أجده .. ذراعى أمدهما .. أسحبه بعيدًا عن الحبل .. هل رأيت دموعًا فى عينيه .. أو أنها دموعى ؟! هل سمعت عويلاً حولى ؟ .. هل حقًّا ما حدث ؟! .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..





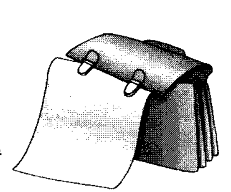
Sunday
1/7/2012
Riyadh




مهرجان القراءة للجميع
٢٠٠١
مكتبة الأسرة
كتابنا القادم
د. حسين كفافى
المسيحية والإسلام فى مصر
الاعمال الخاصة
الهيئة المصرية
العامة للكتاب


أنيس منصور
عبد الناصر
المُفترى عليهِ والمفترى علينا
وخطاب مصطفى أمين إلى الرئيس عبد الناصر
طبعة منقحة ومزيدة
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

كلمـــة أولـــــى..



جاءت مقالات «جمال عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا» قبل الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، صدفة . وكان أثرها عنيفا . فكان على المرشحين الناصريين أن يواجهوا تساؤلات الناخبين : لماذا؟ كيف؟ وإذا كان هذا صحيحًا فكيف ننتخبهم على مذهب عبد الناصر؟ وكيف يسكتون؟

ولكن السبب الحقيقى للنشر هو مرور ٢٥ عاما على قرار الرئيس جمال عبدالناصر بفصلى من عملى بسبب مقال نشرته فى «أخبار اليوم» بعنوان : حمار الشيخ عبد السلام . وهى مناسبة خاصة . والألم مثل الموت : خاص وشخصى . موتى أنا على مرأى ومسمع من الآخرين . . إنهم يشاركون من بعيد ، ولكن الفقيد هو الذى يذهب وحده . . وكذلك الألم فى قلبى وفى عقلى . . وهو شخصى وهو نسبى أيضا . فأنت تضرب كلبك أو حمارك بالشلوت . ولا يقول : آه . . وتضرب خادمك بما فى يدك . . وفى الريف يجلس الرجل إلى جوار زوجته على الترعة ويخلع البلغة ويضربها على ظهرها . ويكون ذلك نوعا من الدلال . . ويكون رد الزوجة : جرى إيه ياعليوه؟ ليقول لها : يابت بأحبك!

وفى الريف يضرب العمدة أحد الفلاحين بالجزمة فيقول : جزمتك شرف ياعمدة!

والرومانسيون يقولون : لا تضرب المرأة بوردة – أى إنك إذا رميتها بوردة ، فكأنك رميتها بطوبة . . أى ضربتها . . أى أهنتها .

وعشرات الألوف دخلوا السجون وخرجوا ناقصين وزنا وحجما وكرامة . ولم يتكلموا . . وبعضهم دخلوا السجون وتقلبوا على النار والبول ولحسوا الأرض ونهشتهم الكلاب . وخرجوا شاكرين حامدين للرئيس جمال عبد الناصر أنه عذبهم . فهم يرون أنه الأخ الأكبر للنظرية الماركسية ، وأنه يطبقها بعنف . . وللأخ الأكبر على إخوته الصغار حق الضرب والتأديب والتهذيب . .

وفى هذه المناسبة الشخصية إلى حد ما ، انتهزت الفرصة لكى أعلن عن خطوط عامة لمقدمة دراسة عن عصر عبد الناصر الإنسان . . الحاكم الفرد . . وعن الأثر الاجتماعى والنفسى والأدبى والفلسفى لكل ذلك . ووجدت فى هذه الدراسة الكثير من المعانى التى درستها ، ولكن لم أستوعبها تماما . . لم أكن أعرف بالضبط ماهو المقصود بالهوان والذل والضياع والعبث ؛ أى اللامعنى لأى أحد ولأى شىء . . إن أكثر معانى الفلسفة الوجودية قد تفجرت فى داخلى وحولى . . وفجأة انفتحت الدنيا وانقشعت على «حوش» قراقة سياسية واجتماعية ونفسية . كيف؟ لا أعرف . . هل هى رؤية؟! هل هى رؤيا؟! كيف درست الفلسفة الوجودية وقمت بتدريسها فى الجامعة وصدر لى أول كتاب عنها سنة ١٩٥٠؟! وكيف احتويتها واحتوتنى؟! ثم لم أكن أدرى معانى القلق والموت والحرية ومعانى العدم والانعدام . . كل ذلك عرفته . والفضل للرئيس جمال عبد الناصر . ووجدت أن هذه هى مشاعر الآخرين الذين يمضغون ألسنتهم وشفاههم ولايجدون ما يقولون ، ولو قالوا فأين ينشرون ، ولو نشروا فمن يقرأ ومن يسمع ومن يشير إليهم بأن هذا هو الظلم والظلام . .

ووجدت من الضرورى لأى إنسان عنده مشاعر مدخرة . . مختزنة . . محتبسة أن يقول . . وقالوا وسوف يقولون . . لسببين :

السبب الأول : إن دراويش الرئيس جمال عبد الناصر قد صوروه لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى – قالها د . محمود فوزى . فهو المعصوم عن الخطأ . وليس فى قاموسه إلا الحكمة إذا فكر وقرر ودبر . أما انكساراته وعثراته فخطوات على الطريق الصحيح . والخطوات أشكال وألوان . . فموسى عليه السلام ضرب بعصاه البحر ، فانشق نصفين . وهو يخطو على الأرض اليابسة . . سبحان الله . . والمسيح عليه السلام كان يمشى على الماء . . والبراق الذى حمل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطو

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . وعندنا فى الريف أولياء الله الصالحين ينتقلون من المنصورة إلى طنطا فى خطوة واحدة . . إنهم أهل الخطوة . . وإن أرمسترونج الذى نزل على القمر هو أيضا كان يخطو . . وخطواته قفزات بسبب انعدام الجاذبية . . والذى يمشى على الحبل يخطو ، والذى يمشى على المسامير وعلى النار وعلى رقاب العباد . . . كلها خطوات . . والرئيس كل حركاته خطوات مدروسة محسوبة . ولذلك فهو إلى الأمام دائما . فالنصر خطوة كبيرة إلى الأمام والهزيمة نكسة إلى الأمام - أى خطوة صغيرة . فهو منتصر دائما . حتى عندما انتصر الجيش المصرى فى سنة ١٩٧٣ كان هو الذى وضع الخطة . فكان انتصاراً عسكريا ، وهزيمة سياسية ؛ أى إنه الذى مات انتصر عسكريا ، والسادات الذى لم يمت انهزم سياسيا . فعبد الناصر إذا حضر انتكس ، وإذا غاب انتصر . . وإذا حضر انتصر قليلا ، وإذا غاب انتصر كثيرا . .

وكما أن الخطوات أطوال وسرعات . فكذلك حروبه انتصارات بدرجات متفاوتة . وكانت الثورة انتصارًا له ولزملائه . . انتصارا كبيرا له وصغيرا لزملائه . والعدوان الثلاثى كان انتصارا شخصيّا له . . فالعدوان الثلاثى لم يستهدف جيش مصر ولاشعب مصر ، وإنما زعيم مصر . . وإيه يعنى الجيش المصرى نعمل غيره - كلمات الرئيس عبد الناصر . . وإيه يعنى الشعب المصرى . . ما هو على قفا من يشيل - كلمات الرئيس عبد الناصر . ولكن هو شخصيا المقصود بالعدوان الثلاثى - كلمات شيخ مشايخ الطرق الناصرية . فماذا حدث؟ لم يحدث شىء ، فالرئيس ظل حيا يرزق بعد العدوان الثلاثى . . والنظام قائم على أربع . . وهزيمة ١٩٦٧ ، لم تكن هزيمة ، وإنما هى «وعكة» عسكرية . . عطس . . أو زكام . . سعال ديكى خفيف . . وبقى الرئيس جمال عبد الناصر . . وجاءت الجماهير تطالب بعودته وفداك ألف جيش وجيش ياريس . . وراحت الجماهير التى ساقها النظام تبوس القدم وتبدى الندم على غلطتها فى حق زعيم الغنم . . أما ممثلو الغنم فهم يرقصون ويطبلون فى مجلس الشعب . .

هذه النوعية من التراتيل الكهنوتية التى يرددها مشايخ الطرق الناصرية استفزازية ؛ لأنها إهانة للإنسان وتجاهل لويلات ملايين المصريين والعرب ، وصفعات وركلات لنصف مليون جندى ، كانوا يلحسون الرمال ، ويعتصرون الماء من علب الصفيح بحثا عن قطرة ماء . ومئات الألوف من الضحايا ذهبوا فى «نزهة عسكرية» ولم يعودوا . . لقد ماتوا بحسرتهم وعاش بغيظهم : آباء وأمهات وزوجات وأولادًا وبنات . .

وعندما أفاق المدنيون والعسكريون من هول المصيبة تساءلوا : من فعلها؟ من ارتكبها؟ من أجرم؟ من خان؟ من ضرب مصر كلها؟ لم يجدوا البطل صاحب القرار . وإنما سمعوا من يقول على لسانه : وهو ماله؟

أمال مال مين؟ بطولة من؟

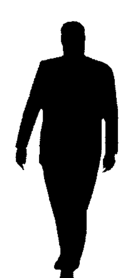
سمعوه يقول : لست أنا وإنما هو؟

ومن هو؟

المشير عبد الحكيم عامر الذى صوروه غائبا عن الوعى . . فغاب الجيش كله ، وضاع الطريق إلى الحدود المصرية . . وقالوا احتقارا لشأن عبد الحكيم عامر . . ليس هو ، بل هناك طراز من القادة من نوعية عبد الحكيم عامر . . مائة . . ألف . . عشرة آلاف . . الجيش كله . . المهم إنه ليس هو الذى فعل . . وإنما هو مظلوم . . فقد اعتدى عبد الحكيم عامر على قداسته . . ولكن ما السبب؟

إنها «الصداقة» ؛ الرئيس وثق فى المشير إلى أقصى درجة . . أعطاه مفتاح مصر . . فأضاع مصر . . لماذا؟ لأن الرئيس لو كان هو الذى فى يده مفتاح كل شىء ، لانتصرنا فى كل الجبهات . . ولدخلنا القدس صباحا وتل أبيب ظهرا . . وتوقف القتال ليلا : فقد انتحر اليهود فى البحر . . ولكن عبد الحكيم عامر قد خان الأمانة وفضح قداسة الزعيم فحقت عليه اللعنة حيا وميتا!

والسبب الثانى : إن هناك قضايا كثيرة لم نصل فيها إلى حل . إلى رأى . كل قضايا الحرب والاستعداد لها والدخول فيها والخروج منها . . كل قضايا الاشتراكية التعاونية والاشتراكية العلمية . . فعبد الناصر كان يريد أن يكون ماركسيا . لم يستطع . وعبد الناصر مشكوك فى إيمانه بالله واليوم الآخر . . واحتقاره الظاهر لكل ماهو عربى ولكل رئيس على دولة عربية . .



وقضايا : اليمن دخولا وخروجا ومائة ألف شهيد وعشرات البلايين من الجنيهات ذهبا . . والوحدة ثم الانفصال والهزيمة العسكرية . . ثم من كان صاحب القرار . . ثم انهيار صور البطولة وأحلام الشباب . . وإدارة طواحين الهواء فى الميكروفون وعلى الشاشة وفى الصحف وتخبط الاجتهادات . .

ثم غياب الرئيس جمال عبد الناصر فى الستينيات . . كلها . . ابتداء من الوحدة حتى وفاته سنة ١٩٧٠ . .

فمنذ الوحدة مع سوريا ارتفع الرئيس جمال عبد الناصر إلى السماوات . . نفخوه من أذنيه ومن عينيه ، وليس كما ينفخ هو المعذبين فى السجون . . نفخوه حتى صار بالونا بطوليا فوق . . فرأى السوريين صراصير ورأى المصريين براغيث ، السوريون أكبر ؛ لأنهم أولاد الزوجة الشقراء الذهبية الشعر الزرقاء العينين . . أولاد الجديدة . . أما نحن فأولاد القديمة!

ويوم الانفصال كان أصغر فى الحجم من شعبى سوريا ومصر . . كان أصغر من مصر . . أصغر من منشية البكرى . وكان قبل ذلك أكبر من مصر ، ولذلك ضم لمصر سوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا . ولم يبق أمامه إلا القليل ليحقق أحلام الإسكندر الأكبر ، عندما نظر إلى السماء فسألوه . قال : ابحث عن مستعمرات جديدة .

أما الانفصال عن سوريا فقد أصابه بانفصال فى الشخصية . . بانفصام . . صار أكثر من واحد . . واحد يتكلم والثانى يلطم . . لقد اخترقه الانفصال . . وشجه نصفين . . فكانت الأصوات تخرج منه متداخلة . . كما تتداخل الخطوط التليفونية . . والموجات والقنوات . .

ثم جاءت الهزيمة العسكرية . وكانت النهاية . لقد تبدد الرجل . . وتشتت ، وإذا كان الانفصال قد جعله اثنين يتضاربان . . فالهزيمة جعلته كثيراً . . انفرط . . تبعثر . . وكان الكلام له ومعه والكتابة إليه تأكيدا للخيانة . . لأن صديقه قد خانه . . لأن العالم كله قد تآمر عليه . . ولكن ما الذى استطاعه العالم؟ لاشىء . . إن الرئيس مايزال فى صحة وعافية . وما يزال قادرا على أن يحارب وأن يهزم وأن يسحق وأن يقود العرب من نصر إلى نصر . . فمن أجل ذلك ولد ، وفى سبيل ذلك يموت . . أو لعله لايموت . . فهو قد ولد ليعيش إلى الأبد!

ولا تزال الهزيمة قائمة . . ولايزال الإحساس بها حيا . الكارثة هى الحية ، وليس الرئيس جمال عبد الناصر . والهزيمة تتوالد ، وليس هو الذى يتوالد . والكلام عنه لايمحو ظله الأسود على كل الأشياء . . ولكن تعيش المصيبة . .

ولأن المصيبة عنيفة ودامية ، وما تزال قادرة على أن تلد مصائب أخرى جديدة ، فإن انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ لم تفلح فى القضاء عليها . فقد جاءت هذه الانتصارات مثل حفلة زفاف عروسين فى غرفة الإنعاش . . لقد كان المرض صدمة عنيفة ، وكان العلاج صدمة أعنف!

ولا أحد يستطيع أن يقول لأحد : لا تقل آه . . إذا نظر إلى ذراعه المقطوعة أو إلى ساقه أو والده الذى غاب أو ابنه الذى لم يعد . .

آه لو اعترف أحد بالهزيمة وأخطائها . . آه لو قال أحد : أخطأ الرئيس خطأ فادحا . ويطلب الصفح والعفو . .

ولكن أحدا لم يقل . وإنما دراويش الناصرية - التى لايعرف أحد ماهى بالضبط - يؤكدون أن ١٩٦٧ كانت النصر . . وإن الضحايا قد تشرفوا بذلك . . وعلى آبائهم وأبنائهم أن يرقصوا فرحا - ألم يروا نواب الشعب كيف يرقصون؟! لقد أذيع ذلك فى «البرامج التعليمية» لكى يرى الشعب ويتعلم ويرتفع عن الألم السخيف ودموع الأطفال التى تذرفها الأمهات والآباء والأبناء . . وإيه يعنى مائة ألف شاب ماتوا من أجل الزعيم؟! إيه يعنى؟! إن الفئران . . الفئران تفعل ذلك كل سنة وهى تنتحر من جبال النرويج وتلقى بنفسها فى المحيط من أجل زعيمها . . كل سنة . . لا كل سبع أو ثمانى سنوات؟!

. . ولأن العسكريين لاينطقون . . يتلقون الإهانة ولايشكون .

أما العسكريون على الجانب الإسرائيلى فقد كتبوا على هواهم كل شىء فى كل اللغات . . وجعلوا جنودهم أبطالا . . وقادتهم أنصاف آلهة . . ولم يرد عليهم أحد .!

***

وسمعت ما الذى قيل فى محافل كثيرة عن هذه المقالات . . ولماذا؟ وكيف؟

ولماذا سكت عنها حسنى مبارك؟ وهل هذه المقالات العنيفة كانت بالاتفاق مع الرئيس مبارك . . لابد أن يكون هذا التناول العنيف لعصر عبد الناصر ، بالاتفاق مع الرئيس حسنى مبارك . . وإلا كيف جاءت قبل المعركة الانتخابية؟ لابد أن يكون السبب فى ذلك أن الرئيس حسنى مبارك قد فضح «الطوق» الناصرى الملتف حول مؤسسة الرئاسة

والحزب . . ولابد أن الرئيس قد صبر عليهم طويلا ثم كشفهم . . ولذلك كان لابد من ضربهم على رءوسهم ليفيقوا أو ليتنبه الشعب أيضًا!

والحقيقة أن الرئيس حسنى مبارك لا دخل له فى كل الذى كتبت . . لاسألته ولا أطلعته على شىء قبل أن أكتب . . والرئيس مبارك صادق حين يتحدث عن حرية الصحافة . لاشك فى ذلك . لا تدخل ولا يتدخل ولا يحاسب أحدا عن الذى قال . حتى إذا ضاق بما كتبه فلان فإنه يقول لى ، ولابد أن يقول لغيرى أيضا : فلان هذا ليس منصفا . ولا هو عادل فى الذى كتب . ولكنه حر . ولن أراجعه . . وأنت لا تقل له شيئا على لسانى!

هذا أقصى ما يقوله الرئيس مبارك!

وفى يوم كنت أتناول العشاء فى بيت د . خيرى السمرة عميد كلية الطب فجاءنى د . يحيى الجمل . وقال لى : الناصريون تضايقوا من الذى كتبت . وقالوا لابد أن نذهب إليه ونقتله . . ولكنى منعتهم!

ولكنهم جاءوا بسيارة محملة ومدفوع لها فلوس أصحاب الملايين أولاد عبدالناصر . وأطلقوا الرصاص على البيت . . وهددوا الحراس!

ولم أشأ أن أذكر ذلك للسيد زكى بدر وزير الداخلية . .

وفى مؤتمر صحفى للرئيس حسنى مبارك ، حضره ثلاثمائة من الإعلاميين . وقبل أن يجلس على المنصة تساءل :

أين أنيس منصور؟

فرفعت يدى قائلا : أيوه ياريس

قال : ياأنيس . . أرجوك . . فى عرضك . . كفاية المقالات عن عبد الناصر . . إنها تسبب لى صداعا . . كفى . . فكل رئيس له أخطاؤه . . كفى!

قلت : حاضر ياريس . . ولكنى انتهيت منها . . وبدأت سلسلة أخرى .

قال الرئيس : كفاية بقى!

وجلس الرئيس وجلست . .

ثم عاد يقول : للأمانة . . أنا كلمت أنيس فى بيته مرتين . . وتناقشنا ولكنه لم يستجب!

***

وفى مصعد نادى التحرير التقيت بالدكتور رفعت المحجوب . فقد كنا على موعد للعشاء مع الرئيس الأمريكى كارتر بدعوة من د . أسامة الباز . وبادرنى د . المحجوب : يأخى المقالات التى كتبتها عن عبد الناصر لها أثر سيئ جدا على الناس . . كثير منهم تحول عن الحزب الوطنى إلى حزب الوفد . . وأنت السبب! .

وضحكنا . ثم عاد د . المحجوب واستأنف هذه المناقشة على مسمع من الأساتذة أحمد بهاء الدين وأسامة الباز ومصطفى الفقى . .

ونشرت صحيفة «الوفد» فى صفحتها الأولى نص هذا اللقاء والحوار . وأضافت أنه حتى فى خطاب د . رفعت المحجوب يوم افتتاح الدورة البرلمانية فقرة قصدنى بها .

وأقسم لى د . المحجوب أنه لم يقصدنى مطلقا . .

وقال لى صديق فى المخابرات العامة : إنه ليس صحيحا ما قاله د . رفعت المحجوب ، ولا حتى الذى قاله د . يحيى الجمل . فشرائح كثيرة من الرأى العام ، أدهشتها المقالات وأذهلتها . . وأفاق كثير من نوم كاذب . . وانهارت الأسطورة!

***

والذين وصفوا جمال عبد الناصر بأنه يهودى الأصل ، أظنهم يقصدون أنه أدى لإسرائيل خدمة جليلة عندما أعطاهم سيناء وقناة السويس والجولان والقدس والضفة وغزة . . ولو عاش جمال عبد الناصر لطالب اليهود بحقهم فى أرض «جوشن» التى جاءت فى التوراة - محافظة الشرقية؟!

والنكتة التى تقول إن اليهود قد أقاموا لعبد الناصر تماثيل فى كل مكان ، مقصود بها أنه أدخلهم مصر من أوسع الأبواب . . فاستحق التمجيد والتعظيم!

وكان المرحوم كامل الشناوى اقترح على الصحفى الكبير محمود أبو الفتح صاحب جريدة «المصرى» التى أغلقها عبد الناصر أن يقيم تمثالا فى كل أركان جريدة المصرى للأستاذ أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام . . لماذا؟

لأنه بسبب جمود الأهرام فى ذلك الوقت ، انتعشت جريدة المصرى وانطلقت صحافة مصرية حديثة!

***

وسوف تنحسر موجة السخط على الرئيس جمال عبد الناصر ، وفى نفس الوقت نقوم بإنصاف الرئيس أنور السادات لقاء الإنجازات العظيمة التى حققها لبلاده : طرد الخبراء السوفيت ، وتصفية مراكز قوى الناصرية ، والانتصار فى حرب أكتوبر ، وفتح قناة السويس ، والأحزاب ، ومعاش السادات ، والتأمينات الاجتماعية ، وانسحاب إسرائيل ، والسلام معها ، والانفتاح الاقتصادى ، وحرية الصحافة ، وقطع رجل زائر الفجر . .

وفى نفس الوقت يأخذ كل زعيم حقه وحجمه . . وسوف تكون الأجيال القادمة أكثر تسامحا . . وأكثر انشغالا بمستقبلها . . ولن تعيش ماضيها خصما من حاضرها . .

ولن يمضى وقت طويل حتى ينزل الستار عن «العبث» السياسى . . والعبث التاريخى . . والعبث المسرحى أيضا - وذلك بأن يعود المعنى إلى الكلمات والحركات . . ويعود المعنى إلى الإشارات والرموز . . ويعود الغطاء الذهبى لكل العملات والمعاملات . .

ويذهب الحكام وتبقى آثارهم على وجه مصر . . وتبقى مصر . ولن ترحم مصر ، فى أى وقت ، هؤلاء الذين رأوا وما نطقوا ، والذين قطعوا أصابعهم حتى لا يمسكوا أقلامهم ويقولوا كلمة الحق . . مهما كانت أليمة . . موجعة ، لهم أو لغيرهم .

والله على ما أقول شهيد!

أنيس منصور

اخرج ولا تعد بأمر الرئيس!

اخـــرج
ولا تعد بأمر الرئيس!

لا أزال أقول «عندنا» فى أخبار اليوم - رغم أننى تركت العمل بها من عشر سنوات رئيسا لدار المعارف ومجلة أكتوبر . . ولكن لأننى أمضيت بها ٢٤ عاما محررا وعضو مجلس إدارة ورئيسا لتحرير مجلات : الجيل وهى وآخر ساعة ، فلم تنقطع صلتى العاطفية بها والعاملين فيها . . فعندنا فى أخبار اليوم رأينا عجائب المخلوقات وغرائب العادات بعد تأميم الصحافة سنة ١٩٦١ . . رأينا الوزراء والمديرين والسكرتيرين والسعاة لهم القدرة جميعا على عمل أى شىء لأى أحد فى أى وقت . . يكفى أن نتذكر أن أحد رجال الأمن بدرجة صول كان يستطيع أن يحذف ويضيف لأى مقال لأى كاتب ابتداء من الأستاذ محمد التابعى وانتهاء بصحفى تخرج لتوه فى الجامعة . حدث وقراره نهائى . وفى أخبار اليوم من عايش هذه الفترة السوداء فى تاريخ الصحافة فى مصر . وجاء أخبار اليوم عن طريق المخابرات صحفيون أجانب يعلموننا كيف نحب مصر ونحتقر أنفسنا ، ونكره الصحافة ، وتهون علينا أخبار اليوم وكرامة الإنسان .

لا يعرف الصحفيون الشبان من هو «الرقيب» - ولا يعرفون بالضبط ماهى مهمة هذا الرقيب . . وقد اختلفت التعريفات لهذا الموظف سيىء السمعة ، فهو شخص غلبان يجىء غالبا من وزارة التموين ، ليضاعف دخله . . أى إنها خدمة له . ويجلس فى صالة التحرير وتتكدس عنده كل مواد التحرير : إعلانات ووفيات وأخبار وموضوعات وصور ومقالات . . يقرأ ويحذف ويصحح ويقرأ

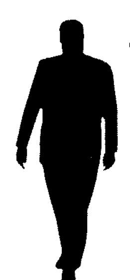
ويحذف . ولا يقبل المناقشة . فإذا ناقشناه وطال النقاش هدد بمنع الصحيفة من الصدور . ويملك ذلك!

فهو «غربال» واسع الفتحات وأحيانا ضيق الفتحات . . وأحيانا غربال مسدود يرفض السماح بأى شىء . . وهى قصة طويلة ، ولابد أن تشغل من تاريخ الصحافة فصولا كثيرة ، وضحايا أكثر . .

أما علاقته بوزارة التموين - فالله أعلم - ربما كان الشبه هو أن الصحفيين باعة سريحة . . أو أنه لا فرق بين الطماطم والمقالات . . وبين المناقشات والنداء الصارخ على الخيار والباذنجان . . أو أنه إهانة للصحفيين : فمن يظنون أنفسهم؟! فأى موظف جاهل بالقراءة والكتابة فى استطاعته أن يمسح بهم بلاط صاحبة الجلالة - الصحافة - إن كانت لها جلالة!

ويوم اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر برؤساء تحرير الصحف . ذهبنا وجلسنا نتوارى بعضنا فى بعض كأننا مجموعة من المجرمين . وجريمتنا أننا نرفض الهوان ولكن لا نملك أن ندفعه عنا . ومن الذى يملك أو يجاهر بذلك؟ لقد كان الهمس أعلى درجات الثورة ، وكان الدعاء إلى الله أن تنفتح الأرض وتبتلع السيد الرئيس والذين حوله من زبانية الحكم والثورة . وسألنا الرئيس عبد الناصر إن كنا نضيق بالرقابة فهو على استعداد لأن يرفعها فورا - أى إن كنا لا نحب الرقابة فلنكن نحن الرقباء . نحذف ونترك ما نريد . . أى نروح فى داهية . . وتكون الداهية من اللون والحجم الذى يعجبنا ؛ لأنه لا تعليمات لدينا . . ولا نعرف ماذا يريد أو ماذا لا يريد . وتعالت الأصوات : ربنا يخليك ياريس دع الرقابة والرقيب!

وأسعده أن يرى التوسل فى عيون رؤساء التحرير ، وضايقه أنهم كشفوا المقلب الذى دبره لهم . . فأعاد علينا إن كنا نريد الرقابة أو لا نريدها . وكان الجواب : بل نريدها ونموت فى سبيلها!



وأذكر أن غلاف العدد الأول من مجلة «الجيل» بعد تأميم الصحافة ، كان لفتاة ارتدت «العفريتة» ووقفت أمام إحدى الآلات . الفتاة دميمة ، والملابس قبيحة والألوان تعيسة!

وتضايق الرئيس جمال عبد الناصر من أن يكون هذا هو المجتمع الذى أظهره التأميم والرقابة على الصحف!

وكانت مانشيتات «الأخبار» «وأخبار اليوم» عن الاختراعات الموجودة فى المركز القومى للبحوث : طوب لا يحترق . . وعسل النحل من مصاصة قصب السكر . . والحرير من ألياف شجرة القطن . . والأحجار التى لها خاصية المطاط لرصف الشوارع فلا تكون ضوضاء . . وتحديد النسل عن طريق زيت الخروع . . وورق الصحف من ألياف الأرز ومصاصة القصب وعجين الورق القديم . . استخراج الألماس من صخور الفحم بكميات اقتصادية . . كل يوم عناوين من هذا الشكل .

واندهش الرئيس عبد الناصر ، كيف أن العلماء المصريين قد سكتوا عن الإعلان عن هذه الاختراعات العظيمة . وكيف ارتكبت الصحف «مؤامرة الصمت» على العبقرية المصرية . . إذن لقد كان على حق ؛ لأنه أمم الصحف ، فكشف بذلك الوجه الحقيقى لمصر الذى أخفاه أولاد أمين - مصطفى وعلى - وتلامذتهما . . إذن لم يكن من حق الدولة فقط أن تؤمم الصحف وغيرها من الصناعات الوطنية ، بل كان من الواجب أن تعجل بذلك من اليوم الأول لثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . . والصدفة فقط هى التى جعلتنى أكتشف مصدر هذه الاختراعات . . فقد كان يعمل معى فى مجلة «الجيل» الزميل صلاح درويش . . وهو الذى كان يكتب هذه الخبطات الصحفية كل يوم .

وسألته : من أين لك كل هذا؟

فأشار إلى «مشروعات» أبحاث علماء المركز القومى للبحوث . . مشروعات . . آمال . . أحلام العلماء المصريين . ولكن شيئا من كل ذلك لم يتحقق . إنه مايزال فى مرحلة الخيال العلمى؟!

وتوقفت أساطير العلماء المصريين . .

وتساءل الرئيس جمال عبد الناصر : ما الذى أوقف سيل الاختراعات المصرية؟ وما الذى فعله أولاد أمين؟

لا أعرف ما الذى قيل . فليس فى الإمكان أسوأ مما كان . .

ولكن قيل إنه غضب من جديد . وقال : إنهم فى أخبار اليوم يريدون أن يقولوا إنهم يستطيعون أن يكتشفوا الوجه الحقيقى لمصر والوجه المزيف . . وأنه لا يستطيع أن يفعل لهم شيئًا . .

وفى ذلك الوقت كان الرئيس جمال عبد الناصر يعتز بعبارة مشهورة له وهى : إن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا!

أى أنها اشتراكية جديدة ؛ لا هى روسية ولا هى صينية ولا هى أمريكية ولا هى يوغوسلافية . . وبحثت أنا فى قاموس العلوم السياسية ودائرة معارف العلوم الاجتماعية بحثا عن حرف النون الموجود فى كلمة «اشتراكيتنا» أو فى «نابعة» أو فى «ذاتنا» فلم أجد لهذه الاشتراكية أى وجود . . ولكن مادام الرئيس قد قال إنها نابعة من ذاتنا ، فمن الواجب أن تكون كذلك . . وأن تكون أخبار اليوم إحدى محطات التشويش على الاشتراكية : انظر ماذا نشرت مجلة الجيل وماذا نشرت الأخبار فى صفحاتها الأولى!!

إذن هى نابعة من ذاتنا مثل العرق والسعال وأشياء أخرى ، خرجت منا ويجب أن نيسر لها الخروج إلى الوجود – هذا قرار . وواجب خبراء الماركسية الذين تسلطنوا فى أخبار اليوم أن يشيعوا هذه المعانى فى الشعب – فلا أفلح ولا أفلحوا!

فى هذا الجو المريب الرهيب فى أخبار اليوم عشنا لا نعرف لنا رأسا ولا قدما ولا طريقا ولا هدفا ، ولكن كان لدينا شعور مؤكد أننا وحدنا القادرون على أن نعمل فتبقى صحف أخبار اليوم على قيد الحياة . . أى أننا أصحاب التجربة والخبرة والموهبة . . أما هؤلاء التتار من وزراء ومديرين فمثل كل الغزاة الذين دخلوا مصر ولم يخرجوا . . فكما كانت مصر مقبرة الغزاة فأخبار اليوم أيضا .

دعانى أو استدعانى السيد على إسماعيل الإمبابى ، مدير مكتب الوزير كمال رفعت المشرف على أخبار اليوم . وهذا الاستدعاء حدث مرموق ، يرويه عامل الأسانسير والساعى الواقف أمام مكتبى وأمام مكتبه . وفرصة ليعرف العاملون فى أخبار اليوم نوع اللقاء من النظر إلى وجهى ذهابا وإيابا . . وأكون أو يجب أن أكون ضاحكا ، لأعطى انطباعا أنه لقاء ودى وأن نتائجه مثمرة . وقد ناقشنا الأوضاع بكل تفاصيلها ، وأن نتائج هذا اللقاء سوف تظهر قريبا – كما يقول وزراء الخارجية عادة – ويكون كلامهم لا معنى له ؛ لأنه كليشيه واحد يجىء قبل وبعد أى لقاء من هذا النوع .

– تشرب إيه؟ – سألنى فقلت متبسطا معه :

– ما تشربه أنت .

- لا . . مثلك لابد أن يشرب شيئا خاصا . فليس لقائى بك فى كل يوم . . إذن ما رأيك فى القرفة بالجنزبيل . إنها أحسن شراب للبرد وأنت خائف من البرد . . ولولا أنك وحشتنى ما طلبت أن أراك ، وأنا مزكوم كما ترى . .

إذن هو مزكوم ، وأنا سوف أصبح مزكوما ولكن «الوحشة» والشوق أقوى من أن يقاومه . لهذه الدرجة؟! نعم لهذه الدرجة إنه هو الذى يقول . ولم أرغمه على ذلك ، ولا هو مضطر إلى مجاملتى!

وتكلمنا فى كل شىء . . فى تخلف كل الصحف وتقدم صحف أخبار اليوم . . وفى لعن أجداد المحررين المنافقين الذين ينقلون إليه أخبار السخط والغضب فى صحف أخبار اليوم . . وينقلون إليه ما قاله مصطفى أمين وعلى أمين وغيرهما . . وأصدقاؤنا أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل وعثمان العبد وقاسم فرحات . وما يقوله غيرهم من الساخطين على ما أصاب أخبار اليوم . . وما أقوله أنا من عبارات ساخرة من الوزير والمدير والسكرتير .

وقبل أن أبدى دهشتى أو أناقش أو أعترض يكون كلام السيد على إسماعيل الإمبابى : طبيعى أن تغضب لما أصاب الدار . . ولكننا لسنا بهذا السوء ولا بهذا الجهل . ثم إننا ننفذ الأوامر الصادرة إلينا . لا رأى لنا فى شىء . . افعل هذا . . تمام يا أفندم . . فقط . . فنحن عبد المأمور!

ولم تأت القرفة . .

ودخل محررون كثيرون وسلموا بحرارة عليه وصافحونى أيضا . . وهم يتصورون أننى رجل السلطة . . السلطة السابقة والسلطة الحالية . . قوى فى كل العصور! .

ولم تأت القرفة ، وقد مضت نصف ساعة . . وثلاثة أرباع الساعة . .

ودق الأستاذ الإمبابى الجرس ليقول للساعى : لا مفر . . هات للأستاذ يانسون . . تحب اليانسون باللبن . . أو سادة . . هات يانسون سادة . . بارد حتى لا ترتفع درجة حرارته فإذا خرج أصابه الزكام . . أظن معلوماتى الطبية صحيحة . . أنا تلميذك المخلص . .

وبسرعة جاء اليانسون باردًا!

وشربت اليانسون . وشكرته ومددت يدى أصافحه . فوقف لتحيتى وقبل أن أغادر المكتب الذى كان يجلس إليه مصطفى أمين قال لى : على البيت . .

تخرج من هنا إلى البيت . . فقد صدر قرار بوقفك عن العمل . . ولا أعرف لماذا؟

كان ذلك يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٦١ . .

وقبل أن أخرج إلى الشارع جاء بعض الزملاء يفسرون لى ما لم أكن أعرف :

إنها صورة للرئيس جمال عبد الناصر جاءت فى مقالك وأنت تتحدث عن الطاغية نيرون . .

إنها صورة لحمار جاء فى المقال . . ولا علاقة للحمار وما جاء فى المقال ، ولكن لابد أنك قصدت شيئا يفهمه القارئ . .

ولكن الذى يضع الصور أو الرسومات سكرتير التحرير ولست أنا . . وكان الرد : ولكن لابد أنك رأيت المقال قبل النشر ولاحظت وجود هذه الرسومات التى تهمز وتلمز ووافقت على بقائها . .

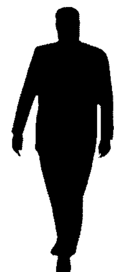
ولكن لماذا لم يحذفها الرقيب؟

ويكون الجواب من الزملاء : ليس أسهل من أن يقول إنهم وضعوا له صورة إوزة أو بطة أو نسر . . ثم وضعوا الحمار بعد ذلك! .

وليس واضحا ما الذى فعلته بعد ذلك مباشرة .

اتصلت بالأستاذ محمد حسنين هيكل فى بيته . . وقلت له ما حدث . وكانت مفاجأة له . . وطلب منى أن ألقاه فى مكتبه بعد ذلك .

ووجدت أن مصطفى أمين وعلى أمين يعرفان ما حدث . ولكن ليست لديهما أسباب واضحة . ولابد أن يكون السبب شيئا كتبته ، أو لا داعى لأن يكون هناك سبب واضح . فقد كنت أقرب إلى مصطفى وعلى أمين من كثير من المحررين . وأن قرار الوقف عن العمل ، جزء من سياسة إبعاد مصطفى أمين وعلى أمين عن أخبار اليوم وهدمها على رأس العاملين فيها .



وبعد ذلك عرفت السبب . فقد كتبت مقالا بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» . . وفى المقال غمز ولمز وإيماءات وإسقاطات واضحة - فقد كانت صورة لأعماقى الغاضبة الساخطة على الذى أصابنا جميعا . وفى الصباح الباكر وضع السيد على صبرى مدير مكتب الرئيس صورة من المقال ومعه هذه العبارة : فى انتظار أوامركم!

وكان الرئيس عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر ، وليس فى حاجة إلى وجع دماغ . ولابد أنه كان سعيدا بهذه الرحلة فى البحر إلى الجزائر . . ولابد أنه كان راضيا عن الصورة التى يراها فى المرآة : مشرق الوجه لامع العينين . . حاد الأنف يضغط على شفتيه فى كبرياء وقرف . . ولابد أن لون الكرافتة «السولكا» - فلم يكن يعرف إلا هذا الصنف من الكارفتات - قد أعجبته . . ولذلك اكتفى سيادته بأن أشار بيده إلى على صبرى . . ومضى ينظر إلى الكرافتة . . ولما لاحظ أن عددا كبيرا من الوزراء والسكرتارية يلبسون السولكا ، فقد مد يده إلى الدولاب واختار كرافتة «أرجانس» - آخر ما عرف الرئيس من أنواع الكرافتات الأمريكية والفرنسية . .

واكتفى السيد على صبرى بترجمة إشارة السيد الرئيس على أنه : بلاش وجع دماغ . . فلم يقل : اسجنه . . أو اعتقله فى الواحات . . أو فى السجن الحربى . . أو سجن المخابرات . .

وفى يوم رأس السنة الميلادية صدر قرار بفصلى مع الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى ورقة واحدة ولأسباب مختلفة . .

وفى ليلة رأس السنة ذهبت إلى بيت على أمين ، بإلحاح شديد منه . . ومن زوجته الزميلة خيرية خيرى . وكان من رأى على أمين : ولا يهمك . . فغدا يوم آخر . . وكل هذه أشياء سوف تنتهى . . ويجب أن أفرح بالمشاكل والمصائب ؛ لأننى سوف أكتب عن ذلك . . فالرئيس عبد الناصر يستحق الشكر ؛ لأنه اختار لى موضوعات لكتب سوف أنشرها بعد ذلك . . وسوف يذهب ونبقى نحن . . صدقنى!

وقد قابلنى على أمين بحرارة وعناق وقبلات كأن شيئا لم يحدث . ولم أكن أصدق الذى أراه . فهو يريد رفع معنوياتى ومعنوياته هو أيضا . ولا أعرف كيف مضت تلك الليلة السوداء فى بيت على أمين فى عمارة «ليبون» بالزمالك . .

ولم تكن سوداء . . ولكن بسرعة غريبة حل سواد الليلة عندما وجدت الأستاذ حسن جلال العروسى وكان مديرًا لمكتب مؤسسة فرانكلين الأمريكية للنشر . وهو رجل لطيف ظريف مجامل . وقد نشرت فى هذه المؤسسة عددًا من الكتب . . أحدها بالاشتراك مع أستاذنا د . طه حسين «عن الأدب الأمريكى» وكان من

نصيبى أن أكتب عن المسرح الأمريكى . . وفى ذلك الوقت كلفنى طه حسين بأن أترجم إحدى مسرحيات شكسبير . . كما أننى ترجمت عددا من المسرحيات الأمريكية وقدمت لها أيضا : مسرحيات زوجة كريج . . ونفدنا بجلدنا . . وذات الرداء الفضى . . وترجمت عددا من القصص القصيرة بعنوان : هذه الصغيرة وقصص أخرى . . وكنت أعمل فى نفس الوقت فى ترجمة ثلاثة كتب عن الفلسفة المعاصرة .

والصلة بيننا قوية . . وكان نائبه وأخو زوجته الأستاذ رياض أباظة ، من أعز أصدقائى . . إذن هى صلة قوية متينة .

وفى تلك الليلة والكأس فى يده وجدته سحب يده قبل أن يصافحنى قائلا : لا تؤاخذنى لا أستطيع أن أتعامل معك . . أنت تعرف . . وأنا رجل أعمال . . مدير مؤسسة أمريكية ولا أريد مشاكل مع الحكومة . . فأرجو إنهاء كل ما بيننا . . . . إلخ .

ولم يعرف على أمين ما حدث . .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى محل «البن البرازيلى» وقد اعتدت أن أتردد عليه مرتين وثلاثا كل يوم . . أشرب القهوة باللبن وأمسح حذائى ، وأقف أمامه مع أصدقاء كثيرين : عبد الحميد الحديدى الذى صار رئيسا للإذاعة . وموريس جندى مدير وكالة الصحافة المتحدة والأديب فتحى أبو الفضل والمنتج السينمائى عدلى المولد وعدلى يواقيم صاحب سينما الجزيرة وأميل لبيب من رجال الأعمال وكان وقتها يعمل فى السفارة البريطانية وحسين شوقى ابن أمير الشعراء أحمد شوقى وكمال الملاخ .

وقد كتبت عن محل «البن البرازيلى» هذا مئات المرات . ولو جمعت الذى كتبته عن هذا المحل ، وكيف كنا وماذا قلنا وكيف تولدت الأفكار فى بخار البن ، لكان كتابا فى ألف صفحة . وسوف أفعل . .

وكانت المفاجأة الثانية ؛ قال لى الأستاذ الحديدى : لا أستطيع الآن أن أذيع لك شيئا . لا مقالا ولا قصصا . . اعذرنى!

واندهشت . فلم أكن أتعامل كثيرا مع الإذاعة ولا كنت أتهجم على الميكروفون وأرغم الإذاعة على الاستماع إلى قصصى ومقالاتى . لا شىء

من ذلك . ولم أفلح فى أن أفهم ما الذى دفع صديقى الحديدى إلى اتخاذ هذا الموقف تطوعا منه . . إنه - إذن - الخوف . . ولابد أنه سوف يخاف أن نقف معا أمام البن البرازيلى . . أو يخاف إن رآه أحد معى . . إننى مختلف مع رئيس الجمهورية وليس مع وزير من الوزراء . . إذن أنا ضد الدولة ، وكل من له صلة بى سوف يوصم بهذه التهمة!

ووجدت نفسى مشكلة لعلى أمين أو تلميذا صغيرا فى مدرسة أنشأها خصيصا لى . وفى اليوم الأول قال لى : ولا يهمك!

كيف؟ لا أعرف!

وقال : فى استطاعتك أن تشغل نفسك بأن تتعلم شيئاً جديداً .

ونهضت زوجته السيدة خيرية خيرى ، وقدمت لى «آلة كاتبة» لكى أتعلم الكتابة .

ولاحظت أن أناسا - لم أكن أعرفهم طويلاً - يفضلون مقابلتى فى الشارع أو فى البن البرازيلى أو النادى الثقافى بجاردن سيتى ، يطلبون أن نلتقى وأن نتغذى أو نتعشى معا . . ثم يعرضون أن أشترك معهم فى الترجمة أو فى أعمال إدارية ، ولم يكن من الصعب أن أعرف أن على أمين هو الذى بعث بهم . .

ولم أكن قادرا ، بهذه السهولة ، على أن أتغلب على المشاعر الغريبة التى أصابتنى . . والتى شلت تفكيرى وإرادتى . . فالموقف جديد على عقلى وعلى نفسى وعلى علاقاتى بالناس . . ولم أتهيأ لذلك . . ولست قادرا أن أواجه كل هذه المشاعر الجديدة ببساطة على أمين ، أو عناد مصطفى أمين أو حكمة محمد حسنين هيكل ، ولم ألاحظ قط أن مصطفى أمين قد شكا وبكى . . ولكن لديه شعور غريب بأنه قوى وأنه سوف يبقى ، وأنه يستمد قوته من داخله ، لا أعرف كيف أن لديه هذه الموارد الهائلة من القوة والإصرار والاستمرار . .

وفى كل ليلة أذهب إلى بيت مصطفى أمين . . والليل طويل . . وكان مصطفى أمين أعلى الناس ضحكا ومرحا - لا أعرف كيف ، أما الذين يترددون كل ليلة يلعبون الكوتشينة «الكومى» فهم عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وكامل الشناوى وعبد الوهاب وفاتن حمامة وغيرهم كثيرون . . كل ليلة نسهر ونتحدث ونضحك .

فإذا طلع النهار كان طويلا مملا . . فى الصباح أذهب للبن البرازيلى متأخرا حتى لا ألقى الأصدقاء ، فلا أحرجهم . . وعند الظهيرة أذهب إلى «النادى الثقافى» فى جاردن سيتى أتناول غذائى مع زملاء آخرين ينقلون آخر فرمانات الوزير كمال رفعت ومدير مكتبه الإمبابى والصول أحمد زكى . . وماذا يقول المحررون وكيف أن بعضهم يلعن مصطفى أمين وعلى أمين ويلعن اليوم الذى دخل فيه أخبار اليوم .

وأسأل : فلان؟

- نعم فلان .

- فلان؟!!

- نعم ياأخى فلان!

- هذا الصعلوك الذى كان يمسح حذاء مصطفى أمين وعلى أمين وحذائى أنا أيضا . . هذا . .

- نعم . . لا تصدق؟! ما رأيك فى علان؟

- علان؟!

- نعم علان ياأخى!

- ياخبر أسود . . لقد دخل أخبار اليوم بجزمة واحدة وبنطلون من عندى وقميص من عند موسى صبرى وكرافتة من عند أحمد رجب . هذا؟

- يقول : إننا كلفناه بأن يتجسس لنا على الوزير كمال رفعت . . ودفعنا له خمسين جنيها . . وخصصنا له سيارة ليتابع تحركات الوزير . . هلوسة . . تخريف . .

قال ذلك فى محضر رسمى؟ وفلانة؟

- هذا القرد العجوز؟!

- نعم .

- ولماذا؟ ما الذى يضطرها أن تقول ذلك . . إنها لا تقدم ولا تؤخر ولن يتحسن وضعها . . لماذا؟

- هل قرأت ما جاء فى «يوميات الأخبار» اليوم؟

- لا . .

- اقرأ . .



- أقرأ ماذا؟

- اقرأ الشتيمة فى الأخوين مصطفى أمين وعلى أمين . .

- شتيمة فى «الأخبار» بقلم أحد محررى الأخبار؟ لماذا؟

- يا أخى اقرأ . . وعليك أن تفكر لماذا؟ أنت لا تريد أن تقرأ ولا أن تفكر . . اقرأ لكى تعرف كيف تفجرت السفالة المدخرة لمثل هذه الظروف . . اقرأ لكى تزداد كفرا بالقراءة والكتابة والناس .!

وفى يوم وأنا أقف أمام «البن البرازيلى» جاءنى صديق يونانى صاحب مكتبة وصافحنى بحرارة . وسألته بسرعة : إن كان يعرف على أمين .

- لا . . لماذا؟

- مجرد سؤال . .

فقد ظننت أن على أمين قد بعث به ليخفف عنى هول الصدمة . أو يعرض على أن أتردد على المكتبة لكى أضيع وقتى . .

واعتدت أن أذهب إلى مكتبة فى شارع عماد الدين . وفى يوم فوجئت بوالدته تقول لى : ولماذا لا تسافر إلى اليونان فى الصيف؟

ونظرت إليها لأفهم إن كانت تعرف ماذا جرى . . واكتشفت أنها لا تعرف . فأخبرتها . وبدا عليها الحزن الشديد . .

وبعد أيام وجدتها ، وكأنها فكرت فى هذا الموضوع طويلا . . وقالت : إذن تهرب من هذا البلد . ممكن . .

ولم أكن قد فكرت فى الهرب . . أو الخروج . . ولا أن هذا هو الحل الوحيد . . ولا أن هذه المحنة لن تمر . .

وفى مكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام بالمبنى القديم للأهرام بشارع مظلوم قال لى : أنت أحسن ناقد أدبى فى مصر . . لماذا لا تعمل مستشارا فى دار المعارف . . بدلا من الأستاذ عادل الغضبان؟ .

وكانت مفاجأة . . وكان محمد حسنين هيكل رقيقًا لايكف عن الضحك . تهوينا لما حدث . . وفى نفس الوقت مشيرا إلى أن هذه الأزمة سوف تنتهى لا محالة . ولكن ليس الآن . .

ثم اشترط أن أتفرغ لدار المعارف وأن أترك العمل فى «أخبار اليوم» . واعتذرت . .

إذن لابد من ترك أخبار اليوم ، أو ترك مصر كلها . . أو أن أبقى كما أنا فى حيرة ودوخة وفى حوار دائم مع نفسى . . وعجز عن التكيف مع سهرات مصطفى أمين ودروس على أمين . . غير قادر على ذلك ، ولا أظن أننى سوف أستمر على حالى سعيدا فى الليل ، تعيسا فى النهار . . هاربا من الناس ، ومن الأصدقاء أكثر ، حتى لا أكون سببا فى أية متاعب لهم!!

وفى إحدى المرات شكوت للأستاذ محمد حسنين هيكل عن الظروف النفسية التى أمر بها . . يجوز هذا الحادث ليس كبيرا ، وأنه أهون جدا من السجن أو التعذيب . . ولكنى أشعر أنه أقسى من ذلك . . ثم رويت له كيف أننى أهرب من الأصدقاء . . وكيف أن بعضهم قد بادرنى بذلك . . وأقنعنى إلى ضرورة أن أبعد . . حتى لا تكون صداقتى كارثة عليهم . . وحكيت له ما دار بينى وبين عبد الحميد الحديدى وحسن جلال العروسى وآخرين من الزملاء . .

وأذكر أنه قال لى حكمة تعلقت طويلا فى رأسى : من مثل هذه الظروف لا يصح أن تمتحن أصدقاءك ، سوف يرسبون جميعا ، وعندما تزول هذه الغمة ، وتبحث عن الأصدقاء فلن تجد منهم واحدا!

أعجبتنى . ولكن وجدت أن يديه فى الماء الدافئ ، وأنا أموت من البرد والشك والقلق والفزع . . والقرف - من النوع الوجودى الذى كنت أدرسه للطلبة فى الجامعة وأنا لا أعرف مذاقه تماما .

وكما انتهى عملى فى الصحافة ، انتهى فى نفس الوقت فى الجامعة . لماذا؟ لا أعرف!



الخواجة لامبو
وحمار الشيخ عبد السلام

كتب توفيق الحكيم فى مقدمة مسرحيته الرائعة «السلطان الحائر» :

كتبت هذه المسرحية فى خريف ١٩٥٩ عندما كنت فى باريس ، أقضى فترة أشهد فيها ما يجرى فى عالم اليوم . ووحى هذه المسرحية ذلك السؤال الذى يقف عالمنا اليوم أمامه حائرا : هل حل مشكلات العالم هو فى الاحتكام إلى السيف أو إلى القانون؟ فى الالتجاء إلى القوة أو إلى المبدأ؟ إن أصحاب السلطان - ممن يملكون تقرير مصير البشر - يقفون الآن وفى يمناهم القنبلة الذرية وفى يسراهم القانون . . فى جانب القواعد الصاروخية ، وفى الجانب الآخر هيئة الأمم . . وهم حائرون خائفون لا يدرون ، أو هم لا يجرءون على اتخاذ القرار الحاسم : أيهما يطرحون وأيهما يستبقون؟ أيهما يحتاج إلى شجاعة أكبر وأيهما يعرضهم إلى خطورة أفدح؟ إن هذا الموقف الحائر الخائف من مسئولية الاختيار النهائى بين السيف والقانون ، قد جر العالم كله معه ، إلى هذه الحيرة الشاملة والاضطراب العام . . وقد وضعت هذه المسرحية فى إطار شرقى قديم . وقد نشرت هذه المسرحية بالفرنسية فى باريس بعنوان : «اخترت» .

***

وهذه المسرحية من أجمل وأعمق مسرحيات توفيق الحكيم . لأنها كذلك . . لا لأنها كانت سببا فى تشريدى جسميا عاما ونصف عام ، ونفسيا سنوات بعد ذلك . . فأنا لا أبالغ فى قيمتها وأهميتها لكى أرضى غرورى فتكون المسرحية

«الكارثة» شيئا جليلا ، لا شيئا عاديا . . كما أن الذى كان سببا فى «أزمتى» هو الرئيس عبد الناصر وليس شخصا تافها أو وزيرا مجهولا . . أو هو الوزير الذى كان على رأس أخبار اليوم أو مدير مكتبه الذى ليس شيئا ، أو الصول الواقف على بابه وعلى رقابنا . .

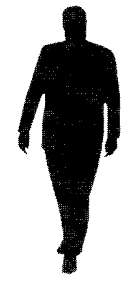
وتصادف أن تحدثت عن هذه المسرحية مع الصديق د . لطفى عبد البديع الذى كان زميلى فى صحيفة الأهرام فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ . . فقال لى إن لها أصلا فى تاريخ مصر . . فقد حدث فعلا أن أحد العلماء قد اكتشف أن مماليك مصر عبيد ، ولذلك لا يحق لهم أن يحكموا الأحرار . . ولابد من بيعهم فى السوق ، وأن يعتقهم من يشتريهم . . وهو حدث فريد فى التاريخ .

***

ووجدت فى كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لمحمد بن أحمد ابن إياس الحنفى . . وباللغة العربية الركيكة قصة قاضى القضاة وسلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام .

«إنه تصدى لبيع أمراء الدولة . فلم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأنهم تحت الرق ، ولا يجوز لهم التصرف فى المملكة . فلما بلغ الأمراء ذلك حنقوا عليه . فركب نائب السلطنة حصانه ، وبيده سيف مسلول . وجاء إلى بيت القاضى ، فلما دق الباب ، خرج إليه ولد العز بن عبد السلام ، فرأى نائب السلطنة واقفا على الباب وبيده سيف مسلول ورجع إلى والده العز بن عبد السلام وأعلمه بذلك . فقال الشيخ : ياولدى أنا أقل من أن أقتل فى سبيل الله .

«ثم ، إن العز بن عبد السلام خرج إليه فلما وقع بصره على نائب السلطنة ، سقط السيف من يده وأرعدت مفاصلة فنزل عن فرسه وقبل يد الشيخ . وقال له : ادع لى .



فقال العز بن عبد السلام : لن أرجع حتى أبيعكم فى السوق .

فقال نائب السلطنة : ومن يقبض ثمننا إذا بعتنا؟

قال : أنا .

قال : وما تصنع به؟

قال : أصرفه فى مصالح المسلمين .

فما رجع العز بن عبد السلام حتى جمع الأمراء كلهم ونادى عليهم فى السوق . فوكلوا جماعة فى مشتراهم . وباعهم بأغلى الأثمان وقبض ثمنهم ، وصرفه فى مصالح المسلمين . ثم إن القاضى العز بن عبد السلام عزل نفسه عقب ذلك . فتلطف به السلطان فى عودته إلى القضاء فلم يوافق» .

ويقول ابن إياس أيضا فى صفات سلطان العلماء العز بن عبد السلام : إنه أفتى بشىء ، ثم ظهر له أنه أخطأ فيما أفتى به ، فنادى فى القاهرة : من أفتى له ابن عبدالسلام بكذا ، فلا يعمل به ، فإنه قد أخطأ فى ذلك .

وتوفيق الحكيم فى مسرحيته «السلطان الحائر» لم يذكر اسم السلطان الذى هو الملك الصالح أيوب ، ولا ذكر اسم القاضى الذى هو العز بن عبد السلام ، ولا أن هذا قد حدث فى القاهرة سنة ١٢٣٨ . . وجعل السلطان نفسه عبدا لابد من بيعه فى مزاد علنى ، ولذلك لم يجد توفيق الحكيم نفسه فى حاجة إلى أن يذكر أية أسماء . . وإنما اكتفى بفلسفة الموقف وهو الصراع الدموى التاريخى بين القوة والقانون .

ووجدت الأديب الشاعر المؤرخ اللغوى الكبير مصطفى صادق الرافعى قد تناول هذه (الحادثة العجيبة) فى كتابه «وحى القلم» الجزء الثالث ، قال : «وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك ، ويجب شرعًا بيعهم كما يباع الرقيق . وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم الخطب عليهم . ثم احتدم الأمراء وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام . وأفتى الشيخ أنه لايصح لهم بيع ولاشراء ولازواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لايصح لهم شىء من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى! ورفعوا الأمر إلى السلطان . فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه . واستشنع السلطان فعله ، وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه .

«فغضب الشيخ ولم يبال بالسلطان . وأزمع الهجرة من مصر . فاشترى حميرا وأركب أهله وولده ومشى هو خلفهم يريد الخروج الى الشام . ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى . وصار منهم العلماء والصلحاء والتجار . . كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به . . فقيل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك!

«فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة . وقد أيقن السلطان أن ابن عبد السلام ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه . ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء ينادى عليهم للمساومة فى بيعهم ، وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد علمه كل الناس ، ليتهيأ من يتهيأ لشراء هذا الرقيق الغالى .

«وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة ، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه ، فلم يعبأ الشيخ به ، فهاج نائب السلطنة : كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا ، وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا بين الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض؟

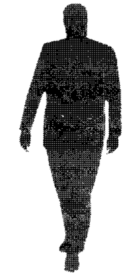
«ثم ركب النائب فى عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى مارأى ، فانقلب إلى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف وإنه وإنه . . . . .

«فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له : ياولدى . . أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله . .

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت . ونظر إلى نائب السلطنة وفى يده السيف ، فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها . وأخذ نائب السلطنة يبكى ويسأل الشيخ أن يدعو له . ثم قال : ياسيدى ما تصنع بنا؟

قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم .

- وفيم تصرف ثمننا؟
- فى مصالح المسلمين .
- ومن يقبضه؟
- أنا .



«وكأن الشرع هو الذى يقول بلسان الشيخ عبد السلام . . وتم للشيخ ما أراد . ونادى على الأمراء واحدًا واحداً . واشتط فى ثمنهم . لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ . وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يساومون ليشتروه .

«ودفع الظلم والطغيان والتكبر على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع : أمراء للبيع . . أمراء للبيع » .

***

هذه هى المادة الأولية . . هذا هو القماش الذى صنع منه توفيق الحكيم ملابس أنيقة للسلطان والقاضى والعبيد والمومس التى رسا عليها المزاد فاشترت السلطان وفى هذه المسرحية كل براعة وذكاء وخفة دم توفيق الحكيم وقرفه من السلطان ويأسه من أن يتحقق العدل بين الناس . . ففى استطاعة أية امرأة ذكية أو رجل أن يمسح بالسلطنة والعدل أرض النفاق . . أما المؤرخ الساذج ابن إياس فقد سجل الحدث ، دون أن يلتفت إلى معانيه العميقة . . وإنما أورده وتركه ليبحث عن نكت أخرى فى تاريخ سلطان العلماء .

أما مصطفى صادق الرافعى فقد أدرك الحدث وأحس بالمعنى . ولكنه لم يذهب إلى أبعد من بلاغة الحوار وإلى شجاعة سلطان العلماء ابن عبد السلام الذى هو صورة للقانون والشرع ، وكيف أنه بايمانه وشجاعته استطاع أن يهز السيف وأن يسقطه . . فلا خوف من السلطان وإنما الخوف من الله .

هذه هى العناصر التى أبدع منها توفيق الحكيم أجمل مسرحياته وأعمقها وأكثرها طموحا . قرأتها وأعجبت بها . وأعدت قراءتها . تركت المسرحية كثيرا لكى أصفق للمؤلف العظيم الذى يلعب بالفلسفة والدين والسلطة - بالملك وقاضى القضاة والمؤذن والجلاد والغانية التى هى أقوى وأعمق وأمتع شخصيات المسرحية . . والتى رسا عليها المزاد فاشترت السلطان وأعتقته عند أذان الفجر!

***

وعندما أعود إلى تلك الأيام ، وأسترجع ما الذى بهرنى فى هذه المسرحية ، ولماذا سارعت بالكتابة عنها أجدنى كنت سعيدا أننى عندما قرأتها وكتبت عنها . . وأننى اهتديت إلى الأسماء الحقيقية لأبطال المسرحية . أما المعنى الذى أراده الحكيم فهو الذى التقطته بسرعة .

إنه كان يريد أن يقول إنه السلطان - سلطان زماننا - حائر فأنا أردت أن أقول بل هو جائر - بالجيم وليس بالحاء .

وإن كان يريد أن يقول إنه لا أمل مع هذا السلطان ، فقد كان اهتمامى عظيما بأن قاضى القضاة قد كفر بمصر وبالسلطان وبالقانون وبأنه خرج من مصر هو وزوجته وأولاده .

وفى الأصل التاريخى أنه لم يخرج ، وإنما قبل أن يخرج استرضاه السلطان وأعاده إلى عرش القضاء . . لكنى عندما كتبت عن العز بن عبد السلام ، اخترت لمقالى «حوارا» طويلا بين ابن عبد السلام وبين أحد المماليك وبين ابنه أيضا .

وانتهى الحوار فى مقالى بهذه العبارة :

لقد وقف العز بن عبد السلام على حدود مصر . . هو بالنيابة عن العلماء ، والحمار بالنيابة عن الشعب!

ولا أظن أن الغضب على المقال كان بسبب إهانة العلماء فقد ضرب السنهورى بالجزمة . . ولا بوصف شعب مصر بأنهم من الحمير . . ولكن أن يكون هو رئيسا لدولة من الحمير . وهو الذى قال إن الشعب هو المعلم . . وإنه تعلم كثيرا من الشعب الذى كان يضربه فلا يقول آه ، ويسحقه فلا يفتح فمه .

ولكن لابد أن يكون لدى الرئيس عبد الناصر طموح أدبى أيضا . . . فإنه لم يفلح فى إكمال رواية كتبها ، وأجريت مسابقات لمن يكملها من بعده . فهو صاحب رواية ناقصة .

وفى الموسيقى سيمفونية ناقصة .

وفى النحت تمثال فينوس الناقص أيضا .

وفى كتابه فلسفة الثورة تحدث عن «رواية» اسمها «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للأديب الإيطالى بيراندللو . وأنه وصف نفسه وزملاءه من الضباط الأحرار كشخصيات تبحث عن مؤلف يصنع لها أفكارها وحوارها يدفعها إلى مسرح الأحداث - وترجمت فلسفة الثورة إلى كل اللغات وفيها هذه الغلطة الفنية الشنيعة . «فست شخصيات تبحث عن مؤلف» ليست رواية وإنما هى مسرحية .

والمرة الثالثة التى دخل فيها تاريخ الأدب ، أنه أبدى إعجابه برواية توفيق الحكيم التى اسمها «عودة الروح» . وقال إنه تعلم منها كما تعلم من الشعب . فالرئيس عبد الناصر له أستاذان : الحكيم والشعب .

ثم وهذه المرة أيضا عندما فصل كاتبا بسبب تعليق له على إحدى مسرحيات توفيق الحكيم .

وعندما ذهب المرحوم يوسف السباعى يعرض على الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٦٣ أسماء الفائزين بجوائز الدولة ، قبل أن يوزعها الرئيس علينا سأله :

وهل أنيس منصور هذا هو الكاتب الشيوعى؟

فأجاب السباعى : سيادتك تقصد عبد العظيم أنيس .

وضحك يوسف السباعى قائلا : أنيس منصور ده الذى وقع من فوق حمار الشيخ عبد السلام!

ويوم حصلت على جائزة الدولة ، كنا فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . ونودى على اسمى : أنيس محمد منصور . . وكان يجلس بين الوزراء صديقى د . قدرى طوقان وزير خارجية الأردن ، وقد دعته مصر لتمنحه جائزة الدولة التقديرية امتنانا لخدماته القومية وسعيه المتواصل لإصلاح ما بين مصر والأردن ، وعندما مررت أمامه لكى أتسلم الجائزة من الرئيس عبد الناصر قال الدكتور قدرى طوقان بصوت مرتفع أضحك الوزراء : أنيس منصور يخرب بيتك أنت مسلم؟!

وكان د . قدرى طوقان صديقا حميما . ولم يدر بيننا حوار عن دين أحد من الناس . وربما أحس بأننى من دين آخر عندما التقينا فى سنة ١٩٥٥ بالقدس . وطلبت إليه أن أرى حائط المبكى وطريق الآلام وحديقة الجسمانية وكنيستى المهد والقيامة ودير السلطان وغيرها . . ولم يكن هناك أى مبرر لأن يسألنى عن دينى أو أن أسأله .

وعندما عدت إلى مكانى من القاعة سألنى زميلى وصديقى رفعت المحجوب الذى فاز بجائزة أيضا . فرويت له ما أضحكه .

وسألنى الصديق الأديب أمين يوسف غراب وكان جالسا أمامى . ثم قال : أريد أن أطلب الكلمة لأصحح هذه الواقعة وأقول إنك من الإخوان المسلمين . . وإنه ليس صحيحا أنك تركتهم!

وفى أول وآخر اجتماع للرئيس السادات بمحررى مجلة أكتوبر فى ميت أبو الكوم رويت حكاية حمار الشيخ عبد السلام . . وأن الرئيس السادات قال لى يوما : إن المقال الذى كتبته تستحق عليه الشنق!

فقلت فى هذا الاجتماع : سيدى الرئيس إنك تحيرنى . . فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى ، وأنت الذى لا تفصل الناس تطالب بشنقى!

ثم قابلت الأستاذ الحكيم . وهو رجل لطيف ظريف . لم يخف ضيقه وسعادته أيضا . ضيقه من السلطان . وسعادته بأن يكون هذا هو رد فعل لمسرحيته . ولابد أن الحكيم كان يفضل أن يكون رد الفعل أعنف من ذلك كأن يشنقنى الحاكم . أو يصادر المسرحية ويخرب بيت الناشر ويعدم الحكيم كما أعدم سيد قطب الذى لم تشفع له شيخوخته ولا مرضه ولا تفقهه فى الدين .

قلت للأستاذ الحكيم : ما رأيك؟

قال : ومن له رأى؟

قلت : أنت .

قال : رأيى قلته . وأنت ضحية هذا الرأى!

قلت : سعيد؟

قال : أبدا .

قلت : لعلى أردت لا شعوريا - أن أسعدك ياأستاذ .

وذكرت للأستاذ الحكيم قصة الرسام الإغريقى الشهير زويكسس . . فقد رسم لوحة لعنقود من العنب وهبطت العصافير على اللوحة تنقر حبات العنب . وكانت هذه أعظم تحية للفنان . . فقد رسم زويكسس العنب وجعله مطابقا تماما للعنب الحقيقى حتى انخدعت العصافير!

ولكن الفنان ظل يبكى حتى مات؟!

أما الذى أحزن الفنان على نفسه فهو أن باللوحة رجلا بيده عصا لتخويف العصافير . ولكن العصافير لم تخف منه . إذن فصورة هذا الرجل لم تكن قوية لدرجة إقناع العصافير . . إذن فالرسام قد نجح فى رسم العنب ، وفشل فى رسم الرجل الذى يخيف العصافير!

ولكن الحكيم لم يحزن حتى الموت . . وإنما لديه مدخرات من الأمل فى النجاة . . وبعد هذه المسرحية تلخصت فلسفة الحكيم فى عبارة واحدة : إنه ينظر وراءنا فى غضب ، وأمامنا فى يأس - ولا يزال!

***

ونشرت مجلة أدبية لبنانية مقالا بعنوان الحمار والكلب ونيرون وأنيس منصور بقلم د . محيى الدين بلدى . . خلاصة المقال أننى كتبت تعليقا على مسرحية السلطان الحائر لتوفيق الحكيم . ووضعت صورة لكلب وحمار فى المقال . ولم يكن هناك معنى للكلب أو ذكر له . . كما أن الحمار الذى ورد ذكره فى المقال لا يحتاج إلى نشر صورة (بالألوان) له . . ولا معنى للكلام عن الطاغية الرومانى نيرون . . ولكن الكاتب أراد أن يهمز ويلمز (يقصد أنيس منصور) . . فحدث له ما حدث للأدباء والشعراء على أيام نيرون الذى أحرق الجميع ومعهم مدينة روما . . ثم راح سعيدا بكل ذلك!

ولما سئل السيد كمال رفعت الوزير المشرف على صحف أخبار اليوم قال : إنه ليس الذى كتبه فقط ، ولكن الذى يقوله ضد السيد الرئيس!

وفى يوم دق جرس التليفون فى «النادى الثقافى» الذى كنت أتردد أو أنزوى فيه وكان المتحدث صوتا أجش يقول : أنا طه حسين .

وذهبت إليه فورا وكان يقيم فى فيلا «رامتان» بالهرم . وكان الشتاء باردا . وبيت طه حسين كان دافئا . كل شىء فيه ذراعان ناعمتان حانيتان . . وعندما جلست وحدى تمنيت أن أنام . . فالهواء أحضان ، والكتب حولى مخدات وبطاطين . إنه الأمان . . رغم أننى لا أعرف ما الذى سوف يقوله طه حسين . . ولكن صوته الهادىء القاطع وقوله : تعالى فورا ياسيدى!

لم يكن أمرا ولكنه كالأمر . . وأى أمر هذا الذى يبدأ بكلمة تعالى وينتهى بكلمة ياسيدى . . ولكنه أدب الأستاذ العظيم وقلق الأب الكبير .

وظللت وحدى جالسا فى مكتب كأنما أراد طه حسين أن أستشعر الهدوء والأمان . ودارت رأسى تطالع الكتب على الجدران . وكان مكتب طه حسين صغيرا . وبه مقاعد قليلة . وقد اخترت مقعدا بعيدا عن الباب . وجاء سكرتيره الأستاذ فريد شحاتة يقول لى : الدكتور يبحث عنك منذ الأمس . . هل لك أخت فى دمياط؟

- لا . . . .

- هل لك أخ فى التأمينات؟

- لا . . . .

- غريبة . . لقد قيل للدكتور إنه لابد أنك خارج القاهرة . ولكن يوسف السباعى هو الذى أعطاه رقم النادى الثقافى وقال إنه كان يتغدى معك هناك . . وقد ضحك الدكتور كثيرا عندما أخبره يوسف السباعى بالمقلب!!

قلت : أى مقلب؟!

وكنت قد دعوت يوسف السباعى إلى الغداء . فقد تلقيت مكالمة تليفونية من فتاة تسكن فى العمارة المواجهة للنادى الثقافى وطلبت منى خدمة إنسانية : أن ترى يوسف السباعى لأنها معجبة به جدا . ولم تره فى حياتها . وأنها تحتفظ برواياته تحت مخدتها . . وأنها . . وأنه .

ودعوت يوسف السباعى إلى غداء غير عادى . طلبت من الخواجة لامبو مدير النادى الثقافى - هو يونانى قبرصى أن يطبخ لنا ملوخية وفتة . واستنكر الرجل هذا الطعام البلدى . ولكن أمام إصرارى ، أعد الملوخية والفتة والطرشى . وقدمت له يوسف السباعى على أنه رجل «أكيل» . وأنه يشرب الملوخية ويلتهم الفتة ومعها زجاجات الكوكا . . وفى البلكونة جلس يوسف السباعى أمام أطباق كثيرة مليئة بالملوخية والفتة . . وقبل أن يفرغ من الطعام جاءنى لامبو يقول : تليفون .

وكانت الفتاة المعجبة بيوسف السباعى تقول : أعوذ بالله . . معقول الرجل الذى يكتب مثل هذا الكلام الرقيق ، وحش بشرى . . لن أقرأ له بعد اليوم!!

ورواها يوسف السباعى لعميد الأدب . . فأضحكه كثيرا .

وسمعت طه حسين يضحك قبل أن يقدم لى زوجته السيدة سوزان .

قال : ياسيدى أين أنت . . إننى أبحث عنك منذ أيام . . أما تزال بعيد المنال؟

ثم كانت ضحكته الساخرة .

وقال : ياسيدى العن من شئت من الناس . . ولكن لا تلعن نفسك . . إياك والقسوة على نفسك!

ولم أكن فى حاجة إلى ما قاله طه حسين بعد ذلك من أمثلة فى التاريخ القديم والحديث عن ظلم السلطان والقرارات المتعجلة التى يتخذها دون أن يعرف ماذا كتب الأدباء أو قال الناس .

قال طه حسين : وكنت أفضل لو أنه استدعاك وقال لك إنك تستحق العقاب . . ثم وضعك فى السجن . . لو رآك . . لو استمع إليك . . لو هاجمك لو دافعت عن نفسك . . لو احترم إنسانيتك . . ولكنى سمعت أنه قال : هذا الـــ . . الشىء . . أو هذا الأنيس منصور . . خذوه فغلوه . . ثم الجحيم صلوه . . ثم فى سلسلة طولها سبعون ذراعا فاربطوه . . ولكنه السلطان إنه أسوأ من سلطان توفيق الحكيم . . ويبدو أن صديقنا الحكيم قد احتاط لكل شىء . . فجعل سلطانه ضعيفا . . وبدلا من أن يشد السلطان ويجعله ظالما فيكرهه الناس ، جعله حائرا فيعطف عليه الناس . . لقد كان الحكيم أخبث منك ياسيدى فأوقعوك فى مصيدته . . وكنت الضحية أما هو فهرب فى سرحانه التقليدى يتظاهر بأنه لايدرى بما حدث فى المسرحية أو بما حدث لك . . هاها . . هاها . . هاها . .

وصافحت طه حسين وخرجت . ولحق بى فريد شحاتة يقول لى : إن الدكتور لم يستطع أن يسألك إن كنت فى حاجة إلى عمل . . فإن كنت فى حاجة إلى عمل فعنده اقتراحات كثيرة .

وكانت الدموع أبلغ من كل كلام لم أقله . . ولم أطاوع سكرتير طه حسين فأتوقف لأتفاهم أو أناقش . . ولم أجب عن سؤال آخر . . الدكتور يريد أن تطلبه غدا ضرورى . ولم أفعل!

وكأننى أردت أن أحشد رأيا عاما ضد عبد الناصر . . فلقيت عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء . لم يكن عندى هدف . ولكن تركتهم هم الذين يقولون ويتوقعون ويفزعون ويلعنون كثيرا .

تحدثت إلى الأستاذ العقاد فى التليفون وقلت : أريد أن أراك غداً ظهراً .

ومضت لحظات قبل أن يرد الأستاذ العقاد . . لعله أراد أن يستوعب هذا الذى سمع فأنا الذى حددت اللقاء غدا وظهرا دون أن أسأل الأستاذ إن كان هذا ممكنا . ولابد أن الأستاذ قد استرجع ماحدث لى ، فوافق . وانتهت المكالمة دون أن أضيف أو يضيف هو كلمة أخرى .

قلت له : ما رأيك ياأستاذ؟

قال : يامولانا ليس غريبا . . أن يفعل ماهو أكثر من ذلك . . إنه لا يأتى بجديد فى تاريخ الطغاة .

ووجدت الأستاذ العقاد مشغولا عنى ، بتأكيد وجهة نظره هو فى الحاكم الفرد . . والكراهية العميقة عند الحاكم لكل الأدباء والمفكرين ، إلا إذا انحنوا له . .

فلم تكن حكايتى إلا «مناسبة» تاريخية أو نموذجا لما يعرفه الأستاذ معرفة مؤكدة . فقد أضافنى إلى عشرات الأحداث التى رواها فى التاريخ المصرى الحديث والإسلامى والأوروبى . . وأخذ الأستاذ يتحدث من فوق رأسى ومن حولى ، وكأنه يلقى محاضرة فى الجمعية التاريخية أو فى أحد مدرجات كلية الآداب . وقد أسعده ما أصابنى ، لأن هذا يؤكد فلسفته فى حكم الطغاة . . ثم طلب منى أن أتصل به - كأنما يريد أن يعرف منى تفاصيل أخرى . . أو كأنه طبيب يشاهد حالة مرضية يعرفها تماما . ولكنه لا يستبعد أن تظهر أعراض ومضاعفات جديدة لا يعرفها . . فهو يريد أن يطمئن على تفاقم الحالة ، وليس على المريض .

لقد كان اهتمام طه حسين بالشخص ، فهو أب .

واهتمام العقاد بالفكرة ، فهو فيلسوف .

واهتمام الحكيم بنفسه ، فهو فنان .

وكان يحرس السيارات أمام عمارة فرانسوا تاجر التى بها النادى الثقافى ومكتب الأمم المتحدة شاب أخرس أطرش . وفى كل مرة يرانى يستوقفنى ليشير بيده إلى كتفه ويشير إلى العمارة ثم يشير إلى فمه - أى أن الجيش قد ابتلع هذه العمارة .

وكنت أداعبه وأشير إلى العلامات على الكتف وإلى جسمى ثم إلى فمى - أى أن الجيش قد ابتلعنى أنا أيضا .

وفى يوم سألنى الخواجة خار الامبو - اختصارها لامبو - مدير النادى الثقافى عن الذى فصلنى بالضبط . . وشرحت له . ولكنه لم يكن فى حاجة إلى ذلك . فقد سأل وعرف وقال لى بلغته بالعربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية : إن بعض الزملاء الذين أدعوهم إلى الغداء معى والعشاء نبهوه إلى أننى خطر على المحل وعليه هو أيضا . وقد تضايق كثيرا لذلك .

وفى يوم تحيرت كل المشاعر فى قلبى ورأسى وعينى وحزنت على نفسى وتمنيت أن أتلاشى من عينيه ويديه . . رأيت لامبو حزينا جدا . ورأيته يتلطف فى معاملتى . . ويضع لى مائدة كبيرة أجلس عليها وحدى . ولها مفرش ملون . وعليها باقة من الورد . وكنت أسأل : ما هذا؟

فيقول : لك . . - ولكن التربيزة كبيرة جدا .

- لأنك كبير جدا . . أنت صديقى . . وأحسن وأعز الناس فى هذه الدنيا . . وكان يجلس معى . . ويترك الناس . ويتحدث عن الحياة فى قبرص وعن أقاربه من المحاربين والمكافحين الذين ماتوا . وعاش أولادهم من بعدهم . . وعن الذى يعيش بذراع وساق واحدة . . ولكنهم يعيشون . وأن منهم أصحاب ملايين . ولكن الحياة حلوة . والكفاح أحلى ما فيها . والصبر هو عمودها الفقرى . والرجولة كفاح وكرامة .

وفهمت المعنى الذى يريده وكان امتنانى له عظيما .

وكنت ألاحظ فى ذلك اليوم أنه يؤجل تقديم الطعام ؛ لأنه يريد أن يجلس معى أكثر ، وأن يهون على وأن يشد أزرى . فلا أهتم أنا ولا أغتم .

وفجأة وجدت المطعم خاليا من الناس . وجاءت زوجته وسلمت . ثم انصرفت . ووجدت لامبو يقول : أنت أخى؟

- نعم .

- وصديقى؟

- نعم .

- وأكلنا عيشا وملحا سنوات طويلة .

- نعم .

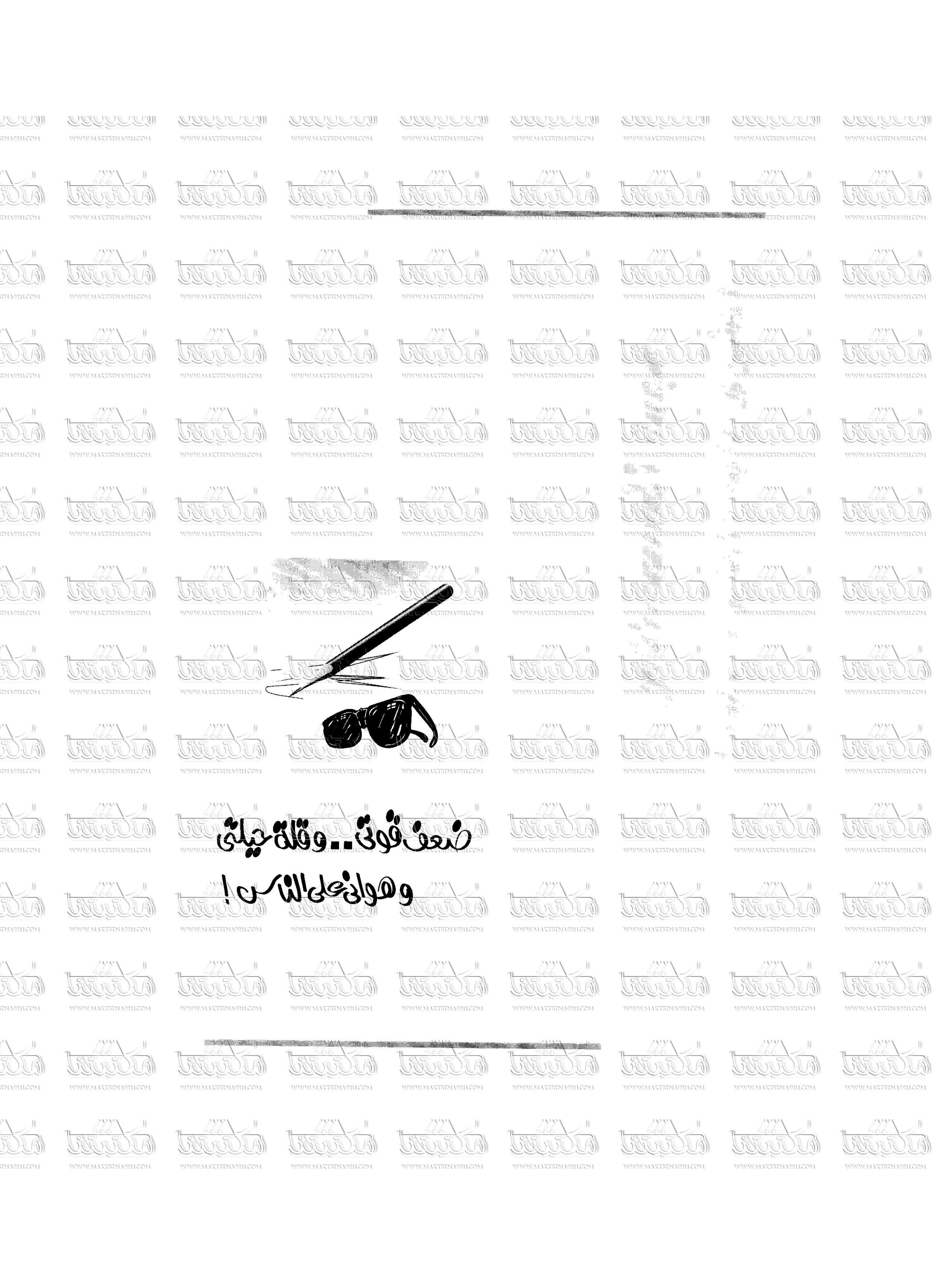
- هذا المبلغ من الجمعية اليونانية لمساعدة المقاومة الشعبية فى قبرص؟!

ولا أعرف كيف صرت فى تلك اللحظة . . ولا إن كانت لى رأس أو ساقان . . لقد تبددت تماما . . ذرات أصابها تفكك تلقائى . . صرت شبحا . . ورأيت - إن كنت قد رأيت حقا - إن لامبو هو الآخر شبح أبيض . . أو موجة بحر واقفة على حيلها . . أو أن المطعم كله حوض سباحة ينقلب صاعدا هابطا .

وأدرت رأسى لأجد زوجته قد أسندت ظهرها إلى الباب تمنعنى من الخروج .

ياه . . ما هذا الذى فى بعض الناس وبين الناس؟!

□ □ □


ضعف قوتي.. وقلة حيلتي
وهواني على الناس!

ضعف قوتى..
وقلة حيلتى
وهوانى على الناس!

املأ حوضا بالماء . ثم انظر إليه وهو يتدفق فى البالوعة - كذلك كانت حياتى فى مئات الأيام من سنتى ٦٢ و ١٩٦٣ . .

الدنيا كلها تنسحب : لونا وصوتا وحجما ومعنى . . فكل شىء يتراجع ويتلاشى . . كأن عينى بلا حدقات ، كأن يدى بلا أصابع ، كأن أذنى بلا طبلة . كل شىء بلا طعم .

فجأة أصبحت القاهرة مدينة للموتى . . للأشباح . . للظلال . .

هل قامت قيامتى . . هل نفخ فى الصور من أجلى . .

هل أنا وحدى المقصود بقوله تعالى : ﴿ **وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ - فأنا التى وضعت حملها وأنا السكارى الذين ليسوا سكارى ولكنه العذاب الشديد . .

أنا الذى أترنح بلا خمر ، وأنا الذى أجهضت بلا حمل . .

أذكر أننى عندما ذهبت إلى مصانع «هوكس وسيدلى» حيث يصنعون كبسولة الفضاء فى لندن أدخلونى غرفة تبلغ فيها درجة الصوت صفرا . .

ولم أكد أدخلها حتى فقدت توازنى ، وكدت أقع ؛ لأن توازن الجسم يعتمد على الأذن ، والأذن تعتمد على عكاز اسمه الموجات الصوتية .

وكان الشاعر كامل الشناوى عبقريا عندما روى لنا أنه دخل أحد المقاهى ، فلم يكد يراه الناس حتى سكنت الأصوات ، فخيل إليه أن العمارة سوف تقع!

وليس ذلك إلا انعدام الصوت فقط فما بالك بانعدام كل الحواس؟! فهل أصبحت أنا جزيرة وسط محيط من اللامعنى . . من اللاحكمة . . من اللامنطق . .؟

لا أعرف كيف أصف لك ماذا حدث؟ ولا أعرف كيف أجد اللفظ المناسب . ولا أعرف من الذى أصابه ما أصابنى لكى أستعير بعض كلماته أو تشبيهاته . لابد أن أحدًا أصابه شىء من مثل هذا الضياع وأسوأ ، ولكن أين هو العقل الذى يلتقط المعانى ويعتقل الأحداث ويسلسلها ويسعفنى لكى أعبر؟ لا أجد . . لم أجد . . لم أحاول . . فكما أن الدنيا حولى قد انحسرت . . فكذلك سيطرتى على عقلى وجسمى . . لقد حدث انهيار دستورى فى داخلى . . لا سلطة ولا إدارة ولا قانون .

وكنت أندهش كثيرا عندما أقرأ رواية «الغثيان» لفيلسوف الوجودية سارتر وكيف أن البطل ينظر إلى يديه وإلى أصابعه . . يحاول أن يفهم . . معه حق . . صحيح ما معنى هذه اليد ، التى لا تمسك شيئا ، ولا تصلح لأى شىء . . ما معنى القدمين . . وما معنى؟ لا شىء .

كانت سنة ١٩٦٢ هى سنة «العبث» ؛ أى انعدام المنطق والمعنى والفائدة فى المسرح وفى الدنيا كلها ، ولست أنا إلا نموذجا لذلك . . إن بعض الأيدى الشيطانية قد جردتنى من ملابسى ودفعت بى إلى مستعمرة العراة - العراة من المعنى ومن الهدف ومن الإنسانية ومن الكرامة والأمل فى النجاة .

فعلى مسارح باريس ولندن ونيويورك يظهر الممثلون فى مسرحيات العبث . . وفى القاهرة ظهرت مسرحية توفيق الحكيم «ياطالع الشجرة» . وقد اتخذت المسرحية اسمها من أغنية شعبية تقول :

ياطالع الشجرة
هات لى معاك بقرة .
تحلب وتسقينى
بالمعلقة الصينى!

تأمل معنى الذى يطلع الشجرة فيجد فوقها بقرة . معقول؟ ليس معقولا . ولكن من قال إن المعقول هو المنطق الوحيد . ففى الدنيا أشياء كثيرة ليست معقولة . ولا مفهومة . أين المعقول فى إشارة من أصبع حاكم

مطلق ، فإذا بى فى الشارع أو بعشرات الألوف فى السجن أو ضحايا الحرب . حركة من أصبع يده . وكان من الممكن أن تكون من أصبع قدمه ، لو عاد حافيا كما كان!

بل ما معنى الكون كله؟ مامعنى الحياة؟ ما معنى الموت؟ ما معنى أن يكون الإنسان طيبا أو أن يكون شريرا؟! لا معنى . نحن الذين اخترعنا السؤال ، واخترعنا ألف ألف إجابة . ونصدقها جميعا ونرغم الآخرين على ذلك .

وفى سنة ١٩٦٢ مات همنجواى وفولكنر وصديقى أديب الشباب هرمان هسه . .

وماتت مارلين مونرو وبكيت عليها . مع أن كل الذى يربطنى بها إعجابى بها وإشفاقى عليها ونظرة إلى جمالها ولمسة من يدها واحتقار لزوجها الأديب آرثر ميللر الذى ذبحها وشرحها وراح يوزع لحمها طازجا على الصحف والمجلات مقابل أجر معلوم! أى منطق فى هذه العلاقة؟ أين أنا وأين هى؟ وما دخلى . . ولكن حزنى عليها كان عميقا واهتمامى بها كان مائتى كتاب وألف صورة وأملى فى أن أحكى حكايتها وأترافع عنها فى محكمة أقمتها فى داخلى : فكنت القاضى ووكيل النيابة ومحامى الدفاع والمحلفين والرأى العام . ومن أجلها بنيت مصنعا للمناديل أوزعها على الناس يجففون دموعهم ودموعى ، تمهيدا لجنازة فخمة . . أمشى فى مقدمتها ، أو أتلفت ورائى كأننى أنا فقيدة الفن والجمال والبراءة!

فأى منطق فى ذلك؟!

حاولت فى فراغى أن أجد مثيلا لما كنت فيه . . لم تفلح ذاكرتى التى نصبتها مصيدة للأفكار الواردة والشاردة ، فلم أجد كثيرا من الأشباح والأبطال الوهميين فى الأدب والمسرح .

تذكرت بطل قصة «اللعبة الملكية» للأديب استيفان تسفايج . . كان فى أحد السجون . منعوا عنه الكتب والورق والقلم . فاستلقى على ظهره يستعرض على السقف كل ما حفظ من الشعر . . وكل مباريات الشطرنج . . يلعبها مع نفسه ويتغلب على خصمه الذى هو نفسه فى النهاية . . ويترجم الشعر الذى يحفظه إلى اللغات الكثيرة التى يعرفها . . ثم يتلوه مقلوبا . . فالليالى طويلة واليأس أطول . . ولكنه يحاول التغلب على الوضع اللامعقول . .

وحاولت شيئا من ذلك ولم أكن فى قدرة هذا البطل ولا كان عندى مثل هذا الأمل . بل لقد كان الأمل نوعا من الترف قد أممته الثورة المصرية قبل الصحافة بزمان!

تصورت نفسى أبا زيد السروجى بطل «مقامات» الحريرى الذى كان يتلاعب بالألفاظ ، والذى اختار الكلمات التى يمكن أن تقرأها من أولها ومن آخرها مثل كلمات : توت . . خوخ . . باب .

ومثل هذه العبارة أيضا دام علا العماد . . أو سر فلا كبا بك الفرس . . أو قلع مركب ببكر معلق أو : مودته تدوم . . أو : لكل .

ولكن كنت فى حاجة إلى قدرة على التركيز . . إلى ورقة وقلم . . إلى منطق . . إلى أصابع ليدى ، ورموش لعينى ، وإلى صمغ ودبابيس لأوراقى . . وفشلت كثيرا .

تذكرت الفرق بين التماثيل الإغريقية والتماثيل الرومانية . . لقد كانت للتماثيل الرومانية عيون واسعة - بلا حدقات . . أما التماثيل الإغريقية فقد وضعوا لها حدقات ، فكانت قادرة على التركيز . . قادرة على معرفة أبعاد الأشياء - وفى ذلك الوقت كنت رومانى العينين .

فالمطلوب هو أن أبحث عن حدقة لعينى . . لكى أرى . . لكى يستغرقنى شىء . لكى أسترد العلاقات بين الأشياء والناس . . ولكى أجعل للدنيا حولى معنى . . لكى أسترد الدنيا .

تذكرت ما قاله فيلسوف الحضارة اشبنجلر : إن أعظم شىء ساعد الإنسان على تطوير حياته : أصابعه . . فهناك فرق بين أصابع الإنسان وأصابع القرد والحيوانات الأخرى . . إن أصابع الإنسان يمكن ثنيها . . وبسبب ذلك استطاع الإنسان أن يصنع أدوات حياته : الفأس والسكين والمحراث والعجلات . . أى «تكنولوجية» الحضارة . . فالإنسان هو الحيوان صانع الأدوات التى يعيش ويموت بها أيضا .

فإذا لم أسترد أصابعى وأمسك الأشياء وأرتبها وأنظمها ، فسوف أبقى بعيدا عن الإنسانية - أعرف ذلك ولكن كيف؟

لا حل لهذا الضياع الطويل إلا إذا كانت لى زاوية أنظر منها إلى الدنيا . . إلى الناس . . يجب أن أعيد تدريب العين على الرؤية والأذن على السمع والأصابع على اقتناص الأشياء كيف؟ ومن أين؟

والجواب : الآن ومن أى مكان!

وتذكرت الأديب الإنجليزى هـ . ج . ويلز الذى بدأ حياته عاملا فى أحد محلات الأحذية . وكان المحل تحت الأرض . وكان ينظر من نافذة

المحل إلى الشارع فوقه ، فلا يرى إلا أحذية الناس . . ومن النظر إلى الأحذية ولونها ولمعانها وحجمها كان يعرف طبقات المجتمع ومهنة هؤلاء المشاة على سطح الأرض . . وعن طريق الجزم ودراستها استطاع أن يهتدى إلى طريقة لتخفيض سعر الجزم فى بريطانيا وذلك بزيادة عدد الأغنام فى أستراليا وتصدير كميات كبيرة منها . . وبذلك يزيد العرض على الطلب ، فتنخفض أسعار الأحذية ، ثم يشترى الناس أحذية أفضل لا تكون لها الأصوات المزعجة ، ولا تثير ترابا ولا طينا فى عيون وأنوف الذين تحت الأرض!

وتذكرت رواية «الجحيم» للأديب الفرنسى باريس . . فبطل هذه الرواية صنع فتحة فى الجدار ، وعن طريق هذه الفتحة يرى ويسمع ما يجرى فى الغرفة المجاورة . وكل واحد منا قد اتخذ لنفسه مثل هذه النافذة الصغيرة يطل منها على العالم الخارجى . . وتكون هذه النافذة الصغيرة بالقرب من الأرض أو تكون بالقرب من السقف ، وتطل على غرفة نوم ، أو على ورشة ، أو على عيادة طبيب ، أو مريض . . فلابد من نافذة . . لابد من مجال أو برواز نضع فيه صورة الدنيا على الجانب الآخر . . فالحلاق ينظر إلى قفاك ، والجزمجى إلى حذائك ، والترزى إلى بنطلونك . . وأنت تنظر إلى كل ماليس مغطى من جسم المرأة : ذراعيها وساقيها . . والمرأة تنظر إلى كل ماهو مغطى من جسمك : بدلتك وجزمتك .

والفيلسوف الأغريقى ديوجين اختار أن يعيش فى داخل برميل زبالة ؛ لأن الدنيا كلها زبالة . . وقد مارس ما تبقى من حريته فى اختيار شكل البرميل الذى يعيش فيه ، وانتقى الزبالة . وعندما زاره الإسكندر الأكبر سأله إن كان يريد شيئا قال له الفيلسوف : فقط أن تبعد قليلا لأنك تحجب عنى الشمس!

ولكنى لا اخترت البرميل ولا اخترت الزبالة ، والإسكندر على أيامى لم يحجب عنى الشمس وانما فقأ عينى حتى لاأراها وجردنى من الإحساس بها أيضا!

فى ذلك الوقت اهتديت إلى نظرية فلسفية سجلتها . ولكن لم أتعمقها بعد . . ووضعتها فى كتاب لى بعنوان «وداعا أيها الملل» . أما المعنى فهو : المسافات بين الناس .

فالإنسان الحر هو القادر على أن تكون بينه وبين الناس مسافة . . شبر . . مليون شبر . . يقترب . . يبتعد . . أما الذين يعيشون فى مسافات جامدة ثابتة ، فهم السجناء . .

أما الأحرار فهم الذين يصنعون مسافاتهم . . يخرجون . . يدخلون . . يسافرون . . على الأقدام . . أو بالطائرة . . فالدنيا واسعة . . الدنيا منديل . . يمكن طيه ونشره .

ولكن لم أشعر بهذه الحرية . . صحيح الشوارع مفتوحة . . وفى استطاعتى أن أذهب إلى أى مكان . . ولكن لم يعد للزمن أى معنى . . فلست مضطرا أن أصحو مبكرا . . ولا أن أذهب إلى مكتبى . . فلا مكتب ولا عمل . . إذن أنا حر . . وأستطيع أن أنزع الساعة من يدى . . فلا معنى لحركة عقاربها . . فلا عمل . . أى لا زمان ولا مكان . . حر تماما . . ولكن الحرية شعور . . فأنا لا أشعر بذلك . . أو بشىء .

وتذكرت قصة للأديب السويسرى ماكس فريش اسمها «ليكن اسمى جانتبين» والبطل يتظاهر بأنه أعمى ، لكى يرى أكثر . . وأنه أطرش لكى يسمع أكثر . . إذن هو أكثر حرية من كل الناس .

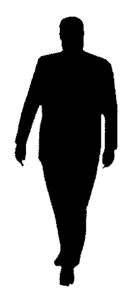
فالذى لا عمل له حر ، والذى لا مواعيد عنده : حر . .

ولم أجدنى كذلك . .

وفى مسرحية «زيارة السيدة العجوز» للأديب السويسرى ديرنمات رأينا رجلا واحدا يعرف أنه سوف يموت . . وأن أهل المدينة يحفرون له قبره . . فكان أكثر الناس حرية ، ففى استطاعته أن يفعل أى شىء ، وأن يشتم ويلعن الناس . . إنه سوف يموت . . فما جدوى الأدب والذوق والأخلاق والكرامة . . إنه سوف يموت . . فهو الوحيد الذى يعرف هذه النهاية . . نهاية كل شىء . فلا أمل ولا طمع فى شىء . ولن يلومه أحد لو فعل أى شىء - إنه رجل ميت!

وفى مسرحية «الشهاب» لديرنمات أيضا نجد البطل أديبا مريضا فى أحد المستشفيات فقد كشف عليه الطبيب وقال : إنه ميت .

وجاءه القسيس وقرأ عليه آيات من الإنجيل . وفجأة قفز الرجل من الفراش . إنه لم يمت . ورجاه الطبيب أن يبقى ميتا وكذلك القسيس ؛ لأن فى عودته للحياة فضيحة لهما . ولكنه اختفى ليقرأ ما كتبته عنه الصحف وما قاله النقاد والأصدقاء والأعداء - إذن من يتظاهر بالموت ، سوف يرى ويعرف أكثر ، ويعيش على حريته أطول وأعمق .



والشاعر القديم يقول :

تعارجت لا رغبة فى العرج ... ولكن لأقرع باب الفرج

وأحمل حبلى على غاربى ... واسلك مسلك من قد مرج

فإن لامنى القوم قلت اعذروا ... فليس على أعرج من حرج!

فلا أحد يلوم الأعرج والأطرش والأعمى - إنهم أكثر حرية من بقية الناس . فكلما فقد الإنسان عضوا ، رفع عنه الناس عذرا . . فإذا فقد الأعضاء كلها ، فلا لوم عليه . . إنه تحرر من كل لوم!

وفى مسرحية «السلطان الحائر» لتوفيق الحكيم هذا الحوار بين السلطان والغانية . وهو يسخر من اشتغالها بالفن - أى بالدعارة - وهى تدافع عن نفسها :

الغانية : ثرائى ورثته عن زوجى . . وإنى لأنفق أحيانا على هذه الليالى ، أكثر مما أكسب!

السلطان : لماذا؟ لوجه الله تعالى؟!

الغانية : لوجه الفن . . لأننى من هواته .

السلطان : (ساخرا) الفن الرفيع دون شك؟!

الغانية : أنت لا تصدق ولا تأخذ قولى على سبيل الجد . فليكن! ظن بى السوء ما شئت . . فليس من عادتى الدفاع عن نفسى ضد ظنون الآخرين . . فأنا فى أعين الناس امرأة سيئة السيرة . . وقد انتهى بى الأمر بقبول هذا الحكم . . وقد وجدت فى ذلك راحة لى - لم يعد من مصلحتى تصحيح رأى الناس ، فعندما يجتاز إنسان حدود السوء ، فإنه يصبح حرا . . وأنا فى حاجة إلى حريتى . . وبعد وفاة زوجى استأنفت دعوتى لضيوف زوجى . . كنت أستقبلهم بادئ الأمر وأنا محتجبة خلف أستار الحرير . . لكن عندما أخذ أهل الحى فى اللغط حولى وإطلاق الشائعات عنى لمرأى الرجال الداخلين كل ليلة بيت امرأة لا زوج لها ، لم أجد معنى للمضى فى الاحتجاب خلف الأستار . وقلت : مادام حكم الناس قد أداننى ، فلأجعل من نفسى قاضيا على تصرفاتى» .

أى لن تكون أسوأ مما هى . ولذلك انتهى كل شىء : الناس يرونها أسوأ المخلوقات وأحطها وأحقرها ، فلتفعل مابدا لها . . إنها حرة من كل قيد! وأحسن تسمية لهذه المسرحية هى : المومس الفاضلة!

وكان فيلسوف الوجودية سارتر يقول : إن الشعب الفرنسى لم يشعر بحريته الكاملة إلا فى ظل الاحتلال الألمانى!

فالألمان قد سحبوا القانون والمنطق والكرامة والشرف من كل الناس . . جردوهم من كل ماهو إنسانى أخلاقى حضارى . . ولذلك ففى استطاعة أى إنسان أن يفعل مابدا له .

تماما كما تنعدم الجاذبية الأرضية ، فتتطاير كل الأشياء والناس والحيوان . . تماما كما تتطاير الدبابيس والصمغ من الأوراق . فتنفرط كل الكتب . . أو كما تنعدم المعانى من كل الألفاظ فيكون برج بابل . . وتكون كل اللغات مجرد ضوضاء . أصوات بلا حروف وحروف بلا كلمات وكلمات بلا عبارات . . بلا معنى .

***

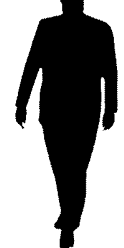
أحسست كأننى أحمل بطاقتى الشخصية : فيها صورتى ووظيفتى وأبحث عن شيخ حارة ليدلنى على نفسى! فقد فقدت ذاكرتى ، أفقدنى الرئيس عبد الناصر ذاكرتى بإشارة من أصبع يده .

ذهبت إلى د . طه حسين وكان الموضوع هو مسرحية «ياطالع الشجرة» لتوفق الحكيم . وضحك طه حسين كثيرا وهو يقارن بين العبث عند الحكيم وعند الشعراء الفرنسيين فاليرى ولوتريومون وبودلير الذى كان يتعاطى المخدرات .

شىء عجيب حقا . فالرجل الضرير «يرى» الدنيا أوضح وأجمل . ويجد المنطق فى كل شىء . . والرجل البصير لم يعد يريد أن يرى ، إنه يطالب بأن نقتلع عيوننا ، وننزع عقولنا ، وأن نهيم على وجوهنا مادامت القوة باغية طاغية هكذا .

وأسعدنى أن طه حسين قد نسى ، أو أراد أن يجعلنى أنسى . . ثم أنه تحدث معى وسمعته يقول : أنت تستطيع أن تكتب ذلك . وأنا على يقين من أنك أحسن من يفعل ذلك ياسيدى . . فدراستك المتعمقة للفلسفة الوجودية ، تؤهلك لذلك . . اكتب ياسيدى وسوف تجدنى قارئا محبا لك!

طه حسين قارئ لى ومحب أيضا؟!



وأسعدنى أنه نسى أننى فى الشارع . . وضايقنى أنه نسى ذلك . . وأننى هكذا عبرت حياته وآلمتها لحظة . . كأننى شكة دبوس . . فأين الذى قال لى فى التليفون . . وأين الذى حكاه ورواه من الشعر القديم والحديث؟

ولم أناقش بينى وبين نفسى مدى قسوة هذا الحكم على طه حسين . . وكنت أتمنى أن أناقش ذلك . . ولكنها فكرة دارت حولى ، ثم اختفت .

وفى الصباح ، وفى النادى الثقافى ، سمعت صوت سكرتير طه حسين الأستاذ فريد شحاتة يقول : كلم الدكتور .

قلت : نعم ياأستاذ .

قال طه حسين : ياسيدى . . نسيت أن أقول لك إنه من الطبيعى أن يتلعثم الطفل . . وأن تتساقط منه الحروف . . وألا يحسن تركيب الجمل . فهو طفل وهذا يدفعنا إلى الضحك . . ولكن أن يجىء رجل عاقل ويقلد الأطفال ، ثم يريدنا أن نعجب به . . فأنَّى نعجب به؟! لا ياسيدى . لن نعجب له : نعم ياسيدى . . فأخونا توفيق الحكيم يريدنا أن نعجب به . إنهم فى فرنسا جربوا كل شىء ؛ فى المسرح وعلى المسرح وفى اللغة حتى ضاقوا بكل ذلك . . ولكننا لم نجرب ما جربوا ، ولا عرفنا ما عرفوا . . والعقل السليم هو القادر على التعبير والوضوح . . أما هذا «العبث» ، فأكثر الناس قدرة عليه نزلاء المستشفيات العقلية ياسيدى . . ها ها . . ها ها» .

مع احترامى العظيم لطه حسين لم أكن أرى رأيه ، فأنا متفق تماما مع توفيق الحكيم ومع أدباء العبث! بيكت ويونسكو وأداموف وبنتر وأرابال وأدباء الغضب : ويلسون واسبورن وديلانى وكيرواك وجنزبرج .

***

ورحت أبحث عن أصدقائى الماركسيين الذين عندهم حل لكل مشكلة ، ومشكلة لكل حل . . فوجدت بعضهم قد اتجه إلى الدراسة الأزهرية . . وأناسًا تركوا مصر إلى إسرائيل وإلى روسيا وإلى أمريكا وإلى الزواج والمخدرات والنسيان!!

وفى شارع محمد على ذهبت أبحث عن صديق قديم . وكانت لنا آمال وأحلام .

أنا أقول : حريتى أهم من الرغيف!

وهو يقول : الرغيف هو الحرية .

ذهبت إليه . وبسرعة جاءت زوجته الإيطالية وابنتاه ووالدته البولندية قال : إلى أين وصلت؟

قلت : لم أتحرك . . أو لعلى أتحرك فى دائرة مفرغة من الأوكسجين ومن الناس ومن الأمل . . لا أول لها ولا آخر . . أو أولها هو آخرها .

فضحك قائلا : هل تذكر فيلم «القبقاب» لألبرتو مورافيا . . لقد رأيناه معا . . تذكر؟ .

قلت : أذكره . .

قال : هل تتذكر العبارة التى هزتك وأغضبتك؟

قلت : نعم .

وتضايقت . ولم أجد ضرورة لأن أبقى . ودون أن أصافحه هو وأسرته نزلت إلى الشارع وغمرتنى الضوضاء والناس . . فقد كنت مثل «قطعة صمت» فى زوبعة . . ففى هذا الفيلم كانت الممثلة جينا لولو بريجيدا زوجة لمدرس مشغول عنها تماما . فقررت أن تشغل جسمها فأصبحت مومسا .

وفى أول يوم نزلت إلى الشارع طاردها لورد إنجليزى بسيارته الرولزرويس . . فنظرت إلى السيارة واقتربت فوجدته كبيرا فى السن . ثم ركبت إلى جواره . ولاحظ أنها قرفانة من شكله ومن نفسها فقال لها عبارته المؤلمة بلهجة إنجليزية : سوف تعتادين على ذلك!!

إذن سوف أعتاد على ذلك . . ونسيت أن صديقى الماركسى كان من المعجبين بجمال عبد الناصر ، وأنه كان يتوقع أن تتحقق الاشتراكية العلمية على يديه . . وأن القهر والظلم والسجن والإذلال هم شروط اللعبة السياسية وليست إلا وسائل لتحقيق المساواة العنيفة بين الناس . . وما دام أكثر الناس قد سقطوا فى الوحل ، فلا مكان لأصحاب الملابس البيضاء . . فالطين والهوان لكل الناس أقسى أنواع العدل الاجتماعى . . وكذلك كسر ظهور الناس وأعناقهم ليخروا ساجدين أمام الفرعون!

وكان من عادتى فى ذلك الوقت أن أذهب إلى «حديقة الأسماك» فى الزمالك . . وأن ألتقى ببعض الأصدقاء من بينهم حسن فؤاد الفنان الموهوب ، وكان أحب الشيوعيين وألطفهم . . وكنا نتمرغ على أعشاب الحديقة ونضحك – هو الذى يضحك وأنا أجامله فقط . كان يقول لى : إجازة ياأخى . . املأ بطنك بأى طعام . . وتعلم السباحة . . واعرف ألف فتاة . . افعل كل الذى حرمت نفسك منه .

ثم ذكرنى بما كنا نفعله على ظهر السفن الإيطالية هو والفنان عبد السلام الشريف . كنا ندخل فى مناقشة عبثية وبصوت مرتفع فيندهش الناس لما نقول ويتركون مقاعدهم خوفا منا فنجلس عليها ، أو يتركون لنا مائدة الطعام بكل ما عليها . فكان الحوار بيننا هكذا :

عبد السلام الشريف : تفتكر أن الوقت قد حان لاغتياله الليلة . . المسدس موجود . . ولكن ما الذى نفعله بزوجته وأطفاله .

حسن فؤاد : أنت تعرف . . أجمل طعام فى الريف هو أكل الأطفال نأكل الطفل من خديه . . ثم أصابعه . .

الشريف : هذه قسوة ، بل نخنق الأطفال ونلقى بهم الليلة فى البحر . . الليلة . .

أنا : لقد ألقيت الأطفال فعلا . . ولكنها مشكلة الأب المخنوق والزوجة المحروقة ، ماذا نفعل بهما؟ .

أما وجوه الناس فقد تولاها الفزع والرعب . . فينسحبون فى هدوء بعيدا . . ويتركون لنا مقاعدهم وطعامهم وشرابهم – هذه هى فوائد الهزل والعبث الذى كنا نمارسه كل يوم على ظهر السفن فى الخمسينيات؟!

فهو يطالبنى أن أقوم بدور «البهلوان المخيف» . . أو الشهيد المحروم من ممارسة حقه كإنسان مثقف – لا أنا قادر على القراءة ولا الكتابة ولا القيام بأى عمل . . فإذا هاجمت أو شتمت أو لعنت أو حقدت أو كفرت فلا لوم ولا مؤاخذة . . لقد أعطانى الرئيس عبد الناصر هذا الحق . والمثل يقول : «المخوزق» يشتم السلطان . . فكيف أضيع هذه الفرصة؟!

***

وكلما مضى الوقت تأكدت أن طه حسين لم يكن على حق فى نقده العنيف لتوفيق الحكيم . . فكل شىء عبث . . ولكن طه حسين لايجده كذلك . أما نحن فنجد فى كل شىء وفى كل أحد . . فلا معنى لما يقال . . فالحرية كذب ، والكرامة وهم ، وكل ما وعد به جمال عبد الناصر وصدقناه خرافة . . فليس صحيحا أنه أول مصرى يحكم مصر بعد المماليك والأتراك . . وإنما هو فرعون جديد فادح الثمن ، باهظ التكاليف ، خانق الأنفاس ، جلاد الحرية . . وهو بحق «موحد الأديان» فقد جعل الناس جميعا يكفرون!

وكما يحدث فى مسرحيات العبث . أن تجد المسرح خاليا من الممثلين . . وأن نجد المقاعد خالية من المتفرجين . كانت الشوارع والبيوت والنوافذ والصحف والكتب . . فراغا فى فراغ فى صمت فى وهم فى ضياع .

ثم وجدتنى مثل أبطال مسرحية «فى انتظار جودو» للكاتب الأيرلندى صمويل بيكيت ، أروع وأبشع مسرحية قرأها أو شاهدها الإنسان فى العصر الحديث . . فهى التى أشاعت اليأس والملل والخرافة . . فبطلا المسرحية رجلان : فلاديمير واستراجون . . ولهما أسماء أخرى . . والحوار ممل . والانتظار لشىء غامض سوف يجىء ، لشخص أو موقف . . أو بطل . . أو معجزة . . ولكن أحدا لا يجىء .

وعندما عرضت هذه المسرحية فى سجن سان كونتين فى كاليفورنيا صفق لها السجناء طويلا وقوفا ؛ لأنها تصف مشاعرهم بالضبط ، فهم سجناء خرافيون حياتهم خليط من الواقع الأليم ، والأمل الذى هو أكثر إيلاما . . وكل يوم يتجدد عندهم الأمل فى المعجزة . . فى الخرافة . . فى أن يقع زلزال يهدم السجن ويحطم الأغلال ليكونوا أحرارا .

***

ولا أنسى كيف زرت أحد سجون بافاريا مع اللواء حسنى نجيب الذى كان محافظا والدكتور مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية ، وكانت الزنزانة غرفة مفروشة . . وعرفنا أن السجن معناه أن يفقد الإنسان حريته . . لا تجويعه ولا إذلاله ولا إهدار كرامته .

ويوم ذهب السيد إسماعيل حسين مدير مكتب أخبار اليوم بالإسكندرية إلى ألمانيا فى رفقة اثنين من أشقاء الرئيس جمال عبد الناصر ، عاد يروى لنا ما قاله الأخوان عن ضرورة ضرب المصريين الكلاب بالكرباج . . ثم اختفى إسماعيل حسين فى سجن القلعة تسعة شهور – ثم مات بعد ذلك بتسعة أيام؟!

والسجن أهون كثيراً جداً من الشوارع الواسعة ، وكأنها شوارع مسدودة مادام لا أول لها ولا آخر . . ولا بداية ولا نهاية ولا هدف من السير فيها!

ويوم كنت فى مدينة صنعاء وجدت أحد عساكر المرور ينظم حركة السيارات والسلاسل فى رجليه!

سألت . قالوا : إنه محكوم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة!!

فهو سجين مرتين : فى السلاسل وفى العار!

وأحسست بالسلاسل حولى ، ولكن الذى وضع السلاسل وأطلقنى فى الشوارع ، لم يشعر بالعار والخزى - ولا استطاع أحد من الأدباء أن يفتح فمه!

وأدهشنى ما وصلت إليه حالتى : فقدان الذاكرة . . هل نسيت كاليجولا ونيرون وغيرهما من الطغاة؟ كيف نسيت مهرجان الشعر الذى كان يقيمه الإمبراطور كاليجولا . . فيقف الشعراء صفا واحدا . ويلقى كل واحد قصيدة . . أو نصفها أو مطلعها ، فإذا سمع صفارة الإمبراطور راح يقفز على ساق واحدة ثم يلقى بنفسه فى الهاوية .

وكان الإمبراطور دقيقا منظما فى القضاء على الشعراء فهو يغتالهم حسب الطول والوزن أو الحروف الأبجدية فى أسمائهم أو أسماء زوجاتهم أو أمهاتهم أو حسب القافية أو مطلع القصيدة!

كيف يكون الطاغية هكذا منظما فى قسوته ، دقيقا فى ظلمه ، أنيقا فى اغتياله للفن! ثم كيف كان كاليجولا يتباهى بأن الظلم لم يعرف نظاما قبل ذلك؟

والرئيس جمال عبد الناصر يوم صرخ فى ميدان المنشية سنة ١٩٥٤ يقول للشعب المصرى : أنا الذى علمتكم العزة . . أنا الذى علمتكم الكرامة ، لم يكن مبتكرا ولا متبرعا وإنما كان يسير على الطريق المعروف لكل الطغاة : كاليجولا ونيرون وستالين وهتلر!

ولست أدرى ما الذى دفع بشاعرنا حافظ إبراهيم أن يستشعر مثل هذه المعانى فينظم أبياته الشهيرة الموجعة :

لقد كان فينا الظلم فوضى

فهذبت حواشيه فبات ظلما منظما

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى

وأن أصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد إسماعيل جلدا وسخرة

فإنى رأيت المن أنكى وآلما

عملتم على عز الجماد وذلنا

فأرخصتمو طينا وأغليتمو دما!

***

وفى ذلك الوقت أحسست أن نشيدى القومى هو أغنية عبد الحليم حافظ : راح . . راح . .

وليس معنى الأغنية ، ولكن هذه الكلمة والصوت الذبيح لعبد الحليم حافظ . . راح . . رحت . . وكنت أتردد على مطعم لبنانى فى وسط المدينة . وفى كل مرة أجد فيروز تردد أغنية واحدة . . صدفة . . ولكنها لا تخلو من المعنى والحكمة . وكنت أندهش كيف أن كلاما جميلا وغناء أجمل وأداء أروع ، ليس له معنى . . ولا أجدنى الشخص المقصود . . وكنت أبتلع المعانى مع الطعام . ولا أعرف إن كان السعال الذى ينتابنى سببه أن الكلام وقف فى حلقى . . أو أن الدنيا كلها . .

تقول فيروز :

دار الليالى أيام الصفا دارها

ويحى عشيرة هنا : زوارها ودارها

داو الجفا بالجفا . . أهل المودة انتهوا

والناس ياناس إن دار الزمن دارها

ولا نسيت طوال شهور الضياع والعبث والهوان ما قاله الرسول عليه السلام يوم أخرجه أهله واضطهدوه وراحوا يدقون قدميه بالحجارة فيسيل الدم منها : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . .

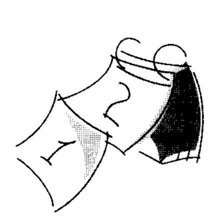
***

ومن حمار الشيخ عبد السلام إلى حمير أخرى كان من الضرورى أن أدير حولها وبينها عقلى حتى لا يتصلب . . حتى لا ينكسر فيسقط من فوق كتفى!





ثــــم انشغلت بحمير أخرى!!



فوجئ الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من روسيا ، بأن أدباء مصر يتهمون توفيق الحكيم بسرقة حمار بعد وفاة صاحبه بسنتين . والحمار إسبانى . وكان مملوكا لأديب فاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٦ . اسم الحمار بلاتيرو . واسم صاحبه رامون خمينيز .

وسأل الرئيس عبد الناصر عن حقيقة ما حدث فقيل له إن أدباء مصر لم يدعوا شيئا لتوفيق الحكيم إلا أعادوه لأصحابه . فهو قد اقتبس كل شىء عن أدباء آخرين . .

ونشرت مجلة «الجيل» أنه حتى سكان عمارة توفيق الحكيم فى أول شارع الجيش لايعرفون توفيق الحكيم ، ولم يقرأ سكانها كتابا واحدا له . فليس صحيحا أنه معروف عند كل الناس .

حتى البيريه الذى كان يرتديه توفيق الحكيم أعلن الأستاذ العقاد أنه مقتبس منه هو . وأنه أول من وضع البيريه على دماغه . وليس توفيق الحكيم ولا د . حسين فوزى .

وفى السبعينيات اتهم كاتب فلسطينى الرئيس السادات بأنه سرق عصاه من توفيق الحكيم . فاتصل بى د . أشرف غربال ، وكان يومها متحدثا رسميا وطلب منى أن أكتب عن العصا التى يحملها السادات . . وأنها غصن زيتون . وأن هذا

الغصن له قصة تاريخية . . وأن هذه العصا تذكر السادات بشجرة الزيتون رمز السلام على أرض السلام - أى على الأرض التى تفتقد السلام!

وفجأة أعلن طه حسين أن «بخل» توفيق الحكيم ليس إلا حيلة لجأ إليها توفيق الحكيم للدعاية . . وليكون حديث الناس . والحقيقة أنه رجل كريم!

واسم توفيق الحكيم هو : حسين توفيق الحكيم!

أما واقعة الحمار فهى أن للأستاذ توفيق الحكيم سلسلة طويلة من المقالات بعنوان : «حمارى قال لى» . . ثم جمع هذه المقالات فى كتاب بعنوان «حمار الحكيم» ولما ضاق الأستاذ الحكيم بحماره ، ولم يعد يسعفه بالأفكار والمعلومات راح يكتب مقالات بعنوان «قالت لى العصا» .

وفجأة اختار الأدباء شخصية يذبحونها وصرحا يهدمونه . فكان توفيق الحكيم . وقالوا إن «حمار» الحكيم مسروق من الأديب الأسبانى رامون خمينيز وقد ألف كتابا سنة ١٩١٤ بعنوان «بلاتيرو وأنا» . . وبلاتيرو بالأسبانية معناه ذو اللون الفضى . وترجم الأستاذ العقاد هذا الكتاب ونشرته مؤسسة فرانكلين!

وقبل الهجوم العنيف على توفيق الحكيم نشرت «أخبار اليوم» سلسلة من المقالات العنيفة بعنوان «فن حرامية» للأستاذ التابعى هجوما على الموسيقار محمد عبد الوهاب . استعان الأستاذ التابعى بمعلوماته وما سمع من الموسيقيين الفاشلين الحاقدين ، ولم يتركوا لمحمد عبد الوهاب لحنا واحدا من عنده ، فهو قد اقتبس بعنف كل ألحانه الجميلة . . وكأن الناس محتاجون إلى واحد «يفشون غلهم السياسى» فيه ، فكان محمد عبد الوهاب - ولا ذنب له . وكان توفيق الحكيم ، ولا جريمة له!

وفى ذلك الوقت كان صديقى كمال الملاخ فى أمريكا . وترك لى مهمة الإشراف على صفحة له عنوانها «من غير عنوان» . . وتصادف أن كانت الصفحة تحتاج إلى عمود . فكتبت العمود مهاجما الأستاذ التابعى مدافعا عن محمد عبد الوهاب . بأن محمد عبد الوهاب رجل متحضر . . رجل مثقف . . مثل كبار الأدباء الذين يقرءون ويتأثرون أسلوبا وفكرة . وتشاء الصدفة أن يقرأ الأستاذ على أمين هذا الذى كتبت فطلب من المرحوم على حمدى الجمال ، نائب رئيس التحرير

أصل هذا المقال . وكانت المفاجأة أنه ليس كمال الملاخ الذى كتب المقال . وحدث بعد ذلك ما يعرفه أبناء «أخبار اليوم» القدامى من انفعال على أمين واقفا وجالسا ، يدق المكتب بيديه والأرض بقدميه . . وقدمت استقالتى!

وفجأة توقفت الحملة على توفيق الحكيم بأمر من الرئيس جمال عبد الناصر . وكانت حجته أنه عندما كان فى روسيا وجدهم ينسبون كل إنجازات الإنسانية إلى علماء سوفيت . فسمعهم يقولون : إنهم الذين اخترعوا الراديو قبل ماركونى ، والتليفون قبل جراهام ، بل والصواريخ قبل فون براون ، واكتشفوا الميكروب قبل باستير ، والبنسلين قبل فلمنج .

وكان من رأيه : إذا كان الروس يفعلون ذلك بعلمائهم – أى ينسبون إليهم ماليس لهم ، فكيف نجرد أديبنا الكبير من كل الذى له!

إذن لقد زاد عدد الحمير واحداً : حمار الشيخ عبد السلام وحمار الحكيم وحمار خمينيز!

وتوفيق الحكيم اختار الحمار ليجرى حواراً معه أو على لسانه أو بقلمه ؛ لأن الحمار حيوان طيب صبور ، ولأنه الحد الأدنى للفهم الحيوانى – والحكيم يشير بذلك إلى الفلاح المصرى الغلبان وهو يستخدم الحمار وسيلة للسخرية . فكثيرا ما فهم الحمار مالم يفهمه الناس ، ويكون منطقه أقوى – أى أن الناس أكثر «حمورية» من الحمار!

إذن كل مصائب الأدباء تجىء من وراء الحمير!

وأذكر أننى جلست مع د . طه حسين أداعبه وأقول له : إننى كنت أقلد طريقته فى الأداء والإلقاء . وكان ذلك فى المدرج ٧٨ المشهور بكلية الآداب . وأصر طه حسين على أن أقلده . . وشجعنى ظرفه ولطفه وحرصه على أن أضحك أنا أيضا فقلت : إذا كنت راكبا حمارا ، فأنت راكب والحمار مركوب . ولما كان المركوب هو الذى يلبس فى القدم ، ولما كان الحمار لا يلبس فى القدم ، فلا أنت راكب ولا الحمار مركوب . . إلخ .

وكان طه حسين يضحك عاليا متراجعا فى مقعده . ويطلب منى أن أكرر ذلك مرات لكى يزداد ضحكا!

وجاءنى الأستاذ فريد شحاتة سكرتير طه حسين يقول لى : ولكن الدكتور غضب بعد ذلك!

ولم أصدقه . ولكن لم أستبعد . وعدت لطه حسين لكى أتأكد بنفسى ، فكان الرجل هو الأستاذ العظيم والأب الرحيم .

ولما سألت الأستاذ العقاد قال : يامولانا ليس السيد توفيق الحكيم هو الذى يحب الدعاية ، ولكن الشيخ طه يموت فى الدعاية . وهو يحقد على أخينا توفيق ، لأنه يتفوق عليه فى ذلك!

ولكن هذه قضية أخرى!

وسألت نفسى : ماذا لو انشغلت بدراسة الحمير فى التاريخ . . ماذا لو ترافعت فى قضية المتهم فيها حمار . . وجعلت عنوان الدراسة : الحمار المفترى عليه . . أو الحمار المفترى .

(١)

إن علماء كثيرين قد تخصصوا فى الذبابة والنحلة والدودة والميكروب . ثم إننى من المعجبين بالعالم النمساوى لورنتس الذى تخصص فى الأوزة . وتعلم لغتها . وانتقل من الأوزة إلى الإنسان وظاهرة العنف والعدوان عند الأغلبية ضد الأقلية السوداء واليهودية فى التاريخ .

وأنا أيضا من المعجبين بالعالم البريطانى دزموند موريس الذى تخصص فى القرد وانتقل من القرد إلى الإنسان فى براعة ومتعة وذكاء . . ودرس هو أيضا : الخوف عند القرود . وعلاقة الخوف بالإسراف الجنسى . فالذين يتفرجون على القرود فى الجبلاية ويجدون الذكور تعتلى الإناث ، عشرات الإناث والذكور ، كل ذلك بسبب الخوف . والإنسان الخائف يسرف فى الجنس والمخدرات .

وأدهشنى أن يكون هذا كل اهتمامى فى ذلك الوقت .

ووجدت أن دراسة الحمير هى نوع من انشغال العقل بشىء ما ، فلا هى قراءة جيدة ولا هى كتابة ، وإنما هى «تسخين» للعقل . . كما يفعل اللاعبون الاحتياط على خطوط الملاعب .

ولا فرق بين الحصان والحمار . فالحمار ليس إلا ترجمة ركيكة للحصان . . فليكن!

(٢)

جاء فى كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للطبرى :

إن نوحا عليه السلام أركب فى السفينة أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث . . وستة أناس آخرين . وتخلف ابنه «يام» وكان كافرا . وآخر ما ركب السفينة : الحمار .

فلما أدخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذيله ، فلم يستطع أن يتحرك . فقال له نوح : ادخل .

فحاول الحمار ولم يستطع .

فقال له نوح : ادخل وإن كان الشيطان معك .

وهنا ترك الشيطان الحمار . ودخل الحمار والشيطان قبل .

فقال له نوح : ما الذى أدخلك ياعدو الله؟

قال الشيطان : ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك!

***

فالشر قد جاء إلى الدنيا متعلقا فى ذيل حمار!

(٣)

وقد جاء ذكر الحمار فى التوراة ، فى أماكن عديدة .

أما سفر العدد (٢٢ - ٢٣) فى التوراة فقد حكى لنا قصة الحمار الذى رأى الملائكة ، ولم يرها بلعام . فقد ركب بلعام حماره وفجأة توقف الحمار . وانحرف عن الطريق . وراح صاحبه يضربه بشدة . واصطدم الحمار فى أحد الجدران . وراح بلعام يضربه . ورأى الحمار ملاك الرب ، فأفسح له مكانا فى الطريق ولم يفهم بلعام . وازداد غضبه . فنطق الحمار يقول له : ما هى غلطتى حتى تضربنى هكذا؟

فقال بلعام : لأنك احتقرت شأنى . ولو كان معى سيف لقطعت رقبتك!

وفجأة كشف الرب عن عينى بلعام فرأى الملاك أمامه وقد استل سيفه ، فسجد له . وقال بلعام للملاك : أنا أخطأت . فلم أكن أعلم أنك واقف فى الطريق!

***

وحمار بلعام هو أشهر الحمير التى جاءت فى التوراة . وأنبياء بنى إسرائيل يركبون الحمير لا الخيول ، فهى رمز للتواضع والفقر أيضا . وقد جاء فى «التلمود» أن من يرى فى نومه حمارا ، يجب أن يفكر فى إنقاذ شعبه . . فالحمار رمز للشعب المقهور ، ورمز لوسيلة المواصلات - عند الأنبياء - أكثر الناس تواضعا!

وفى العصور الوسطى ظهرت لوحة لحمار يصعد السلالم .

وفى التلمود : إذا صعد الحمار سلما ، أصبح المجنون عاقلا . فهذا هو المستحيل .

(٤)

وفى القرآن الكريم : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ .

وفيه أيضا ﴿ **إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ .

وجاء فى القرآن الكريم ذكر حيوانات وحشرات أخرى : العنكبوت والنحل والنمل والكلب والهدهد والغراب والذئب والفيل والبغال والبعوض والماعز والأغنام والبقرة والحوت والنون (الحوت) .

(٥)

أما كتاب «الحيوان» - خمسة أجزاء - من تأليف الجاحظ المفكر العربى الكبير فهو من أمتع الكتب التى يقرؤها الباحث والأديب أو المشرد عقليا ونفسيا . ففيه الكثير من المفردات العلمية والأوصاف الدقيقة والخرافات أيضا .

***

فبعض الحيوانات يمكن أن يستأنسها الإنسان . وبعضها يمكن أن يؤدبها . والحمار يمكن تأديبه إذا كان أهليا ، أما إذا كان وحشيا فيستحيل ذلك .

أما الذئب فيستحيل تأديبه . وقد حاول رجل بدوى أن يعلم ذئبا رضيعا كيف يكون كلبا ويحرس الأغنام . ثم فوجئ بأن الذئب الذى يرعى مع الأغنام والكلاب قد أكل واحدة منها . يقول الشاعر :

بقرت شويهتى وفجعت قلبى
وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا
فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء
فلا أدب يفيد ولا أديب

***

قال أحمد بن عبد العزيز : إن الحمار ما ينام .

فقيل له : وما ذاك!

قال : لأنى أجد صياحه ليس صياح شىء انتبه ، ولا هو صياح من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه!

أى أن صوته مسموع إذا نهق ، وإذا لم ينهق!

ويقال فى الأمثال : جحش وحده!

أى أنه إنسان عنيد .

وفى الأمثال العربية القديمة : أخزى الله الحمار : مالا لا يزكى ولا يذكى!

أى أن الحمار لا تجب فيه الزكاة ، ثم أن أحدا لا يذبحه ويأكل لحمه!

***

يقول الجاحظ : من الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رئيس أو أمير . ومنها ما لا يكون . فأما الحيوان الذى لايجد بدا ولا مصلحة لشأنه إلا فى اتخاذ رئيس ورقيب فهو مثل ما يصنع الناس ومثل ما تتخذ النمل . فأما الإبل والحمير فإن الرياسة لأكثرها فحولة . . لأن الرئيس هو الذى يوردها ويصدرها ، وتنهض بنهوضه ، وتقع بوقوعه .

***

«وإذا أصيب الحمار بجرح ألقى بنفسه على الأرض وامتنع عن القيام ولو ضربناه بالعصا . . فلا ينهض ولا يبرح مكانه » .

***

يروى الجاحظ حوارا بينه وبين أحد العلماء الذى يتعصب للكلب ويراه أذكى من الحمار ؛ لأن الكلب يتعلم من التجربة فالذى أوجعه مرة يبعد عنه ، والذى أعجبه يذهب إليه .

قال الجاحظ : وكذلك الحمار . إذا رفعت عليه السوط . . فقد تعلم الحمار أن السوط إذا ارتفع لابد أن ينحط على عنقه وإذا انحط على عنقه أصابه الألم . . والكلب ليس أفضل من الحمار ، مع أننا نصف الحمار بالجهل!

***

والعداوة تقليدية بين الحمار والغراب . يقول الشاعر :

عاديتنا . لازلت فى تباب

عداوة الحمار للغراب!

والتباب معناها الهلاك . .

***

ويروى الجاحظ قصة «عصفور الشوك» والحمار . . فالحمار إذا مر بالشوك وكان جريحا ثم نهق فإن النهيق يزعج عصفور الشوك ويجعل بيضه يتساقط على الأرض ، فتخرج الفراخ من عشها وتنهال بمناقيرها على جرح الحمار . . وكثيرا ما قتلت الحمير!

قال موسى عليه السلام للنبى الخضر عليه السلام : أى الدواب أحب إليك وأيها أبغض؟

قال الخضر : أحب الفرس والحمار والبعير لأنها من مراكب الأنبياء .

أما البعير فكان يركبها الأنبياء : هود وصالح وشعيب ، عليهم السلام . وعيسى عليه السلام قد ركب الحمار .

وفى «دائرة المعارف اليهودية» - ٢٣ جزءا - بالإنجليزية : فقد وجدوا تمثالا لحمار فى الهيكل القديم عند هدمه فظن الناس أن اليهود يعبدون الحمير .

والذين قالوا ذلك استندوا إلى قصة فى التوراة أن الحمير وهى تبحث عن الماء ، قد نبهت موسى وقومه إلى وجود عيون من الماء فى الصحراء . فكانت عبادتها امتنانا لها!

وقال المؤرخ بلوتارك : إن اليهود يقدسون الحمار ؛ ولذلك لا يأكلون الأرانب ؛ لأن لحمها يشبه لحم الحمار!

(٦)

وفى «دائرة معارف الحيوانات الوحشية» - سبعة أجزاء - بالإيطالية :

الحمار يعيش فى شمال أفريقيا وجنوب آسيا . والجحش الفارسى استأنسه السومريون منذ ثلاثة آلاف سنة . واستأنسه الأفارقة فى نفس الوقت . وقد استوردوا الحمار من مصر . . وكل الحمير التى عاشت فى آسيا ، قد استوردت من مصر .

ولم يرد ذكر الحمار فى الألياذة للشاعر هوميروس . وإنما جاء ذكر البغل . والرومان قد نقلوا البغال إلى بريطانيا عندما احتلوها .

والعالم البريطانى الكبير داروين ذكر أن هناك أربعة أنواع من الحمير فى سوريا وحدها :

١ - هناك حمار رشيق صغير الحجم تركبه سيدات الطبقة الغنية .

٢ - وهناك الحمار العربى .

٣ - وهناك الحمار الثقيل الضخم الذى يجر المحراث .

٤ - والحمار الدمشقى أبيض اللون رمادى طويل ، وله أذنان طويلتان .

وأكبر حمار فى العالم هو «حمار بواتو» الفرنسى طوله ١٦ شبرا رمادى وأسود . وهو فى حجم الحصان الذى يجر العربات . ورأسه كبيرة . وسيقانه متينة مليئة . ومؤخرته عريضة وكتفاه أيضا .

والحمير تعيش من ٢٠ إلى ٢٤ سنة .

وقد انتشر الاستحمام بلبن الحمار فى اليونان وفى فلسطين أيضا . فبلقيس ملكة اليمن كانت تستحم فى لبن الحمارة ؛ لأنه يجعل البشرة ناعمة ويجدد شبابها .

وكذلك كليوباترا ملكة مصر . .

وفى القرن السادس عشر كانوا يشربون لبن الحمير عند الإصابة بالتسمم . . فهذا اللبن يجعل الإنسان يخرج ما فى معدته .

وكان هناك اعتقاد أن من لدغه عقرب فعليه أن ينظر فى أذن الحمار ، ففى ذلك شفاء له!

(٧)

وفى «قاموس الحضارة القديمة» - جزءان - بالفرنسية : إن من يقوم بزيارة لمصر ، لابد أن يندهش لكثرة الحمير فى شوارعها والذباب . وعند زيارته للمناطق الأثرية سوف يتأكد له ذلك تماما!

وكل فلاح فى مصر ، ومن ألوف السنين ، عنده حمار .

وفى المخطوطات الفرعونية القديمة يكتبون الألفاظ النابية باللون الأحمر ، وكذلك كلمة : حمار ؛ لأنهم يرونها لفظا نابيا . وشتيمة بشعة .

وفى نقش قديم نجد صورة لحمار وعلى ظهره كرسى يجلس عليه تمثال النيل . . وكل الشعوب القديمة التى قدست الحيوان ، تتفق مع الشعوب الحديثة فى احتقارها للحمار .

وكان الفراعنة ينظرون للحمار على أنه شرير . . أو أنه روح الشر . . وكانوا يحطمون صورته . . أو يحرقونها رمزا للقضاء على الشر .

والذين قتلوا أزوريس كانت لهم رءوس الحمير!

ولا يرسمون الحمار دون أن يغمدوا خنجرًا فى كتف هذا الحيوان المسكين .

وكان المصريون يصفون الغزاة بأنهم حمير!

وكانوا يصفون الفرس بأنهم حمير!

ولذلك كان الملك الفارسى ارتكسركس الثالث يغيظ المصريين بأن يذبح العجل أبيس ويبالغ فى الحفاوة بالحمير!

(٨)

وفى «دائرة المعارف الإسلامية» : يستطيع الحمار أن يهتدى إلى سلوك الطريق التى مشى فيها ولو مرة واحدة . وهو حاد السمع قليل المرض .

إذا نهق الحمار يكون قد رأى عفريتا وإذا صاح الديك يكون قد رأى ملاكا!

وإذا ربط حجر فى ذيل حمار ، فإنه يكف عن النهيق!

وإذا رأى الحمار أسدا وقف مكانه ، أو اندفع وهجم عليه - وفى الحالتين سوف يهلك!

وإذا لدغت العقرب رجلا نصحوه أن يركب الحمار بالمقلوب!

(٩)

وجاء فى «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة» لعلى باشا مبارك :

إنه فى سنة ١٠٩٩ انتشر الطاعون فى مصر والغلاء والعناء والفناء والظلم . . وهجم الفلاحون وأولادهم على القاهرة وهم يتضورون من الجوع ويأكلون ما يتساقط من قشر البطيخ وورق الشجر .

يقول على مبارك : ولم يعد الزبال يجد شيئا يكنسه . حتى أكلوا الخيول والحمير الميتة . . فإذا خرج حمار إلى الطريق تزاحموا عليه وقطعوه وأكلوا لحمه نيئا من شدة الجوع!

(١٠)

وجاء فى كتاب «الطعام : هبة أزوريس» فى جزئين - بالإنجليزية للدكتور بول غليونجى الذى توفى فى أواخر ١٩٨٦ ، ولم يكتب عنه أحد سطرا بعد وفاته أخيرًا ، وكان من أكبر علماء المصريات وأول من كشف عن العمليات الجراحية الدقيقة عند الفراعنة . وآخر ما فعله أن بعث ببعض كتبه لكى أهديها نيابة عنه إلى مكتبة المنصورة حيث ولد وتربى فخورا عظيم الامتنان يرحمه الله . . .

أقول جاء فى هذا الكتاب : إن الأسرة الأولى فى مصر الفرعونية عرفت الحمار .

ولم يرد نص واحد يقول إن المصريين قد ركبوا الحمار!

ولا أى دليل على أنهم أكلوا لحمه . . وإنما أكلت الحمير جيوش قمبيز عندما قامت بحملتها الفاشلة على الحبشة .

والحمار حيوان شرير . . إلا مرة واحدة جاء ذكره فى «كتاب الموتى» . ففى هذا الكتاب نرى أحد الموتى يطارد ثعبانا ؛ لأنه كان يريد أن ينهش حمارا!

وكان المصريون يكرهون صوت الطبول ؛ لأنهم لايحبون الضوضاء ، ولأن الطبول تشبه صوت الحمير!

وكان المصريون يقلدون صوت الحمير فى الطقوس الدينية ، ليذهب الشر بعيدا .

والمصريون كانوا يستخدمون شعر الحمير فى طقوس السحر والإضرار بالغير . فيربطون أسماء أعدائهم فى شعر ذيل الحمار . . أو يحرقون شعر الحمار مع ذكر أسماء أعدائهم - لكى يصيبها شر مؤكد!

(١١)

وفى العصور الوسطى انتشرت فكرة «حمار بوريدان» .

وقصة هذا الحمار تحدثنا عن أنه حتى الحمار عنده إرادة ، وعنده قدرة على الاختيار أو عجز عن ذلك .

وجون بوريدان مفكر عاش فى القرن الرابع عشر . وقد ضرب مثلا لذلك :

إننا لو وضعنا عند طرفى أحد الكبارى حزمة برسيم ودلوا من الماء ، ووضعنا الحمار بينهما ، فإنه يظل يتردد بين البرسيم وبين الماء . . مهتزا يمينا وشمالا حتى يموت .

والمعنى : أن الحمار له إرادة ، وله قدرة على الاختيار ، ولكنه عاجز عن الحسم ، ولذلك يموت جوعان عطشان!

والإنسان وحده هو القادر على أن يختار ويحسم!

والشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى قد ذكر حمار بوريدان هذا فى الكتاب الخامس من «الفردوس» .

(١٢)

وجاء فى كتاب «جينس – للأرقام القياسية» – بالإنجليزية : إنه فى سنة ١٩٣٤ كان الحمار يباع فى جنوب إفريقيا بقرش واحد!

(١٣)

عندنا فى مصر حمار يسمى «الحصاوى» . . والصحيح أن يسمى «الحساوى» نسبة إلى «الحسا» فى السعودية .

(١٤)

وقد عُرِفَ الخلاف بين إسكندرانى وواحد إنجليزى على حمار ؛ ذلك الخلاف الدموى بين الرجلين قد أعطى الإنجليز عذرا لدخول الإسكندرية . . ثم احتلال مصر – وهى حادثة – معروفة فى كل كتب التاريخ!

(١٥)

وفى مسرحية «مصرع كليوباترا» لأمير الشعراء أحمد شوقى نقاش فلسفى بين الكاهن أنشو والفيلسوف زينون . . الكاهن يحتقر الكتب والفلسفة . . ويرى أن الجاهل والعالم أمام الموت سواء . . بل لا فرق بين أن ينفق الحمار ويموت الإنسان أو ينفق الإنسان ويموت الحمار :

انشـــــو:

إذا كانت الكتب فى شرعكم
نظير الجواهر كفء النضار
فإنى الغنى بدر القواقع
حين يرصع تبر العقار
وما الكتب قوتى ولا منزلى
فما أنا سوس ولا أنا فار!

الملكة:

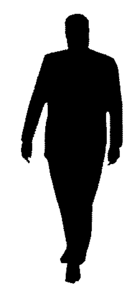
حكيم لعمرى على جهله
ظريف الحديث لطيف الحوار

زينون:

ولكنها حكمة السائمات
وفلسفة غير بنت اختبار
وكلتاهما لا تقوى الشعور
بحب البقاء وخوف الدمار

أنشو:

رويدك مولاى بعض السباب
فليس السباب سبيل الكبار
هب الليل طال فقطعته



بدرس وأصبحت تفنى النهار

وأقبلت بالكتب تطوى الطوال

وتنشر فى أثرهن القصار

وزدت على الأرض علم السماء

كبار كواكبها والصغار

إذا ما نفقت ومات الحمار

أبينك فرق وبين الحمار؟!

طبعا لا فرق!

منتهى القرف واليأس من القراءة والكتابة فيكون الإنسان سوسا يأكل الحبر ، أو فأرا يأكل الورق ، أو حمارا على ظهره كل ذلك . . دون أن يصبح إنسانا .

فالثورات جعلت الحمار إنسانا ، والطغاة أعادوا الإنسان حمارا!

(١٦)

وخجلت من أن أذهب إلى أطباء الفكر وكهنة التاريخ : العقاد وطه حسين والمهندس الشرباصى والشيخ الباقورى . ولكن لم أستطع إلا أن أذهب للأستاذ العقاد :

قل لى يا أستاذ؟ .

- نعم يامولانا . .

- قل لى ماذا ترى؟ وماذا يجب أن أرى؟

- لا مفر يامولانا . . إلا أن تنشغل حتى تذهب هذه الغمة!

ولم أقل له أننى انشغلت بدراسة عن الحمير - حمير أعماها العنف وحمير أعماها البطش .

- بماذا يا أستاذ؟ بقراءة العبقريات التى كتبتها . . بقراءة الكتب الصوفية والزهد فى الحياة . . باختصار الطريق إلى العالم الآخر ، مادام الأمل أصبح ترفا فى هذا العالم . .

بماذا يا أستاذ؟ . . إننى لم أدرس من الفلسفة إلا ما ينفخ فى عظمة الإنسان وقدرته على الاختيار . . وحريته التى أحس أنها كالهرم على كتفى . . كنت أحسها . . الآن أحس أنها حذاء ضيق . . حذاء به مسامير . . حذاء بلا نعل . . ونعلى هو التراب والزلط فى الشارع . . حذائى فى رأسى يا أستاذ طوق من حديد . . من شوك . . تاج من الخزى ؛ لأننى غير قادر على شىء . . بماذا يا أستاذ؟ بالتردد على المساجد والكنائس . . أكنس الأرض على اللى فى بالى . . أنكش شعرى وادعى عليه دعوة ولية فى ساعة مغربية!

والذى قاله الأستاذ العقاد كالذى قاله الأستاذ لطفى السيد : كالذى قاله الأستاذ حسن البنا عندما خطب فى جمعية الإخوان المسلمين بإمبابة - وكلامهم جميعا أسعد واحدة من أذنى عندما دخلها ، وأسعد الثانية أكثر عندما خرج منها!

***

واستعدت ما قاله العقاد عندما فصل من عمله فعاد إلى أسوان : وصلت إلى أسوان كالساهر الذى طوى الليل بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة إلى طرف الفراش .

«كنت أجور على جسدى ولا أعرف لهذا الجور حدودا أتراجع دونها .

«تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لى كأننى مريض بكل داء . وتملكتنى فكرة الموت العاجل ، فأدهشنى أنى لم أجد فى قرارة وجدانى فزعا من هذه الفكرة ، وكدت أقول لنفسى : إننى أطلبها .

«وكانت صدمة يأسى أشد من صدمة مرضى . .

«وأشد ما أصابنى من هذا اليأس أنه كان يأسًا من جميع الآمال . ولم يكن يأسًا من أمل واحد . كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحياة .

« . . هو الموت إذن ، كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر . . وهو الموت إذن ، أمضى إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا!» .

نعم يا أستاذ - صدقت!

(١٧)

وكان عندنا فى ريف الدقهلية ظاهرة «التجريس» ومعناها : الفضيحة ونقول : يادى الجُرسة . .

فكان إذا سرق أحد يجعلونه يركب حمارا بالمقلوب . . ويزفونه ؛ وذلك بدق الأجراس حتى يلتفت إليه الناس وتعم فضيحته وعقابه أيضًا!

وأول مرة رأيت فيها التجريس ، عندما ضبطوا مدرسا للرسم فى مدرسة المنصورة الثانوية . وقالوا إنهم وجدوا عنده فتاة عارية يرسمها . . موديل . . كما يفعل الطلبة فى جميع كليات الفنون الجميلة فى العالم .

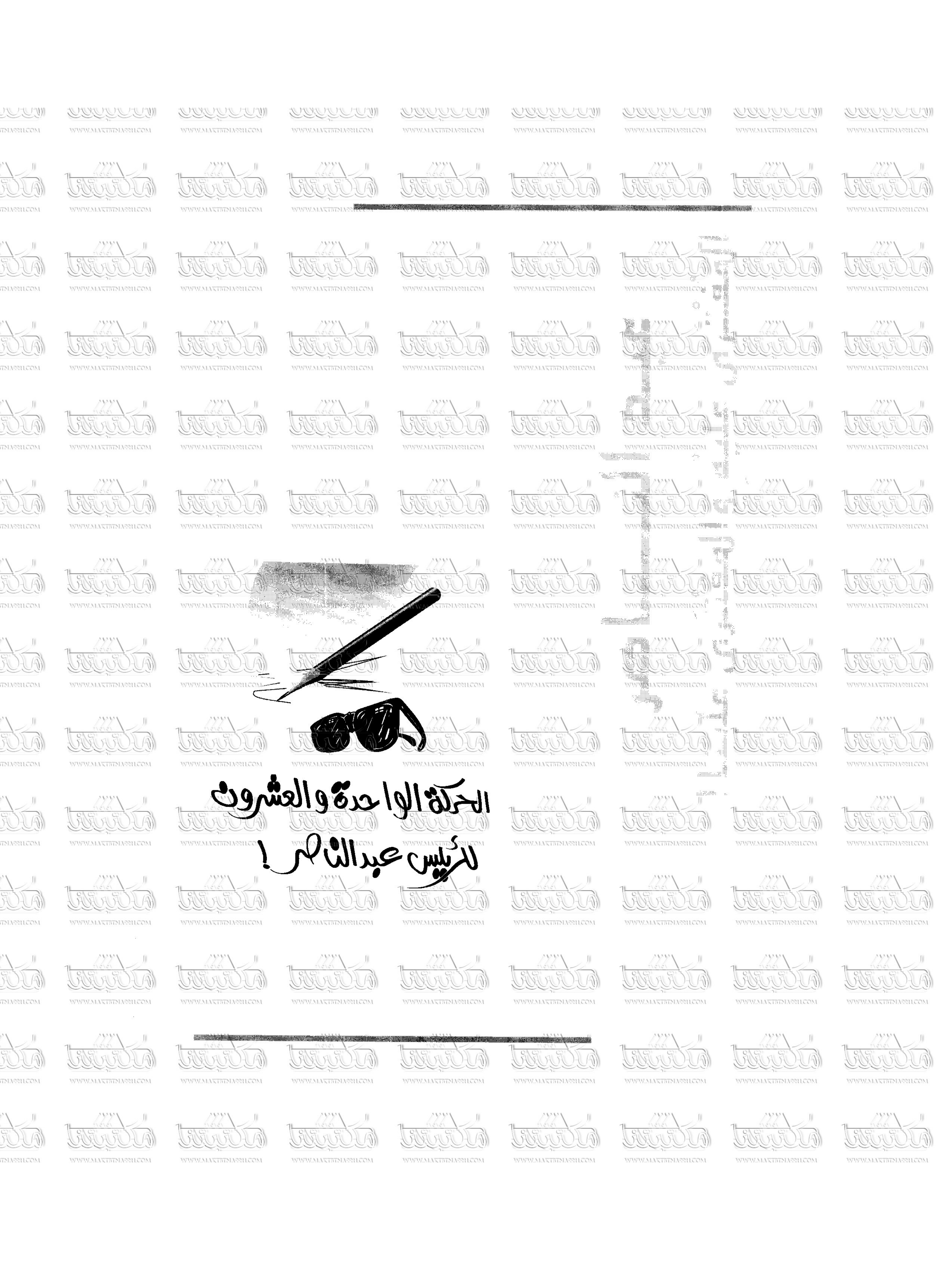
ولم يركبوه حمارا . وإنما صبغوا خديه باللون الأبيض والأحمر - وبعض الناس كان يدق الحلل بالملاعق ، وبعضهم كان يحمل جرسا .

وكان ذلك تعديلا فى التجريس ، لافتقادهم إلى الحمار . . مع أن الحمار كان موجودا : ذلك الذى أصدر قرارا باغيا طاغيا على هذا الفنان المسكين!

(١٨)

ولم أجد موضوعا آخر أنشغل به . . فلم يعد أمامى إلا الهرب من مصر . وذهبت إلى بور سعيد أركب الموج إلى المجهول!

□□□



الحركة الواحدة والعشرون للرئيس عبد الناصر!

الحركة الواحدة والعشرون للرئيس عبد الناصر!

كما تقول أم كلثوم : غلبت أصالح فى روحى!

ولكنى لم أستطع . فالعلاقة بين عقلى وبينى غريبة . . لم أعد أعرف كيف يمكن التفاهم معه . . كيف أعرف منه ، عنه . . مرة أجده مثل صقر دموى المنقار ، ومرة أجده يمامة وادعة الأصابع . . أحيانا ألقى له برموش عينى ، وأحيانا أرمى له الحبوب والسنارة معا . . ما الذى يريد؟ فلسفة؟! لا يريد . . ولا أدب ولا فن ولا تاريخ ولا شطرنج ، فقط هذا الهذيان . لماذا؟ إنه فى حالة عصيان مدنى . .

إنه مثل الكوكو الذى يخرج من ساعة الحائط . . كو . . كو . . مرة مرتين وثلاثا ثم يدخل . . وأنظر إلى ساعتى فأجد أن الكوكو له توقيت آخر .

ولكن ما الذى أريده من عقلى . . لا شىء إلا أن أوقفه مرة وإلى الأبد . . إنه مثل «طائر الشوك» الأسترالى . . ذلك الذى عندما يموت فإنه يظل يطير ويحلق بعيدا حتى يجد شجرة للشوك . . ويختار من شوكها واحدة عمودية . . ويظل الطائر يلقى بنفسه على هذه الشوكة . . ثم يفسح لها مجالا من ريشه الذى ينتزعه بمنقاره حتى يتعرى تماما . . ومرة واحدة وبكل ما تبقى لديه من صحوة الموت ، يلقى بنفسه على الشوكة التى تنفذ فى قلبه ومعها يصرخ أجمل ألحانه . . وينزف دما ويموت - أرفع مستويات الموت!

قال لى على أمين : اشغل نفسك بشىء ما . . أى شىء!

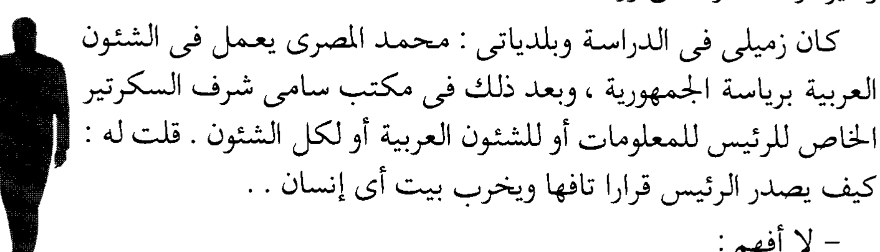
وعلى أمين ليس مثلى . إنه يحدد الأشياء ويسميها هكذا : أمامك شهران تتعلم فيهما الكتابة على الماكينة . . وشهران آخران لتكتب أسرع . . وشهران لتكتب باللمس . . وشهران لتكتب دون نظر إلى أصابعك . . وبعد ذلك سوف تجد أنك اختصرت من وقتك ووقت عمال المطبعة وأخبار اليوم ٨٠٪ . . ولو فعل كل الكتاب والمحررين ذلك لأمكننا إصدار ثلاث مجلات . . حاول . . اسمع كلام على أمين!

ولكن إذا توافر كل هذا الوقت فما الذى أفعله به . . ثم من الذى يريد أن يكون عنده وقت؟ وما معناه؟ عندى أنا أو عند عقلى الذى لا أعرف أين هو من رأسى . . وأين أنا منه . . ولكن على أمين عنده هو وأخوه مصطفى أمين هذه القدرة العجيبة على امتصاص الصواعق . . عندهم سوست تمتص المطبات وتجعلها دغدغة خفيفة . كيف؟!

وانشغلت . ورحت أسأل : عندما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر القرار بفصلى أو حبسى . . كيف أشار بيده . . وهل هو عادة كذلك . . وإذا كان يريد إدخالى السجن ، فكيف كان يفعل ذلك؟ ثم من الذى ترجم هذه الإشارة من ذراعه أو من يده أو أصبع منها على أنه الضياع فى الشارع وليست الإقامة فى البيت وليس الواحات أو القلعة أو السجن الحربى؟

ووجدتها بداية غامضة . وكان من الضرورى أن أحددها . . فالعقل لا يستطيع أن يمشى إلا فوق علامات . . مسافات منتظمة . . من الأرض ومن عقارب الساعة . فلتكن شاغلى الجديد .

ولم أعرف كيف أدرس ذلك عند كل الحكام فى كل العصور . . إننى فى حاجة إلى عقلى لكى يدلنى . وهو لا يفعل . فأنا فى حاجة إلى عقل آخر لكى أهز عقلى وأديره وأطلقه وأنطلق وراءه .



كان زميلى فى الدراسة وبلدياتى : محمد المصرى يعمل فى الشئون العربية برياسة الجمهورية ، وبعد ذلك فى مكتب سامى شرف السكرتير الخاص للرئيس للمعلومات أو للشئون العربية أو لكل الشئون . قلت له : كيف يصدر الرئيس قرارا تافها ويخرب بيت أى إنسان . .

– لا أفهم :



- كيف أصدر الرئيس قرارًا بفصلى بعد الذى نقله إليه على صبرى . كان واقفا؟ جالسا؟ نائما؟ واضعا ساقا على ساق؟ راضيا عن نفسه ، متعاليا على كل الناس؟ كيف أكد القرار بحركة؟ من ذراعه . . يده . . أصبع واحدة . . اثنتين . . مع لمسة لأنفه أو لذقنه أو لأذنه؟ أو واضعا يده فى جيبه . . كيف؟ من الذى يدلنى على ذلك .

وضحك . وأضاف قصصا حقيقية لا أستطيع روايتها . وهذه القصص نقلها عن الرئيس نفسه ؛ عن الذى فعله الرئيس فى الليالى السابقة على الثورة . . وعلى غضبه على محمد نجيب . . وليلة العدوان الثلاثى . . وأنه فى ذلك مثل كل الناس . وهو - أى الرئيس - لأنه لم يقرأ فى علم النفس يندهش لحالته هذه . . وأنه سمع من على صبرى جانبا من كل هذا . . ولولا هذه الصلة العميقة بينه وبين على صبرى ما روى له هذه الحكايات العجيبة .

ولم أعرف من محمد المصرى كيف كان الرئيس - بالضبط - يحرك ذراعيه . . فقال كلاما سمعناه عن هتلر : إن الناس حول الرئيس لايقدرون على النظر إلى عينيه . . فإذا فعلوا عجزوا عن رؤية هيئته كلها!

وفى ذلك الوقت كان لى صديق إيطالى اسمه : فردى . . يقيم فى بولاق . . يعرف المستقبل إذا وضع بينك وبينه كرة من الزجاج . . ينظر إليها وينظر إليك ويقول لك : نحن مشغولون بالسفر . . لن نسافر هذا العام .

وهو يقول : نحن . . يقصد أنه وأنت معا . فهو يتكلم بلسانك .

قلت له : يافردى . . عندك كلام تقوله؟

قال : عندى . . أنت مغفل!

مفاجأة أن ينفذ بهذه السرعة إلى أعماقى . قلت : لماذا؟

- لأنك تتصور أن هذه هى نهاية الدنيا . .

وأنك انتهيت . وأنك الآن عند حافة الكرة الأرضية . وأنك تبحث عن أى إنسان ، أى شىء ، يدفعك إلى الهاوية وتموت . . ثم تلعن المجرم الذى قضى عليك . . مع أنك أنت الذى تستدرج الناس إلى أن يفعلوا بك ذلك . . أو تستدرج نفسك إلى هلاكك . .

- لا أفهم!

- بل تفـهم . ولكنك لا تريد . . لماذا لا تقف على رجليك . . وعلى يديك . . وتصلب طولك . . كل هذه بركات من عند الله .

وتذكـرت أن فـردى مكسح . . وأن يديه ترتعـشـان . . وأنه إذا وقف انكسـر . . وأخجلنى ذلك ونهضت . ولكنه أشار أن أجلس قائلا : أنا زاهد فى الدنيا . أنت تعلم . . أنا راهب أحمد الله . . وأعيش على البيرة والفاكهة والصلوات وما أكسبه أعطيه للفقراء . . ولم أتعلم إلا النظر فى قلوب وعقول الناس ، والباقى بركة من الله . . ولم أفقد الأمل . . وأنت أضعت كل الأمل من أول . . آه . .

لقد حاول أن يحرك إحدى ساقيه ليقول : من أول شلوت!

ثم اقترب ليقول : لأى شىء جئت؟

قلت : أريد أن أعرف منك كيف كان السيد المسيح يحرك يديه وأصابعه عندما يتحدث إلى أتباعه؟

- كيف؟ لا أعرف . . دعنى أبحث . . ولكن لماذا؟

- خطر لى أن أدرس وأن أحلل وأن أشغل نفسى بشىء لا ينفع!

- أنا أدلك على شىء ينفع . . إننى أرى أنك سـوف تعـود إلى عـملك . . ثم سوف تنتقل إلى مكان آخر . . سوف تعود . .

- متى؟

- بعد سنة . .

- سنة؟!

- المهم أنك سـوف تعـود . . هذا عظيم . . وأن ذلك بعـد سنة . . هذا عظيم . . فهل من الصعب عليك أن تستعيد رجولتك وأن تتذكر ما وهبك الله من الصحة والموهبة . . لو كنت أنا المسيح لصلبتك الآن وغرست المسامير فى كل مكان إلا رأسك . . لكى تتعذب لما أصاب جسمك!

شتيمة؟ إهانة؟ حب؟ احتقار؟ عار؟ خرجت ولم أعد!

قابلت صديقى محمد المصرى قال : عندى مفاجأة لك!

- ماهى؟

- كيف تكون مفاجأة إذا أطلعتك عليها .

وسرنا فى سوق التوفيقية . . فى شارع جلال . . عمارة قديمة والسلالم مثل أسنان عجوز أسرف فى التدخين ومصاب بالسكر ، وفوق السطوح وجدنا عددا كبيرا من السيدات . . وقال محمد المصرى : الست فيفى موجودة؟

وخرجت لنا سيدة نحيفة إنها السيدة فيفى كركور الأرمنية قارئة الفنجان . وسمعتها تهمس فى أذنه وتقول : لم يحضر مسيو محمد . . لا هو ولا زوجته . . بعد جنابك بنصف ساعة . . تفضل . . تفضل حضرتك .

وجلسنا وجاءت القهوة فاترة ربما لكى نشربها بسرعة حتى لا نضايق العشرين سيدة فى انتظار دورهن . ثم تقدمتنا ودخلت غرفة . وأمسكت فنجانه هو . فأشار أن تقرأ لى فنجانى . ونظرت فى الفنجان وقالت : ولا يهمك يامسيو . . كله سوف يكون أحسن . . أوه . . أنت زعلان كثير جدا . . ماما زعلان أكثر كثير . .

وكنت على يقين من أن أمى لا تعرف ماذا حدث . . ولكن تأكدت أن ما قالته السيدة فيفى صحيح تماما فزاد حزنى على نفسى وعليها . هل محمد المصرى ، كرجل مخابرات ، يتابع نشاط بعض الناس عن طريق قارئة الفنجان؟ ممكن . فأكثر اللاتى والذين يعملون فى الكف والفنجان والأرواح يتقاضون مرتباتهم من المباحث والمخابرات - فى كل الدنيا!

وضايقنى أن يكون صديقى محمد المصرى كذلك - ولكن هذا أكل عيشه . وهذا عمل وطنى - إنه واحد من الذين يدافعون عن الأمن القومى .

قلت لمحمد المصرى : عندى سؤال؟

قال : وأنا عندى جواب .

ووقفنا على السلم نعترض الطالعين والنازلين . وهو يشرح لى كيف يتحرك الرئيس عبد الناصر وهو واقف . . وهو جالس وهو نصف نائم فى السرير . . وأن أكثر حركاته برأسه وكتفيه وبذراعه كاملة - كأن ذراعه بلا كتف وكأن كفه بلا أصابع - هذا آخر ما اهتدى إليه من سؤال عدد كبير من الذين حوله .

وتعلقت من أذنى كثيرا وطويلا وعميقا كلمات الأخ فردى . .

وفى يوم جاءنى ساعى مكتبى ومعه خطابات ورسائل . وفتحتها ووجدت إبراهيم سعدة ، وكان طالبا فى سويسرا ومحررا فى مجلة «الجيل» مازال يواصل كتابة قصص الناجحين من أبناء مصر فى أوروبا . . وكان من عادته أن يكتب

مقالاته على الماكينة ، مع أن خطه العادى جميل جدا . وكانت عباراته حارة ملتهبة . إنه يتحدث عن الناجحين ويريد أن تنتقل حرارة العبارة إلى قلوب الشباب فيذيبوا الحديد ، ولأول مرة أحسست أنه يحدث واحدا ورائى . . ليس أنا فليس عندى استعداد أن أسمع قصص النجاح ، ولا أعرف كيف كانت ولا كيف تكون . . وتمنيت لو أعدت إليه مقالاته كلها مع هذه العبارة . . انشرها فى سويسرا . . فقد استولى الرئيس عبد الناصر على رصيد الناس من الأمل ، ومدخراتهم من الشجاعة!

وجاءنى صديق أديب من بور سعيد «ف . .» وقال إنه يعرف على صبرى عائليا . وأنه سأل وتحقق من أن الرئيس عبد الناصر عندما يكون غاضبا فإن يده تسبق لسانه . . أما ألفاظه فلا يصدقها عقل . . وأما حركة أصابعه فحدث عنها ولا حرج . . وأهم حركات أصابعه أنه يحرك أصبعه الوسطى إلى أعلى وإلى أسفل . . وحتى لا يكون أى سوء فهم . فإنه يؤكد كل حركة بكلمة . . وليس من الضرورى أن يقدم تفسيرا لذلك . . فليس هو الذى يفسر أو يبرر . . إنه يأمر فقط!

إذن هى أصبعه الوسطى . .

وكان الإمبراطور الطاغية كاليجولا إذا قرر إعدام أحد أمسك أذنه اليمنى بيده اليسرى واستدار ليصدر حكما دون أن يرى المحكوم عليه . . وقبل أن يعود إلى وضعه السابق تكون الضحية كومة على الأرض . .

وكان نابليون يفضل أن يصدر أحكامه واقفا حتى فى مجلس الوزراء . . أى يظل جالسا طول المناقشة وسماع وجهات النظر فإذا جاءت لحظة القرار انتفض واقفا ليكون أطول وأعلى وأسمى من الجميع ثم يستند بذراعيه على المنضدة ويحنى رأسه إلى الأمام ويكون القرار . . فإذا انحنت الرءوس أمامه . انتصب واعتدل واستقام ورفع يده اليمنى وقد ضم أصابعه جميعا دليلا على القوة والحسم والحزم فإذا حاول أحد من مستشاريه أن يستوضح . هنا تتباعد أصابع يده كأنها كانت نائمة فى كفه ثم راحت تصحو واحدة واحدة . . وتنيب عنها أصبعه الوسطى فيعترض الإمبراطور على أى اجتهاد أو محاولة لذلك!

وكان من النصائح التى قالها العرافون للنساء حول نابليون : لا تطلبن منه شيئا إلا إذا كان جالسا حين يكون هادئا مستسلما أما إذا وقف : فلا كلمة ولا رغبة . . ولا حتى قبلة . . فإنه يكون مثل بندقية تم حشوها وأصبعه على الزناد!

تقول ماريا فلافسكا عشيقة نابليون البولندية : أكون فى حضنه . . فيكون للكلام أى مدلول سياسى . . فجأة أجد أصبعه الوسطى قد انغرست فى لحمى . . ولا تخف وطأة هذه الأصبع إلا بعد أن يشرح وجهة نظره . . ولاحظت أنه يفعل ذلك فى يقظته أيضا!

قلت للأخ فردى : تعرف حياة القديس فرانشيسكو . . قديس الرحمة والمحبة .

– طبعا . أنا فرانشيسكانى كما تعلم . يعجبك؟

– جدا وقد زرت مدينة اسيزى التى عاش ومات فيها ورأيت الكنيسة . . ووقفت طويلا أمام الجدران التى عليها كل الحيوانات التى أحبها . . وليس على الجدران إنسان واحد . .

– ماذا تريد؟

– سوف أقول لك حالا . . لقد رأيت يد القديس مرفوعة إلى السماء . . يدا واحدة . . وكانت بلا أصابع .

– أنت ما تزال تبحث عن أصابع الملوك والرؤساء . . إننى لا أذكر أننى رأيت هذه اللوحة . . ولكن دعنى أفتش عنها . . هات هذا الكتاب . . (وأشار إلى أحد الرفوف) سوف تجد كل اللوحات التى رأيتها فى الكنيسة . .

قلت : هذه اللوحة . هذه بالذات . . انظر إلى ذراع القديس . . إلى كفه . . بلا أصابع . .

قال : طبعا بلا أصابع . . فلا يصح أن تشير بأصابعك للرب . . فقط أن تجعل يدك كفا . . وعاء . . طبقًا . . منديلاً . . تهبط عليها بركة الرب . . فالأصابع والإشارة بها إنما تكون للناس وبين الناس . . صحيح أن كل لوحات وتماثيل السيد المسيح فيها ذراعان وكفان وأصابع . . ولكن ليس من بينها واحدة يشير بها إلى الإنسان .

– وما رأيك فى هذه اللوحة . . إن القديس يشير إلى السماء وقد ظهرت فى كفه أصابع . .

- نعم . . بعد أن نزلت البركة عليه . . وبعد أن انتقلت إلى الناس . . عادت كفه وبها أصابع بشرية!

وهززت رأسى أحاول أن أدفع هذه المعانى إلى رأسى . . ولكنها انحاشت . . ووقفت طيورا تنقر قفصا . ولم تدخل!

وفى مكتبة «الكتاب الفرنسى» التى تملكها الآنسة إيفيت فرزلى صاحبة الفضل الكبير على مئات المثقفين المصريين بتوفيرها الكتب وروحها المرحة ، وسعة صدرها ، التقيت به . . إنه واحد مجهول . ولكنه قدم نفسه هكذا : أنت لا تعرفنى . ولكنى أعرفك وأعرف عنك . . وأريدك أن تعرفنى . . جرب!

- ما الذى أجربه؟

- ما سوف أقوله لك . . أنا مدرس للغتين الفرنسية والألمانية فى باريس . . ولى اهتمامات فلسفية . . ولكن اهتمامى الأكبر هو «الطاروط» .

ولم أكن قد سمعت هذه الكلمة من قبل . ولا أعرف ماهى . وفى فندق سميراميس جلسنا فى غرفته . . إنه السيد موريس مورجنتال . أما «الطاروط» فهو نوع من الكوتشينة فى حجم الكف ٠٠«١٧» ورقة أو «١٩» ورقة . وهو يقرأ الطالع بعد قراءة الكف والفنجان ويقلب أوراق الطاروط . . قال لى : عرفت من إيفيت فرزلى ماذا جرى لك . . ولكن الأوراق تقول إن الرئيس عبد الناصر لا يعرفك . . ولا يضمر لك شرا من أى نوع . . ولو اتسع وقته ما أصدر هذا القرار . . ولكن أنت تعلم أنه ليس عند الرؤساء وقت كثير لأشياء كثيرة وأكثر خطورة وأهمية . . لا تؤاخذنى . . وقرارات الرؤساء تجىء نتيجة للعرض الحسن أو السىء لمبرراتها . . وكان من الممكن أن تروح فى ستين داهية لو أن الذى قرأ مقالك ذهب إلى الرئيس وقال له : لم أقرأ أسوأ ولا ألعن ولا أخبث ولا . . ولا . . ولكن يبدو أن الذى عرض مقالك فعل شيئا أهون من ذلك كثيرا . . لعله أراد أن يحط من شأنك وشأن كل ما تكتبه أنت ومصطفى أمين وعلى أمين وربما كل الكتاب العرب ، فكان رد الفعل هينا لينا هكذا .

وقبل أن أفكر قال : أنا أعرف على صبرى . .

ولذلك فهو يدافع عنه وعن القرار؟!

قلت : أنت لا تريد منى أن أقول آه . . يجوز أن هذا قرار تافه عند السيد الرئيس . ولكن هذا التافه قد عصف بى . . أطاح بى . . فككنى . . أذابنى . . خلطنى بالهواء والتراب . . أعاد تفنيط حياتى . . ثم مسح الأرقام والصور من كوتشينة مستقبلى . . هل هذا هين؟

وروى لى قصصا بشعة من حياته . . وكيف أنه وأباه وأمه وأخوته قد نجوا بمعجزة من أفران الغاز النازية . . ورغم كل ما حدث ، وكل أثر فى النفس ، فعنده أمل . . وهو الآن أحسن ألف مرة مما كان عليه فى الأربعينيات ونهاية الحرب .

ونسيت هذا الرجل . .

ولكن بعد ذلك بسنوات ذهبت لزيارة عبد الحليم حافظ فى مستشفاه فى باريس وكنت عائدا من المغرب . وروى عبد الحليم حافظ أنه مع بليغ حمدى قابلا حاخاما يهوديا فى باريس . هذا الحاخام – موريس مورجنتال – قد أكد لهما أن «أم أمين» حرم الموسيقار محمد الموجى – قد وضعت له «عملا» فى ملابسه . . وفى سريره . ولذلك يجب أن يكشف هذا «العمل» ويحرقه . . واتصل عبد الحليم حافظ بأخته السيدة علية شبانة وطلب إليها أن تغير ملايات الفراش . . وأن تحرق «العمل» الذى سوف تجده حتما . وكتبت أنا هذه القصة فى «آخر ساعة» . ولم يستطع عبد الحليم ولا بليغ حمدى أن يعلقا عليها . . فلم أسمعها وحدى ، ولكن كان معى المصور المشهور فاروق إبراهيم .

وكنت قد عرفت من موريس مورجنتال أيضا : أن الطالع يمكن قراءته على الأصابع . . وأن كل مواليد برج يستخدمون أصبعا معينة عند الكلام . وسألته عن برج الرئيس عبد الناصر . . فأكد لى أنه يستخدم أصبعه الوسطى – بالضبط!

***

وتذكرت لوحات الفنان العظيم ميكلونجلو التى رسمها فى «سقف» كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان فيما بين ١٤٧١ و ١٤٨٤ فظل معلقا من السقف حتى تصلبت عروق رقبته وبرزت غدته الدرقية . . وفى هذه التحفة حكى لنا قصة خلق الكون . . انفصال النور عن الظلام . . وخلق الشمس والقمر . . وانفصال المياه عن الأرض . . ثم خلق آدم . . وحواء . . والخطيئة . . والخروج من الجنة . . وطوفان نوح . . ونوح عندما صنع النبيذ وأسرف فى شربه . .

ثم أكمل هذه التحفة الرائعة منذ أكثر من ٤٧٥ عاما (١٥١٢ - ١٩٨٨) ويوم احتفل الفاتيكان برفع الستائر عن هذا العمل الجليل ، نسوا دعوة الفنان ليشهد انبهار الناس بهذه المعجزة الفنية .

فما الذى تذكرت . . تذكرت . . اللوحة التى يصور فيها ميكلونجلو كيف خلق الله آدم . . أو كيف أحيا الله آدم بعد أن خلقه تمثالا من اللحم والعظم والدم . . وفى اللوحة تجد الله - سبحانه - على شكل رجل كبير السن كثير الحيوية والنور يرتدى ثوبا ورديا وقد مد ذراعه القوية . ومن كفه امتدت أصبع . . هذه الأصبع لمست أصبعا مستسلمة لآدم . . بل كان آدم كله فى حالة انتظار للحياة والنور والعقل . . وكانت الأصبع الرابعة السبابة . . ومن أصبع الله - سبحانه - إلى أصبع آدم انتقلت الروح . . لمسة الحياة . . رعشة الوجود . . ومضة الحكمة . . الأمر بأن يكون فكان .

وفى أذنى ما قاله على أمين : اشغل نفسك بأى شىء!

ووجدت كتبا كثيرة تشغلنى : ما كتبه الأساتذة : أميروزو وأرجيلى وبابنهاور وشيكوريل عن «الجسم كأداة للتعبير» وهايز وسليجمان وفايس وفوجلين وآخرون . . وأحصيت حركات الأصابع فكانت ثلاثين . . اخترت منها عشرين لعلى أجد منها حركة السيد الرئيس :

١ - أن تقبل أطراف أصابعك . . أو كأنك تفعل ذلك . وهذه الحركة دليل على الامتنان . ولا أظن الرئيس عبد الناصر قد فعل ذلك! ولا أظننى!

وهى صورة مختصرة للقبلات . وبعض القبائل البدائية لا تعرف تقبيل الأصابع ولا حتى تقبيل الفم ، وإنما تقبل الأنف وأحيانا الأكتاف كما تفعل دول الخليج والسودان .

والقبلة هى صورة متطورة للتغذية عن طريق الفم عند الحيوانات . . أى التغذية من فم إلى فم .

وكذلك الرضاعة عند الصغار . .

وهناك قبلات للخد واليد والركبة وطرف الثوب والقدمين . . والأرض أمام القدمين . . والجزمة . وكلما هبطت القبلة كان ذلك دليلا على الضعف والذل .

وهناك التقبيل فى الهواء ؛ لأن الشيء الذى يجب تقبيله بعيد أو مرتفع أو هو حرام . . ولذلك نجد أننا نقبل اليد ونلقى بالقبلة من بعيد . . وكان ذلك مألوفا عند الإغريق والرومان من ألف سنة . . وكان الإغريق يفعلون ذلك عند الخروج من المعابد . والملك كان يلقى للشعب بقبلاته فى الهواء .

٢ - لف أصبعين حول بعضهما البعض . . وهذا دليل على أنك موافق . . أو دليل على التفاف الأمور بعضها حول بعض . . أى هناك مشكلة «لعبكة» ويقال فى بعض الدول الأوربية : إن التفاف الأصبعين يشير إلى محاولة رسم صليب . . تصلب الأصبعين للوقاية من الأرواح الشريرة . .

أو إنه هو الحظ وذلك عن طريق ربط الأصابع والأشياء بعضها ببعض .

٣ - الأصبع فوق الأنف : دليل على السخرية «على الأنفة» .

٤ - ضم الأصابع معا : وهذا يدل على التساؤل . . ويقال أيضا : إنها دليل على القوة والتماسك . . أو جمع الشتات . . أو هى دعوة إلى الهدوء . . أو التأنى . .

٥ - الضغط بالأصبع خلف الخد : وفى بعض الدول الأوروبية يرون فى ذلك دليلا على التفوق . .

٦ - سحب جفن العين الى أسفل : دليل على أنك فى غاية اليقظة وأنك لست نائما على أذنيك . . وإنما أنت مفتوح العينين لكل ماحدث وسوف يحدث أو هى دعوة إلى ذلك . . أو كأنك تقول : إننى لم أسمع هذه القصة وإنما رأيتها بعينى هذه . .

٧ - رفع الكف إلى أعلى مع ثنى الذراع - وليس لها دلالة واضحة عندنا . ولكن فى الدول الأوروبية لها دلالة جنسية .

٨ - مد الكف والكشف عنها قليلا . . هذه الحركة الأوروبية الواسعة الانتشار - ليست معروفة عندنا - معناها الخروج من الأزمة . . الخروج كالشعرة من العجين .

٩ - استدارة الأصابع على شكل دائرة . . خاتم . . أو حرف (O) فى التعبير (ok) . . أى موافق . . أو معناها : سوف ترى . . أو مضبوط . . أو : أنا أعجبك!

١٠ - جعل الأصابع على شكل قرنين : وواضح أنها إهانة جنسية!

١١ - جعل الأصابع على شكل قرنين أفقيين - ولها نفس المعنى السابق!

١٢ - ضم الأصابع مع إخراج واحد من بينها : ولها فى أوربا دلالة جنسية!

١٣ - إرجاع الرأس إلى الوراء ، ولا يهم مكان اليدين وحركة الأصابع . . ومعنى هذه الحركة : الرفض . . أو اللامبالاة . . أو الاعتراض أو التعالى . . فنحن عندما نرفض فإننا عادة نهز رءوسنا وندفعها إلى الوراء مع ضم الشفتين .

ومن أجمل الدراسات لهذه الحركة بالذات ما كتبه العالم الكبير داروين فى كتابه «التعبيرات العاطفية للإنسان والحيوان» الذى صدر سنة ١٨٢٧ . فقد لاحظ داروين أن أشكال الرفض موجودة غريزيا عند الطفل ، فهو عندما يرفض ثدى أمه أو الطعام فإنه يبعد فمه ، ثم رأسه كله إلى الوراء - بعيدا عن الثدى أو عن الملعقة .

ونحن لكى نحمى رءوسنا بعيدا عن الخطر ، فإننا نبعدها . . أو نميل بها إلى الوراء .

١٤ - لمس الذقن بالأصابع : وهى من عادات الرئيس عبد الناصر ونهرو وهتلر وموسولينى وأتاتورك والراقصة بديعة مصابنى وريا أخت سكينة . . ومعنى هذه الحركة : عدم الاهتمام . . اللامبالاة . . الرفض . . عدم التصديق . . أو معناها : أن لحيتى طالت وأنا أستمع إلى حكايتك . . فهى حكاية مملة - والرؤساء عندهم ملل!

١٥ - مسك الخدين : ومعناها أن فلانا هذا مريض . . شاحب . . وكان الجمال عند الإغريق فى الوجه البيضاوى . . وهذه الحركة إشارة إلى هذا المعنى .

١٦ - رفع أصبع الإبهام بما يدل على الموافقة . . إنك على الطريق الصحيح . . أو : إنك أحسنت . . Ok . .

والشبان الآن يرفعون هذه الأصبع يعترضون السيارات ويطلبون إليها أن توصلهم إلى أى مكان . . وعند الرومان كان الإمبراطور يستخدم هذه العلامة ، أمرا بتنفيذ العقوبة : خنقا . . شنقا . . حرقا . . أو إطلاق الوحوش على الضحية!

ولا أظن الرئيس عبد الناصر قد فعل ذلك . . ولا حتى عندما أمر باعتقال ألوف الإخوان المسلمين والإخوان الشيوعيين .

١٧ - الضغط بالأصابع على الأسنان برفق دليلا على الإهانة وعلى الاحتقار . . وأن الشخص الذى تتحدث عنه لا شىء . . لايمكن أن يدخل الفم . . بل هو أحقر من ذلك . .

وكان الإمبراطور فريد ريش باربا روسا (ذو اللحية الحمراء) هو أول من ابتدع هذا التعبير وله قصة بشعة . فقد كان يرغم الأسرى على أن يستخرجوا بشفاههم التفاحة التى أودعت فى مؤخرة أحد البغال - ولم نعرف هذه الوفرة فى التفاح!

فهذا الإنسان المشار إليه - إذن - ذليل حقير!

١٨ - الضغط بالأصابع على جانب من الأنف معناه : موافق . . أستطيع أن أشم ذلك . . ويقال معناها : احترس . .

أو إن لى أنفا شديد الحساسية وإننى أشم شيئا مخيفا فى الهواء!

الحركة العشرون : على شكل الحرف اللاتينى (V) هذه العلامة قد نشرها تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية رمزا للنصر . ولكن تشرشل ليس أول من ابتدعها . . وإنما ابتدعها محام بلجيكى اسمه فيكتور لافلاى فى يوم ١٤ يناير سنة ١٩٤١ . وكان يرسم هذا الحرف (V) على الجدران لكى يغيظ الألمان .

وقد اتخذت الإذاعة البريطانية وكذلك إذاعة «صوت إسرائيل» حرف (V) للدلالة عليها مستخدمة إشارات مورس : نقطة نقطة نقطة وشرطة .

ثم استخدم الألمان هذا الحرف أيضا ، ولكن جاء ذلك متأخرا عن تشرشل الذى نشره فى العالم!

وكان الرئيس جمال عبد الناصر لم يصب بعد بمرض «بيرجر» . . جاءت الإصابة بعد نكسة سنة ١٩٦٧ . وكنت أول من كتب عن هذا المرض فى «أخبار اليوم» بعد خمسة أيام من وفاته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ . ومن أعراض هذا المرض أنه يؤدى إلى «تخثر» فى شعيرات الساق مما يجعل الرئيس عبد الناصر عاجزا عن الحركة . وقد أصيب الرئيس عبد الناصر بالسكر بعد النكسة مباشرة فكان السكر والإسراف فى التدخين والتوتر المستمر وتعاطى المنبهات والمنومات سببا فى إصابته بمرض «بيرجر» الذى تجده فى القواميس الطبية تحت عنوان : مرض اليهود . فهو منتشر بين اليهود فى بورصة نيويورك ولنفس الأسباب . . وقد سافر الرئيس

عبد الناصر سنة ١٩٦٨ للعلاج فى تسخالطوبو - بروسيا ولا يهم ما الذى أعطاه له الأطباء . ولكن المهم «طريقة » العلاج . . ولم تكن الطريقة متطورة . . ولذلك ساءت حالة الرئيس عبد الناصر مما أدى إلى وفاته - ويرى الزعيم الصينى شوان لاى أن الروس قتلوه!

ومن أعراض هذا المرض أيضا أن صاحبه بسبب عجزه عن تحريك الساقين فإنه يبالغ فى حركة الذراعين ؛ لأنه يخشى أن يصيبهما ما أصاب ساقيه . ولذلك يسرف فى تحريك الذراعين واليدين والأصابع . بل إنه حريص على أن يفتح يديه ويمد أصابعه فى كل مناسبة حتى يصعب عليه أن يمسك شيئا بيديه ، تماما كما أن مخه أيضا يعجز عن «عقل» الأشياء ؛ أى ربطها والإمساك بها!

ولذلك كان من السابق لأوانه أن أبحث إن كان الرئيس قد استخدم حركة غير هذه الحركات العشرين . . أو استخدمها كلها فى وقت واحد ، كما نرى فى أفلام هتلر التسجيلية . وتكون هذه هى الحركة الواحدة والعشرين .!!

وكان هذا المقال عن مرض الرئيس بداية لسلسلة ظهرت فى كتاب بعنوان : (وكانت الصحة هى الثمن) . ولم يكد المقال يظهر حتى استدعانى السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية . وذهبت إلى بيته فى الدقى . وهو رجل مؤمن طيب القلب . وقد حذرنى من نتائج هذا المقال : وقال لى : إن على صبرى يعتقد أنك تغمز وتلمز وأنه هو المقصود . ولذلك أنصحك أن توضح فى مقالك التالى أنك لا تقصد ذلك .

وفعلت دون إشارة إلى ما قاله السيد حسين الشافعى .

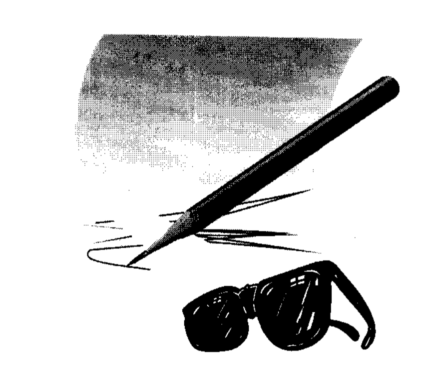
بعدها بأيام أردت أن أتأكد من ملاحظاتى على تعبير الرئيس عبد الناصر بيديه عند إصدار القرار ، فجلست أتفرج على مسلسلة تليفزيونية فى التليفزيون البريطانى لمحمد حسنين هيكل عن الرئيس جمال عبد الناصر . المسلسلة طولها ثلاث ساعات . تحدث فيها عن كل شىء فى حياة الرئيس وقراراته تساعده أفلام تسجيلية للرئيس فى نشاطه العام وحياته الخاصة . مثلا وهو يلعب الكرة مع أطفاله بالبنطلون والبلوفر والشبشب بينما والده عبد الناصر حسين بالطربوش جالس تحت الشجرة . رأيت

الرئيس يتحرك ككل . نصفه العلوى بنيان خرسانى متين وساقاه نحيلتان . ويتحدث إلى الأطفال بكل جسمه . وبكل ذراعيه . وفى لقاءاته السياسية والجماهيرية ، لم أتمكن من ملاحقة يديه وأصابعه . . والجديد الذى عرفته بعد ثلاث ساعات مسلية أن الرئيس فى إحدى رحلاته كان نائما فى القطار ، ثم أيقظوه يقولون إن الجماهير تنتظره على المحطات .

ونهض الرئيس امتنانا للجماهير . وضحك محمد حسنين هيكل كثيراً جداً : فقد وقف الرئيس لتحية الجماهير بلا بنطلون؟!

وأغمضت عينى وراء دموع الضحك ففاتنى أن أرى كيف كانت ذراعا الرئيس وأصابعه ونسيت أن أستعيد هذا المشهد!

□ □ □



ولكن الرئيس يريد أن يضحك!

ولكن
الرئيس يريد أن يضحك!

بدلا من أن أكلم نفسى كنت حريصا على أن ألتقى مع صديقى الفنان حسن فؤاد فى مدينة الملاهى بإمبابة .. هيصة .. ونحن الاثنان نتكلم وسط الضوضاء والزحام . كلامنا زعيق والعبارات ناقصة .. ونحن لا نتوقف عن الكلام دون إقناع - لا هو أقنعنى ولا أنا . ولكننا نتشابك بالأيدى والأفكار .

أقول له : تفتكر لماذا المجىء إلى الملاهى؟ .

هو : أبدا .. إن هؤلاء الأراجوزات عمال مثلنا .. عمال دمهم خفيف .. ونحن عمال دمهم ثقيل .

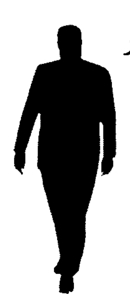
أنا : بل لأننا نحن أراجوزات مثلهم .. فكل مكان هو سيرك يديره الرجل القوى .. ونحن لسنا أكثر من بهلوانات مربوطة بخيوط من أصابع الحاكم الفرد .. يلهو ويلعب كيف يشاء وفى لحظة واحدة .. أقصد فى نزوة واحدة يلقى بك وكل الذى تعلمت وكل الذى أنفقه أهلك عليك وكل آمالك وآمالهم فى الزبالة .. لا منطق .. ولكنه أراد فكان له ما أراد .. ونذهب نحن إلى كتب الفلسفة نبحث عن الكلمة المناسبة لما اقترفه السيد الرئيس عبد الناصر فنجد كلمات : القدر .. المصير .. نقطة التحول .. وكلها كلمات كبيرة ضخمة ، لا معنى لها .. وإنما المعنى الحقيقى : نزوة الرجل القوى . والسيرك هو المكان المناسب الذى يجعلنا نداري خجلنا فى الضحك .. فبدلا من أن نستشعر العار ، فإننا نكذب على أنفسنا ونضحك على الأراجوزات ، مع أنهم صورة لنا .. ونحن نضحك عليهم كأنهم أناس آخرون .. كأنهم غيرنا .. هل تعرف ماذا يحدث

عندما تفاجأ بسيارة تكاد تدوسك . أنت تضحك . . مع أن الموقف لا يبعث على الضحك . . ولكن الضحك وسببه هو أنك بسرعة أخفيت خوفك فى ضحكتك ، أخفيت شعورك بأنك ضحية . . حاولت أن تعلو فوق الموقف ، فبدلا من أن تدوسك السيارة كأى شىء أو حيوان آخر . فإنك تضحك ؛ لأنك تتفرج على واحد مغفل آخر . . وكذلك نحن فى السيرك!

هل عندما فكرت فى أن أكتب مسرحية كوميدية ، كان ذلك نوعا من الاندماج فى هذا السيرك . . أو كنت أحاول أن أجد شيئا مقبولا أجيب به عن أسئلة على أمين : هه . . وماذا فعلت اليوم؟

فهو يطالبنى كل يوم بأن أنشغل بشىء مفيد . أن أكون إيجابيا . كأننى وابور زلط . . عندما وجد حائطا استدار ليحطم الزلط والحجارة فى مكان آخر . . بهذه السهولة؟!

وفى يوم وجدت الصحفى اللبنانى سعيد فريحة صديق مصطفى أمين وعلى أمين يدعونى إلى بيت فاتن حمامة وعمر الشريف . وهى تسكن عمارة لوبون – فوق شقة على أمين . . ولم أشأ أن أسأل عن سبب هذا اللقاء – ولم أستبعد أن يكون على أمين هو الذى دبر ذلك . أما الموضوع فهو أن سعيد فريحة يريد إنتاج فيلم لفاتن حمامة ، تكون قصته من أعمال الكاتب اللبنانى خليل جبران . وجاء بكتاب معه ، وأشار إلى إحدى القصص . وطلب منى تمصيرها بما يتناسب مع فاتن حمامة وعمر الشريف . وكانت فاتن حمامة لطيفة رقيقة . وكانت تنظر لى كممثل جديد سوف يظهر معها فى أحد أفلامها . وقالت : سهلة جدا . . أنت تكتب كل يوم . . وأنت طبعا تعرف كيف تبدأ وتنهى قصة . ولكن معالجة الشخصيات وتصويرها يجب أن تكون مناسبة لى أنا وعمر .



ولا أتذكر أننى شاركت فى كل المناقشات التى دارت . فأنا غير قادر على التركيز . وغير مستعد نفسيا أن أقرأ أو أكتب . عاجز تماما . معوق . . هناك خلل ما وقع فى حياتى . هناك أسلاك تمزقت . . أو حدث بينها «تماس» فاحترقت فانقطع الاتصال بين رأسى وبقية قدراتى على عمل شىء .

وبسرعة كتبت قصة فيلم لا علاقة له بفاتن حمامة . . ثم نشرت هذه القصة بعنوان «القلب لا يمتلئ بالذهب» وأهديت هذه القصة الغنائية الراقصة إلى «فرقة رضا» . . وبسرعة غريبة اتصل بى الأستاذ فؤاد الجزايرلى . وقال إنه مستعد أن يكتب الحوار والسيناريو . . وفى وقت قصير فرغ من ذلك . ولم أكن جادا فى إعداد هذه القصة ولا فى إهدائها . وإنما فقط أحاول أن أتمرد . . وألا أكون عند حسن ظن أحد من الناس . . فقد ساء ظنى بنفسى وبكل الناس . وهذه القصة ظهرت فيلما تليفزيونيا بعد ذلك بطولة المطرب عبد اللطيف التلبانى ونادية الكيلانى .

ولم يسألنى سعيد فريحة ولا فاتن حمامة . وكأنهما كانا يتوقعان ، إن كتبت شيئا ، أن أخبرهما بذلك . فلا فعلت ، ولا كان اتصال بيننا . وقد قابلت فاتن حمامة وسعيد فريحة بعد ذلك مرات كثيرة!

وبدأت أجدد معلوماتى باللغة العبرية . وذهبت إلى أستاذ أساتذة اللغات السامية د . فؤاد حسنين فى المعادى . واخترت له كتاب «دلالة الحائرين» للفيلسوف ابن ميمون الذى كان طبيب صلاح الدين الأيوبى . الكتاب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكانت متعة فلسفية ولغوية أيضا .

وبعد ذلك عاودنا دراسة اللغة العبرية الحديثة : أحمد رجب وأنا . وكان يمر علينا فى البيت مدرس شاب ، وقد لاحظ تقدمى الذى أذهله . . وفى يوم قال : أنت لم تعد فى حاجة إلىَّ ، يمكن أن تمضى وحدك .

والحمد لله أنه قال ذلك . فقد كان فى نيتى أن أطلب إليه ألا يجىء . ولكن حيرنى أدبه . فقد مللت هذه الدراسة الميكانيكية .

وقررت مع على حمدى الجمال أن ندرس اللغة الروسية . وسهل لنا ذلك أحمد السباعى شقيق يوسف السباعى . . فكان وقتها يعمل فى المركز السوفيتى . وقال لنا إن فى الإمكان إرسال مدرس يتردد علينا فى أى مكان نراه مناسبا . . واشتريت الكتب والقواميس . وكان الدرس الأول والثانى والثالث . ورغم حرصى على أن أتعلم فقد وجدت أن دراسة اللغة الروسية فى ذلك الوقت بالذات ، تشبه دراسة اللغة الإنجليزية بسبب الاحتلال البريطانى - أو اللغة الألمانية مع اقتراب قوات النازية من حدود مصر ، ورغم أنه من الضرورى أن ندرس اللغات ، أى عدد منها ، فقد ضايقنى هذا الإحساس الذى كان تصديا وترديا - تصديا للملل والقرف وترديا فى النفاق السياسى . مع أنه لم يكن هناك أحد أنافقه . فلا لى دور سياسى

ولا أعرف أحدا روسيا لا فى المركز السوفيتى ولا خارجه . ولكن أسعفنى هذا الشعور ، فتوقفت عن دراسة اللغة الروسية .

***

وفى يوم اتصلت بى الفنانة برلنتى عبد الحميد . . وبصوتها الممتلئ القاطع قالت فى التليفون : سوف تعود إلى عملك . . هذا خبر أكيد . . ليست أمنية . خير . . وأنا طلبتك لأؤكد لك ذلك . مبروك .

ثم عادت واتصلت بى مرة أخرى لتقول : يبدو أنك لم تصدقنى . ولكن لو عرفت من الذى قال؟

قلت : من؟

قالت : صلاح نصر . قال لى شخصيا . وهو كما تعرف! .

وفى الليل فى بيت مصطفى أمين سألته : يامصطفى بيه من هو صلاح نصر؟

لابد أن أصور لك مصطفى أمين ، إن لم تكن تعرفه فهو ضخم الجسم والرأس . وأعجب ما فى رأسه : عينان لامعتان حادتان قاسيتان . فيهما تساؤل واتهام . . فهما عينا وكيل نيابة وفيهما بريق ضابط بمباحث أمن الدولة شعبة مكافحة الإرهاب : اندهاش واستنكار واتهام بالسذاجة والعبط – اتهامى أنا طبعا – وأنا لم أكن سمعت باسم صلاح نصر . ولا أعرف ما الذى يشغله فى دولة مصر . ولا جاءت مناسبة من أى نوع تردد فيها اسم صلاح نصر .

وكأننى كفرت بالله واليوم الآخر ، فسألنى مصطفى أمين : لا تعرف من هو؟!

– والله لا أعرف!

– ولا قرأت اسمه؟

– أبدا .



– وإذا قلت لك من هو هل تستطيع أن تمسك أعصابك؟ . . إذن لابد أن أربطك بالحبال قبل أن أقول لك من هو .

– من هو؟

– مدير المخابرات العامة . . ولكن لماذا تسأل عنه؟

وهنا تقدم على أمين بدور بابا نويل والحاكم المطلق فى عالمى المضطرب والمسئول عن إعادة العلاقات بينى وبين نفسى والعالم حولى فقال : اسمع يا أنيس . . إياك تكون قد عدت إلى الإخوان المسلمين . . وفى نيتك أن تتدروش . إننى ألاحظ أنك بدأت تترك لحيتك . . ومعنى ذلك أنك قررت أن تلغى مستقبلك . . وأن ترمى نفسك فى حلقات الذكر وتدوخ على قبور الأولياء . . أين سمعت اسم صلاح نصر؟ قل لى بسرعة دون أن تفكر .

واخترعت قصة ركيكة . فلم يقتنع على أمين .

***

وسألنى كامل الشناوى : إن كنت قد زرت أم كلثوم أخيرا؟

فقلت : نعم مع أحد أقاربها . مجرد زيارة .

قال : هى التى حدثتك عن صلاح نصر . ودوره فيما حدث . . أو دوره فيما سوف يحدث . . لا تصدق . . أم كلثوم تريد فقط أن ترفع معنوياتك . . ولكن صلاح نصر رجل كذاب خطير . . ابعد عنه ما استطعت . وقل لمصطفى أمين وعلى أمين أى كلام . . إنها لعبة خطرة لا أعرف أولها من آخرها . . لا تصدق إلا ما يقوله محمد حسنين هيكل ، فهو وحده القادر على أن يفعل شيئا . فإذا أقنع الرئيس عبد الناصر ، فسوف تنتهى هذه الأزمة!

***

وطلبنى على أمين فى التليفون فى «النادى الثقافى» بجاردن سيتى : ماذا تعمل؟ سوف انتظرك على الغداء .

وعلى الغداء سألنى : إن كنت وجدت شيئا مفيدا أنشغل به؟!

***

وفى الليل قابلت الفنانة شادية . . وهى سيدة لطيفة رقيقة مرحة . قالت لى : اسمع . . افرض أنك ظللت بلا عمل سنة . سنتين . . لا يمكن أن تظل هكذا طول العمر . . إننى سمعت عن أدباء وشعراء وزعماء تعذبوا فى حياتهم . . ولكن لم يستطع أحد أن يقضى عليهم . . وسوف يذهب عبد الناصر . . اسمع كلامى . . أنا لا أدعى أننى قرأت مثلك . . ولكن هذا شعورى . . وربنا كبير ورحيم . . وسوف تقول شادية قالت . .

***

وحاصرتنى المكالمات فى البيت وفى «النادى الثقافى» . . وكان المتكلم مصطفى أمين وعلى أمين وعبد الحليم حافظ ود . قاسم فرحات العضو المنتدب لأخبار اليوم . والمطلوب : أن أحضر فورا لبيت مصطفى أمين لأمر مهم . وكان الأمر مهما . إن محمد حسنين هيكل عنده أخبار جديدة . عنده ما يقوله . قال لى : اسمع : سوف تعود إلى عملك . هذا قرار ، الرئيس أمر بذلك . ولكن كمال رفعت لا يعرف . والرئيس لايريد أن يغضب كمال رفعت . فأنت تذهب وتطلب مقابلته . وسوف يقابلك . عنده تعليمات بذلك . اشرح ما حدث ، ثم اعتذر له . واطلب منه أن يعيدك إلى عملك . لديه تعليمات بأنك سوف تعود . عن طريقه هو . ولكن كل مايجرى فى مكتبه . . كل ما يقوله لك وما ستقوله له لابد أن تخبرنى به بالدقة . . فالرئيس يريد أن يعرف كيف يتصرف .

وضحك محمد حسنين هيكل واحمر وجهه وبرقت عيناه .

قلت : متى؟

قال : غدا . . وبعد أن تعود إلى عملك فى أخبار اليوم سوف أتصل بك لتروى لى بالضبط ما حدث!

وعندما عدت إلى «النادى الثقافى» كنت كأننى أمشى أثناء النوم . . وجاءنى صديقى محمد المصرى قال : خلاص . . غدا تذهب لكمال رفعت . ومدير مكتبه محمود عبد الناصر عنده تعليمات بذلك . . وسوف أكون فى انتظارك غدا . . لا تنس!

***

إذن لقد قرر الرئيس أن أعود إلى عملى . ولكنه لايريد أن يغضب السيد كمال رفعت وزير العمل والمشرف على صحف أخبار اليوم . . الرئيس الذى لا يريد أن يجرح شعور كمال رفعت ، يريد أيضا أن يضحك . . أن يتسلى . . ولا يهم من الذى يقوم بدور مهرج السيرك . . المهم أن الرئيس يريد أن يتسلى . . فضحك الرئيس مثل البرق والرعد الذى يسبق سقوط الأمطار .

***

وعلى أمين لايزال يقول لى : ياأخى اشغل دماغك بأى شىء . اسمع كلام على أمين!

***

حاضر . أسمع كلام على أمين .

قرأت من جديد مسرحية «كاليجولا» للأديب الوجودى ألبير كامى .

وهو الإمبراطور كايوسى كاليجولا (١٢ - ٤١ م) . واسمه معناه : الجزمة . . التى كان يرتديها وهو طفل صغير . . وهو إمبراطور طاغية . مجنون . ومن جنونه أنه اعتدى على أخواته البنات . . ثم بنى قصرا لحصانه . ووضع الماس والياقوت فى بردعة الحصان . . ثم عينه مستشارا لشئونه السياسية!

وفى هذه المسرحية دعا الشعراء وأجرى مسابقة بينهم . فى موضوع يختاره وعليهم أن يرتجلوا أمامه .

وقد حاول الشعراء أن يتنصلوا من هذا الامتحان بأنهم ليسوا مستعدين ، ولكن الإمبراطور حذرهم : فكما أن هناك مكافأة لمن يحسن نظم الشعر ، توجد عقوبة لمن يتخلف عن أداء هذا الواجب - الإمبراطور أمر - الإمبراطور يريد أن يضحك .

كاليجولا : مستعدون ياشعراء؟

عشيقة الإمبراطور : الشعراء يتقدمون اثنين اثنين . . الخطوة منتظمة . إلى الأمام سر . . قف!

يجلس الإمبراطور ، ثم يلتفت ببعض جسمه إلى الشعراء ويقول : موضوع المسابقة هو : الموت . . الزمن المخصص لكل شاعر : دقيقة واحدة .

ويمسك الشعراء أقلامهم وألواحا من الخشب ليكتبوا عليها .

كاليجولا : اسمعونى جيدا . سوف أطلق الصفارة . . فيتقدم شاعر إلى الأمام ويرتجل ، وإذا انطلقت الصفارة يتوقف فورا ليبدأ الشاعر الذى يليه . . مستعدون . . أنا أحب النظام فى كل شىء . . النظام مطلوب حتى فى الفن . . خصوصا فى الفن (يصفر) .

الشاعر الأول : أيها الموت ، وراء شطآنك المظلمة (صفارة) .

الشاعر الثانى : فى كهفك الدامس تجلس أخوات القدر (صفارة) .

الشاعر الثالث : تعال أيها الموت الحبيب (صفارة) .

الشاعر الرابع : (صفارة قبل أن يفتح فمه) .

الشاعر الخامس : حين كنت فى طفولتى السعيدة .

كاليجولا : ما علاقة السعادة بما نحن فيه الآن؟ قل لى بسرعة .

الشاعر الخامس : أعطنى فرصة . أنا لم أكد أبدأ حتى (صفارة) .

الشاعر السادس : (بصوت مرتفع) بجرأة نادرة يمضى فى دروبه الخفية (صفارة) .

الشاعر السابع : (يتقدم) .

كاليجولا : لا معك ورقة ولا قلم؟

الشاعر السابع : لا حاجة إلى ذلك . . إننى أرتجل (يقرب من الإمبراطور دون أن ينظر إليه) . . أيتها السعادة التى تطهر القلب ، أيتها السماوات التى تشع الضياء . . أيتها المباهج المرتجفة بلا أمل فى النجاة . .

كاليجولا : اسكت . . أنت أصغر من أن تفهم العبرة التى تتعلمها من الموت .

الشاعر السابع : كنت أصغر من ذلك عندما قتلت أنت أبى!

كاليجولا : وأنا الذى كنت أدخركم للشدائد؟! كنت أريدكم تدافعون عنى فى خندقى الأخير . . لقد تبدد هذا الوهم! سوف أضيفكم إلى قائمة أعدائى! . . والآن أصبح الشعراء ضدى . وهذه هى النهاية . اخرجوا بانتظام . وأنتم خارجون امسحوا بألسنتكم كل ما كتبتم على هذه الألواح التى اتسخت بشعركم الركيك . . انتباه . . إلى الأمام ، معتادا مارش! (الصفارة لها إيقاع منتظم . . الشعراء يخرجون ويلعقون الألواح) اتركونى جميعا!

ثم ينفجر الإمبراطور ضاحكا . . ويظل يضحك حتى يموت!

آه لو حدث كل ذلك!!

***

ولا يزال على أمين يلح فى أن أشغل رأسى بأى شىء ، حتى ولو لم يكن نافعا – إنه مايزال خائفا من أن أهرب بالانضمام إلى الإخوان المسلمين . . أو خارج مصر .

قرأت مسرحية «قمبيز» لأمير الشعراء شوقى .

الملك أمازيس يسأل الحارس تاسو :

أين أقزامى؟ امض

جىء بأقزامى . .

(تدخل الأقزام)
تحيات لفرعون
سلام الشمس للملك
سلام قائد الخيل
سلام حامى الفلك
الخادمة : (تقول للأقزام)
هلموا رقصة الحور
إذا طغن بها تور
سما العز والنور
أحد الأقزام :
نحن الأقزام
أنصاف ناس
وبالشبر نقاس
قزم آخر :
نحن الدمى واللعب
بنا يتم الطرب
قزم ثالث :
هلموا رقصة الموتى
من الكهف إلى الكهف
ودوروا كالتماثيل
من الرف إلى الرف
قزم رابع :
حبو الصغار على اليد والركب
هنا الطعام هيا كلى

هنا الشراب هيا اشربى
جميع الأقزام (تتجه إلى الملك أمازيس)
عش ياملك
مع الزمن
مطوقا مصر المنن
وذائدا عن الوطن!

***

ثم مسرحية شعرية لأمير أدباء فرنسا : فيكتور هيجو . هذه المسرحية منعتها الرقابة . هجم البوليس على المسرح وأنزل الممثلين وطارد مؤلفها . إنها مسرحية «الملك يتسلى» كان ذلك سنة ١٨٣٢ . . حتى عندما اتخذها الموسيقار الإيطالى فردى أساسا لأوبرا «ريجولتو» منعتها الرقابة عندما عرضت لأول مرة سنة ١٨٥١ فى البندقية وطلبت تغيير اسم الملك .

إنه الملك فرانسوا الأول . وعنده مهرج يضحكه كل ليلة . ويغريه أن يتهجم على العذارى فى كل بيت . . ويدفعه إلى الفساد والانحلال أملا فى القضاء عليه . . فهذا البهلوان الذى هو مستشار الملك ، هو قاتل الملك . . وهو أيضا رجل عنده أخلاق . . يريد أن يعاقب الفساد عند أعلى المستويات .

وكانت للبهلوان ابنة جميلة تعيش بعيدا عن الفساد الملكى . ولكن الملك تسلل إليها . ونفذ كل تعليمات أبيها وكل وصاياه لكى يوقع الفتاة فى غرامه . وعرف الأب . وغضب وقرر أن ينتقم من الملك . . وتآمر عليه . وحمل جثمانه فى شوال ليلقى به فى نهر السين . . وانعكس ضوء القمر على وجه الضحية . وأراد الأب أن يشمت فى الملك الطاغية الفاسد . . فوجد أن الضحية هى ابنته . . لقد خدعها الملك وجعلها تنام فى فراشه . . أو هى التى أحبت الملك فأرادت أن تفديه . . والدموع تغمر الأب والحزن يصعق الجميع . .

أما الملك فراح يتسلى بفتيات أخريات!

***

ثم ماذا يحدث لى لو أن الملك لم تعجبه النكتة بينى وبين كمال رفعت؟

ماذا يحدث إذا لم أفلح فى أداء هذا الدور . . فلا أنا ممثل . ولا أنا مقتنع . ولكن أريد أن أعود إلى عملى . . إلى عقلى . . فإن فكرة الهجرة من مصر ما تزال تراودنى وتستبد بى . . ولا يحضرنى من كل أحداث التاريخ إلا محفوظات الطفولة . . فالخوف واليأس يردنا إلى الطفولة . . إلى خوف الأطفال . . إلى البحث عن حضن الأم . . إلى أبيات قرأتها صغيرا فى «مقامات الحريرى» . . أرددها وراء والدى كالببغاء :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
ـا فى المقام لذى لب وذى أدب
معزة ، فاترك الأوطان واغترب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده
فإن جرى طاب ، وإن لم يجر لم يطب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت
إليه فى كل حين ، عين مرتقب
والأسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت
والسهم لولا فراق القوس لم تصب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه
والعود فى أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه
وإن أقام فلا يعلو إلى الرتب

وتذكرت يوم هربت من والدتى ، فكانت تسرف فى ضربى لأسباب تافهة ولجأت إلى خيام الغجر . . ونمت . . وكنت طفلا . وطلبت أن يزوجونى إحدى الفتيات الصغيرات التى اعتدت أن ألعب معها . ولابد أنهم ضحكوا . . فلم أكن أطلب الهجرة فقط أو الهرب وإنما الإقامة بينهم . وأعادونى نائما إلى والدتى!

***

ماذا يا على أمين لو لم يضحك الملك؟!

إن الكثير من الملوك لا يضحكون . .

فالملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣ - ١٦٠٣ م) كان لها بهلوان طويل اللسان . . طال أكثر مما يجب فطردته . وعرفت القرف فى غيابه . فأعادته ، وفى يوم سألته : هه؟ . وماذا يقول عنا الناس . . أمازالوا ينتقدوننا؟!

أجاب البهلوان : لن أذكر كلمة واحدة مما أجمع عليه الشعب!

فطردته الملكة . . إنها لم تضحك لهذه النكتة!

والملكة فكتوريا فى سنة ١٨٨٩ قالت عبارتها المشهورة : ولكننا لم نضحك!

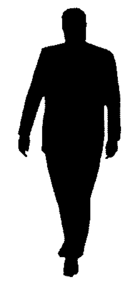
قالتها بعد أن ظل البهلوان يحكى نكتا من الشرق والغرب . . واقفا على رأسه . . نائما على الأرض ووجهه للحائط . . مرتديا ملابس الرجال والنساء والملوك والشياطين . . فانهار فاقد النطق!

فقالت عبارتها الشهيرة . . ولم تتنبه إلى أن البهلوان قد مات!!

***

وفى القرن الرابع عشر ألف الأديب الإيطالى بوكاتشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) مجموعته القصصية الرائعة «ديكاميرون» ؛ أى الليالى العشر . . فقد انتشر الطاعون فى بلاده فاختبأت سبع نساء وثلاثة رجال . وقرروا أن يسلوا أنفسهم بأن يروى كل واحد قصة . فكانت مائة قصة قصيرة .

وفى الليلة السادسة كان البطل سيدا اصطاد أوزة . وطلب إلى الطاهى أن يبدع فى صنعها وتهيئتها لضيوف أعزاء . وزارت الطاهى صديقة له . فنزع ساق الإوزة وقدمها لها . . وعندما رأى الضيوف أن الإوزة بساق واحدة اندهشوا . وانزعج سيد البيت . فقال له الطاهى : ياسيدى ولكن الإوز له ساق واحدة!



السيد : مستحيل!

الطاهى : بل ممكن . وأستطيع أن أقدم لك الدليل . تعال معى .

وخرج الاثنان إلى الحقول فوجدا أن الإوز يقف على ساق واحدة وسط الماء . فأطلق السيد عيارًا ناريا . فظهرت الساق الثانية لكل الطيور .

قال السيد : أرأيت أيها الكذاب؟

الطاهى : ياسيدى لست كذابا . . ولكنك نسيت أن تطلق النار قبل أن تأكل الإوزة!

وضحك السيد لهذه الإجابة الطريفة الذكية وعفا عنه!

ولكن نفرض أن السيد لم يضحك لما سوف أقول ويقال لى؟!

***

وفى مبنى الحكومة المركزية بمصر الجديدة . قابلت محمد المصرى وقلت له : أريد أن أقابل عبد المجيد فريد . . أنا أعرفه . . فقد تقابلنا معا نحن الثلاثة فى بغداد فى مكتب عبد الكريم قاسم . . هل تذكر . . إنه رجل ظريف . . ويقال خدوم جدا . . تذكر كيف كان يقول لنا : إذا دخلتم مكتب أى مسئول عراقى فلابد أن تدقوا الباب . . لابد من استئذانهم . . إنهم حساسون جدا . . وإذا خرجتم لابد من التحية والاستئذان . . إنهم شديدو الحساسية . . وكان عبد المجيد فريد يبالغ كثيرا فى كل ذلك . . أريد أن أقابله اليوم . ضرورى .

– لماذا؟

– لابد . . أرجوك . . أنا عندى إحساس أننى أراجوز . . مطلوب أن أكون أراجوزا . . مطلوب لتسلية السلطان . . أريد أن أترك هذا البلد . . لا أنا سياسى ، ولا أريد . . ولا أنا صاحب جريدة . . ولا أنا فاهم ماذا حدث . . ولا أريد أن أفهم . . أرجوك ساعدنى على الخروج من هذا البلد . .

– ياأخى انتهى كل شيء . . إن لم تنفع مقابلة كمال رفعت اليوم ، فأنا مسئول عن عودتك للعمل . . أو خروجك من مصر . .

ودخلنا معا مكتب محمود عبد الناصر مدير مكتب كمال رفعت . . ولا تربطه صلة قرابة بالرئيس جمال عبد الناصر . . إنه رجل طيب مجامل . مليء الصوت غليظ الحاجبين . لم يكد يرانى حتى نهض وصافحنى . وسألنى : تشرب ماذا؟ لحظات وسوف تقابل سيادة الوزير . . تشرب ماذا؟

قلت : قهوة .

قال : لا . . عصير ليمون . .

قلت : عصير ليمون . شكرا .

ثم خرج محمد المصرى . وتركنى وحدى مع محمود عبد الناصر الذى حاول أن يقول أى كلام إلى أن يحين موعدى مع الوزير كمال رفعت . .

ونهض بسرعة . وفتح الباب . وكان الوزير على يقين من ذلك . إنه أحمر الوجه أرناؤوطى . صوته هامس ، مثل كل المصابين بالصمم أو بشىء من ذلك . وكان مصابا بالتهاب مزمن فى الأذن الوسطى . ولذلك فليس متوازن الكلام والحركة . وكان يتحدث طول الوقت . وصوته خفيض . ولا يعنيه كثيرا أن تسمعه . وحتى إذا تكلمت فهو لن يسمعك . ولذلك يمضى فى كلامه . وحتى إذا سمعك ، فهو لا يعطيك انطباعا بأنه قد تابع ما تقول . وإنما هو مستغرق فى أفكاره والتعبير عنها . وهى بالطبع أهم كثيرا مما تقوله أنت . . والحقيقة أنه لا يسمعك وليس حريصا على ذلك . . وهو ككل أدعياء الفكر يبدو مثاليا . أو يريد أن يؤكد لك ذلك . وهو يبدو متواضعا ، أو يحرص على أن يقنعك بذلك . . ولقد استعان كمال رفعت بعدد من خبراء الشئون السياسية من سوريا ولبنان ليكتبوا فى صحف أخبار اليوم ، يعلمون الشعب المصرى وكتابه وأدباءه ، كيف يفهمون مشاكل بلادهم . . وكيف يقنعونهم بأن المصريين أصحاب المشكلة لا يعرفون لها حجما ولا حلا .

وكمال رفعت يدق على عصب عريان فى بناء المواطن المصرى : احترامه للأجانب . . وسبب هذا الاحترام ، عدم ثقته بنفسه أو احتقار لذاته . .

فظهرت على صفحات الأخبار وأخبار اليوم وآخر ساعة أسماء : ملحم عياش ومازن البندك ويوسف البندك وكلوفيس مقصود . . هذا الأخير جلس إليه الرئيس عبد الناصر فى إحدى المرات خمس ساعات مبهورا بما يقول . وفى يوم من الأيام نشرت صحيفة «الأهرام» حديثا أجراه دكتور لويس عوض أستاذ أساتذة الأدب والنقد والليبرالية الفكرية ، وأحد أحرار الفكر أعزاء النفس . . ولم نفهم من كل هذا الحديث الطويل العريض إلا أسئلة لويس عوض . ولكن لماذا؟ لأن السيد الرئيس مفتون بالفسيفساء اللغوية لكلوفيس مقصود وكل من يحمل لقب «دكتور» . . مثل إعجاب كمال رفعت بالخبراء الشوام فى السياسة المصرية؟!

سألنى كمال رفعت : هه . . أخبارك؟

قلت : الحمد لله . .

قال : عامل إيه؟

قلت : مش عارف أعمل حاجة .

قال : تشرب إيه؟

قلت : طلبت ليمونا فى مكتب الأستاذ محمود عبد الناصر .

ودخل الليمون . .

قال : هه . . كيف حالك؟

إذن لقد حانت اللحظة المتفق عليها . هنا يبدأ الدور الذى جئت من أجله . إما أن أنجح وإما أن أظل فى الشارع . . إما أن أعود إلى مكتبى ، وإما أن أبحث عن محمد المصرى وعبد المجيد فريد وأهرب نهائيا من على أمين ومن مصر . . لقد جاءت اللحظة التى يجب أن يضحك فيها كاليجولا وأمازيس والإمبراطور فرنسوا الأول . . والسيد الرئيس . .

قلت : والله ياسيادة الوزير أنا مظلوم . . أنا مثل واحد أراد أن يلحق الأتوبيس فراح يجرى بالقرب من بنك يسرقه اللصوص!

وضحك الوزير .

إذن نجحت . مبروك . مبروك . وضحك الوزير والدنيا كلها أشرقت . فجأة اقتحمت الشمس مكتب الوزير . . ووراءها الأشجار والأزهار ، بل سمعت العصافير . . لقد دبت الحياة فى الدنيا كلها . . الدفء والنور والضوضاء . . وتحول سجاد الغرفة إلى موج يعلو ويهبط . . والمقعد تحتى مثل طوق نجاة . . وصوت فى داخلى يقول : الأرض . . رأينا الأرض . . إننا قريبون من الشاطئ . . مبروك أقولها لنفسى . . أشد على يدى بيدى . .

وظهر فجأة على إسماعيل الإمبابى . سكرتير الوزير . .

أما بقية الأحداث فليست واضحة . . هل صافحت الوزير . . هل شكرته . . هل هو الذى عانقنى بعد أن عفا عنى . . هل أنا الذى عانقته امتنانا لما قال وما فعل . . أو ما توهم أنه قال وفعل . . ووجدتنى فى سيارة على إسماعيل الإمبابى فى الطريق إلى أخبار اليوم . . ماذا قال . . ماذا قلت . . هل صحيح ما قاله من

أنه كان يتوقع ذلك . . وأنه هو الذى أقنع الوزير بأننى لست مثل مصطفى أمين وعلى أمين . . فهما من شياطين الصحافة والسياسة . . وأننى ضحية حبى لهما . . ولكن ما ذنبى . . أنهما خطيران . . يلعبان بالنار . . وحسابهما مع الرئيس شخصيا . . أما أنا تماما كما قلت : كنت أجرى وراء الأتوبيس . . فظن رجال الأمن أننى أحد الذين سرقوا البنك وهربوا . . هاها . . هل هو الذى ضحك؟ هل أنا . . . هل القدر؟ هل هو صوت الرئيس يقهقه . . ولكن الرئيس عادة لا يقهقه . . إن ضحكته «نفاثة» . . لها فحيح . . فهى عبارة عن دفعات للهواء تخرج من الحلق . . واهتزاز للرأس والجسم كله . . سمعته وهو يضحك يوم دعانا بعد تأميم الصحافة . .

ووقفت السيارة أمام أخبار اليوم . . ونزل سكرتير كمال رفعت وأنا فى يده . . والمحررون والإداريون فى ذهول لا يفهمون . ودخلت مكتبى . . تلك الغرفة المهجورة . وتركنى سكرتير الوزير . وعاد إلى مكتبه يشرح ماحدث . وكيف أن هذا تتويج لجهوده الشاقة لدى الوزير . وجهود الوزير لدى الرئيس . .

هل أفقت من الدوخة؟ وفجأة رن جرس التليفون وكان المتحدث محمد حسنين هيكل ، ضاحكا يقول : هه . . هاها . . . هاها . . خلاص فى مكتبك . مبروك . تعال أنا فى انتظارك عند مصطفى أمين . .

وقبل أن أغادر المكتب قطعت أسلاك «الدكتافون» - وهو جهاز قد زودت به غرف كبار الكتاب ليحدثنا أو يسمعنا السيد سكرتير الوزير . . أى أننا جميعا سكرتيرون له ، أو دون ذلك . وهو لا يكلف نفسه أن يطلب . . أو يدير قرص التليفون . . وإنما يضغط على زرار فتخرس الأصوات فى أية غرفة لنتلقى الأوامر . . أو نشعر بأنه هناك . . إنه يسمع ويرى . . لا تخفى عليه خافية فى الدور الأرضى ولا الأدوار التسعة الأخرى . . ومزقت سلك هذا المتجسس علينا . وكان ذلك أول مظهر من مظاهر التمرد . . أو قطع أية صلة بالوزير وسكرتيره . . وكانت دعوة لأن يفعل الآخرون مثلى . . أو يلفوا حبال التليفون حول عنق السكرتير الذى هو «بردعة» السيد الوزير الذى هو بهلوان السيد الرئيس!

وفى بيت مصطفى أمين وجدت : هيكل ومصطفى وعلى أمين وقاسم فرحات والسيد أبو النجا وعبد الحليم حافظ . .

مـبـروك . . مـبـروك . . بالأحـضـان . . والقـبـلات . . هه؟ - الكل يسـأل : مـاذا حدث؟ ماذا قلت؟ كيف قال؟ بالضبط . . كيف كان وجهه؟ كيف كان صوته؟ .

وتعاطفت مع الوزير ، فهو الآخر مثلى . . لا حول له ولا قوة . . ضحكوا عليه . . وضحكت عليه . . وسوف يضحك علينا جميعا السيد الرئيس . .

قلت لهـيكل : بعـد الليـمـون . . أنا قلت له إننى مظلوم . . أنا مـثل واحـد طلع يجرى وراء الأتوبيس بجوار بنك بيسرقوه . . فضحك الوزير . ووجد فى هذا الرد حيثيات الحكم لعودتى إلى عملى . .

وضحك هيكل كثيـرا . وامتـدت يده إلى التليـفون . . وطلب الرئيس جـمال عبد الناصر : وقال له . . أنيس رجع إلى مكتبه . . وطلب من كمال رفعت الصفح والعـفو . . (لا أعرف مـاذا يقول الرئيس لهـيكل) . . هاها . . ها ها . . أهم شىء . . إنه قال له . . أنيس هو الذى قال . . أنا مظلوم . . إلخ . . هاها . . هاها . . .

وانتـهت المكالمة . وبسرعة خرج محمـد حسنين هيكل . . والبـاقى لايهم بعـد ذلك . . شعرت بهبوط شـديد . . وخيبة أمل . . المفاجأة سحقت أعصابى . . أو كأنـها جعلتنى أشعر بأن كل الذى فكرت فيـه ودبرته . لاقيـمـة له . . كل هذه الجهود العقلية النفسية ، وكل الخيالات والأحلام والرغبة فى الانتقام والتخطيط للهرب . . كل ذلك ولا حاجة . . كأننى ذاكرت كل الكتب وجاءت الأسئلة من خارج المقرر وأسهل مما كنت أتصور . . كأن سهر الليالى فاشوش . .

شىء عـجيب تلك النفس الإنسـانيـة : عـذاب ونار وأرق وأمل فى أن أعود إلى عملى ، أو إلى أى مكان آخر غير أخبار اليوم ، فلما عدت أصابنى الإحباط والقرف كأننى فشلت تماما . . مع أن الذى حدث غير ذلك . . ولكـن يبدو أن أعصابى لم تتحمل هذه الشحنة الكهربية العاليـة جدا فـذابت . . ولذلك لم أعد أشعـر بأى شىء . .

ذهبت إلى كامل الشناوى لكى نفكر فى سهرة فنية ننسى فيها ما حدث قال : لا داعى لأن نذهب لمصطفى أمين الليلة .

ثم ضحك وقال : ما رأيك نذهب إلى قصر عابدين . . وتسجل اسمك فى دفتر التشـريفـات لشكر الرئيس . . عندى فكرة أحسن . . ألم يكن صوتك جمـيـلا . .

إذن . . اذهب وحدك إلى قصر عابدين . . وقف وقفة عسكرية وردد أغنية عبد الحليم حافظ : ياسيدى أمرك أمرك ياسيدى . .

ماقدرش أخالفك لأنى عارفك . .

تقدر تحط الحديد فى إيدى . .

أمرك ياسيدى . .

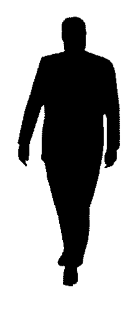
هاها . . ها ها . .

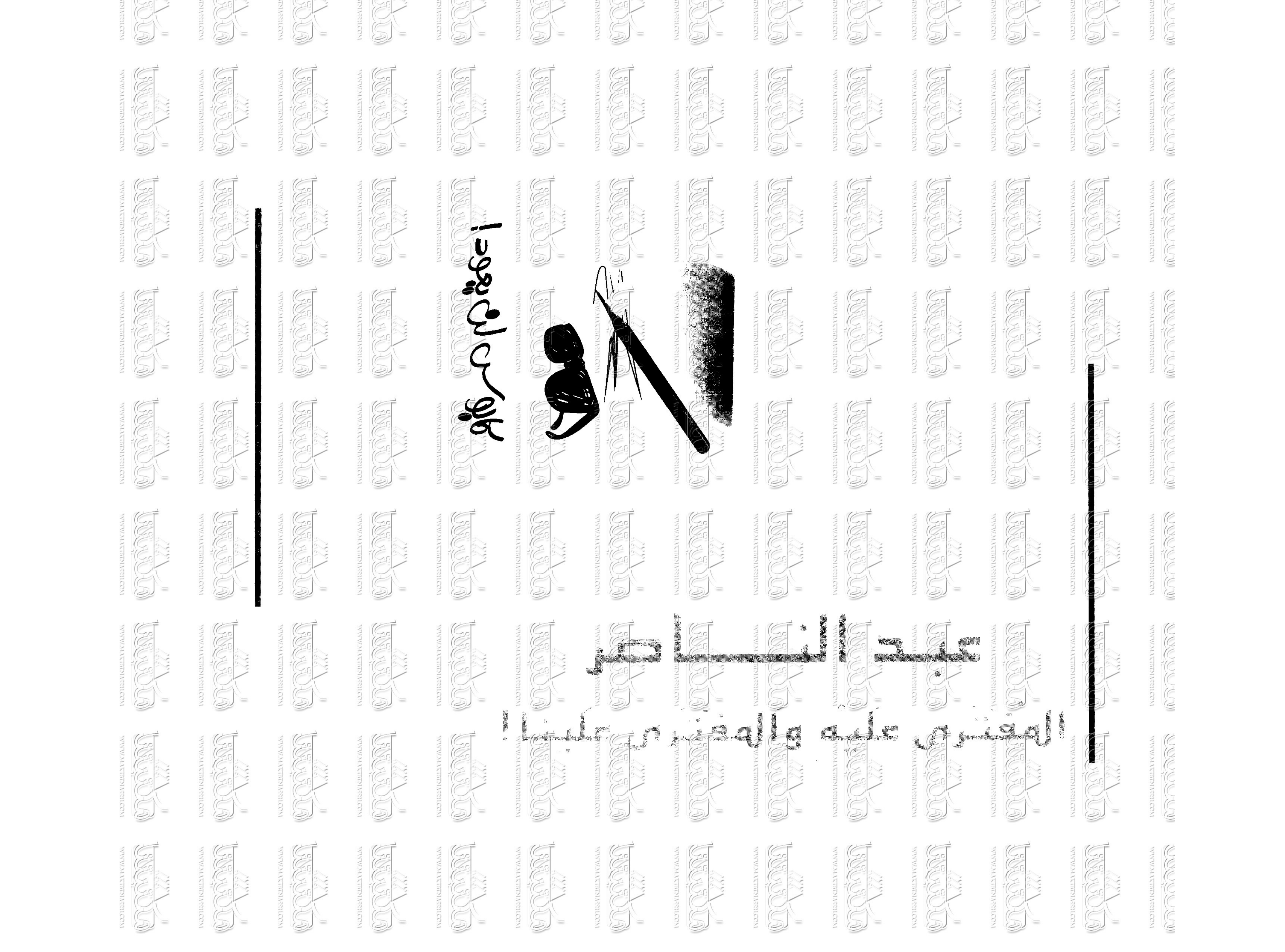
***

وبعدها صدر قرار بوقفى عن الكتابة . .

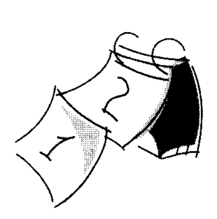
ولما سألت الوزير د . عبد القادر حاتم عن السبب ، أشار بيده أن أسكت . . وكان الباب مفتوحا فخرجت . .

□ □ □




عبد الناصر
المفترى عليه والمفترى علينا!
كابوس لن يعود!

كابــوس لـــن يعـــود!



بصعوبة وجدت مكانا على الرصيف أمام مسجد السلطان أبى العلا . . وأفسحت لرأسى موطئا بين الأحذية . وصليت ركعتين تحية للمسجد عندما انفجر الميكروفون الذى كان معطلا : اللهم اخرب بيته!

ويردد الناس : آمين . .

ويقول الخطيب : اللهم فرق بينه وبين زوجته . .

ويردد الناس : آمين . .

الخطيب يقول : اللهم احرق كبده على ولده .

والناس وقد اشتد حماسهم : آمين .

وكأن الذى سوف يصيب هذا المسكين أقل مما يجب فيعود الخطيب فيقول : اللهم احشره فى نار جهنم إلى أبد الآبدين . .

والناس يؤكدون حرصهم على هذا المصير فيقولون : آمين يارب العالمين!

سألت جارى الذى تحول وجهه إلى لعنة من لحم ودم : من هذا؟

فأجاب دون أن يرانى : واحد شيوعى!

وعادت الكآبة إلى وجهه . كأنه أطفأ أنواره وسحب الستائر الكثيفة حتى لا أراه . . أو حتى لا يؤدى حوارى إلى إبطال مفعول هذه اللعنات . . فاتجهت إلى جارى الآخر : من هذا؟

قال : واحد وجودى . .

قلت : وجودى . . أو شيوعى!

قال : واحد اسمه أنيس منصور!

وبسرعة نظرت إلى بيتنا المواجه لمسجد السلطان أبى العلا . . ما يزال البيت قائما . . ونظرت إلى الإعلان المرسوم على الحائط . . إنه إعلان عن مشروب كينا بسليرى الحديدية . . الإعلان يصف من يشرب هذه الكينا بالقوة . . ولابد أن بيتنا قد اكتسب هذه الصلابة من مجرد الإعلان عن القوة . والإعلان عبارة عن رجل امتلأ حيوية ونشاطا ؛ لأنه اعتاد أن يشرب الكينا وتحت الإعلان هذه العبارة : الرجل الذى استطاع أن يقول لزوجته : لا . .

وبيتنا هو البيت الذى استطاع أن يقول لخطيب مسجد أبى العلا : لا . .

ولم أتساءل كثيرا إن كان يجوز أن يلعن الخطيب شخصا بهذه الصورة الفظيعة دون أن يشرح للسادة المصلين أسباب هذه الإدانة؟ ومن المؤكد أن المصلين لم يفكروا لحظة واحدة إن كان هذا يجوز أو لا يجوز . . إنه هو الإمام وهم يرددون وراءه دون تفكير . . فماذا يحدث لو قمت من بين الصفوف ورحت لإمام المسجد وقلت : الله يخرب بيتك أنت .

إنها صورة جديدة من صور «المباهلة» عند العرب – أى الملاعنة – أنا ألعنه وهو يلعننى . . والذى يصيب أحدنا ، يكون دليلا على أنه يستحق ذلك . . فالمصاب هو الكاذب والذى لم يصب هو الصادق . .

فهل من الممكن أن «أخرب بيته ويخرب بيتى؟» .

ولكن لماذا هذا الاستعداء على واحد من الناس؟

لأن إحدى المجلات نشرت مقالا قديما لى عن «الوجودية» وحرية أن تقول لأى شىء وأى أحد :لا . .



ثم أعود وأنظر الى بيتنا ، فلا أجد شيئا قد طرأ عليه . . ولا البيت وقع على الأرض راكعا نادما . . إذن هى أصداء ناشزة أطلقها إمام المسجد بلا وجه حق على من لايعرف من الناس . . ولايعرف ما الذى أصابه ، ولا يزال يصيبه . . وسوف يصيبه أيضا!

وكنا نتصور ونحن نتردد على صالون الأستاذ العقاد أن بيته سوف ينهد فوق رءوسنا بسبب القضايا الفلسفية والدينية التى يصدمنا بها . . حدث كثيرا أن اختلسنا النظر إلى السقف والأستاذ العقاد يقول عندما يستبد به الغضب والغرور : ما هذا الكون؟!

ولم يقع سقف صالون العقاد ولا بيته . . ولا كذلك بيتنا من الداخل أو من الخارج ، لمثل هذه الأدعية من خطيب جاهل على مؤمن مجهول .

وإن كانت التوراة حدثتنا فى سفر «يشوع» أن الرب طلب إلى (يشوع) بن نون محاصرة مدينة أريحا برجاله . . وأن يأتى بسبعة من الكهنة ينفخون فى البوق . . وأن يردد الناس وراءهم فى نفس واحد كلمة : آمين . . فإذا فعلوا سقطت أسوار المدينة . ونفخ الكهنة فى الأبواق وهتف الناس فى نفس واحد فسقطت الأسوار من مكانها .

فإما أن تكون أصواتهم بهذه القوة ، والجدران بهذا الضعف ، وإما أن تكون السماء قريبة إلى هذه الدرجة فاستجابت لهم . . بل إن يشوع نفسه طلب من الشمس ألا تغرب والقمر ألا يتحرك . . فوقفت الشمس واستقر القمر .

قال يشوع : ياشمس دومى على جبعون ، وياقمر على وادى ايلون . . توقفت الشمس فى كبد السماء ، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل . . وكان ذلك أول مرة يسمع (يستجيب) الرب لصوت إنسان .

وفى القرآن أنبياء يدعون على شعوبهم فيستجيب الله لدعائهم . قال نوح عليه السلام : ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ .

وخطيب مسجد أبى العلا . لا هو نبى ولا أنا كافر بما يؤمن به!

وتساءلت : ياترى لو كنت أنا خطيب هذا المسجد ودعوت على الرئيس عبد الناصر دون ذكر اسمه ، وردد الناس ورائى وأنا مظلوم ومثلى عشرات الألوف ، فهل تسقط جدران ملكه ، كما سقطت جدران أريحا . . أليست دعوة المظلوم أقوى من المدافع؟

إن الطبول الداوية والصرخات العاوية أمام جدران أريحا قد أسقطتها تماما كما تحطمت نوافذ القاهرة والجيزة عندما اخترقت طائرة إسرائيلية حاجز الصوت فوقنا .

وانشغلت كثيرا بالإجابة عن هذه القضية النفسية الدينية الفلسفية : هل يمكن أن يؤدى الدعاء على أحد أو لأحد أن يهدم بيتا أو يقيم قصرا؟ هل من الممكن أن نهدم بيتا بمجرد أن نتمنى خرابه وهلاك أصحابه؟ وكيف؟

علم النفس الحديث يقول : ممكن . .

وأكبر دليل على ذلك : الحسد . .

فأنت عندما تحسد إنسانا ، فإنك تتمنى زوال النعمة عنه : المال والولد والجمال والصحة والسلطة!

وكل واحد منا عنده قصة عن صديق أو جار حسود . . يكفى أن تراه فى الصباح لتقع لك كوارث طوال اليوم . . ونعرف السيدة التى إذا نظرت إلى فستان جديد احترق أو اشتبك به مسمار . . ونعرف ونسمع عن الذى يحدث للشقة الجديدة والبدلة الجديدة والسيارة الجديدة . فما الذى يصيبها؟ تصيبها عين الحسود . . كأن أشعة الموت تخرج من هذه العين ، تصيب الهدف . . بل إننا نتندر بقصة الرجل الأعمى القادر على الحسد أيضا . يقال إن رجلا أعمى استأجره أحد الفلاحين لكى يحسد جواميس رجل آخر . فقال له الأعمى : عندما تقترب الجواميس والأغنام قل لى . . فلما اقتربت الحيوانات قال الفلاح للأعمى إنها قريبة الآن . . فسأله : أين هى بالضبط؟ . . قال الفلاح عند الترعة! .

فقال الحسود : ياه . . وأنت تستطيع أن تراها على هذا البعد!

فأصيب الفلاح بالعمى . . وعادا إلى القرية يتساند أحدهما على الآخر!

أى أنه من الممكن أن «تصيب» بالنية . . بالرغبة . . بالدعاء!

وقد وجد علم النفس للحسد والحقد والرغبة فى موت وخراب بيوت الناس اسما هو : كنيسيس . . أو كينتكس – أى تحريك الأشياء عن بعد!

وقد تحدث العالم كله عن الشاب يورى جيلر الذى يستطيع أن يلوى الحديد دون أن يلمسه ، وأنه يكفى أن يلوى هو أصابعه فوق الحديد ليلتوى – أى أنه يلويه ويحطمه عن بعد . وهى قدرة خارقة عند بعض الناس . . فمن يدرى ربما كانت للناس معا ، هذه القدرة . . قدرة الذين حطموا جدران أريحا . . وأحمد الله أن أحدا من المصلين فى مسجد أبى العلا لم يهبه الله هذه القدرة المدمرة! وإن كان بيتنا ليس فى حاجة ، لكى

يسقط من خارجه ، كما انهار من داخله ، إلى هذا العدد الكبير من الناس . . الذين طاشت دعواتهم بين الأرض والسماء . . أو كانت كالتراب تافهة وكثيرة ، ولكنها لا تكاد تعلو عن الأرض ، حتى تتهالك عليها!

***

وتضايقت طويلا وكثيرا ، ولا أكذب إذا اعترفت بأننى لم أفلح فى أن أتجاوز هذه المحنة . . صحيح أننى أكلت وضحكت وانشغلت . ولكن لا أكاد أنفرد بنفسى حتى تحط على رأسى غربان المعانى ، وتنعق فى أذنى بوم المخاوف : لا بقاء فى هذا البلد .

أما أصوات المعارضة والرفض فى داخلى فليست قوية : عيب . . وهل أنت طفل؟ سوف تواجهك متاعب أشد وأكثر . . هل تقع فى أول حفرة ثم لا تنهض . . كيف؟ .

وكنت قد فكرت فى أن أكتب «مذكرات» . . وكتبت صفحة أو صفحتين ووجدت أن مشاعرى كلها مفتعلة . . وأننى غير قادر على أن أوضح نفسى لنفسى . . ثم ما قيمة وأهمية ما أكتب . . ثم لماذا أنا حريص على تسجيل ذلك .

قال لى على أمين أنه كتب مذكراته .

يجوز . ولكنى لا أستطيع . ثم ما الذى أقوله؟ إننى لست طرفا فى كل الذى حدث . فلا أنا جلست فى مواجهة الرئيس عبد الناصر . وتحاورنا واختلفنا . وحسم هو هذا الخلاف بيننا . بقوة . . بقوته هو . . لاشىء من ذلك قد حدث ، وإنما هى صاعقة نزلت فوق دماغى . وكل الصواعق تجىء من فوق . فإذا كان هو السماء ، فلست أنا الأرض .

ولا صدقت على أمين وهو غارق فى آماله وأحلامه بما سوف يفعله فى مستقبل الصحافة : مجلات جديدة . . وطائرات لنقل الصحف . . وأجهزة إلكترونية لطبع الصحف فى كل عواصم المحافظات وعواصم العالم . . وتزود كل محرر ومصور بتليفون فى سيارته لكى يكون على صلة بالمؤسسة فى أى وقت وفى أى مكان . فجأة وقف على أمين ووضع يده على كتفى وسألنى : تثق بى؟

قلت : نعم .

سألنى : أو هل ثقتك تزعزت بسبب ما حدث؟

قلت : أثق فيك .

– وتعرف أنى أحبك؟

– أعرف .

– وأن المصائب والمشاكل هى «ملح» طعام الحياة؟

– هل هناك شىء جديد؟

– نعم . أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارا بوقفك عن العمل!

هل كنت ألف حبل اليأس حول عنقى . . وفجأة سقطت على الأرض تحت قدمى . . فأنا مشنوق بعد ذلك . . والذى يقوله على أمين ، ولا أتبينه بوضوح مثل الذى يقوله الجلاد للمحكوم عليه : إن كانت نفسه فى شىء قبل أن يموت . . لولا أن على أمين قال لى ذلك بعد تنفيذ حكم الإعدام !

ورأيت فيما يرى النائم أو المغمى عليه أن على أمين يقول لى : ولا يهمك . . هذه المحنة سوف تمضى . . إلخ .

واستجمعت كل غضبى وقرفى وغيظى فى سؤال واحد : ولكن لماذا؟

على أمين : لا أعرف الآن .

أنا : متى سنعرف؟

على أمين : يمكن غدا أو بعد غد . .

أنا : هل بسبب شىء كتبته . . أو شىء قلته . . أو هى وشاية . . أو الرئيس يقلينا على نار هادئة ، إمعانًا فى العذاب . . المرة السابقة كان فصلا . وهذه المرة وقف عن العمل ، والمرات القادمة سجن . . فلماذا البقاء فى هذا البلد؟ إن أحدا لا يسأله عما يفعل . ولن يجرؤ!

***

وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد أصدر قرارا بعودة مصطفى أمين وعلى أمين إلى العمل فى «دار الهلال» .

أولا : إبعادهما عن أخبار اليوم والقعود بهما فى البيت .

وثانيا : إعادتهما للعمل الصحفى فى «دار الهلال» . . وطلبت أن أنقل معهما . . ووافق الرئيس على نقلى . هل بسبب أننى أريد أن أكون

مع مصطفى وعلى فى أى مكان؟ . ألا تكون هذه الرغبة دليلا على أنه لايهم أن أعود إلى عملى رئيسا لتحرير «الجيل» ، وإنما الأهم أن أعمل مع مصطفى وعلى؟ ألا يدل ذلك على التضامن معهما ضد الرئيس؟ يجوز . . هل هذه رغبتى الحقيقية؟

أم أن هناك حسابا داخليا أسعدنى أن أقوم بتصفيته؟ فقد حاولت أن أعمل فى دار الهلال . وذهبت للقاء صاحبى الدار : اميل زيدان وشكرى زيدان وطلب منى أحدهما أن أترجم قصة قصيرة - كامتحان لى . وترجمتها . وتضايقت ولم أعد على الرغم من أن الرجل كان مهذبا ورقيقا . ثم إنه لا يعرفنى . صحيح أننى عملت فى الصحافة ١٥ عاما قبل ذلك وكتبت فى «الجيل» وفى «الأخبار» و «آخر ساعة» و «روز اليوسف» و «الأساس» . . إنه يريد أن يعرف أو يطمئن .

ويقال إنه سأل عنى . ولكنى تضايقت من أنه هو الآخر قد تجاهل أو جهل أن لى ماضيا أدبيا وفلسفيا . . فهل العودة إلى دار الهلال رئيسا للتحرير ، رد اعتبار . . ومسح لجرح؟

يجوز . ففى مثل هذه الدوامة النفسية ، لم أدرك بوضوح ما الذى أصابنى ، ولا ما الذى يدور فى داخلى أو يدور بى . .

قال لى محمد فهمى السيد مستشار رئيس الجمهورية : إن السبب فى قرار الفصل ما كتبته عن «الوحدة والعزلة» وأن السيد الرئيس أحس أننى أعرض به .

أنا أعرض بالرئيس؟ لا أظن ذلك .

ولكن يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر كان شديد الحساسية للانفصال الذى وقع بين مصر وسوريا . فقد كانت سوريا هى حبه الوحيد . . فلا أحب قبلها ولابعدها أحدا . . فكانت سوريا معشوقته الخائنة!

وكان الانفصال طعنة فى القلب . . وجاءت النكسة ضربة قاضية . . بعدها توفى الرئيس معنويا . . ولكن شيعت جنازته سنة ١٩٧٠ - وإن كان بعض دراويش الرئيس عبد الناصر ليسوا على يقين الآن أنه مات . . ولذلك فهم يتظاهرون ويرددون ذلك الهتاف العبثى الممل : بالروح بالدم نفديك ياجمال!

ولم أقل عن «العزلة والوحدة» أى كلام سياسى . . وإنما كنت أتفلسف وجوديا . . وكنت أقول إن العزلة هى أن أكون بعيدا عن الناس ، والوحدة هى أن

أكون مع الناس ولا أدرى بهم . . وأن الإنسان من الممكن أن يكون وحيدا رغم وجود الناس حوله . . إنه يفصل نفسه عنهم . . إنه يقطع الأسلاك ويسد أذنيه ويطبق عينيه ، ولا يسمع إلا صوتا فى داخله يلعن الناس!

ولم يكن فى داخلى أى تعريض أو تلميح عن العزلة التى أصابت مصر والسيد الرئيس بسبب الانفصال!

ولم تكن لى نبرة خاصة فى سمفونية «الشماتة» فيما أصاب السيد الرئيس فى ذلك الوقت . ولا أظن أن أحدا فى بيت مصطفى أمين ، وملايين البيوت ، كان يستطيع أن يقاوم الأسى الذى أصاب مصر على يد السيد الرئيس .

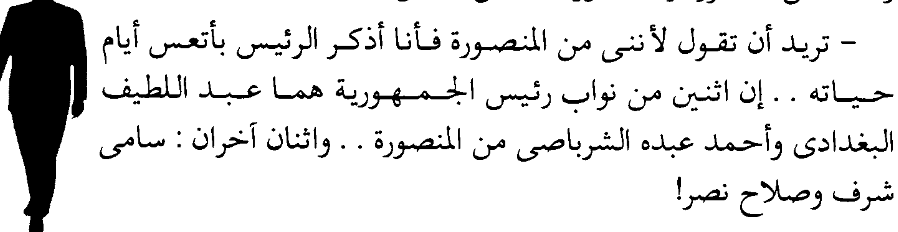
وكنا نسمع الشيخ الطنطاوى يتحدث كل ليلة فى إذاعة دمشق . . يقول إن وزراء الوحدة كانوا يطلبون مقابلة الرئيس ربع ساعة . . فكان يرد : ولا دقيقة . . فكانوا يقولون : دقيقة . . وكان الرئيس يقول لهم : ولا ثانية . . ويقول الشيخ الطنطاوى . . بينما جلس الرئيس يستمع إلى أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ويتفرج على نجوى فؤاد حتى مطلع الفجر . . ولم تكن عنده دقيقة واحدة للقاء الوزراء السوريين . . أما المصريون فكانوا سعداء بأن يراهم الرئيس مرة واحدة يوم حلف اليمين . .

ثم إنهم يؤرخون لذلك فيقولون : ب - ح - ى . . وق - ح - ى . . بعد حلف اليمين وقبل حلف اليمين . . ثم لا يتحدثون عن المفاجأة التقليدية بقرار طردهم المنشور فى الصحف!

وقال لى صديقى زميل الدراسة وبلدياتى محمد المصرى : يا أخى لسانك لازم ينقطع؟

- لماذا؟

- ألست أنت الذى قلت إن الرئيس عبد الناصر لن ينسى امرأتين : واحدة من المنصورة رفضته وواحدة من دمشق خانته!



- تريد أن تقول لأننى من المنصورة فأنا أذكر الرئيس بأتعس أيام حياته . . إن اثنين من نواب رئيس الجمهورية هما عبد اللطيف البغدادى وأحمد عبده الشرباصى من المنصورة . . واثنان آخران : سامى شرف وصلاح نصر!

- أنت قلت هذه القفشة!

- قلتها فى بيت مصطفى أمين فمن الذى نقلها؟

- أى واحد!

***

وكنا فى دار الهلال نعمل بحرص . فالرئيس لم يسترح بعد ولم يطمئن . ومن الممكن أن يصدر أى قرار . . وكان د . عبد القادر حاتم ، وهو رجل لطيف رقيق مجامل يطالبنا : بضبط الأعصاب . . والهدوء . . والانصراف إلى أعمالنا . . وكل شيء يمكن إصلاحه بعد ذلك!

وفى يوم وجدت مصطفى أمين فى حالة غضب شديد . قال لى : أنت مجنون؟!

- لماذا؟

- ما الذى كتبته؟ لقد أمرت بوقف طبع المصور فورا . . أنت مجنون؟

- لماذا؟

- مؤكد مجنون . . هل تعرف ماذا فعلت؟

- لا .

ووجدت أمام مصطفى أمين المقال الذى كتبته تعليقا على خطاب الرئيس وعلى ما جاء فيه خاصا باحترام العلم والعلماء .

فقلت : أنا علقت على كلام جميل قاله الرئيس .

أما الغلطة البشعة التى ارتكبتها فهى أننى اقتبست بعض عبارات الرئيس . العبارات كانت بالعامية فجعلتها بالعربية الفصحى . . لم أغير شيئا . . ولكن مصطفى أمين قال : إن الرئيس يتضايق من مثل هذا التصرف . . كلمات الرئيس يجب نقلها وكتابتها كما قالها تماما . . إن كلامه كالقرآن لا تبديل لكلماته!

ولم أصدق . ولكنه وضع أمامى نص خطاب الرئيس لكى أنقل الفقرات بالعامية . وكانت طباعة «المصور» قد توقفت تماما . وتمزقت ألوف النسخ التى طبعت بها كلمات الرئيس بالعربية الفصحى!

وعاد مصطفى أمين يؤكد جنونى : تستطيع أن تنتقد الرئيس ، ولكن لا تغير كلمة واحدة مما قال!

أستطيع أن أنتقد الرئيس؟! أنا . . هو؟ أى أحد؟! طبعا لا أحد يستطيع . ولست فى ذلك منافقا ، ولا هو فى حاجة إلى مثل هذا النفاق - فالذى عنده يكفيه ويفيض!

***

وفى جنازة والد الموسيقار كمال الطويل اقترب قارئ الكف محمد جعفر وطلب من مصطفى أمين أن يقرأ كفه . . وبسرعة قال له : سوف تعود إلى أخبار اليوم . . سوف تقابل الرئيس جمال عبد الناصر أو أنك قابلته فعلا!

واندهش مصطفى أمين . فقد حدث كل ذلك . قابل الرئيس ووعده بعودتنا جميعا إلى أخبار اليوم .

وفى برنامج تليفزيونى ظهر مصطفى أمين وتحدث عن عجائب علماء الكف . وحكى هذه الواقعة . وتصادف أن رأى الرئيس جمال عبد الناصر هذا البرنامج فتضايق . وأجل عودتنا إلى أخبار اليوم عدة شهور!

قال لى محمد جعفر : هات يدك . .

قلت : خذها ولا تخف . .

قال : أنت الخائف . . ولا أفهم ما الذى يخيفك . . أنت سوف تتمكن من الهرب . . وسوف تصبح صاحب مؤسسة صحفية ضخمة فى السعودية؟

قلت : متى؟

قال : فى المشمش! وحياتك لا أنت مسافر ولا أنت هارب . . وإنما سوف تعود إلى أخبار اليوم . . وتستأنف عملك كأن شيئا لم يكن!

وكانت الشهور التى أمضيتها فى دار الهلال من أخصب فترات حياتى . . ففى دار الهلال كان المجال الصحفى واسعا للنشر المتنوع . فكتبت فى «المصور» «والكواكب» «والهلال» «وحواء» واستعدت لياقتى الفلسفية والأدبية - كأننى كنت فى حاجة إلى كارثة لكى تهزنى . . وكتبت عددا من المقالات أصبحت كتبا بعد ذلك . . وفى دار

الهلال عرفت عددا من الأصدقاء : فكرى أباظة وأمينة السعيد وكمال النجمى وصالح جودت ولطفى رضوان ومرسى الشافعى .

***

وفى الدير الدومنيكى بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية ذهبت مع أستاذى د . عثمان أمين وقابلنا الأب بولانجيه . وانفردنا بالأب بولانجيه رئيس الدير فكان هو أول المتكلمين . قال : ما تزال تريد أن تسافر إلى فرنسا؟

قلت : نعم .

قال : هناك صعوبات . . ولكن ممكن .

قلت : موافق . .

قال الأب بولانجيه : يجب أن تدخل الدير . . راهبا . وبعد سنة أو سنتين يمكن إيجاد وسيلة للهرب من مصر إلى ليبيا ومنها إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا .

فاقترب منه د . عثمان أمين وهمس فى أذنه . وهز الأب بولانجيه رأسه قائلا : فى هذه الحالة مستحيل .

فلم يكن يعرف أننى مسلم! .

***

وفى بيت عبد الحليم حافظ فى عمارة السعوديين بالعجوزة قابلت أميرا سعوديا شابا . . وكان الهدف : كيف أهرب من مصر؟

واتفقنا على طريقة . وحتى لا أسبب حرجا للدبلوماسيين السعوديين والأمير ، فأنا أمسك عن ذكر الأسماء . . ولم يكن يعرف هذه الخطة إلا الصديق كمال الملاخ .

ولكن عبد الحليم حافظ همس بكل ذلك فى أذن على أمين الذى استدعانى وأمسك المصحف وهو يقول : احلف الآن فورا! أنك لا تترك مصر مادمت حيا . . بعد ما أموت اعمل ما بدالك! احلف!

وحلفت!

***

وفى إحدى الليالى ذهبت لزيارة والدتى لأجد الصديق محمد المصرى ومعه ثلاثة آخرون : فريد . . وشوكت . . وضرغام . . ضباط مخابرات!

وعرفت فيما بعد أن هذه ليست أسماءهم . ولكنه قال أمامهم : هل تعرف سبب قرار وقفك؟ أنا أقول لك .

قال : إن السيد كمال رفعت شكا للسيد الرئيس أن السهرة فى بيت مصطفى أمين لا تحلو إلا إذا حكى مصطفى أمين كل ليلة كيف أن الرئيس عبد الناصر جعل من كمال رفعت أضحوكة مصر كلها . . وأنه قرر عودتك ولكن لم يشأ أن يغضب كمال رفعت . . فطلب من محمد حسنين هيكل أن تقوم بهذه التمثيلية ، فتتظاهر بأنك تستعطفه ليشعر أنه هو الذى عفا عنك وأعادك إلى عملك . .

وكمال رفعت كما يقول إننا نصفه بأنه «الأطرش» فى الزفة - وكان ثقيل السمع!

وأنه «ثور» الله فى برسيمه . . وأنه الذى لفت نظر السيد الرئيس إلى أن المقال الذى أنشره فى المصور بعنوان : صفحة أنيس منصور . . ولم تكن صفحة وإنما كانت صفحتين . وأن الرئيس تضايق لهذا التحدى . فأصدر قرارا بوقفك!

ولما نقلت هذه القصة لمصطفى أمين وعلى أمين ، أكدا أن هذه هى الحقيقة!

وقال محمد المصرى : إن السيد كمال رفعت قد نقل للسيد الرئيس أن هذه الصفحة وهذا العنوان ليس إلا لسانا طويلا للسخرية منا . . صفعة أنيس منصور . . وأن كمال رفعت بسرعة أصلح الخطأ فى العبارة السابقة فقال : للسخرية منى أنا شخصيا . وهذا لا يرضيك ياسيادة الرئيس!

ولما التقى الصحفى اللبنانى سعيد فريحة بالرئيس عبد الناصر وحدثه فى عودة مصطفى أمين وعلى أمين إلى أخبار اليوم قال له الرئيس : مش هو ده أنيس منصور اللى طالعين به السما . . أدينى خسفت به الأرض!

لاحظ أننى نقلت كلمات السيد الرئيس بالعامية كما قالها . . كأنه ما يزال حيا . . صحيح أنه مات ، ولكن إحساساتنا به ما تزال حية . . حية تسعى وتنهش!

***

هل حاولت فى ذلك الوقت أن أتجاوز الضيق وأتخطى الألم ، وأسمو على الهوان فأفكر فى الذى حدث!

هل الرئيس جمال عبد الناصر رجل شرير . . هل الشر هو الذى يدفعه إلى العصف بأى أحد؟ إن شكله وصوره وصوته لايدل على أنه كذلك . . إذن كيف يمكن لإنسان أن تكون له كل هذه الطاقة الشريرة دون أن يبدو عليه ذلك؟

إننى استعرت كل هذه الأسئلة من الفيلسوفة الوجودية «حنا أرنت» التى سافرت إلى القدس لتشهد محاكمة الزعيم النازى أيخمان . ورأت أن هذا الرجل كان مهذبا رقيقا متماسكا فى كل خطواته . . فى السجن وفى الطريق إلى المحكمة وفى المحكمة . ولكن كيف صدر الشر بهذا العنف عن هذا الرجل .

لقد اهتدت الفيلسوفة : «حنا أرنت» إلى أن السبب الحقيقى : هو أنه لا يفكر ، لم يفكر ، وإنما هو يتحرك تلقائيا إلى فعل الشر دون أن يتوقف لحظة ليفكر . ولو فكر لاتخذ قرارا آخر . إن الشر أصبح عاديا .

والطيار الذى ألقى بقنبلة هيروشيما ، ضغط على زرار فقط - ولكنه عندما فكر فى بشاعة النتائج أصابه الجنون!

وليس عند الرئيس وقت ، ولا عند الذين حوله . . ولذلك يتدفق الشر فى كل اتجاه دون أن يستوقفه أحد ؛ لأن أحدا لايدرى بذلك . . وإذا درى فلا حيلة له!

***

أعود مرة أخرى وأخيرة إلى كتاب «بلاتيرو وأنا» - وبلاتيرو هو اسم الحمار الفضى اللون الذى جعله الأديب الأسبانى رامون خمينيز طرفا لتأملاته ولوحاته الأدبية .

يتحدث خمينيز فى اللوحة ٣٦ فيقول إنه وجد فى القاموس كلمة «أنوجرافيا» ومعناها . وصف الحمير . . أو الحمورية . . وينتهزها فرصة ويتحدث إلى بلاتيرو : مسكين أيها الحمار الطيب المسكين! ألا يستحق منا وصفا جادا؟ إننا إذا وجدنا حمارا لطيفا قلنا عنه إنه آدمى . . وإذا نحن وجدنا إنسانا سخيفا ، قلنا إنه حمار . . مع أنك أيها الحمار الطيب صديق العواجيز والأطفال . . صديق القنوات والفراشات . . صديق الشمس والزهور والقمر . . أنت ياحمارى تفهم ولاشك . . وترمقنى بعينين واسعتين جامدتين تنعكس عليهما أشعة الشمس . .

ولابد أنك تقول عن نفسك : إننى أفضل كثيرا من الذين يؤلفون القواميس وربما كنت مثلهم .

يقول خمينيز : لقد أمسكت القلم وكتبت فى هامش القاموس أن كلمة أنوجرافيا معناها : وصف للذين يؤلفون القواميس . . إنهم الذين يرتكبون الشر دون تفكير فى مصائب البشرية!

***

ومع الفنانين كمال الملاخ وحسن فؤاد وجمال كامل والمستشار خالد حسونة ذهبنا لآخر مرة إلى الأب بولانجيه فى الدير الدومنيكى . كان الأب مريضا وكنت أحبه وأراه حكيما إغريقيا . . وأرى فى هدوئه وصفائه ونقائه مثلا عاليا للحكمة القديمة التى قالها السيد المسيح : الدنيا قنطرة ، اعبروها ولا تعمروها!

وكان الأب بولانجيه عابرا كأنه يمشى على الماء ولا تبتل قدمه ، ويطير فى الهواء فلا تهتز طاقيته ، ويذوب فى الضياء ويبقى لحما ودما لطيفا مرحا شجاعا . ومن كل الذى قاله الأب بولانجيه كانت هذه النصيحة : لن يبقى لك ومعك إلا عملك الصالح . . لا شجاعتك وصبرك الذى لا يتزعزع . . حتى هؤلاء (وأشار إلى الأصدقاء معى) لن يصمد منهم إلى جوارك أحد ، إن لم تصمد أنت نفسك!

وقال إنه يتذكر مسرحية مجهولة المؤلف فى الأدب الإنجليزى اسمها : فلان الفلانى . . أو اسمها : علان . . أو اسمها : أى انسان . . وقد ظهرت فى القرن الخامس عشر أيام الملك إدوارد الرابع .

المسرحية تقول إن ملاك الموت تلقى أمرا من الله أن يقبض روح واحد من الناس . ويقال إنه قابله فى الطريق وقال له : أراك سعيدا فإلى أين أنت ذاهب؟ إننى أحمل إليك رسالة من الذى خلقك؟

- وماذا يريد الذى خلقنى؟
- رحلة طويلة . . وبعدها تكفر عن خطاياك .
- ولكن لست مستعدا لهذه الرحلة . . تعال غدا .

- اليوم! ويجب أن تختار لك رفيقا فى هذه الرحلة! يجب أن تختار لك معنى من المعانى . .

والتفت هذا الفلان إلى كل المعانى فى عقله وحاول أن يختار منها واحدة فاختار «الزمالة» فقالت له : أدخل معك قبرك . . آسفة! ابحث عن غيرى . .

فاختار «الغضب» . ولكن الغضب قال له : عندى وجع فى بطن قدمى . لا أستطيع أن أسير معك إلى قبرك!

فاختار الفلوس . فقالت له الفلوس : إن مهمتى فى هذه الدنيا : أن تأخذنى وتعطينى . . أن تتبادلنى . . أن تخدع بى الناس . . فتش عن غيرى!

واستدعى « المعرفة» التى ارتدت ثوبا شائكا من الندم . .

وفجأة جلست إلى جواره : القوة والجمال والهداية والذكاء . . ثم توارت جميعا .

أما الشجاعة فقالت له : من يعتمد على شجاعة هو تاجر بلا بضاعة!

ولم تبق إلا «الأعمال الطيبة» وقفت طابورا وسارت أمامه إلى قبره . . وهناك استسلم للموت .

قال لنا الأب بولا نجيه : هل فهمت؟

قلت : إلا قليلا!

قال بسرعة : صدقت . . القليل الذى لم تفهمه سوف تعرفه فى حياتك القادمة ولا تنس أن شيئا واحدا يدل على طهارتك : أنك فقير! ولا تنس أنك إذا كنت ستموت يوما ما ، فيجب ألا تتصرف فى حياتك على أنك ميت!

وخرجنا . . ولم أعد!

***

وعندما ذهبت إلى «النادى الثقافى» بجاردن سيتى وجدت الخواجة لامبو يطل من البلكونة وينادى : يامسيو أنيس . . اطلع بسرعة!

وقابلنى لامبو على السلالم وهو يقول : البوليس يبحث عنك . . ولكن الأخبار كويسة . . المدام بتاعتى شافت لك الفنجان . . أخبار بريمو الحمد لله . . البوليس ترك لك هذا الرقم . .

ووجدت رسالة من عبد الحليم حافظ يقول : عزيزى الغالى . . أخبار تجنن . . مبروك . . اتصل بمصطفى بيه ، إنه يتغدى عند الأستاذ محمد عبد الوهاب . . اطلبه ضرورى . . وسوف نلتقى ليلا . . والإمضاء : حليم . . ووجدت رقم تليفون د . عبد القادر حاتم فى مكتبه بمبنى التليفزيون مع ضرورة الاتصال فورا . . أو الحضور فى أسرع وقت! مع رجاء الاتصال بالمقدم عبد الكريم فى شرطة النجدة . . ورقم التليفون . . .

وذهبت إلى د . عبد القادر حاتم وزير الإعلام فى مكتبه . . وعنده وجدت محمد فهمى السيد مستشار الرئيس . وقابلنى د . عبد القادر حاتم فى منتصف الغرفة وصافحنى بحرارة . وهو رجل استطاع رغم كل المتاعب والمشاكل وأحداث مصر التى يعرفها أكثر من أى إنسان أن يحتفظ بالهدوء والابتسامة والأخوة والأبوة لكل الناس . . قال : مبروك . . السيد الرئيس أمر بأن تعود إلى عملك وتكتب . . وتوقع على الذى تكتبه أيضا . . مبروك . .

ثم عاد إلى مكتبه . ووقفت فى مكانى : ولكننى يادكتور . . أريد أن أعرف لماذا منعنى من الكتابة؟

فقال : ترجع تكتب وخلاص ياأنيس .

- شكرا يادكتور . . وشكرا للسيد الرئيس . . ولكن أليس من المحتمل أن أقع فى نفس الغلط الذى لا أعرفه . . فقط أريد أن أعرف .

وبدا الضيق على وجه د . حاتم وعاد يقول : ارجع . . واكتب وخلاص!

- شكرا .

ونظرت إلى المستشار محمد فهمى السيد ، فوجدته قد استدار إلى د . حاتم واستأنفا كلاما سابقا . . إذن المطلوب أن أرجع . . ولا يهم أن أعرف لماذا حدث ما حدث .

حاولت أن أسترجع كل كلمة وحركة .

وفى مبنى التليفزيون قابلت الصديق د . مصطفى محمود . . وكان قد صدر قرار بمنعه من الكتابة فى روز اليوسف بتهمة الإلحاد . . ورويت له ما حدث . فقال : إن د . حاتم قد طلبه هو الآخر عن طريق فلان وعلان وبوليس النجدة . فقلت له : مبروك مقدما .



وسألنى : بالضبط ماذا قال لك حاتم؟

قلت له : ياأخى . . أشار بيده أن أرجع . . فرجعت!

وكأننى كنت فى حاجة إلى أن أنقل هذا النبأ إلى كل الناس . فتجولت طويلا وكثيرا فى مبنى الإذاعة والتليفزيون . . إن هذا المبنى قادر على أن ينقل أى خبر إلى أركان مصر ، تماما كما يذيع إلى أركان الدنيا . . وبعد ساعتين من القهوة وتلقى التهانى وجدت د . مصطفى محمود على باب الإذاعة : هه؟ ـ سألته . قال : نفس الكلام . . ولكن الحركة التى أشار بها د . حاتم إلى أن أعود إلى الكتابة دون مناقشة؟ كانت بيده الشمال . . وأنت باليمين!

***

وبعد شهور طلبت السفر إلى خارج مصر . . وعرفت من الصديق محمود السباعى مدير الأمن العام أن هناك خطرًا على سفرى إلى الخارج . وقال : إنه يمكن رفع الحظر مادمت قد عدت إلى عملك . . وما دام المنع بسبب مقال وليس بسبب أى نشاط سياسى .

وفى الطائرة إلى روما لحضور «المجمع المسكونى» فى الفاتيكان ، كانت المضيفة تقول : تعلن الشركة عن رحلتها إلى روما .

وأنا أقول وراءها : الله . . صوتك أجمل من أم كلثوم . . إننى فى السماء!

وكنت أدخل غرفتى فى فندق «سانتا كيارا» وأترك الباب مفتوحا . . فيغلق الباب أحد الجرسونات . . وأعود إلى فتحه . . وكنت أقول لنفسى : منتهى الأمان . . لا خوف من أحد .

وكنت أجلس على مقهى «الدونة» فى شارع فيافنيتو وأقول : إن أحدًا لا يستطيع أن يفصل أحدا من كل هؤلاء الجالسين!

ولما رأيت الملك فاروق قلت : إن جمال عبد الناصر قد فصل هذا الرجل وأطلق له ٢١ مدفعا ؛ أى أنه فصله مع عظيم الاحترام له ولابنه ملك مصر فؤاد الثانى . . وبعد ذلك لم يكن عبد الناصر يحترم أحدا سواء فصله أو أبقاه . . ولم يعد يطلق المدافع ، وإنما يطلق الرصاص والكلاب!

وانتهى كابوس طويل ثقيل وقد اتخذت فى القضاء عليه عادة فرعونية قديمة : أن أزينه وأجمله مثل عروس النيل ، ثم ألقى به فى الماء فيفيض نسيانا . . ويبدو أن

الرئيس عبد الناصر قد احتاط لذلك ، فأقام «السد العالى » حتى لايكون للنيل فيضان بعد ذلك - فلا ننسى!

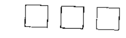
***

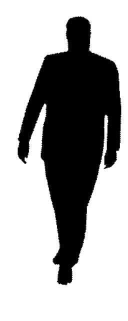
وعدت إلى الصلاة على الرصيف أمام مسجد السلطان أبى العلا ونظرت إلى بيتنا القديم . . إنه كما هو . . والتفت إلى جارى ، كأننى أعرفه . . ومرة أخرى انفجر الميكروفون الذى كان معطلا . . أما الخطيب فقد تقدمت به السن ، وتحشرج صوته وهدأت نبرته قال :

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا

عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا

يأيها المعرضون عنى عودوا فقد عاد الزمان!



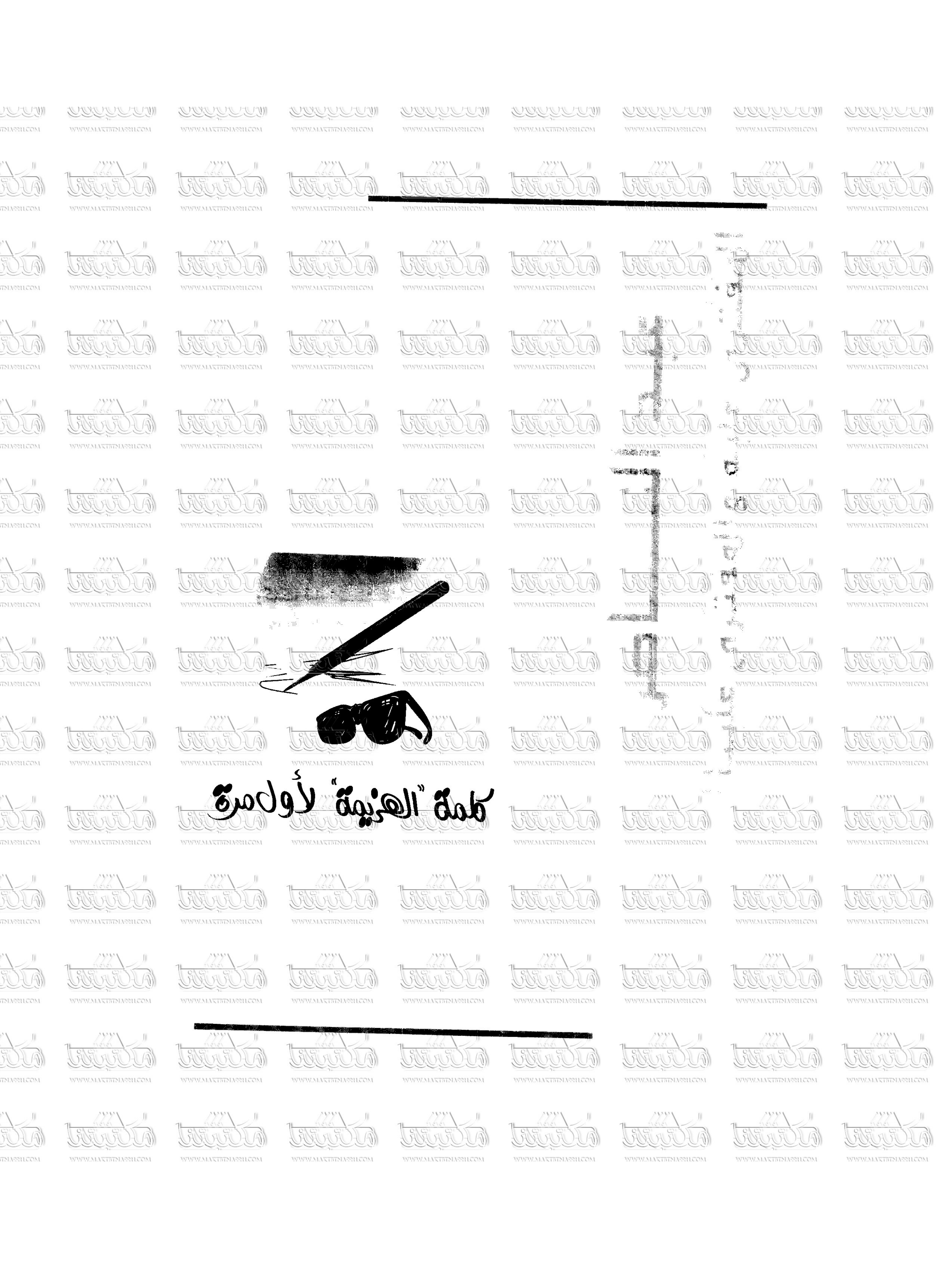


عبد الناصر
المفترى عليه والمفترى علينا !!



عبد الناصر

المفْـتَرىَ علَيْـهِ وَالمفْتَرِى عَلينَا أكْـثَرَ !


كلمة "الهزيمة" لأول مرة

كلمـــة
«الهـزيمـة» لأول مـرة

فى يوم فوجئت بالزميلة فاطمة السيد قد تركت لى رسالة أن أتصل بها فى أسرع وقت . . فى البيت . . فى المكتب . . فى المطعم . وسألتها : خيرًا ، قالت غدا إعدام!

أى أنها تدعونى لمشاهدة إعدام أحد المجرمين . وأنها وعدتنى بذلك . وكنت قد نسيت تمامًا . . واليوم جاء الوفاء بالوعد . . وهى فى انتظارى لنذهب معا لنرى ونستمتع - وهى التى استخدمت الكلمة الأخيرة . لأنها من مفرداتها العادية فى مثل هذه المناسبة البشعة!

***

وفى ليلة كنت مستغرقًا فى النوم فجاءت المضيفة توقظنى وتقول : كابتن شقنقيرى يدعوك إلى فنجان قهوة!

وكنا فى طريقنا إلى طوكيو . وذهبت إلى الكابتن وحدثنى عن العلاج بالمغناطيس - وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن الطبيب الفرنسى د . بارون الذى أنقذ حياة كابتن شقنقيرى فوضع له المغناطيس على يديه وعنقه وظهره . ولولا هذا الطبيب ، ما استطاع الطيار المصرى أن يعود إلى عمله ، بعد أن تحطم بناؤه فى حادث سيارة!

وفجأة ظهرت السعادة على وجه الكابتن كسعادة الزميلة فاطمة وقال : الآن . . أريدك أن ترى . . لقد دعوتك لتشاهد بنفسك كيف أتفادى المطب الهوائى

القادم . . انظر ، إن السحب على اليمين والشمال . . وسوف تدخل الطائرة فى هذا الخندق . . وسوف أمتص هذا السقوط على جناحى الطائرة .

ومرت لحظات وأنا فى حالة إغماء تام . . فقد هبطت الطائرة فجأة فى هوة هوائية سحيقة . . وكانت الطائرة تتحرك عند الطرف الأيسر لأحد الأعاصير التى اجتاحت المحيط الهادى فى طريقها إلى اليابان . .

طبيعى أن يدعوك الطيار لمشاهدة إعصار . .

وطبيعى أن تدعوك محررة الحوادث والجرائم لمشاهدة حبل المشنقة - أما السعادة فسببها أن كليهما قد اعتاد على ذلك . وأنه سعيد لنجاته من الحبل ومن المطب! .

***

وتذكرت أن المخابرات الحربية قد دعتنى لمشاهدة قواتنا على الجبهة . . ومشاهدة النصر المؤكد لنا على إسرائيل . . فما إسرائيل هذه إلا دولة صغيرة ، عالية الصوت ، ومن هم زعماؤها وقادتها؟ . وأين هؤلاء من زعيمنا جمال عبد الناصر؟ ماذا قالوا؟ وما الذى يقول؟ . إنها نزهة فى البر والبحر والجو إذا أردنا . . ساعات وبعدها نعود نتغنى بالنصر الساحق الماحق لعدونا .

وقالوا تعالى اتفرج علينا . كيف نواجه القنابل والمدافع والدخان والصرخات والدماء والموت . . أعوذ بالله . . لكن العسكريين قد اعتادوا على ذلك!

وكنا خمسة من الصحفيين واثنين من المصورين . أركبونا سيارة حربية . وزودونا بالخبز والطماطم والخيار والجبنة والمياه الباردة والبرتقال . وعبرنا القناة واتجهنا إلى أرض المعركة . . معركة الساعات وينتهى كل شىء . . وتنتصر مصر وسوريا والأردن وتعود فلسطين إلى أهلها وبأسلحة الأشقاء العرب الذين تكاثروا على العدو . . وفى ضربة واحدة ينتهى كل شىء . . الطريق أمامنا لامع . . هل هو كذلك أو أننا رأينا على أرض المعركة آمالنا وأحلامنا وأغنيات النصر . . هل كان الطريق مرصوفًا . . أو أنها خطب الرئيس عبد الناصر قد جعلت الهضاب وديانًا ، والوديان جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والطرق الوعرة شوارع حريرية . . وهل هؤلاء الذين نرى : جنود مصريون أو أنهم جنود أمريكان : القوام ممشوق والسيقان مشدودة ، والسواعد مرفوعة ، والأسلحة فى السماء ، والابتسام حقيقى وليس سينمائيًا . . بل جنود مصريون

فلاحون تدربوا من أجل هذا اليوم . . خرجوا من ثكناتهم مرورًا بالسفارات الأمريكية والإيطالية وعلى مرأى من السفارتين السوفيتية والفرنسية إلى الطريق الصحرواى إلى الإسكندرية . . وطريق السويس إلى العريش . . كأنهم عائدون منتصرين من الجبهة .

وفجأة اعترضنا أحد الجنود . . وكان الجندى يقف فى منتصف الطريق . . واندهش السائق العسكرى وضباط المخابرات المرافقون لنا . ولكن الجندى قال : يأفندم . . إننا منذ ثلاثة أيام لم نذق طعامًا!

وتعالى صوت الضباط المرافقين لنا يستنكرون ما قاله الجندى . ولكن الجندى واقف لم يهتز ولم يأبه للزعيق والتهديد . وشعر الضباط بخجل وحرج من وجودنا . ونزل واحد منهم واقترب من الجندى الذى ضم قدميه ورفع يده للتحية . ولكنه لم يغير موقفه أو لهجته أو ملامح وجهه . . بينما أطل جندى آخر من الدبابة الواقفة على جانب الطريق يتابع ما يسمع ويرى . . ومرت مجموعة من الإبل لتشرب من المياه المتدفقة من إحدى المضخات لا تسمعنا ولا ترانا ولا يهمها أحد أو شىء!

وتسابقنا جميعًا فى تقديم كل مالدينا من طعام لهذا الجندى . ولم يشأ أحد من الضباط أن يفسر لنا ماحدث . ولكن واحدًا من الزملاء قال بصوت مسموع : لا يستطيع أى جندى أن يتجرأ على الضباط بالقول والإصرار والصلابة هذه إلا إذا كان يوشك أن يموت من الجوع . . وإلا إذا كان قد انتهى من المخزون الاستراتيجى من البسكوت والجبنة .

إذن أين الذى تنشره الصحف عن الأطعمة الساخنة فى الجبهة لكل الجنود - تمامًا كالجيش الأمريكى فى معاركه فى أوروبا؟ أين الطعام لكل فم ملفوفًا فى ورق السوليفان؟ إن هذا الطعام الفاخر الذى يقدم للجنود - كما تقول الصحف - ليس إلا مكافأة مقدمًا على النصر العظيم . طبعًا جيشنا يستحق ذلك وأكثر! أليس قد استعد؟ أليس قد حارب؟ أليس قد انتصر؟ - طبعًا لابد أن ينتصر .

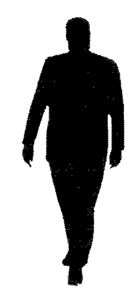
وأول من طالعنا من الضباط الكبار هو العقيد أو المقدم رشدى حسان . لا أعرف بالضبط ما الذى كان يعمله فى الجبهة . ولكنه ضابط طويل أسمر رقيق . . هل قال لنا إنه يدرس فى الجامعة؟ هل قال إنه يستعد لليسانس أو الماجستير؟ هل رأينا كتبًا

عنده؟ أعتقد أننا رأينا كتبًا عنده وعند غيره من الضباط والجنود . . إن الحرب لا تعنيهم فهم مشغولون بما بعدها . . أو كأن الحرب قد انتهت؟ وهم الآن يعيشون فى الأيام الذهبية السعيدة بعدها . . أليس زعيمنا قد أعلن أن الحرب مثل هذه (وأشار إلى يده وأصابع يده) ؛ أى أنها قريبة وواضحة ومضمونة ، فلن تنقص اليد أصبعًا واحدة .

واقتادنا الضابط رشدى حسان إلى حيث تناولنا غداءنا مع القائد الفريق عبد المحسن مرتجى ، . وكانت القيادة والمطعم تحت الأرض ، ودارت مناقشة غير متكافئة بيننا وبينه . . ولابد أن يكون الفريق مرتجى رجلاً مهذبًا جدًا صبورًا جدًا ، لأنه تحمل مناقشاتنا السخيفة . فقد كنا نتكلم أكثر منه . وكنا نجلس إلى مقعد الإفتاء ونقول : لن تحارب إسرائيل . . وإذا حاربت فسوف تساعدها أمريكا بينما روسيا سوف تقف إلى جوارنا . . وتنتهى الحرب فى الشرق الأوسط بأن تقع الدولتان العظميان فى حرب نووية . . وهكذا تكون مصر قد ساعدت العالم على الخلاص مع هذين العملاقين! .

ولابد أن الحياء هو الذى كان يمنع الفريق مرتجى أن يناقشنا فى التشخيص العسكرى لمصر وإسرائيل ، ولكنه كان مضطرًا أن يسمع وأن يناقش . وقلت له عن حادثة الجنود الذين استوقفونا . وسبقته إلى تقديم المبرر المعقول لكل ذلك : فأنت أب لأسرة تضم نصف مليون جندى يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون ويستعدون للقتال . . فليس حدثًا خطيرًا ألا يجد اثنان أو ثلاثة طعامًا وشرابًا . . ولكن من يدرى ربما كان هناك جنود آخرون . وعلى كل حال هذه ملحوظة ، ولا أعرف كيف يمكن علاجها بسرعة!

وكان الفريق مرتجى يتلقى خطابات فى الجبهة تدعو له بالنصر والسلامة . أو تؤكد له النصر .



وكان الفريق مرتجى سعيدًا ؛ لأنه تلقى كتابًا من الفيلد مارشال مونتجمرى ومعه إهداء وتمنيات له بالنصر .

وسألنا الفريق مرتجى : أين تبيتون هذه الليلة؟

وقلنا : طبعًا فى العريش . . لكى نرى العدو زاحفًا على يديه وركبتيه يطلب الاستسلام!

وحاولنا أن نتصل بالعريش ، تليفونيًا ، فلم نفلح . . كل الاتصالات فى الجبهة عسكرية . . أى تليفونات عسكرية . فالفريق مرتجى شخصيًا لا يستطيع أن يتصل بالقوات عند العريش . . فالمواصلات السلكية رديئة جدًا . . فلم نتمكن من حجز غرفتين أو ثلاث نبيت فيها .

ولا أعرف من الذى اقترح أن نذهب إلى العريش . وهناك سوف يجدون لنا حلاً ، حتى لا تفوتنا اللحظات الأولى التاريخية للنصر العظيم .

وفى الطريق إلى العريش رأينا حشود القوات المصرية . . والطعام الساخن يوزعونه على الجنود . . وكان الشباب أكثر سخونة من الطعام . يجتمعون فى أى مكان ولأية مناسبة ويخطبون . ويلقون القصائد الملتهبة ويجمعونها أمانة فى عنقى لكى أنشرها عندما أعود إلى القاهرة . وقابلت عددًا من الأقارب حديثى التخرج فى الكليات - وكنت آخر من رآهم وتحدثت عن أشكالهم وألوانهم وحيويتهم وشبابهم - رحمة الله عليهم جميعا - وعشرات الألوف من أمثالهم فى اليمن وفى سيناء .

قابلنى شاب واقترب منى يقول : أمانة يا أونكل . . أنا ابن الأستاذ محمد أمين حماد رئيس التليفزيون . . أرجو أن تبلغ والدى بأننى لم أذهب إلى اليمن ، وأننى هنا فى الجبهة . وأننى سوف أعود فى أقرب وقت .

ولم أفهم . فعاد يقول : إن جبهة اليمن خطيرة . . أما هنا فأمان تمامًا!

وعلى الحدود بين مصر وإسرائيل ذهبنا للقاء اللواء عبد العزيز سليمان . . وكان رجلاً متوسط الطول له كرش ودمه خفيف . لم يكد يرانا حتى أشار بعصا فى يده أن نجلس . فجلسنا .

ثم قال : لماذا جئتم!

قلنا : لكى نشهد اليوم العظيم .

قال : ثم ماذا؟

قلنا : ونعود إلى مصر سعداء بما رأينا .

قال : سعداء؟ بماذا؟

قيل له : بالنصر طبعًا .

قال : بالنصر؟ طبعًا؟ كيف؟

ولما وجدنا الضباط الكبار حوله يضحكون أدركنا أنه يحاول أن يسخر منا . . وأنها المقدمة الطبيعية لموقف مضحك . . ينفجر بالضحك . . ولذلك انتظرنا النكتة التى سوف يرويها .

فقال : هل أحد منكم يرى الرئيس جمال عبد الناصر؟

فلم يرد أحد . أى أن أحدًا لا يعرفه . .

فقال : إذن قولوا للذين يرون عبد الناصر . . إن القادة على الجبهة كان يجب إعدامهم قبل المعركة . . هل من المعقول أن يكون رجل مثلى قائدًا وعنده هذا الكرش . . قائد بكرش يعنى إيه؟ كيف أكون قدوة للضباط والجنود . . إننا مثل خيل السلطة . . يجب إعدامنا فورًا فى ميدان عام .

ثم أشار بعصاه إلى عدد من القادة ذوى الأكراش . ولم يضحك ولكننا والقادة رحنا نضحك . .

سألته : ياأفندم سيادتك ترى أنه يجب التخلص من الأكراش قبل أن نتخلص من إسرائيل؟!

وتضايق اللواء عبد العزيز سليمان قائلاً : أيوه . . ياخويا . . لأن هذه الأكراش ستكون سببًا فى الهزيمة!

وكانت هذه المرة الأولى التى نسمع فيها كلمة «الهزيمة» وكان ينطقها بجدية ومرارة . كأنه يعنى ما يقول ، مخالفًا كل التوقعات وكل الأمنيات . . وكأنه لا يهمه أن ننقل عنه هذه الكلمة . . ولا يهمه أى أحد فى الجبهة أو فى القاهرة .

ثم أشار إلى أحد الجنود قائلاً : اذهب مع الأساتذة . . هل تريدون أن تعرفوا كيف نواجه الحرب الميكروبية . . طبعًا تريدون . . اذهبوا وتفرجوا على بلادكم كيف تواجه الميكروبات على الجبهة . . اذهب إلى . . اسمه إيه . . غازى . . اسمه غازى . . الواقف أمام برج المراقبة .

وسرنا وراءه . إلى حيث يوجد أحد أبراج المراقبة لقوات الطوارئ الدولية . أشار إلينا الجندى غازى أن نصعد وأن ننتظر . . وقال إننا سوف نجد جنديًا إسرائيليًا قد أمسك شيئًا أبيض ويحركه يمينًا وشمالاً . . وأن هذا الجندى الإسرائيلى يرش على الأرض مادة بيضاء سامة .

وصعدنا الواحد بعد الآخر . . بعضنا قال إنه رأى وبعضنا لم يتمكن .

ونزلنا ووقفنا حوله نسمع الشرح والتفسير فقال : هذا الذباب الصغير الذى امتلأت به الجبهة . . سيادتكم قد لاحظتم ذلك . . هذه هى الميكروبات . . يطلقونها هناك لتجىء هنا . . هذا الجندى الذى أمسك ملاءة بيضاء . . هذه الملاءة ملأوها بالميكروبات وأطلقوها فى اتجاهنا . . وهناك نوعان من الميكروبات : نوع يطلقونه فى الهواء . . والنوع الثانى يلقونه على الأرض ليزحف إلينا . . ونحن نجمع عينات من هذه الميكروبات ونبعث بها إلى المخابرات الحربية فى القاهرة! .

ولا يهم ما الذى قلناه لأنفسنا . . ولا كيف أحسسنا بالصدمة العنيفة لما يقوله هذا الجندى البسيط . . ولا كيف يتصور هو شكل الميكروبات التى يضعونها فى ملاءة سرير ويطلقونها علينا جوّا وأرضًا . . ولا يتساءل إن كان أحد يصدقه فى مصر؟

وإذا كان أحد لا يصدقه فلماذا يكلفونه بجمع عينات من الذباب الذى يتكاثر مع بداية الصيف .

وعدنا إلى اللواء عبد العزيز سليمان . فبادرنا واقفًا والعصا فى يده : هه . . رأيتم كيف تواجه بلادكم حرب الميكروبات - وكيف نعتمد فى هذه الحرب على معلومات جندى جاهل وضابط أكثر جهلاً . . ثم تريدون أن ننتصر . . اخرجوا . . اكتبوا ما رأيتم ، أو قولوا لأى أحد على مسمع من الرئيس . . روحوا . . إن كانت عندكم شجاعة أو عندكم دم!

بعضنا قال : إنه رجل خفيف الدم وإنه يداعبنا بقسوة .

وبعضنا قال : كيف يجرؤ؟

إنه رجل جرىء يائس تمامًا من مهمته كقائد . . وإنه لابد أن يكون قد حاول كثيرًا أن يسمعه أحد . . فلم يفلح . . ولذلك فهو كافر بالذين يراهم فى الجبهة والذين لا يراهم فى القيادة العسكرية والسياسية فى القاهرة . . وأنه عندما طلب إلينا أن ننقل للسيد الرئيس أنه يستحق الإعدام رميًا بالرصاص - إنه هو اللواء عبد العزيز سليمان - كان يريد من ضباط المخابرات أن يعجلوا بإرسال هذه الأمنية!

وعندما ودعناه قال لنا :

هذه المعلومات لكم أنتم . . لا تقولوها لضابط المخابرات!

ولم نكد نرفع أيدينا جميعًا بالتحية والدعوة له بالسلامة والنصر حتى قال بصوت مرتفع : أين ضباط المخابرات المرافقون لكم؟!

وتقدم الضابط ناحيته : أفندم .

قال : اسمع ياابنى . . كل الذى قلته هنا . . أريد أن تنقله بالحرف الواحد . وإن وجدت صعوبة فى نقله ساعدتك . . حتى لا يظن الصحفيون أننى جبان . . . مع السلامة!

***

وكانت الجبهة مظلمة تمامًا . . وكانت سيارتنا تمشى بصعوبة . . فقد كان السائق يهتدى بنور النجوم . . ولما اقتربنا من الظلام القاتم من منطقة لا أعرف أين هى . سمعنا جنديًا فى يده بندقية يصرخ بصوت مرتفع : قف . . من أنت . . كلمة سر الليل!

ومن المفروض أن هناك كلمة سر لابد أن يعرفها كل من يتحرك فى الجبهة . . وإلا فلن يسمحوا له بالحركة أو قد يطلقون عليه النار .

ولكن فوجئنا بضابط كان يجلس وراء المقدم رشدى حسان يقفز من السيارة ويقول للجندى الذى استوقفنا : بس ياولد . . أو بس يادفعة . . أو أفسح الطريق . .

لا أذكر بالضبط ماذا قال . . ولكن الكلمات التى ردعه بها كانت قليلة وكانت استنكارًا لموقف الجندى الذى رأى سيارة عسكرية . . تابعة للبوليس الحربى . . وتراجع الجندى وأفسح لنا الطريق . . فأزاح البراميل أمام السيارة .

قال لى جارى : يانهار أسود ومنيل . . تصور أن الضباط يشخطون فى الجنود لأنهم يطالبون بمعرفة كلمة سر الليل . . إن أى ضابط إسرائيلى من أصل عربى أو مصرى يستطيع أن يدخل الجبهة ويصل إلى القاهرة . . إذا شخط فى الجندى هكذا . . تصور - إيه ده؟

ولم أستوعب فداحة هذا التصرف . فقد كان الليل مظلمًا . والسكون مخيفًا . والشك يلعب فى رأسى ويلعب بها وبنا . . فالجنود لا يجدون طعامًا والقادة يطالبون بالإعدام لهم . . أو للقادة فى مصر . . والذباب ميكروبات تطلقها إسرائيل وتبعث بها من الجبهة إلى معامل المخابرات .

والمخابرات تجمع المعلومات عن القادة المصريين الذين لا يهمهم ذلك . . ثم إننا لم نفلح أن نتصل تليفونيًا من مكتب الفريق مرتجى بأى فندق فى العريش .

ومن إذاعة إسرائيل سمعنا أنهم اخترعوا مادة تغنى الناس عن استخدام البترول . . شىء غريب . . ما المعنى؟

لم نفهم فى ذلك الوقت مغزى أن هناك محاولات علمية لتجريد العرب من ثرواتهم ومن سلاحهم البترولى!

وكان لابد من العودة إلى الإسماعيلية لكى نبيت هناك .

أما الطريق إلى الإسماعيلية فلا نعرفه . ولا أحد . ولذلك ظللنا طول الليل ندفع سيارتنا إلى الأمام ونضع الطوب والحجارة تحت عجلاتها لكى ننتشلها من الرمال الناعمة . . وكان العقل يقول : بل نبيت فيها أو إلى جوارها حتى مطلع النهار ، ونرى الطريق أو يرانا الجنود فيساعدوننا على العودة إلى الإسماعيلية أو إلى الجبهة .

وعند الفجر وصلنا إلى الإسماعيلية . ولا أعرف كيف طلع النهار . ومن المؤكد أن الشمس كانت سوداء فى ذلك اليوم ، فالذى رأيناه وسمعناه قد زعزعنا . . زلزلنا . . خذلنا . . هزمنا وبمنتهى الصراحة . كانت عودتنا إلى الجبهة ثقيلة . . كأننا أسرى حرب . . أعادونا إلى معسكر اسمه «النصر» . فالنصر هو تلك الخيمة الزاهية الألوان التى تضج بالنشوة المتجددة وأبخرة الأطعمة الساخنة . . ولكننا أسرى مخاوفنا وشكوكنا . . والنصر اسم وليس فعلاً!

وكان لابد أن أبحث عن طائرة تعيدنى إلى القاهرة . أما الزملاء من أخبار اليوم والأهرام وآخر ساعة ومجلة الإذاعة فكان عليهم أن يمكثوا أيامًا أخرى .

وقالوا لى لابد أن تعود إلى العريش . وعدت . .

وتضاربت العبارات والهتافات . . أما الهتافات فهى لأبناء غزة والعريش يدعوننا إلى شراء ما عندهم من سلع قبل أن ينتقلوا إلى تل أبيب؟!

إلى القدس . . يقولون : تفضلوا . . سوف نقفل الدكاكين بعد النصر إن شاء الله . . تعالوا . . الأسعار متهاودة . . تفضلوا . ياهلا . . ياهلا . . بالنصر العظيم! .

طبعًا كلها ساعات وتتحول القوات إلى الناحية الأخرى . . لا مقاومة . . لا أحد هناك . . فوراء هذه الحدود المصطنعة : فراغ . . فراغ . . إسرائيل المزعومة . . إسرائيل التى رسمتها على الأرض العربية أمريكا وروسيا . وغرستها سكينًا فى قلب العرب . . سوف ننزع هذه السكين . . وبعد ذلك تجىء فترة للنقاهة مقدمة للنصر ، أو هى مرحلة من مراحل النصر .

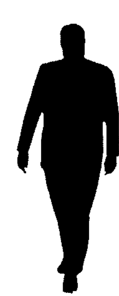
وعشرات المعانى والصور البلاغية التى جاءت فى خطب الرئيس عبد الناصر ، إذا حذفنا بعض كلماته النابية فى شتم الرؤساء والملوك وأمهاتهم وآبائهم . . لم تكن كلمات الرئيس عبد الناصر تحتاج إلى موسيقى . . إنها موسيقى الحرب والنصر . . ولا شك فى ذلك .

أما سبب حرصى على العودة فلأننى سوف أعد حلقة جديدة من برنامج فى التليفزيون . وسوف تجىء المذيعة ليلى رستم إلى مكتبى فى الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ - فلابد من العودة . وقد جمعت المعانى التى سوف أنقلها إلى القراء . . وعشرات القصائد والأناشيد والأغانى التى انهالت من الجنود . . وقد وعدت . . والوعد أمانة . . والنشر شرف!

وانتشرت شائعة فى الجبهة أن الحرب غدًا . . وقيل إن المشير عبد الحكيم عامر قد أصدر منشورًا أو بيانًا أو توجيهًا - لا أعرف الكلمة العسكرية لهذا المعنى - يقول فيه : إن الحرب غدًا ٥ يونيو .

وأن هذا هو سر السعادة الغامرة لكل الجنود والضباط .

وقيل أيضًا إنه فى الجبهة . وإن الكثير قد شاهدوا طائرته . . وشاهدوه هو أيضا . . أى أن المشير قد جاء إلى الجبهة ليتقدم الجنود . . ويسبقهم إلى تسلم علم الاستسلام الإسرائيلى ، ويعود به منكسًا ويلقى به عند قدمى الرئيس عبد الناصر فوق جثث ألوف اليهود من كل بلد .



وفجأة وجدت نفسى وحدى فى الجبهة . . لا أحد عنده وقت ليسمعنى أو يكلمنى . . طبعًا إنها الحرب . . وإنه النصر . . وإنه المشير . . واتجهت إلى مبنى صغير . . وقبل أن أسأل الطيارين الشبان إن كانت هناك وسيلة للعودة إلى القاهرة ، بادرنى أحد الضباط الشباب : سيادتك فلان؟

– أيوه .

– أنا أسكن فى البيت المواجه لك فى الزمالك .

– أهلاً وسهلاً . .

– تحب تتفرج على طائرة ميج .

– ويسعدنى ذلك .

وكانت هناك طائرة صغيرة واقفة على الممر . . طلب منى الضابط الشاب أن أصعد . وساعدنى على ذلك . وحشرت نفسى فى الطائرة . أحسست أننى تخين . . وأن مثلى لا يركب مثل هذه الطائرات . . ولكن ملأت المقعد . . وسحب الطيار ذلك الغطاء البلاستيك . ووجدتنى فى كبسولة مخيفة تمامًا . وأحسست أننى «عبوة» فى قذيفة وتولانى الفزع . . وقلت لنفسى : نفرض أن هذه طائرة أوتوماتيكية وأنها انطلقت بالتحكم عن بعد . . وأننى فى الجو . . وأننى متجه إلى إسرائيل . . وأننى هدف يتحرك من الممكن أن تصيبه القوات المصرية والإسرائيلية . . إننى ميت ولا شك . . فأنا – إذن – أول ضحايا النصر . . وأول الشهداء – دون قصد من هذا الطيار الذى بهرنى بالمعانى التى أثارها فى نفسى له ولمئات الألوف من زملائه . . فاستسلمت وركبت الطائرة .

وأشرت إلى الضابط أن يخرجنى . وحاول أن ينزع الغطاء فلم يستطع . . وأشار لى أن أضغط زرّا يمينًا أو شمالاً . . وتركنى بسرعة وعاد ومعه بعض الطيارين أو المهندسين وبذلوا جهدًا كبيرًا لإخراجى غارقًا فى عرقى ومتعطشًا إلى أوكسجين الهواء . . وكأنما أحس الضباط أنهم ضايقونى . . أو أحسوا بخطورة هذه الطائرة على حياتهم . . لأنه لا يمكن فتح غطائها والقفز منها عند الضرورة . . وأنهم لذلك ممتنون لى فقد نبهتهم إلى كبسولة الموت هذه!

ثم تقدم أحد الطيارين وقال لى :

– أنت مصدر فزع لنا . . ولكل سكان الزمالك!

– كيف؟

– سيادتك شكوت من نباح الكلاب طوال الليل . . وكتبت ترجو شعراوى جمعة وزير الداخلية ومحمود السباعى مدير الأمن أن ينقذاك من هذه

الكلاب . . فجاء رجل يقتل الكلاب التى تتجمع فى العمارة الجديدة بينك وبين فيلا أم كلثوم . . وكانوا يستخدمون السم والنبوت . . فالكلب يأكل السم ويقع فيضربونه على رأسه ويعوى الكلب والناس يسارعون إلى البلكونات ليشهدوا هذه المذبحة . ولما تكاثرنا حول القاتل كان يشير إلى شقة سيادتك ويقول : أنا عبد مأمور . . هذه أوامر سعادة الباشا . . الذى هو أنت . . وفجأة كتبت سيادتك عن قسوة السم والنبوت فأرسلوا إليك من يطلق الرصاص على الكلاب . . ويختار يوم الجمعة بالذات حيث الناس فى إجازة . . فكنا نحبس الكلاب خوفًا عليها . . وأنا واحد من الناس نقلت كلابى من شقتى إلى شقة ماما فى المعادى . . خوفًا عليها من أن يقتلوها ، بأمر من سعادة الباشا!

وطال الكلام عن الكلاب وعن الوسائل الوحشية للقضاء عليها وخوف الناس فى الزمالك . . وجاءت القهوة . . والقهوة . . وفجأة وجدنا أمامنا الفريق أول صدقى محمود ، قائد الطيران . . وتحول الشباب إلى أعمدة من الحديد قد دقت فى الأرض . . وتحولت أذرعهم إلى أطراف ميكانيكية لتحية القائد الكبير . . وصافحنى الفريق صدقى محمود : ماذا تقولون؟

قلت : نتكلم عن الكلاب؟

قال : سوف ننتصر عليهم بإذن الله!!

ثم سألنى : ماذا تعمل هنا؟

قلت : أريد أن أعود إلى القاهرة .

قال : إذن تعال معى!

الله أكبر . . إذن قد وجدت الوسيلة إلى القاهرة . وسوف أكون أسبق من الجميع فى كتابة ما رأيت وما سمعت . . وسوف أنقل ما قاله الفريق مرتجى والفريق صدقى محمود وما قاله الشعراء من الجنود والضباط . . ولن أكتب سطرًا واحدًا مما قاله اللواء عبد العزيز سليمان . .

وكان يقود طائرة الفريق صدقى محمود الكابتن حسين عبد الناصر أخو الرئيس عبد الناصر .

وواجهنى الفريق صدقى محمود بما واجهنى به الفريق مرتجى عندما قلت له : لا أظن أن إسرائيل سوف تحارب . . ولا أعتقد أن أمريكا سوف تحارب ؛ لأنها لا تريد حربًا عالمية مع روسيا وحليفات الطرفين من أجل مصر وإسرائيل .

وكأننى كنت أتحدث إلى تمثال رمسيس أو تمثال نهضة مصر . . فلم يظهر أى أثر لما أقول على وجه الفريق صدقى محمود . فله رأى آخر . ولابد أن الأدب هو الذى منعه أن يقول مثلاً : وأنت كيف تعرف؟ أو يقول : لن أرد عليك بكلمة واحدة . . فعندى معلومات أخرى .

فقد كان من رأى الفريق صدقى محمود أن الحرب وشيكة الوقوع . . وأن «شيئًا ما» ليس واضحًا . . وأنه ليس على يقين من أن القيادة قد أجمعت رأيها على القتال .

هل أنا الذى تكلمت معظم الوقت؟ أو أننا كنا صامتين؟ أو أنا الذى أدير المعانى فى رأسى وكانت المعانى من القوة لدرجة أننى كنت أسمعها وأراها . . وأتوهم أن الفريق صدقى محمود هو الذى يتكلم وأنا أرد عليه؟

وكنت أنظر من النافذة طول الوقت . . فلم أتبين أننا نجلس فى صالون صغير أنيق . . وأن الكابتن حسين عبد الناصر هو الذى قدم لنا القهوة .

– تفضل . .

– شكرًا . .

– ماء؟

– شكرًا . .

– ماذا كنت تقول؟

– بل ماذا كنت تقول أنت؟

– أنا . . أنا تركتك جالسًا وحدك منذ وقت طويل .

– إذن كنت أتحدث إلى نفسى . . أو أقرأ ما سوف أكتبه . . وأرى السعادة على وجوه الجميع .

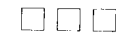
***

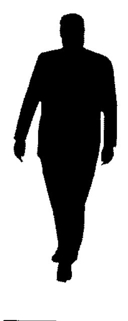
وأمضيت ليلة سعيدة أتحدث فيها عن عظمة ما رأيت . . ولم أجد تلك الأحداث الصغيرة والعبارات القاتمة ، إلا نقطًا سوداء فى الثوب الفضى والذهبى للنصر المؤكد . هل هنأت الكثير بالنصر مقدمًا . . هل هنأت نفسى على الفوز العظيم بأننى أول من يكتب وأسبق من سجل حوارًا مع القادة على أرض المعركة .

وفى مكتبى فى صباح ٥ يونيو . . تدفقت وكالات الأنباء . . وصوت العرب يجلجل بالحرب والضحايا من الطائرات والأسرى والأهداف . . إذن لقد كنت آخر من عاد من الجبهة وأول من كتب .

ولم تكد تغرب شمس ذلك اليوم ، حتى كان الذى نعرفه ولا طاقة لنا على نسيانه!

ولم تكن الميكروبات التى يرشها جنود إسرائيل على أرض المعركة إلا علامات لهداية الدبابات والسيارات المصفحة إلى أرض مصر؟!






لوحات على جدران الخوف

لـوحــات
على جـدران الخـوف

كان فى باريس مسرح اسمه «الرعب الأكبر» - جران جينيول- وأغلقوه فى سنة ١٩٦١ - سنة الانفصال بين مصر وسوريا . وكان المسرح يقدم للناس كل قصص وحكايات الخوف والعنف والدم . فيجلس الناس يرون الرءوس الطائرة بلا أجساد ، والأجساد بلا سيقان . . والعيون والصرخات وشلالات الدم والأرامل واليتامى والأيامى فى زفة سعيدة بما أصاب أبناءهم وأزواجهم وكأن الشيطان فى ملابسه الذهبية أو الفضية النقية يتسلطن على عرش من الجماجم . . ومن الجماجم تخرج أصوات تقول : بالروح والدم نفديك .

وعندما فتح هذا المسرح ستارته لأول مرة فى سنة ١٨٩٧ كان يقدم القصص الساذجة للأطفال مثل قصة «بانش وجودى» وبانش هذا شخصية مأخوذة من شخصية أخرى كوميدية ابتدعها فيوريللو الإيطالى فى القرن السادس عشر . أما بانش فرجل شرير يقتل ابنته فى ثورة غضب ، وتحاول الأم أن تنتقم فيقتل الأم ، ولما تعلق كلبه بثوبه قتله ، ولما جاءه الطبيب خنق الطبيب . . ولما حكموا عليه بالإعدام لف الحبل حول عنق الجلاد . ولما ظهر له الشيطان انتصر على الشيطان وينزل الستار وقد تساقط الناس من الخوف . . ولكنهم يجدون فى الخوف متعة . . هزة . صدمة . . هى التى تهد حيلهم ، وتلقى بهم فى الفراش ليناموا بعمق . . إنهم يتزاحمون على المسرح ويشترون التذاكر من السوق السوداء . فلذتهم الكبرى فى عذابهم .

ولكن فجأة قرر صاحب المسرح إغلاقه . وعز عليه أن يتركه خاليًا من الرعب . فأطلق فيه بعض الوطاويط والثعابين والكلاب والقطط . ويقول أهل باريس إنهم كانوا يسمعون موسيقى فى الليل . ويسمعون دقات المسرح التقليدية . كأن المسرح يتذكر ما كان . .

فى أربعينيات هذا القرن ألف الفنان العظيم بيكاسو المسرحية الوحيدة له وعنوانها «اللذة من ذيلها» - وكان أبطال هذه المسرحية : الستارة وخشبة المسرح والمقاعد والهواء الخانق وأصداء الفزع وصرخات الألم فى المسرح والكواليس .

ثم انهدم المسرح . لماذا؟ لأن الفزع الذى أشاعه هتلر فى أوروبا وفى العالم كله ، هذا الفزع الحقيقى ، قد جعل ما يعرضه الممثلون قصص أطفال . . لا تخيف إلا الأطفال . . حتى الأطفال الذين يحلمون بأن يكونوا طيارين وغواصين ، لم تعد تخيفهم الملاعق والشوك الطائرة . . ولا السجاجيد الهائمة!

ولما أقفلوا المسرح فى باريس انفتح علينا الرعب فى مصر فقد كان الانفصال صدمة مروعة للقيادة المصرية . . وكانت الصدمة قبل الأخيرة للرئيس جمال عبد الناصر زعيم مصر بطل العروبة . . هادم الهرمين : الجيش والشعب . . والصورة المعدلة لصلاح الدين الأيوبى . . ولم يكن للزعيم عبد الناصر إلا هدف واحد أن يسترد سوريا . . أن يظهر قوته أمامها . . ليؤكد للشعب السورى أن خسارته كانت فادحة . . أنه مثل رجل حكمت المحكمة الشرعية بطلاقه من زوجته لضعفه الشديد . فقرر أن يتزوج كل يوم واحدة وأن يكون لهما أولاد - منها أو منه . .

فكانت حرب اليمن الخاسرة ، وكانت حرب يونيو سنة ١٩٦٧ الأكثر خسرانًا . وكان ما هو أبشع من مسرح «الرعب الأكبر» . . مائة ألف شهيد . . ومائة ألف مليون جنيه . . بلا قضية . . إلا الثأر الشخصى . . إلا الشمشونية الجديدة : أنا ومن بعدى الطوفان . . فكان الطوفان معه وبعده أيضًا . . ويوم أعلن لا تفريط فى حبة رمل واحدة أعطى كل حبات الرمل!

ولا أعرف كيف استطاع الذين كتبوا عن نكسة ١٩٦٧ أن يمسكوا أقلامهم وأعصابهم وهم يكتبون عن أعمق مأساة فى تاريخنا ؛ مأساة توقف عندها التاريخ ، لم تجف لها دموع الملايين على مئات الألوف من الأبرياء ، كيف استطاع الرئيس عبد الناصر أن يخدع شعبًا ويضلل أمة ،

وكيف أننا لا نزال نهز آذاننا ونفرك عيوننا لنسمع ونرى الموال الذى لا ينتهى عن «كلنا بنحبك ناصر» - رغم كل ما حدث . . إن احتيال هؤلاء الدجالين وخيبة هذا الشعب ، قد أطالت عمر الزعيم ، رغم أنه تجاوز عمره الافتراضى فى مايو سنة ١٩٦٧ يوم أعلن أنه لن يحارب . . لن يهاجم . . لن يبدأ ، ثم حشد مئات الألوف من الجنود بلا استعداد بلا خطة . . وجعلهم عراة فى الصحراء . . وكأنه رومولوس العظيم ، آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية ؛ عندما قرر أن يصفى الإمبراطورية ؛ لأنها كبرت وشاخت ، فقبل أن تحاكمه وتحكم عليه حاكمها وحكم عليها وأدانها ونفذ حكم الإعدام فى صبيحة يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

هل تعرف اسمًا لما حدث؟

إن العسكريين لا يعرفون . . والمدنيين لا يجمعون فقد كنا جميعًا ضحايا التخدير والبنج اليومى . . و «الكذبة» الإعلامية من الطبالين والزمارين والدجالين . . ولذلك جاء الموت والدمار والخراب كأنها أعز أمانى الشعب - حرام!

ولم يحدث فى تاريخ الحروب أن دخل جيش معركة مهانًا مفضوحًا كما حدث لجيشنا .

بل إن مسرح «الرعب الأكبر» قد انفتح فى دماغى - وأمامى على الورق وأنا أخوض إليك - صورًا من الوحوش والأفاعى والصرخات والهول العظيم . . وفى عينى وأذنى ما رأيت على جبهة القتال يوم ٤ يونيو - قبلها بيوم . . قبل الكارثة الكاسحة الفاضحة!

إنها جهنم أبى العلاء المعرى . .

جهنم الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى التى حاكم فيها كل العظماء عن جرائم الفكر والرأى والقيادة والحروب بلا أمل فى النجاة . . جهنم عالم النفس فرويد الذى يرى أنه فى داخل القفص الصدرى للإنسان كل مخاوف الطفولة . . طفولة البشرية وطفولة أى إنسان . . فكل شىء قد ولد فى الطفولة وتوارى ليعود عند الهزات العنيفة ليصبح الرجل طفلاً صغيرًا يصرخ ويضطرب ويرتبك . . أنظر إلى المرضى فى عيادات أطباء النفس يبكون ويصرخون . كأنهم أطفال . . إنهم ألعوبة الخوف . . وكذلك الشعوب .

ولذلك كان تماسك الشعوب بالأب ، بالزعيم الذى هو أب للشعب . . ولكن الزعيم طفل هو الآخر جعلته الكارثة طفلاً باكيًا صارخًا ينحنى على أقدام الشعب ، فإذا صدقه الشعب استرد رجولته ورغبته فى الانتقام من الذين أخافوه وأعادوه طفلاً . . إنها نفس قصة الشيطان فى القمقم التى جاءت فى «ألف ليلة وليلة» . . توسل إنسان غلبان أن يحرره . . ففتح القمقم فوقف الشيطان يعاقبه ؛ لأنه مغفل ؛ إذ كيف يصدق شيطانًا . .

إنها جهنم سارتر فيلسوف الوجودية ، إنها الفضيحة : أن يراك الناس ولا تراهم . . وأن يحاكموك وأن يحكموا عليك دون أن تدرى ودون أن تسمع . . وأن يجعلوا منك أضحوكة ، ومن شعبك أضحوكة وأنت عاجز عن الدفاع وعن استئناف الحكم . فجهنم هى : عيون الآخرين . . وألسنة الآخرين . . والذين جاءوا إلى مصر يلعبون فى أصابع أقدامهم لكى تخرج الإهانات من بينها تخرم أذنك وأنت تتألم ولا تتكلم - فقد هان أمرك على الناس ، كما هان بلدك ومجدك!

ما هذا الذى أمامى وورائى . . ما هذا الذى فى يدى . . القلم مثل صرخة شهيد . أصبحت بفعل «النابالم» عودًا أسود من الفحم . .

كأن الورق برج حمام تساقطت عليه غربان سود .

كأنها حلاوة الروح قد تكاثر عليها نحل أبيض . . كأن وكأن . . الدنيا كلها فضاء رملى أصفر قد تناثرت عليه ألوف الأحذية . . ألوف الرءوس بلا أجساد . . ضحايا القرارات الخرقاء ؛ قرار بالحرب فى آخر مايو سنة ١٩٦٧ . . وقرار بإنزال الطيارين . وقرار بتصفية المشير عامر . . وقرار بإسقاط عبد الناصر . . ورسالة من أمريكا تقول إنها تقف وراء اسرائيل فى كل حال . . ورسالة من روسيا تقول إنها لن تقف وراء مصر . . وكل المعلومات تؤكد أن وزير الدفاع حافظ الأسد كذاب عندما قال إن هناك حشودًا إسرائيلية . والرئيس عبد الناصر يؤكد أن هناك حشودًا . وإذاعة الأردن تسأله : وأين الدفاع المشترك مع سوريا؟ لماذا لم تدافع عن سوريا؟ فيقول الرئيس : إنها إذاعة العيال . . وإن الملك حسين وأمه يبكيان على اتفاقية الدفاع المشترك . .

ونحارب فى الجنوب خوفًا على عدن ونحارب فى الشرق خوفًا على دمشق . . ويعلق الرئيس عبد الناصر إنه لن يهاجم . . وإنه سوف ينتظر

حتى تهاجمه إسرائيل ، فإذا فعلت فسوف «تأخذ علقة» العمر - ولا هو كلام رجل سياسى ولا رجل عسكرى . . ولا هو كلام يقال لجيش تدرب على الدفاع وفوجىء بأنه مطالب بالهجوم . . جيش لم يعرف حتى الآن من الذى أعطى قرار الحرب ، ولا من أصدر قرار الانسحاب - إنها لحظة انفتحت فيها كل أنواع وأشكال وأحجام جهنم : التضليل والعار والجهل والغرور والألوهية - نصف الألوهية!

***

ويردد المثقفون ما جاء فى الصفحة الأولى لمسرحية أمير الشعراء شوقى «مصرع كليوباترا» ذلك الحوار الأليم بين ديون وحابى ، أمينى مكتب قصر كليوباترا :

يقول حابى:

اسمع الشعب «ديون»
كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافًا
بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه
وانطلى الزور عليه
ياله من ببغاء
عقله فى أذنيه

ويرد عليه ديون:

حابى سمعت كما سمعت وراعنى
أن الرمية تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم
وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئًا
ولو استطاع مشى على الأهرام

ويقول حابى:

أتذكر ياديون إذ انطلقنا

إلى الميناء نلتمس الهواء

وكان البحر كالميت المسجى

وكان الليل للميت رداء

ويقول ديون:

نعم وهناك آنسنا سحابًا

وراء الليل جللت السماء

وأقبلت البوارج بعد حين

سوائب لا دليل ولا حداء

رجعن رجوع قرصان أصابوا

من الغرور الهزيمة والبلاء

فلم نسمع لملاح هتافًا

يبشر بالقدوم ولا نداء

ولم نر فوق سارية سراجًا

ولا من ثقب نافذة ضياء

يرد عليه حابى:

قلت ديون أبى

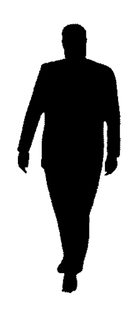
أرى الأسطول بالويلات جاء

دخول الظافرين يكون صبحًا

ولا تزجى مواكبهم مساء

وردد فى المدينة أن روما

عفا أسطولها ومضى هباء



فضج الناس بالبشرى وكدوا
حناجرهم هتافًا أو دعاء
هداك الله من شعب برىء
يصرفه المضلل كيف شاء!

***

(١)

وأول مسلسلات الرعب التى زاحمتنى وسدت الطريق إلى الكتابة : يوم استدعانى الأساتذة : شميل العضو المنتدب للأهرام وعزيز ميرزا رئيس التحرير وكامل الشناوى وأحمد الصاوى محمد ، أما الموضوع فهو أن أذهب فورًا إلى حيث سقطت الطائرة بالممثلة المصرية الجميلة كاميليا - رمز الإغراء والفتنة . . مارلين مونرو الخمسينيات فى مصر .

وكنت قد رأيتها مرة واحدة فى محل للأسطوانات فى شارع سكة الفضل بالقرب من مكتبة سميث التى جعلها حريق القاهرة قطعة من الفحم . وكان أنور وجدى قد طلب منى أن أترجم لها مسرحية للكاتب الفرنسى جان أنوى . . ولم أفعل . .

وكنت قد قررت أن أسافر إلى أوربا . وبسبب مرض والدتى أجلت السفر ، فاحترقت الطائرة بكاميليا «ونجوت»! وذهبت لأرى وأكتب . . ووجدت الأشلاء لحما وشحما . . ولم أعرف أيها كاميليا . . وأيها كان من الممكن أن أصبح أنا . . هذه الساق . هذا الرأس . هذا الحذاء . . هذا القماش . . وأين الروح ترفرف فوق الذين ماتوا حديثًا . واسترحت إلى أن الجنة تحت أقدام الأمهات . . وأننى عندما أنقذت حياة أمى ، تلقيت مكافأة على ذلك فطال عمرى لأرى اللوحة البارزة للنهاية!!

ولم أستطع أن أستوعب ما حدث . . ولا أفلحت فى أن أصف ما كان وما سوف يكون . . كأنها قد حدثت بالأمس . . وكأننى جثة . . أو أشلاء . . أحاول أن أنهض بين الرمال أدل زملائى من الصحفيين والمصورين على موقعى . . أو أروى لهم كيف

انفجرت الطائرة واحترقت . . وكيف انفصال الروح عن الجسد . . وما هى الروح وماهو الموت – تلك الحقيقة التى لم تجد حلاً عند المؤمنين والكافرين من أهل الدين وأهل الفلسفة . . وتذكرت «الصرصار» الذى حدثنا عنه الأديب كافكا . . كيف أنه فوجئ ذات صباح بأنه صرصار . . وأنه يسمع ويرى ، ولكنه لايعرف كيف يتكلم . . وكيف يشارك فى الحوار حوله . . صرصار حى مثل صرصار ميت - كلاهما لا ينطق!

هل بكيت على كاميليا ، أعتقد أننى بكيت عليها ، وعلى نفسى ، لو أننى مت هكذا صغيرًا . . أو أننى بكيت امتنانًا ؛ لأننى مازلت حيًا . . وأنى شاهد على القضاء والقدر – القضاء أحرق الطائرة والقدر أنقذنى!

ولم تغب هذه الصورة!

***

(٢)

ثم تخيلت خيمة كبرى طولها وعرضها سيناء . . وقد جلست أمام بابها أتلقى العزاء فى اللواء عبد العزيز سليمان ، أول قائد كبير يستشهد على خط النار . . أول دبابة إسرائيلية قد اخترقت خيمته لتسويها بالأرض . . كان رجلاً شجاعًا مقاتلاً . . عنده مشكلة : إن الخطوط مقطوعة بينه وبين القيادة . . لا يفهمها . . ولا يعرف من هو عقلها ولا من هو ذيلها . . وكان ينظر إلى الجنود الشبان ويهز رأسه يمينًا وشمالاً ، كل هؤلاء سوف يموتون قريبًا . . إنهم لا يعرفون!

هذه الخيمة الكبرى لتلقى العزاء فى ألوف الشبان الذين تدربوا على الدفاع . . وبعضهم تخرج ولم يتدرب . . وبعضهم لا تخرج ولا تدرب . . وإنما شاء القائد أن يجعل منهم «فرقة حسب الله» يدقون الأرض ويهتفون . . دون أن يعرفوا لهم هدفًا . . وإنما هم مسوقون إلى الموت . . لقد كنت آخر من رأى ابن أخى وابن أختى وابن عمتى . . وجيرانى : شباب . . حيوية . . أمل . . نور الحروف الأولى المضيئة من عبارة تقول : شباب مصر : مستقبل مصر .

ثم ذهب المستقبل عندما ذهب الشباب . .

والوجوه النحاسية ، والعيون العسلية ، والشعور السوداء ، والملابس الكاكية ، والأحذية الميدانية ، وصناديق الذخيرة التى لم تفتح . . وكلنا بنحبك ناصر . . ياجمال ياجمال - فلا حول ولا قوة الا بالله . .

وصورة خيالية للواء عبد العزيز سليمان وقد أمسك عصاه وانهال ضربًا على الذين يتلقون العزاء . . إنه يعترض على العزاء . . ويعترض على الخيمة الكبيرة . . ويرى توفيرًا للقماش والنفقات أن نقيمها فى نفوسنا وأن نعزى أنفسنا فى أنفسنا . . فاليوم لا حى ولا ميت . . ولا قتيل ولاشهيد . . فالموتى استراحوا من عار الأحياء ، والأحياء يحسدون الأموات!

***

(٣)

اللهم اجعل دمى لعنة عليه إلى يوم القيامة . . اللهم إنى على دينك ، وفى سبيلك ، وأموت عليه . . اللهم هذا الطاغوت تكبر وتجبر . . اللهم رحمتك وجنتك ياأرحم الراحمين . . وإنا لله وإنا إليه راجعون!!

لقد كان - يرحمه الله - طويلاً شاحبًا . . يتساند على جلاديه . . لم يكن خائفا . وإنما كان مريضًا . . لم يكن خائرًا ، وإنما كان شيخًا ، لم يكن ثقيل الخطى ، وإنما كان علمًا وقرآنًا . . لم يكن بشرًا ، لقد كان جبلاً من الإيمان والصبر واليقين . .

بحثت عن يدى ألطم بهما خدى . . لم أجدهما . . ما الذى انتابنى . . ما الذى أصابنى فأرى سيد قطب العالم الجليل والشهيد الكريم ، صديقى فى حب الأستاذ العقاد والإعجاب به ، أحد الأنوار الكاشفة للإيمان والغضب النبيل من أجل الله وفى سبيله . . هل هو فرن ذلك الذى وقفنا به؟ فكل شىء لونه أحمر . . الجدران . . الأرض . . الوجوه الجامدة . . هل انفتحت جهنم جديدة : حمراء باردة . . هل حمراء ملتهبة ولكن الأعصاب هربت . . نزعوها ، جعلوها حبالاً يتدلى منها سيد قطب؟! هل هو عندما دخل . . نزل . . مشى . . سحب أرواحنا . . فأصبحنا أشباحًا . . موتى وهو الحى الحقيقى . . هل هذا الجسم الهزيل الشاحب قد

جمع كل قواه وقوانا وحشدها فى حنجرته فزلزل بها المكان : لا إله الا الله . . والله أكبر . . ولا حول ولا قوة إلا بالله! لبيك اللهم لبيك . . اللهم إن الموت حق . . وإنك أنت الحق . . لبيك اللهم لبيك . .

هل كان هذا صوته . . أو صوت الجدران والأبواب والنوافذ . . هل استولى على حناجرنا . . هل قفزت إلى قلبه قلوبنا وانضمت إلى صدره صدورنا . . وبحثت عن رأسى لم أجده . . ذراعىَّ أمدهما . . أسحبه بعيدًا عن الحبل . . هل رأيت دموعًا فى عينيه . . أو أنها دموعى . . هل سمعت عويلاً حولى . . هل حقّا ما حدث . . لاحول ولا قوة إلا بالله!!

لم يشفع له علمه العظيم ، لم تشفع له شيخوخته الحكيمة ، لم يشفع له مرضه . .

ومن بعده ألوف غيره من الأبرياء فى السجون وغرف التعذيب . . وهتك الأعراض للأمهات والبنات أمام الأزواج والآباء .

إنه المسرح الرسمى للرعب الأكبر : كلاب وكرابيج . . ومسامير وجرادل البول والبراز تيجان على رءوس المؤمنين بالله ، الكافرين بالطاغية . .

ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ورسوله الأكرم ، ودينه الحق . ولا حول ولا قوة إلا بالله!

***

(٤)

وأبشع الصور التى تصدنى وتردنى وتجمد أصابعى على القلم . . وتجعل القلم دخانًا أسود ، وصدى جامدًا أخرس . . صور سريالية خرافية . لوحة دموية بارزة من مسرح العبث . . مسرح اللامعقول . . المشهد الختامى لإحدى سهرات مسرح «الرعب الأكبر» الذى انتقل إلى الشرق الأوسط . . إلى مصر وسوريا وإيران وليبيا والعراق والسودان . .

يوم دخلت مندفعًا فوجدت نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك . . كان الحزن واضحًا على وجهه . . سألته : سيادة النائب . ماذا؟

قال : ربنا كريم . .

سألت النبوى إسماعيل وزير الداخلية : ماذا؟

قال : الحالة صعبة!

وجدت ممدوح سالم والدموع فى عينيه . اكتفيت بهذا الرد .

السيدة جيهان السادات ، كانت تروح وتجىء فأشارت : أن أدخل لكى أراه!

قال لى د . مصطفى المنيلاوى : إنه ميت إكلينيكيا .

قال لى طبيبه الخاص محمد عطية : ادخل . .

قلت له : ماذا؟

فأشار بيديه إلىّ أن العلم عند الله . .

قابلنى د . عفيفى زوج ابنة الرئيس السادات :

تستطيع أن تدخل .

قلت : لأرى ماذا؟

قال : لترى الرئيس .

قلت : كيف؟

ولم يشأ أن يرد . وكان ذلك ردًا كافيًا .

فياليتنى ما رأيت سيد قطب ولا رأيت السادات . . الصورة التى هى نهاية . . نهاية ماذا؟ نهاية حياة . . كفاح . . حكمة . . جرأة . . شجاعة . . إخلاص . . نهاية السياسة والحرب . . نهاية دموية لكل القرارات التى غيرت تاريخ مصر . .

أين الملابس وأين الدم . . أين اللحم . . وأين النياشين . . أين السلام والانسحاب وفتح القناة والأحزاب والدستور الدائم ومعاش السادات وأين المرح وأين الذى كان يملأ الدنيا . . وأين الذى كان رمزًا للضعيف الذكى ، والفقير بعيد النظر؟ . . ما هذا الذى على الأرض . . بقع من الدم ، قبلات لأرض مصر . . نهاية كل حى ، أيا كان هذا الحى؟ . . هل هو نائم . . هل هو نصف نائم ، نصفه نائم على وجه والنصف الثانى نائم على الوجه الآخر؟ . . أيهما هو؟ . . هذا يواجه الأحياء ، وهذا يواجه الموتى . . هذا يخجل أن تراه ، وهذا يخجل أن يراك . .

«كومة» زعيم . . «بقجة» أبهة . . إنه هو . . وأنت . . وأى واحد . . فنهاية أى واحد كأى واحد . . أما الذى هو أنور السادات ، فقد تلاشى . . ذهب . . عاد . . إلى حيث وهج النار ، وضوء الشمس . .

شىء فظيع . .

أفظع من ذلك أننى عندما نزلت من مستشفى المعادى وجدت حذاء السادات يتدلى من ذراع أحد الجنود - كل ما بقى . . كل ما تبقى . . ولا يزال الحذاء أطول عمرًا من صاحبه . . وعندما تهب العواصف تعصف بالأشجار وتبقى الأعشاب . .

سبحان الله : إن الرصاصة التى انطلقت على الرئيس عبد الناصر سنة ١٩٥٤ قد أصابت الرئيس السادات سنة ١٩٨١ . .

***

(٥)

كأننى دخلت كهفًا مظلمًا فضجت الوطاويط فى كل اتجاه . . وأنا أخفى رأسى بين يدىَّ . . كأننى بقعة من الدم والذكريات . . ضباع جائعة . .

كأن صوت الضجر يؤذن فى أعماقنا ، فتنهض كل الخطايا مثل فئران النرويج تلقى بنفسها فى البحر . .

كأنها حلاوة الروح قد تجمع عليها نمل اليأس . .

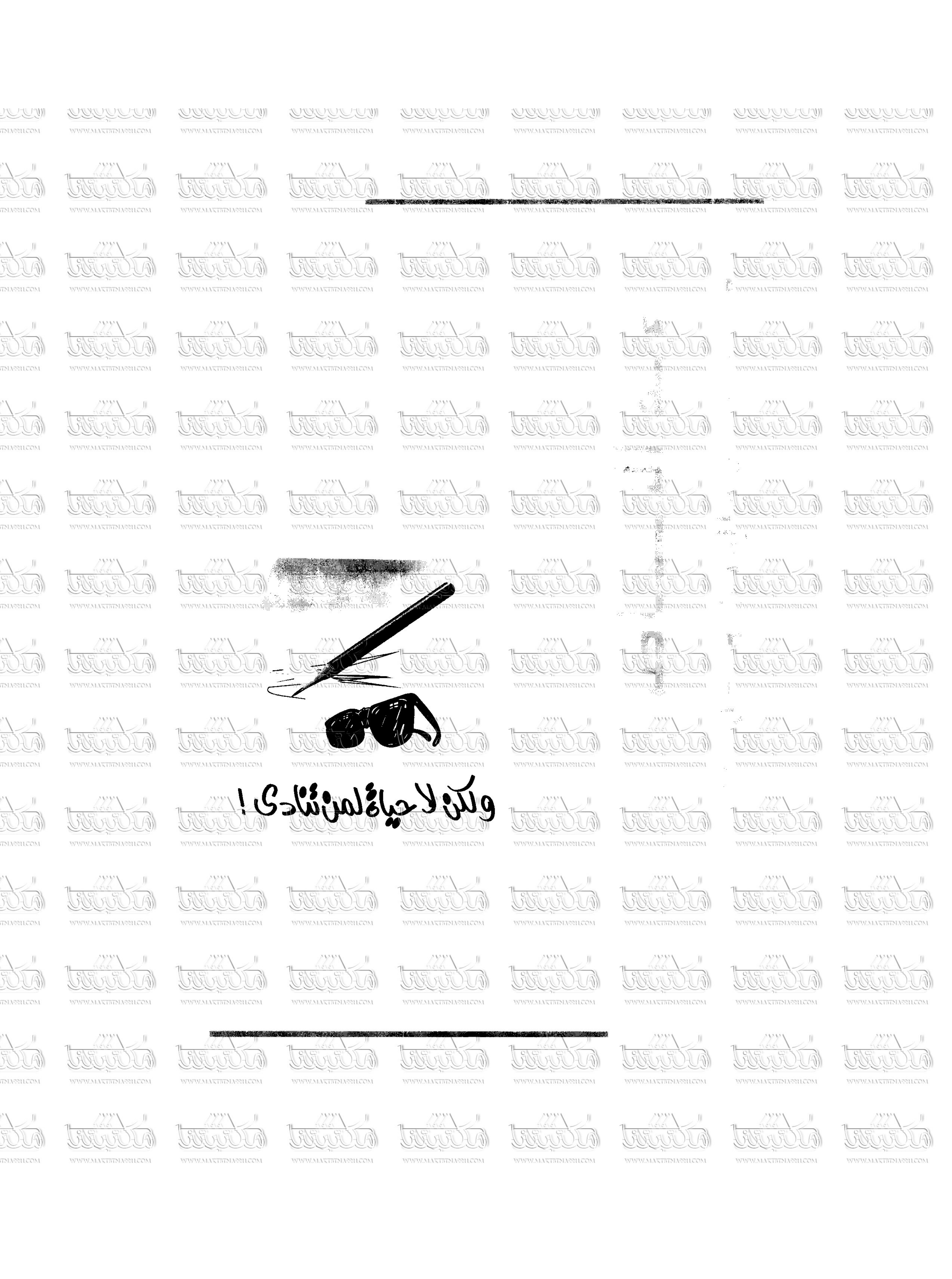
كأن الليل تحول إلى حبل طويل التف حول أولياء الله الصالحين . . تيك . . ذلك الصوت المعروف وبعدها يتدلى الأولياء طاقية حمراء . . إنه الحب مات . . إنه العدل مات . . إنه الظلم عاش يقول : كلنا بنحبك ناصر . .

صور . . سحب . . ظلمات . . كهوف . . مطبات . . فجوات . . فيديو يدور معدولاً ومقلوبًا . . فنرى الموتى تنفك عنهم حبال المشنقة ويمشون بظهورهم إلى السلالم . . إلى الغرف إلى السيارة . . ثم السيارة تندفع لتتعلق هى الأخرى فى المشنقة . . وكذلك أتوبيسات المدارس وفيها أطفال يغنون : بابا جمال . . بابا جمال!

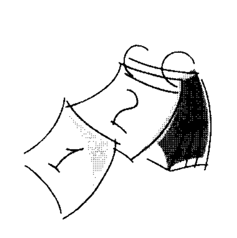
هل كان يقصدنى الأديب الألمانى هوفمان فى إحدى أقاصيصه التى يكتبها وقد أدار الحشيش رأسه وخياله وقلمه . . فقد جعل أحد أبطاله يمسك زجاجة يملؤها بزفرات المظلومين . . ثم يسقط فيها دموع الأبرياء . . ومن زفراتهم ودموعهم يصنع مفاتيح من الثلج الأبيض . . هذه المفاتيح يغرسها فى قلب أى إنسان . . ينفتح القلب ويخرج الخوف والحزن واليأس والندم . . فيجىء طفل صغير ويغسل القلب بما فيه . . ثم يغلق القلب ليستأنف الإنسان حياة أهدأ وأجمل . .

كأننى أنا الآخر . . قد أخرجت ما فى أعماقى لعلى أرى أعمق ، وأسمع أوضح ، واستأنف النظر إلى الذى كان ولايزال كائنًا . . إلى الذى مات ولا يزال حيّا . . ندمًا وعارًا وتضليلاً ونصبًا واحتيالاً على الشعب . . نفس الشعب الذى أراد الحياة فى سيناء ، فكانت قبره المختار! .

□□□


ولكن لا حياة لمن تنادى!

ولكن
لاحياة لمن تنادى!



من قوة بلا عظمة ، إلى عظمة بلا قوة - هذه هى حياة الرئيس جمال عبد الناصر . .

وما أكثر الذى قاله عن القوة وعن العظمة - فلا قوة إلا للشعب وبالشعب ، ولا عظمة إلا للشعب وبالشعب . . إلخ .

ولم يكن هذا رأيه دائمًا ، وإنما على حسب الأحوال!

ففى سنة ١٩٥٤ عندما انطلق عليه الرصاص فى ميدان المنشية بالإسكندرية قال عبارته الخالدة : أنا اللى علمتكم العزة . . أنا اللى علمتكم الكرامة!

فقبله لم تكن لنا عزة ، وبعده لم تكن لنا كرامة!

وهو على حق فى ذلك : فهو والكرامة لا يجتمعان!

ولذلك لم يكن لنا تاريخ قبل عبد الناصر ؛ لأن التاريخ معناه : محاولة الشعب الذى يحصل على مزيد من التحرر : من الخوف والجوع والمرض والظلم والجهل . . فإذا تحقق لنا ذلك فهى الكرامة وهى العزة . ومادمنا بلا كرامة ، فليس لنا تاريخ . وتاريخنا بلا أبطال ولا ثوار : بلا عرابى وسعد زغلول والنحاس وحسن البنا .

ولما سمح عبد الناصر بشىء من تاريخنا القديم ، ظهرت لهؤلاء الزعماء صورهم فى الظل . . فى ظله وبفضل منه .

وبعد أن تعلمت الجماهير الكرامة والعزة من الرئيس عبد الناصر ، راح يمتن لها قائلاً : الشعب هو المعلم . . الشعب هو الأستاذ!

أى أنه هو الذى علم الجماهير ، فتعلمت وتقدمت حتى أصبح منها فى مكان التلميذ . . فهو علمها حتى تفوقت عليه . فالفضل له عندما علمها ، والفضل له عندما تواضع فى طلب العلم . فالشكر مضاعف له : تلميذاً وأستاذاً!

ولم يكن عند عبد الناصر إحساس بالتاريخ . فمعلوماته التاريخية قليلة جدّا . وهو لايرى أبعد من أنفه الطويل . ولذلك فاحتقاره للتاريخ المصرى قد وضح لنا فى مناسبتين :

الأولى وكنت شاهدًا ومستمعًا ، فقد ذهب الرئيس عبد الناصر لمشاهدة «مراكب الشمس» ووقفت مع كمال الملاخ الذى اكتشف مراكب الشمس واضطهده رؤساؤه ؛ لأنه سبقهم فأعلن فى الدنيا ذلك الاكتشاف . وجاء الرئيس عبد الناصر وقال : ياكمال . . أنا لم آت لكى اتفرج على هذا الكلام الفارغ ، وإنما جئت لأرفع روحك المعنوية!

والثانية عندما هاجم ألمانيا الغربية ؛ لأنها ساعدت إسرائيل بالأسلحة والذخيرة . وكان الألمان قد حققوا معجزة هندسية معمارية . عندما فكوا معبد كلبشة إلى ألوف القطع . . ثم نقلوا المعبد . . وأعادوا تركيبه . وهذا عمل من مفاخر التكنولوجيا الحديثة . . فقال الرئيس : شوية الحجارة اللى فكوها وربطوها . . يشيلوها مش عاوزينها!

ولو عرفنا كم عدد الساعات التى أمضاها العلماء فى الدراسة والرسم والتصوير والتخطيط! وكم عدد العلماء والأثريين والمهندسين! وكيف وضعوا أرقامًا وزوايا لكل قطعة حجر! وكم عدد المناشير التى استخدمت وآلات الرصد والموازين والمكاييل وشكل الهيئة الفلكية والموقع الجديد الذى يشبه الموقع القديم للمعبد! إنها معجزة علمية ومساهمة تاريخية فى إنقاذ إحدى التحف الأثرية الفرعونية!

إن كان لك صديق أجنبى اسأله : ما رأيك فيمن يقول لك : إن الأهرامات كلام فارغ؟

ثم اسأله : ما رأيك إذا كان هذا هو رأى أحد الحكام المصريين؟

لا تقل لى الإجابة فإننى عرفتها!

***

وفى سنة ١٩٥٦ عندما وقع علينا «العدوان الثلاثى» ظهرت أعماق الرئيس عبد الناصر ، ولكننا لم ننتبه لذلك . فهو ، والطبالون أمامه

والزمارون وراءه ، يعتقدون أن العالم كله قد انهزم وأنه هو وحده الذى انتصر ، بلا جيش وبلا شعب .

فكيف لو حارب بجيش من ورائه شعب؟

ثم قال عبد الناصر إنه لولا تهديد الروس ما انسحبت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل - ولم يثبت قط أن الروس هددوا بشىء .

ولما غضب من الروس قال : لولا الأمريكان .

ولكنه أحس دائمًا أنه لولاه هو وحده لا شريك له ، ما كان هذا النصر على الزعماء والقادة والجيوش!

وقيل فى ذلك الوقت إن العبارة التى قالها ولنجتون على نابليون تصدق على الرئيس عبد الناصر . قال ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة ووترلو : إن جيشًا بغير نابليون ، جيش تنقصه خمس فرق!

وعندما تمت الوحدة مع سوريا كان ذلك أعلى نقطة وصل إليها عبد الناصر فى كل تاريخه السياسى والعسكرى . فهو لم يوهب عرش مصر فقط ، وإنما سقط عند قدميه تاج سوريا أيضًا . . ذلك الشعب الذى هو رائد القومية العربية ، وأستاذ الفلسفة السياسية ، وصاحب التعابير والتراكيب البلاغية . فكل مواطن سورى زعيم سياسى وكل زعيم سياسى فيلسوف وكل فيلسوف شاعر . . وكل نسائه لحم أبيض وشعور ذهبية وعيون زرقاء . . هذه النساء هى التى زغردت للرئيس ، وكادت تحمله على الأعناق وحملته على الصدور وفى القلوب . . إن سوريا «مكافأة» تاريخية على صموده للعدوان الثلاثى . . وحققت سوريا لجمال عبد الناصر أعظم أحلامه . فهو مؤمن بأنه أكبر من مصر . وأن مصر صغيرة عليه . فأضاف إليها سوريا وليبيا والعراق واليمن والسودان . . ولذلك كانت الضربة القاضية عليه هى : الانفصال!

الانفصال جعله يحس أنه أصغر من سوريا ، وأن مصر «كبيرة عليه» . . وأنه يجب أن ينكمش وأن يعرف حجمه الطبيعى . وأنه إذا كان فرعونًا جديدًا ، فالفراعنة عاشوا وماتوا على ضفاف النيل . وأن الكرباج الذى أذل به المصريين ، يجب أن يتركه عند الحدود . . ولكنه لم يستطع إلا أن يكون فرعونًا ، وهم لم

يستطيعوا إلا أن يظلوا سوريين . فرفضوه مصريًا ، وقبلوه عربيًا . رفضوه شخصًا وارتضوه فكرة!

ثم كانت الهزيمة العسكرية . وقد استرد العسكريون شرفهم وكرامتنا عندما انتصروا فى سنة ١٩٧٣ . ولكن لا تزال آثار الهزيمة فى النفوس ؛ جرحًا لم يجف ، أما الملح الذى يوضع على الجرح فهو التمجيد المزيف لصاحب الهزيمة ومخطط النكسة!

***

وفى أول خطاب للرئيس عبد الناصر فى مجلس الأمة ، طلب إلى الشعب أن يكف عن النكت - أول مرة يتوجع رئيس دولة من النكت . أول تجريم وتأثيم للنكت على هذا المستوى . لقد نسى الرئيس أن المصريين أولاد نكتة - إننا مختلفون عن الشوام الذين أرادنا أن نكون مثلهم : فلاسفة لايضحكون - فقد اقتسمنا مع الرئيس الضحك والفلسفة . . هو يتفلسف ونحن نسخر من ذلك!

وكان هذا الطلب ينطوى على مغالطة شنيعة . فهو يتوسط لدينا أن نكف عن السخرية من الجيش ؛ أى أن الجيش هو المسئول وحده عن الهزيمة ، ولم يتنبه عبد الناصر إلى أن النكت ليست ضد الجيش ، وإنما ضده هو ، ولكنه كان قد اقتنع بأن الهزيمة وقعت بسبب الذين حوله ، وبسبب الدول العظمى . ولو لم يكن عبد الحكيم عامر «غائبًا عن الوعى» ولو لم تحشد الأرض والسماء ضده ، لدخل تل أبيب فى ٢٤ ساعة!

ومعنى موقف عبد الناصر أن الجيش يستحق هذه السخرية ، ولكنه يرجونا أن نكف عن ذلك . . من أجل خاطره هو!

ولم يكن عبد الناصر يطيق سماع النكت . كان أول الأمر يضحك لها . ولكن عندما تتناوله شخصيًا كان يضيق بها . ونحن أصدقاء الأديب المرحوم عبد الحميد جودة السحار- نعلم غضب عبد الناصر عليه عندما نقلوا عنه نكتة مشهورة . ولم يهدأ عبد الناصر إلا عندما تدخل حسن إبراهيم نائب رئيس الجمهورية ليؤكد له أن السحار ليس صاحب هذه النكتة ، وإنما هى نكتة قديمة قيلت عن هتلر وفرانكو أما النكتة فهى التى تقول : إن رجلاً كان يجلس على المقهى ويشترى الصحف كل يوم

فينظر فى الصفحة الأولى ، ثم يبصق على الأرض ويلقى بالصحيفة ، فسئل يومًا : لماذا تشترى الصحف ولا تكاد تراها حتى ترميها على الأرض . ماذا تقرأ؟

قال : الوفيات .

فقيل له : ولكن الوفيات فى صفحة داخلية .

فأجاب الرجل : ولكن الذى أنتظر وفاته لا يذكر خبر وفاته إلا فى الصفحة الأولى!

وبعد الهزيمة العسكرية دخل جمال عبد الناصر الغيبوبة الثانية .

أما الغيبوبة الأولى فهى بعد الوحدة مع سوريا . . فقد ارتفع وابتعد عن الناس وعن كل الذين حوله . فلم يعد أحد يراه ولا يسمعه . ولا هو يرى أو يسمع أحدًا - وتعالى على المصريين ثم السوريين . وكان مشغولاً بما يقال له عن مجده وعظمته . . وأن الدول العربية الأخرى سوف تبايعه جميعًا وليس عليه إلا أن ينتظر . وسوف تجىء كلها بالذوق أو بالقوة .

اما الغيبوبة الثانية فهى بعد الهزيمة .

الأولى : كانت غيبوبة النشوة .

والثانية : كانت غيبوبة فقر الدم . . غيبوبة المصابين بالسكر وضعف القلب وتصلب الشرايين .

وبعد سنة ١٩٦٧ لم يعد عبد الناصر يحكم مصر . وإنما يحكمها رجال الحاشية . . تمامًا كما كان يحدث فى قصور آل عثمان . فعندما يكون السلطان طفلاً ، أو شابًا غارقًا فى الجنس والخمر ، فكانت «الوالدة باشا» ؛ أى أم السلطان التى ولدته سفاحًا هى التى تحكم السلطنة مستعينة بالطواشى والأغوات - وكذلك كان حكم مصر منذ الهزيمة العسكرية حتى جنازة الرئيس - حتى فى الجنازة كانت هناك مؤامرة على وراثة عرش مصر؟!

واحد فقط فى مصر هو الذى أدرك بمنتهى الوضوح من الذى يحكم مصر ومن الذى يتآمر على عبد الناصر . . وقد دفعه حبه الصادق وإخلاصه المؤكد إلى أن يلفت نظر الرئيس . فكتب له خطابًا طويلاً ، ثم انتحر ونقلوه إلى مستشفى المعادى . لقد قرر أن يقول كلمته ويمضى . ويموت!

إنه شوقى عبد الناصر أحد أشقاء الرئيس عبد الناصر . كتب إليه خطابًا طويلاً . ظل يكتب هذا الخطاب أيامًا من الأرق والخوف والفزع والحزن : فليس سهلا عليه أن يرى أخاه هكذا ينهار والكلاب تنهش لحمه حيّا . والخدم يلتفون حول العرش ويحكمون مصر من وراء ظهره فبعث إليه خطابًا . وقبل أن يتصور أخوه ولو لحظة واحدة أنه تجرأ عليه لأنه انكسر ، وأنه ما كان يجرؤ أن ينصحه لو لم يكن مريضًا منهزمًا . ولذلك انتحر . . ولسوء حظه أنقذوه!

وزاره الرئيس عبد الناصر فى مستشفى المعادى قسم الأمراض العصبية قبل أن يسافر إلى روسيا للعلاج . وكان الرئيس عبد الناصر لطيفًا معه . وأسعده ذلك . ولم يسأله عن الخطاب ولا قال شيئًا يدل على أنه قرأه . فقد رأى محمد أحمد سكرتيره الشخصى أن هذا الخطاب سوف يوجع قلب الرئيس ، ولذلك أخفاه عنه . ومات الرئيس عبد الناصر دون أن يقرأ النصيحة المخلصة الوحيدة التى حذرته من سامى شرف وشعراوى جمعة وعلى صبرى!

***

وقد أحس الذين حول عبد الناصر مرتين أنه ليس مؤمنًا : بعد الوحدة وبعد الهزيمة .

ونشرت الصحف البريطانية بعد وفاته حديثًا مع أحد مستشاريه أن عبد الناصر لم يكن مؤمنًا!

ونشرت المجلات المصرية أيضًا . ومما قاله عبد الناصر : إن الجوعان يحلم أنه فى سوق العيش .

أى أن الإسلام ، وكل دين ، ليس إلا تحقيقًا لأحلام اليقظة عند الضعفاء والفقراء فهو تعويض لهم ، عن الذى لم يجدوه فى الدنيا . . فقط لا أكثر ولا أقل!

والله على ما أقول شهيد : فقد كنا نقف فى ملابس الإحرام حول الكعبة : رئيس مجلس أمة سابق ورئيس وزراء سابق وأمير مكة ومذيع سابق ، عندما تقدمنا الوزير المحافظ عضو مجلس الشورى حمدى عاشور ووضع ذراعه العارية على الكعبة يوم غسيلها قائلاً :

ورب هذا البيت لقد سمعت الرئيس عبد الناصر يصف الحج بأنه كلام فارغ . . وسمعت أحد مستشاريه يقول ذلك أيضًا . . ثم رفض المستشار أن يكمل الطواف حول الكعبة!!

فبالله عليك ما الذى يشعر به أى إنسان يذهب للصلاة فى مسجد عبد الناصر وهو يعلم أن صاحب الضريح لا يؤمن لا بالمسجد ولا بالسجود ولا برب هذا البيت؟!

ولذلك كان أولاد البلد على حق عندما يرون بالمسجد يقولون : إنه مسجد سيدى المفترى!

ويبدو أن الارتفاع المفاجئ كالهبوط المفاجئ ، يجعل الإنسان يفقد توازنه : عقله وإيمانه أيضًا!

ولم أندهش لما قاله صديق سودانى عندما زار أحد الزعماء السودانيين السابقين فى شهر رمضان فوجده يشرب الخمر . فبادره الزعيم السابق قائلاً : قبل أن تسألنى تفسيرًا لهذا الذى تراه ، أنا أقول لك . حاولت أن أساعد أخينا (وأشار إلى السماء) ولكنه لم يساعدنى . . فلا معنى للتمسك به!

سبحان الله وأستغفره!

وكان عبد الناصر فى اجتماعات مجلس الوزراء بعد الوحدة وبعد الهزيمة ، شخصًا لا يطاق . . فهو يرفض المناقشة والمراجعة . . ففى أيام الوحدة قد تأله ، وبعد الهزيمة قد تأله . . لقد أصبح مثل أبطال المسرح الإغريقى : العالم كله ضده . . كل القوى . . كل آلهة الأوليمب . . فهو وحده يقف ضد عناصر الطبيعة ، وهو وحده فى صراع مع كل جبابرة الكون فإذا انهزم فطبيعى أن يحدث له ذلك . . إنه وحده ، والعالم كله ضده .

وهناك حادثة مشهورة لأحد الوزراء ؛ حاول الاستقالة فقال له : ما عنديش وزراء يستقيلوا .!

أى أن الوزراء يطردون فقط!

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى طاغية العراق يقول : إن طاعتى أوجب من طاعة الله . . فالله يقول «أطيعونى إذا استطعتم» . . أما أنا فأقول أطيعونى إن استطعتم أو لم تستطيعوا . . والله لو عصانى أحد أو فكر فى ذلك ، لقطعت رأسه!

وحادثة الغواصة الإسرائيلية التى دخلت المياه المصرية ، لم يجرؤ أحد أن يوقظ عبد الناصر لينقل إليه هذا النبأ . ولا حتى عندما صحا من نومه . ولكن فقط وهو فى طريقه إلى اجتماع مجلس الوزراء . وقد سمع النبأ دون أن ينظر إلى سكرتيره سامى شرف . وكأنه برغوث فى أذنه ، أو ذبابة وقفت على يده .

فقد خشى السكرتير أن يسمع من الرئيس : أنت مجنون . . تصحينى من النوم علشان غواصة . . حتى لو اجتاحت جيوش إسرائيل مصر ووقفت على مشارف القاهرة؟!

ولم يحاسبه عبد الناصر ؛ لأنه تأخر فى إبلاغه النبأ . . وإنما جاءت الاستهانة بالنبأ دليلاً على حسن تقدير سامى شرف وآخرين!

وفى عيد ميلاد أحد أولاد عبد الناصر فوجئ بطفل ابن أحد الضباط الذين اختلف معهم ، فالتفت فى غضب قائلاً : كيف دخل هنا . . أخرجوه . . لا هو ولا أبوه!

وخرج الطفل باكيًا ، وبقية الأطفال لايفهمون!

***

انتهى الرئيس جمال عبد الناصر ، وبقيت سيرة الزعيم .

فبعد النكسة لم يعد هناك .

وانطبق عليه قول الشاعر القديم :

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادى!

أى لو كان الذى تتحدث إليه حيّا لسمعك ، ولكنه لم يعد يسمع . . مات!

انتهى . .

لقد ثار سنة ١٩٤٨ وانتصر ١٩٥٢ وجرح ١٩٥٦ وذبح سنة ١٩٦١ ومات سنة ١٩٦٧ ودفن سنة ١٩٧٠!

***

وقد ساعد الرئيس السادات على هذه «النفخة» الناصرية . لا شك .

وكثيرًا ما كان يقارن بينه وبين عبد الناصر . يقول مثلاً : عبد الناصر مشدود دائمًا ؛ ولذلك كان كل الذين حوله عصبيين . .

وهو ليس كذلك . .

عبد الناصر لا يرفع عينه عن التليفون ، ولا يسد أذنه عن الإذاعات الأجنبية . . عبد الناصر دائمًا جالس وراء مكتب .

ولذلك كان السادات يجلس فى الحديقة بعيدًا عن المكتب والتليفون والإذاعة . وهو يتمشى ويتريض ويركب البسكلت . ويجىء من يقوم بتدليك ذراعيه وساقيه . . ثم إنه يعيش على الوجبة الواحدة .

وكنت أقول للرئيس السادات : هناك قصة جاءت فى ديوان «بستان الورد» للشاعر الفارسى سعدى . القصة تقول :

سئل رجل : ممن تعلمت الأدب؟

أجاب : من رجل قليل الأدب . فكان إذا عمل شيئًا ، امتنعت عنه!

وكان السادات يبتسم ، ولكنه لا يستحسن هذه الحكاية ؛ لأن معناها أنه فقط «مخالف» لعبد الناصر . . وهذا موقف سلبى . ومعه حق فالسادات أكثر إيجابية من عبد الناصر .

ولكنه لم يكن يحب هذه القصة لأنها صحيحة أيضًا . فهو يمتنع عن أشياء كثيرة جدًّا ، كان يعملها عبد الناصر .

وقد كان قريبًا من عبد الناصر ثلاثين عامًا . رآه ولاحظه وفهمه . . ولذلك ابتعد عنه فى مرحلة مبكرة جدًّا .

ويقال إن عبد الناصر شكا أنور السادات إلى مصطفى أمين . وقال له : والله سوف يدفننا أنور السادات جميعًا!

وقال له أيضًا : إن السادات يهرب من القاهرة إذا حدثت مشكلة . . متظاهرًا بالمرض أيضًا!

ويقال إن مصطفى أمين نقل إلى السادات هذه الشكوى فقال له السادات : ثورة يوليو ثورة عبد الناصر وحده . . ولن يسمح لواحد منا أن يشاركه فى ذلك!

ولذلك تخلص من كل أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولم يبق إلا أنور السادات . لماذا؟

لأن أنور السادات فهم عبد الناصر ، ولأن أنور السادات أخبث من عبد الناصر . .

وقد استأذنت الرئيس السادات فى أن أضع لهذه المعانى تعبيرًا أفضل فوافق . فقلت : إن الناس كالمسامير ، فمنهم من له رأس وهو الذى يمكن خلعه . . ولذلك اختار أنور السادات ألا يكون له رأس . . وأن يغوص فى الخشب ، فلم يخلعه عبد الناصر!

وقد استراح عبد الناصر إلى أن السادات لا رأى له ، ولا مواقف . وأنه بعيد طول الوقت . ولا خوف منه .

واستطاع السادات بدهائه أن يطمئن عبد الناصر تمامًا ، فأوصى عبد الناصر على أولاده ؛ أى أنه سوف يموت قبل عبد الناصر . واستراح عبد الناصر إلى نائبه الذى لا رأى له ولا خطورة منه ، سوف يموت قبله وقريبًا جدًّا!!

ونقلت هذه المعانى إلى الرئيس السادات قائلاً : إن هذا اجتهادى!

فلم يشأ أن يقول شيئًا وإنما اكتفى بالضحك!

وعرف السادات ما أصاب عبد الناصر بعد الهزيمة العسكرية ، فأسرف فى الخطابة له والدعوة لتأييده ومساندته . . وفى نفس الوقت ابتعد عن القاهرة .

ولما توفى عبد الناصر ، خلفه السادات . وكان عليه أن يصلح كل ما أفسده جمال عبد الناصر فى النواحى العسكرية والسياسية ، فى مصر وخارجها .

وبدلاً من أن يعلن اختلافه التام عن كل القرارات الخاطئة الفادحة التى اتخذها أو عجز عن اتخاذها عبد الناصر ، فوجئنا بالسادات يؤكد أنه شريك فى المسئولية . أو أنه مسئول تمامًا عنها .

وكان الناس الطيبون من الحزب الوطنى يغضبون قائلين : وأنت مالك ياريس!

وكان الرئيس السادات يقول : إنه الوفاء . . يجب أن نكون أوفياء!

أى أن الوفاء لصديقه عبد الناصر يحتم عليه أن يرد غيبته ، وأنه من الواجب علينا أن نذكر محاسن موتانا .

ممكن . لولا أن لى رأيًا آخر . وهو أن السادات كان عليه أن يختار بين أمرين كلاهما شديد المرارة :

إما أن يكون لا قيمة له ولا وزن ولادور له فى كل القرارات التى اتخذها عبد الناصر ، وإما أن يكون له دور . . فاختار أن يكون له دور وخاصة

فى القرارات الخاطئة . وإنه لذلك يتحمل جزءاً من اللوم والنقد ، وإذا حاول أحد أن ينتقد عبد الناصر ، فسوف يستحى أن ينتقد السادات الشريك فى الخطأ .

ومضى السادات يترحم على جمال عبد الناصر . وكان يقول : الله يرحمه - بطريقة خاصة - كأنه يقول : الله يجحمه . . وكان الناس يتندرون بذلك!

ومضى السادات فى إقامة الجنازات الضخمة والفخمة فى كل مرة يذكر فيها اسم عبد الناصر . وفى نفس الوقت استمر فى سياسته القائمة على أنه «إذا قطع عرقًا فإنه لايسيل دمًا» . . وإذا أسال الدم فالقليل يكفى . . فقد صادق مراكز القوى كلها . . وترفق بها . . حتى الذين وضعهم فى السجن عاملهم معاملة كريمة . . وأغراهم بأن يعتذروا له . وبعد أن يخرجوا كانوا يطلبون إليه أن يساعدهم ماديًا فى «تجهيز» بناتهم . . وعلاجهم فى الداخل والخارج . وكان يفعل ، وإن كانوا قد أنكروا ذلك فيما بعد وتنكروا له!

ولما خرج عدد كبير من الشيوعيين من السجون لم يشكروا السادات ، وإنما شكروا عبد الناصر الذى أدخلهم السجون ؛ لأنهم عندما دخلوا السجون ، كانت القوات السوفيتية فى مصر . وهذا هو المهم .

فالذى أدخلهم السجون ، ولم يطرد الروس ، يستحق منهم الامتنان العظيم .

والذى أخرجهم ، لا يستحق الامتنان لأنه أخرج الروس!

وفى البلاد العربية انتشر عدد من الصحفيين المصريين ؛ الغاضبين والساخطين والانتهازيين . وظهرت مقالات فى الصحف والمجلات تلعن السادات الذى انتصر فى سنة ١٩٧٣ وتمجد عبد الناصر الذى انهزم فى سنة ١٩٦٧ ؛ لأنه انهزم أمام الدول العظمى . ويلعنون السادات الذى انتصر على دولة صغيرة هى إسرائيل . . ومن يقرأ الصحف العربية والمجلات يخيل إليه أن هذا هو رأى العالم العربى كله . بينما العالم العربى ليس فيه رئيس دولة ولا حكومة ولا أحد يطيق أن يسمع اسم عبد الناصر ، فقد شتمهم واحدًا واحدًا . . الأب والأم واللحية . وكانت الجماهير فى مصر تردد وراءه عندما يشتم والدة أحد الملوك فتقول الجماهير : طالع لأمه . . طالع لأمه . . يقصدون الملك حسين . . أو انتف ذقنه - ويقصدون الملك فيصل!

لكنه الخوف من سوريا ومن المنظمات الفلسطينية ، ثم الانتهازية التى تربصت لكل انتصارات مصر الداخلية والخارجية .

وفى جو الحرية والديمقراطية وتعدد الآراء وتنظيم الخلافات السياسية فى برامج لها أحزاب ، أو أحزاب لها برامج كان هذا العدد القليل الذين يسمون أنفسهم بالناصريين - وعليك أن تتساءل عن معنى هذا الاسم . هل هو إحياء لذكرى الزعيم عبد الناصر؟ لا بأس . . أو هو إحياء لأفكاره؟ فما هى أفكاره؟ وما مدى نجاحها فى أى بلد؟ وكم تكاليفها وكم تبلغ ديوننا بسببها؟

وأنور السادات ساعد على تضخم بطولة عبد الناصر . . فاستعان بكل معاونيه بعض الوقت . . وتحمل رذالة أولاده وأصهاره . . وكان هدف السادات أنه لايريد أن يفتح على نفسه جبهات كثيرة . فهو يريد أن يتجه إلى الحرب ، دون فتح جبهات داخلية . . أو جبهات شخصية . وبعد الحرب والانتصار ، أو تحريك الموقف ، سوف يعود إلى هذه الخلافات الهينة . ثم إن أنور السادات لا يحب أن يدخل فى معارك صغيرة ، أو فى فتافيت الأحداث على عكس رجلين آخرين : عبد الناصر وبيجين . .

كما أن أنور السادات كان حريصًا على إحياء ذكرى عبد الناصر ، ليؤكد الفرق الواسع بينهما . وكيف فشل عبد الناصر حيث انتصر السادات ؛ ولذلك قالت النكت المصرية : إن السادات يمشى على خط عبد الناصر بأستيكة!

وكان فى استطاعة السادات أن يخربش عبد الناصر بأستيكة ، أو يحاول ذلك ولن يحتاج إلى جهد كبير . . فقط أن يبرز أخطاءه وعيوبه ، وأن يفضح أعوانه . . لولا أن السادات هو الآخر مثل عبد الناصر لايثق كثيرًا فى الذين حوله ، فكلاهما متآمر ، وكلاهما كان يتوقع الطعنات من أى أحد!

وفى التاريخ الماركسى كثير مثل هذا : فستالين اغتال كل خصومه وطارد زميله وعدوه تروتسكى حتى قضى عليه فى أمريكا .

وخروتشيف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى مسح اسم ورسم ستالين من الميادين والكتب .

وبريجنيف مسح اسم خروتشيف من الكتب وجعله يموت فى إحدى الحدائق وهو يصور العصافير . ولما مات دفنه فى مقابر اللقطاء وليس فى الكرملين .

وجورباتشوف فعل نفس الشيء مع برجنيف ، ولكن بهدوء قبل أن يتكاثر الحرس القديم من الماركسيين المتشددين على جورباتشوف فيسقطوه قبل أن يطيح بهم . . ثم إنه أعاد نبش قبر ستالين وأخرج رفاته وبصق عليها . . وأقام حفلات التكريم لخروتشيف؟!

فالقاعدة فى التاريخ : إن الأبطال يستأصلون الأبطال لحساب الشعب الذى ليس بطلاً!

ثم إنها بطولات مزيفة . .

وقد عرفت أوروبا - مثلاً - فيما بين ١٧٧٠ و ١٨٧٠ عدداً من الأبطال بهروا الناس : فريدريش الأكبر ونابليون وبسمارك . . خدعوا الناس ، فألقى الناس همومهم فوق أكتاف الأبطال ومستقبلهم تحت أقدامهم ، فخرب هؤلاء الأبطال أوروبا كلها!

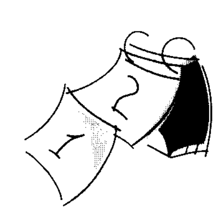
ولابد أن يجىء وقت على أى بطل مهما كان عظيمًا ، فيصبح مملاً للناس . ولذلك كان القبر أعظم حصن يحمى الأبطال من غضبة الجماهير التى مشوا على أشلائها إلى القمة!

□□□



لكي يحبه الناس لا بد أن يقطع قلوبهم !

لكـــى يحبـه النـاس لابـد أن يـقـطـع قـلـوبـهـم!



فى برنامج تليفزيونى مع مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى سألته : قل لى يا أستاذ هل الحب قبل أو بعد الزواج؟

وازداد وجهه احمرارًا وظهرت براءته ورقته وورطته عندما قال : لقد أحببت زوجتى بعد الزواج!

فلا يصح أن يعرف أحد زوجته قبل الزواج ، لعله يفهمها ، لعلها تفهمه . وإنما هو سمع عنها وعن أسرتها وتربيتها . وهذا يكفى . . فلما تزوجها أحبها . وعاش سعيدًا معها .

هذا هو المؤرخ عبد الرحمن الرافعى . إنه رجل على خلق . والتاريخ عنده موعظة أخلاقية ، وعبرة للشعوب . وهو ناظر مدرسة ونحن تلامذته .

فلا هو فى دهاء وسخرية المؤرخ الإنجليزى جيبون . .

ولا هو فيلسوف الحضارة مثل المؤرخ الألمانى اشبنجلر .

ولا هو مهندس الحضارات القديمة والحديثة وعميد المؤرخين فى بريطانيا توينبى الذى وصف عبد الرحمن الجبرتى بأنه أعظم المؤرخين فى كل العصور . لأنه رجل واقعى . . ولأنه انبهر بعلماء الحملة الفرنسية وقضاتها ، ولكنه كره العدوان على أرض مصر ، وشعب مصر ، ومقدسات مصر . .

فقل لى من الذى يكتب تاريخ بلدك ، وأنا أقول لك من أنت وأى شعب أنتم!

وكان الرئيس عبد الناصر هدفًا لنوعين من المؤرخين . .

نوع لا يتحدث إلا عن تحدياته الناجحة ، ونوع يتحدث عن أخطائه الفادحة . .
فهو إما ملاك كريم ، أو شيطان رجيم . . أو الاثنان معًا : شجاع شرير .

وكان المؤرخ الأمريكى وليم شيرر يصف هتلر بأنه عبقرى شرير .

وهذان المؤرخان يستفزان القارئ . .

فمؤرخ يجعل الشعب داخلاً فى حساب عبد الناصر فى جيبه الصغير . .

ومؤرخ يجعل الشعب خارجًا عليه رافضًا له . .

واحد يرى فيه الطفل النبى ، والشاب الملهم ، والرجل الفذ ، والبطل الإغريقى الذى اختفى ولم يمت وهو المقدس الذى لا يمس - يجب ألا يمس!

وواحد يرى فى طفولته مرارة ، وفى رجولته حقدًا ، وفى بطولته دمًا ، وفى موته فرارًا من العقاب - ولابد من استئناف الحكم عليه وإدانته!

(١)

ولابد أن يتناول المؤرخون : طفولته وبطولته وجنازته وعودته .

وفى كتب التاريخ يضعون عبد الناصر بين العظماء اليتامى ؛ أى الذين وجدوا أنفسهم فى سن صغيرة وحدهم . وهذه الوحدة فرضت عليهم العزلة . والعزلة أعطتهم فرصة لتأمل حالته وحال الآخرين . وملأت نفوسهم أيضًا بالحزن عندما أدركوا الفوارق بينهم وبين الناس . . وعبد الناصر كان يتيم الأم ؛ ولذلك لم يكن يحب أباه الذى تزوج سيدة أخرى ، فهو لم يحبه لأنه لم يعوضه عن أمه . . وهو لايحبه لأنه أتى بسيدة أخرى . ولأنه عاش ، وكان يتمنى أن تعيش أمه أطول .

ويرى علماء النفس أن الذى يحب أمه أكثر يحب النساء أقل . . ويكن لهن احتقارًا شديدًا . فهو يرى أن العلاقة المثالية هى التى بين الابن والأم . . وبعد فقدان الأم يكون قاسيًا على المرأة وعلى كل الناس . . ويضاعف هذه القسوة أن يجد أبوه قاسيًا عليه . . فتتولد عند الطفل حالات مضاعفة من القسوة . . إنها رد فعل لما أصابه هو . . ولذلك فسلوكه انتقام لأمه من كل الأمهات ـ وقد أوجع عبد الناصر قلوب مئات الألوف من الأمهات والبنات . .

وفى كتاب «المجد فى المهد» للزوجين جرويتسل أن فى التاريخ تسعة عظماء كانوا يعانون من قسوة الأب :

١ - هتلر : الذى أحب أمه وكره والده . وكان يغسل لها الأطباق والملاعق ويمسح الأرض . وقد علق «مريلة» فى عنقه . . وكان حريصًا على إرضاء أمه وظل إلى جوارها عندما ماتت . . ولم يشأ أن يحدثها عن فشله فى المدارس أو دخول أكاديمية الفنون فى فيينا . ولما ماتت أمه ، انتقم لها من خمسين مليون أم!

٢ - سالازار : طاغية البرتغال ، كان أبوه يضربه كثيرًا . وكان إذا ضربه أبوه ظل جامدًا مكانه ويقول : لا أعرف كيف أرد هذه الصفعات الآن؟

وقد ردها إلى مئات الألوف من نساء البرتغال .

٣ - والأديب الإنجليزى الكبير أوسكار وايلد . .

٤ - والشاعر الألمانى ريلكه . . وكان «دلوعة» والدته . . وكان «ألعوبة» والده . . وكان أبوه يعيره بأنه الفتاة التى طال شاربها ولم تجد لها عريسًا!

٥ - الشاعر الإيطالى صديق موسولينى داننسيو - ولم نعرف مثله فى التاريخ الأدبى رجلاً احتقر الرجال والنساء معًا ، والسبب واضح : أبوه . الذى لم يكن يتعامل معه إلا بالجزمة! . .

٦ - والفنان الفرنسى تولوز لوتريك . . . كان يقول هناك نوعان من الملائكة : أمى وأمى . . ونوعان من الشياطين : أبى وأبى . . وكان يندهش لماذا خلق الله الرجل . . لماذا لم يخلق كائناته كلها من النساء . . وكما أن النباتات تزهر وتثمر ، وكما أن بعض الحشرات تتوالد من تلقاء نفسها ، فلماذا كان الرجل . . ولماذا لم تكن جميعا من النساء - حبًا لأمه وعشقًا لها . وكان احتقاره للمرأة عظيمًا . فقد رأى النساء قد اغتصبن حياة أمه . وعشن بدلاً منها!

٧ - موسولينى . . وكان الزعيم الإيطالى لا يعرف ما هى الأسباب الحقيقة التى تجعل والده يضربه إذا خرج من البيت وإذا عاد مخمورًا . وكان يسأل والدته . ولكنها هى الأخرى لا تجرؤ أن تقول . وفى إحدى المرات أخفى موسولينى عصا وراء الباب ليكسر بها رأس والده . وفوجئ بوالده أمامه . . فصرخ فيه : ما هذه يا ولد!

فقال موسولينى : قررت أن أموت بيدك . . اقتلنى ياأبى!

فأخرج الأب زجاجة من النبيذ من جيب البالطو . وجلس فى هدوء قائلاً : ليس الآن!

٨ - سنجمان رى الزعيم الكورى الجنوبى : وكان إذا ثار أبوه . أشارت إليه أمه أن يجلس على الأرض ويعطى لوالده فرصة أن ينفس عن غيظه . وكان أبوه يقول : لا تستسلم . . قاومنى . . لكى أثور عليك وأضربك أعنف وأستريح .

ولكن الزعيم الصغير كان يتفنن فى إغاظة والده . . يعرى له صدره وعنقه أو يخلع ملابسه كلها وينتظر الضربات .

وسنجمان رى له عبارة شهيرة : شىء غريب أن أرى فى ملامح كل أعداء الشعب صورة لأبى!

٩ - وعبد الناصر : فى أولى سنوات الثورة التى كنا نسميها بالحركة . . أو الحركة المباركة : كان اسمه البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر حسين . . وكانت الصحف تنشر صورة والد الرئيس . . إنه رجل له طربوش . . وكان يعمل فى مصلحة البريد . . ويقال موظف بريد . . وقد تغيرت هذه الصفات بعد ذلك . . كأنه يجب أن يكون الزعيم من الشعب . ثم أصبح اسمه : جمال عبد الناصر . . وفى أيامنا السعيدة كنا نسميه : جمال . وكانت الأغانى والهتافات تلف وتدور حول : جمال . . وفى أيام التعاسة كنا نسميه : ناصر . . وعرفنا له إخوة أشقاء : الليثى وعز العرب وشوقى وله إخوة غير أشقاء . . وطبيعى ألا يتسع وقته للأشقاء ، وألا يتسع قلبه لغير الأشقاء .

ويروى الرئيس السورى شكرى القوتلى أنه فى الحفلة التى أقامها عبد الناصر للزعيم الروسى خروتشيف كان يقف إلى جوار ملك المغرب محمد الخامس . . عندما مال عليه الملك المغربى وقال له : هل تعرف من هذا الذى يرتدى الطربوش وانحنى على يد عبد الناصر وقبلها؟

قال الرئيس السورى : لا . . من يكون؟

قال الملك : إنه حسين . .

قال القوتلى : حسين من؟

قال الملك : عبد الناصر حسين إنه أبو الرئيس جمال .



واندهش القوتلى وسأل الملك : من قال لجلالتكم؟

قال الملك : إنه الرئيس عبد الناصر!

وسكت الرئيس والملك . . وعاد الملك يهمس فى أذنه بالمعنى : إن رجلاً يفعل هكذا مع والده ، فما الذى لن يفعله مع بقية خلق الله؟!

وكان عبد الناصر يسخر من الوزراء المصريين الذين كانوا يقبلون يدى الملك فاروق!

ولكن عبد الناصر كان يفضل أن يقبل الناس قدميه والأرض تحتهما . . حدث ذلك فى كل سجون مصر . . إنه يستنكر القبلات علنًا ، ويفضلها سرًا .

وقد سمعت من الرئيس السادات أن عبد الناصر كان يحب من يتذلل له ، ومن يبعث له بالخطابات المليئة بالدموع . . ومن يرجوه أن ينقذه هو وأولاده من الجوع . . وكان يحب أن تقع هذه الخطابات فى أيدى الذين حوله ليزفها بمثل هذه العبارات : هذا ال « . . .» يطلب فلوسًا . . له ولـ« . . . .» زوجته . . هل يظن أننى لا أعرف ماذا حدث له؟!

وفى بعض الأحيان كان الضباط الكبار أو الساسة الذين ألقاهم عبدالناصر فى الظل والذل يتساءلون عن مصير خطاباتهم . فكان يقال لهم : وصلت . . ولكن ليست فيها دموع . . أو الدموع ليست كافية . .

وحدث فى اجتماع مجلس الوزراء أن طلب أحد الوزراء فى خطاب شخصى مساعدة مالية ليتمكن من تزويج ابنته . . فإذا بعبد الناصر يقول : جاءنى خطابك . . وهل تظن أن هذه ديون على الدولة . . وأن المرحوم والدك كان قد أعطاها لمصر مساعدة منه فى بناء السد العالى . . لما تعرف تشحت كويس ابقى اكتب لى!

قال لى المهندس عبده الشرباصى نائب رئيس الجمهورية أن هذا الوزير قد عاد إلى بيته نصف ميت . .

ولم يكن فى نية هذا الوزير أن يبعث بهذا الخطاب ، وإنما نصحه سامى شرف أن يكتب هذا الخطاب ، وأن يجعله مختصرًا فليس لدى الرئيس عبد الناصر وقت . .

ولكن لم يقل له سامى شرف أن يختصر فى الكلمات ولا يختصر مطلقًا فى التذلل والبكاء والامتنان العظيم للرئيس أنه قرأ الخطاب . .

والأمر بعد ذلك إن شاء أجابه إلى طلبه ، وإن لم يشأ!

وفى اجتماع مجلس الوزراء مرة أخرى قال عبد الناصر عن أحد الوزراء وكان خارج البلاد بعت لى جواب سى « . . . . » علشان يجوز ابنه . وأنا حاصرف على رجالة« . . . . .» .

وكان يفضل أن يتحدث صاحب الشكوى أو صاحب الطلب عن زوجته المريضة . . أو أمه التى ماتت . . أو ابنته التى سوف تتزوج - فقط عن الزوجات والأمهات والبنات اللاتى فى أزمة وفى حاجة إلى مساعدة - نساء ذليلات فقط!؟

ملحوظة : النقط التى بين الأقواس للدلالة على ألفاظ نابية لايصح ذكرها!

(٢)

كانت لجمال عبد الناصر كثير من صفات الزعامة . فهو رأس ثورة يوليو التى أطاحت بالملك وبالإقطاع وأممت قناة السويس ، وكان من أحلامه توحيد الأمة العربية بزعامته . . وكان مؤهلاً للزعامة القصيرة الأجل . . فهو مثل حصان تعلق فى عربة كارو . . ثم مزق الحبال التى تربطه بها . . وتركها . . وانطلق وحده . . أو هو مثل صواريخ «القاهر» و «الظافر» انطلقت إلى أعلى ، ولم تكن لها عقول إلكترونية توجهها نحو الهدف وكان الهدف تل أبيب . . وانطلقت الصواريخ إلى الفضاء ولم تعد . . ولم تصل إلى هدف . . فهو قوة بلا خطة .

ولقد أدت اندفاعات عبد الناصر إلى أن أضافت إسرائيل إلى أرضها سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس ، وغزة ، ثم عزة مصر وكرامة العرب واليأس من كل ماهو عربى!

ولم يكد يظهر عبد الناصر حتى تحركت كل أعماق المصريين - أبناء الفراعنة - فإذا هم يعبدون الفرعون ويعلقون مشاكلهم على كتفه . . وينزلون عن عقولهم وقلوبهم ويذبحونها قربانًا لرمسيس الجديد الذى طرد اليهود من مصر - والذى سوف يطردهم مرة أخرى . .

وقد أحس عبد الناصر بأنه عند المصريين رمسيس وعند العرب صلاح الدين . .

ولا شيء يدل على «ذل» الشعوب وحبها للهوان مثل عبادتها للبطل . . تقديسها للإنسان . . ووضعه فوق قمة الجبل . . فعلى الرغم من أنه خرج من الأرض فإنهم قد أسكنوه السماء . . وبدلاً من أن يقال إن الأزمات قد أفرزته ، فإنهم يرددون أن العناية الإلهية قد بعثته . . فهو مبعوث العناية الإلهية ، ثم هو العناية الإلهية . .

ولم يكن د . محمود فوزى حالة فريدة بين الرجال حول الرئيس . فعندما سأله الرئيس عبد الناصر المشورة غاب د . فوزى ليعود إليه قائلاً : كيف يكون لى رأى وأنت الزعيم الملهم . . أى كيف يكون له رأى وعبد الناصر يتلقى الرأى والوحى من السماء - وكان هذا إحساسه دائمًا . بأنه صاحب الرأى المناسب فى الوقت المناسب . وأن الله ألهمه الإحساس بالزمن . . ولذلك فقراراته مطابقة لما جاء فى «اللوح المحفوظ» كأنه قرأه ، أو كأنه كان هناك عند كتابته . . فهو لم يخطئ . ولا يخطئ . وإذا كان قد أخطأ فلأن القوى تضافرت ضده . . وليس هو إلا زعيمًا كبيرًا لبلد صغير . .

وهذا هو الخيط الذهبى فى نسيج عبد الناصر ، أو فى لوحة عبد الناصر ، أو فى بطولة عبد الناصر . إنه كان أحلام الناس ، ولكنه مثل أحلام الناس قد سقطت . . قد انهارت فهو عظيم إلا قليلاً . وهذا القليل هو الذى يحظى بشعبية مطلقة عند الناس .

فعلى الرغم من أنه عظيم ، فإنه يستحق الرثاء والبكاء ؛ لأنه أراد الكثير ولم يقدر إلا على القليل ، فهو عظيم وأوجاعه عظيمة ، وهو مضيء وظلاله كثيفة . . ولذلك رأى فيه الناس بطلاً إغريقيًا يتحدى الآلهة ويكفيه شرفًا . . وكسرته الآلهة ويكفيه شرفًا ، فإذا أراد أحد أن يحطمه فلابد أن يكون إلهًا .

ولذلك لا يشعر الناس بالعطف على أنور السادات . . لأنه انتصر كثيرًا . . فقد كسب كل معاركه : طرد قوات الاحتلال السوفيتية بكلمة وفى ليلة واحدة ، وجمع بقايا عبد الناصر وورثة عرشه فى ليلة . . وانتصر فى حرب أكتوبر وفتح القناة ووضع الدستور والمنابر الحزبية والأحزاب ، وقرر معاشًا لكل مواطن ، ومعاش السادات وانسحبت إسرائيل من سيناء وكان السلام معها . . ثم فتح الباب الاقتصادى على الشرق والغرب . . وكان مقدمًا على عصره . وكان مثل كل الآباء يذكر لأولاده كل

ما حقق لهم . . وكان الشعب مثل كل الأبناء يقولون : يوه . . تانى . . حيقول لنا طرد الروس وانتصر وأخرج اليهود . . يوه . . تانى!

وكان الشعب - كما يرى الأبناء - أن السادات يمن عليهم . .

فبدلاً من أن يروا عظمة ما أنجز ، لا يذكرون له إلا أنه يعيد ويزيد كل ذلك حتى زهق الناس ، ولما فوجئ بانتفاضة الناس والفتنة الطائفية أغضبه ذلك . . ووجد فيها نوعًا من العقوق . . وفى يوم واحد وليلة واحدة أفسد السادات على نفسه كل ما حققه لمصر . . فلم يعد أحد يذكر له قدرته السياسية الفذة ، ولكن فقط يذكرون له غضبته على كل الناس كأنه أعد لنا طعامًا فخمًا شهيًا ، ثم ألقى على الطعام الكثير جدًا من الملح . . وبدلاً من أن يقول : تفضلوا ياأولادى الأعزاء قال : بالسم الهارى!

والشعوب تحب من يثير فيها الشفقة ، ولا تحب من يثير فيها الإعجاب . . تحب الذى يعتصر عيونها عليه ، وليس الذى يوقفها على أطراف أصابعها لترى عظمته . يحبون الزعيم الذى هو أكبر منهم ، وفى نفس الوقت مثلهم فى الضعف أو فى الفشل .

ولذلك عطفوا على عبد الناصر ، ولم يعطفوا على الرجل الشاطر دائمًا ، أنور السادات!

وقد أحبت مصر مصطفى النحاس باشا لبساطته وإحساس الناس أنه مثلهم يغضب ويشخط ولا يدعى أنه أذكى وأبرع .

ولا يحبون على ماهر وإسماعيل صدقى لأنهما أذكى وأخبث!

أذكر أننى أعددت برنامجا تليفزيونيا مع القارئ الشيخ مصطفى إسماعيل وذهبت إليه مع المذيعة ليلى رستم . . وطلبت منه إذا دخلنا بيته ألا يجعل زوجته تقبل يديه . . وفضلت أن يفعل ذلك أولاده - فنحن فى زمن لا امتنان فيه للأبناء . . فوافق . . ولكن عندما ذهبنا إليه فى بيته . فوجئت بأن زوجته قد انحنت على يده تقبلها!!

وطلبت إليه أن يحكى للناس كيف تعب فى حياته وتنقل من قرية إلى قرية . . وأنه بالكفاح والصبر والإصرار استطاع أن يجعل الناس يشعرون أنه مثلهم : كان فقيرًا وتعذب وصبر وتوكل على الله . . فأعطاه الله ما يعطيه للمؤمن الصابر والله مع الصابرين . .

وكان الشيخ مصطفى إسماعيل يقول لى إنه لم يجد صعوبة فى حياته وإن حياته مكسب على طول!

ورفضت أن يقول ذلك وجعلت أفكر له ومعه فى بعض الصعوبات التى وجدها فى حياته . . ليتجاوب الناس معه . . وحتى لا يشعر الناس بأنه من طينة أخرى غير الناس ولم يوافق . . ثم اقتنع وعند تسجيل البرنامج سألته المذيعة عن الصعوبات التى لابد أن يكون قد صادفها فى حياته متنقلاً على حمار بين القرى . .

وفجأة قال : اسمعى ياست ليلى أنا والله ما وجدت صعوبات من أى نوع . . أنا طالع على طول كده . . ولكن الأستاذ أنيس هو الذى يريدنى أن أتحدث عن مشاكل ومتاعب أكذب بقى؟ مفيش صعوبات والحمد لله .

وكان البرنامج يذاع على الهواء؟!

ولم يحب الناس الشيخ مصطفى إسماعيل بسبب ذلك ، فقد أثار حقدهم عليه وتعاليه عليهم . . وقطع عليهم كل طريق للأمل فى أن يكونوا مثله . . صعود دائم وكسب مستمر ، وبلا مشاكل من أى نوع . .

وفى وقت مبكر من زعامة عبد الناصر وقبل نكسة سنة ١٩٦٧ أحس كتاب التاريخ أن عبد الناصر دخل مرحلة الحاكم المطلق . . الفرعون . . رمسيس الذى بدلاً من أن يطرد اليهود سوف يدخلهم مصر - ربما كان (عزيز على المصرى) أول من أحس بذلك يوم زاره مجلس قيادة الثورة فى المستشفى وسمع منهم وتوقع لهم ، فقال لمن كانوا حوله : هؤلاء الشبان سوف يخربون مصر . . إنهم لم يفهموا الشعب ولم يقرءوا تاريخ الثورات . .

واحد من الذين جلسوا حوله كان الفنان الكبير مدحت عاصم . . ومثل عزيز على المصرى كان بيتهوفن الموسيقار العظيم أول من بكى سنة ١٨٠٤ عندما علم أن نابليون قد توج نفسه إمبراطورًا على فرنسا . . قال بيتهوفن : الآن سوف يصبح نابليون عبدًا لأطماعه ، وسوف يجعل الشعب كله عبدًا له .

وكان بيتهوفن قد أهدى نابليون سيمفونيته الشهيرة باسم «أورويكا» ؛ أى البطولة!

ولكن المرحلة الخطرة التى دخلها عبد الناصر هى الاستهانة بالأخطاء فى الداخل والخارج . . فكل تمرد عليه : حركة تافهة والقائمون بها شبان عاطلون . . والثوار عليه فى البلاد العربية : مأجورون خونة .

وحتى السادات أيضًا قد نظر إلى السخط والغضب على أنه جاء من «شراذم» مع إشارة من أصابع إحدى يديه ، يريد أو يدلل على تفاهتهم وأنهم قليلون!

وكأن التاريخ يعيد نفسه . . فالقرآن الكريم أيضًا تحدث عن فرعون عندما قيل له إن اليهود قد جمعوا مئات الألوف وخرجوا من مصر . . قال تعالى على لسان فرعون : ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)** ﴾ .

ويوم النكسة قرر عبد الناصر أن يتنحى ظهرًا وأن يعود ليلاً فزلزل جماهير الشعب العربى فى كل مكان . . فقد أحسوا بأن جاذبية الأرض قد انعدمت فجأة . . فتطاير الناس . . أو أنهم اصطدموا بجزيرة المغناطيس التى جاءت فى ألف ليلة وليلة فشدت المسامير فى سفنهم ، فتحولوا إلى ألواح خشبية ، أو كأنهم شعروا بأن قائد الطائرة قرر أن يتركهم ويلقى بنفسه من النافذة . . فتوسلوا إليه ألا يفعل . . ألا يتركهم وحدهم . . ألا يتخلى عنهم - وكانت هذه هى المشاعر التلقائية للناس .

ولكن بذكاء نادر أجابهم إلى طلبهم ودبر مظاهرات العدول عن التنحى .

أما الصورة التى يجب أن نخجل لها حتى نهاية القرن : فصورة أعضاء مجلس الأمة وهم يرقصون طربًا ، لأن عبد الناصر قد قرر العودة وقيل : فرقة الفنون الشعبية التابعة لمجلس الأمة . . رقص الناس طربًا وفرحًا للرجل الذى مسح بهم الأرض من المحيط إلى الخليج . . للرجل الذى أدخل اليهود فى مصر وسوريا والأردن والقدس فى ست ساعات!

وكانت النكتة فى ذلك الوقت أن المشير عبد الحكيم عامر طلب من أسرته أن يعدوا حقائبهم للسفر فورًا إلى الاصطياف فى تل أبيب . ولكن بعد ساعات أخبرهم بأنه لا داعى للسفر . . فالناس اللى كنا رايحين لهم وصلوا . .!!

ومن يومها ونحن نرقص للأشياء ، لكل السلع الاستهلاكية فى التليفزيون : للشيكولاتة والآيس كريم والعطور ودورات المياه .

أما التفسير الماركسى لذلك - وكان عبد الناصر ماركسيًا - فهو تقديس الأشياء . . تقديس السلع الاستهلاكية . . أى أن هذه السلع اللذيذة المعطرة اللامعة لها قيمة ذاتية ، ونسينا أنها دليل على سيطرة السوبر ماركت والقطاع الخاص على حياة الناس . . ونسينا فى الموسيقى والرقص والطبل أن هذه السلع هى قطرات من عرق ودم العامل المسكين . . فنسينا فى حلاوة هذه الموارد مرارة الشقاء اليومى للطبقة الكادحة ، وكذلك نسينا فى نوبات الرقص فى داخل مجلس الأمة ما الذى فعله البطل بشعبه ومستقبله العسكرى والسياسى والاقتصادى .

فكان عبد الناصر على حق عندما جعل نصف المجلس من الفلاحين الذين نشأوا فى الريف يحنون رءوسهم للعمدة الجالس على المصطبة ويضربهم بالجزمة فيقولون له : ضربك شرف ياعمدة!

ونحن قدسنا الكرباج الذى استخدمه العمدة عبد الناصر فى ضرب أحفاد بناة الأهرام وقناة السويس والسد العالى!

وفى أوائل الثورة نشرت مجلة «آخر ساعة» صور الأدوات الجراحية التى استخدمها الأطباء فى استئصال الزائدة الدودية للرئيس عبد الناصر .

كأن هذه الأدوات قد أصبحت ذات دلالة - مختلفة - ولابد أن تكون كذلك ما دامت قد فتحت بطن الرئيس وأزالت زائدة دودية من جسمه المقدس . . فهذه الأدوات هى الأخرى مثل الكرباج يجب أن ننظر إليها بعظيم الاحترام وعميق التقديس . .

وما دامت الشعوب قد قدست رجالاً مثل نيرون وهتلر وعبد الناصر فسوف يجعلهم الطغاة عبيدًا!

(٣)

مسكين أنور السادات : عندما انتصر فى سنة ١٩٧٣ قيل لقد كانت الخطة من وضع عبد الناصر كما أن السلاح سوفيتى . .

وعندما انهزم عبد الناصر سنة ١٩٦٧ قيل بل كان التدريب سيئًا وكانت الأسلحة الأمريكية متفرقة .

مع أن الأسلحة السوفيتية فى حرب سنة ١٩٧٣ كانت قديمة جدًا . . وكان التدريب متفوقًا ؛ أى أن عبد الناصر انتصر غائبًا وانهزم حاضرًا! ولا فضل لأنور السادات والقوات المسلحة! أو بلغة كرة القدم : إن عبد الناصر عندما سدد الكرة إلى الهدف الإسرائيلى انطلق الرصاص على الكرة فانفجرت . . أما أنور السادات فقد أحرز هدفا ولكنه كان متسللاً ، فمصر لم تعرف إلا عبد الناصر حاضرًا وغائبًا!

ولذلك فالناصريون يرون أنهم الشيعة الجدد ، وأن عبد الناصر هو الإمام الغائب ، ولذلك فهم يعتقدون أنهم أولى بخلافة المصريين من السادات وحسنى مبارك . . وهم أيضًا الشيوعيون الجدد . . فعبد الناصر كان ماركسيًا ولكنه لم يصبر كثيرًا على الضغط السوفيتى ، وضرورة أن «ينضبط» وأن يطيع القيادة فى موسكو ، ثم إنه لم يقاوم الدولار الأمريكى ، ولكنه فى أعماقه ضد الرأسمالية وضد القطاع الخاص وضد الحرية وهذه الاختلافات بين الفئات ، ثم إنه قد فتح الباب أمام كل الفئات لكى تنطلق بعضها على بعض . . ثم أوعز لها بأن من حق كل إنسان أن يكون جمال عبد الناصر . . قالها : كلكم جمال عبد الناصر . . أى كلكم فداء له . . ولكن من المستحيل أن يكون أحد مثله أو قريبًا منه . . ولذلك بسرعة كسر السلالم التى أوصلته إلى القمة حتى يظل وحده هناك!

والناصريون يتظاهرون ويهوشون الحكومة والحزب الوطنى قائلين إنهم أعداء للإخوان المسلمين . وهم يريدون أن يشاركوا فى مجلس الشعب وفى الوزارة ؛ لأنهم أقدر على تخويف الجماعات الدينية المتطرفة التى تتربص بالحكم وبالنظام فإذا اتخذوا مقاعد الحكام ، هادنوا الإخوان المسلمين والإخوان غير المسلمين . . ساوموا على هذا السكوت . .

وهم اليوم تحت العباءة الشيوعية ، وغدًا تحت العباءة الشيعية ، وبعد غد تحت العباءة الناصرية التى تتربص بمصر والأمة العربية ، لتدفعها إلى النكسة النهائية ، العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وبذلك يتحقق أعز آمال إسرائيل فى أن تمتد إلى النيل ثم ترتد إلى الفرات . وقد حققت نكسة سنة ١٩٦٧ نصف هذا الأمل ولم تبق لنا إلا نكسة واحدة فى مصر «ووكسة» فى سوريا وبعدهما نقيم تمثالين عظيمين لعبد الناصر والأسد أمام مقر رؤساء إسرائيل فى القدس .

لى صديق كاتب ماركسى معروف دخل السجن وخرج ودخل فى عهد عبدالناصر وكان يأمل أن يصبح عضوًا فى مجلس الأمة ، ورشح نفسه وفى آخر لحظة شطبه الرئيس عبد الناصر . فماذا فعل؟ راح يخطب على المقاهى مشيدًا بعظمة عبد الناصر وبعد نظره ونفاذ نظرته . . وقال : أشكر زعيمنا العظيم فقد شطب اسمى . . أشكره فأنا لم أنضج سياسيّا بعد . . وهذه مكرمة لن أنساها ما حييت وسوف أسبح بحمده حتى الموت .

وسألته : ما معنى ذلك؟

قال : اسمع افرض أن الساعى الذى أمام مكتبك لايكاد يراك حتى يهب واقفًا ، كأنه رأى عفريتًا هو أنت . ثم ينهال تقبيلاً ليديك . . و «يتفتف» فيهما . . وهذا يضايقك ويقرفك .!

ولكن هل تطيق أن يراك هذا الساعى فيضع ساقًا على ساق وهو يدخن سيجارة ويقول للساعى الآخر الجالس إلى جواره : احنا كنا بنقول إيه . . طبعًا لا تطيق ذلك . . وكذلك عبد الناصر سوف نبوس يديه وهو يلعن كذبنا ونفاقنا ، ولكنه لن يطيق أن نصارحه بالحقيقة لحظة واحدة . هذا هو وضعنا . . لقد أدخلنا السجن عندما توهمنا أن اقترابنا منه يعطينا الحق فى أن نهمس بالصدق!

(٤)

أغاظتنى أغنية صباح التى تقول :

وصلتينا لنص البير

وقطعت الحبل فينا!

أى أنها أوصلتنا حتى منتصف البئر ، ثم قطعت الحبل . فلا نحن هبطنا بهدوء ولا هى سحبتنا إلى فوق - كذلك تنحى الرئيس جمال عبد الناصر!

كان يومًا بشعًا . . بكى الناس ولطمت السيدات خدودهن - وليس لطم الخدود عند المرأة دليلاً على الحزن . . إنه مثل دموع المرأة ، لا يدل على الحزن ، ولكن على النعمة التى أعطاها الله للمرأة : نشاط زائد فى غددها الدمعية يخفف من توترها اليومى ويغسل همومها أولاً بأول . .

ولكن وجدت رجالاً يلطمون . . وأحزننى ذلك!

ولم يحدث فى أعقاب النكسة ما يحدث عادة فى كل دول العالم : فتح الدفاتر ومراجعة الحسابات وتصفيتها ، والصراع بين الجنرالات ومناقشة لأسباب الهزيمة . . ومحاكمة المسئول عن المصيبة التى حاقت بمصر والعرب . . لا شىء من كل ذلك . . وإنما اعتذار من الجماهير عن أنهم شكوا لحظة واحدة فى عظمته وقدرته . . واستجداء له أن يعود ولا يهمك ياريس . . فداك ياريس!

أى فداؤه مصر وشعب مصر وانهيار مصر وعار الجيش الذى ضلله ليدافع ، فإذا به يأمره ليقاتل - إن كان هو الذى أمر بالقتال أو بالانسحاب من المعركة . تعيش وتأخذ غيرها ياريس . . تدوبه فى عرق العافية ياريس . .

لا تسأل نفسك : أى شعب هذا؟

فلما جاء السادات ونصر المصريين على عارهم أفزعهم ذلك فقد جردهم السادات من نعمة البكاء على الماضى وأنقذهم من الوخز الأبدى للضمير!

ومنذ سنوات رأينا فى القاهرة فيلمًا أمريكيًا لرجل غرق أولاده جميعًا وقضت الزلازل على مصانعه . . وراح يبكى حتى جفت دموعه . . وتمدد فى فراشه استعدادًا للموت . . فلم يبق له فى الدنيا أحد . . وجاءه من يؤكد له أن أولاده قد غيروا رأيهم فى آخر لحظة . . استقلوا طائرة - أى لم يموتوا . . وأن الزلازل لم تهدم مصانعه ، وإنما هى معلومات خاطئة . . فنظر إليه الرجل ومات . . مات من الصدمة الأعنف . . صدمة الفرح . لقد أمات الحزن نصفه ، وقضى الفرح على النصف الثانى . . وكذلك فعل انتصار أكتوبر . . كان قويًا عنيفًا ، حتى لم نقدر على تحمله . .

وكان أفضل وأريح لنا أن نظل نبكى فى هدوء وأن نعزى أنفسنا فى أنفسنا . وأن نسند ظهرنا إلى الحائط كما كان أجدادنا الفراعنة يفعلون وننسى مثل هذه الكلمات : من المحيط إلى الخليج . .

ولم نعرف ، إلا أخيرًا ، ما الذى فعله الإنجليز بقائد نصرهم تشرشل؟ شكروه ومجدوه وودعوه فقد انتهى دوره كقائد عسكرى . . أو زعيم سياسى كانت له مهمة . . انتهت المهمة وبدأت مهمة أخرى لما بعد الحرب ، وهذه المهمة تحتاج إلى رجال من نوع آخر . . شكرًا .

ديجول انتهت مهمته العسكرية وبدأت مهمته السياسية . انتهى دوره البطولى العسكرى والسياسى . وكان لابد أن يتوارى فى هدوء ليظهر آخرون أقدر وأكفأ . . شكرًا وغيرهم كثير . .

وعلى الرغم من أن دور الرئيس جمال عبد الناصر حسين قد انتهى فى سنة ١٩٦٧ ولم يشأ الشعب أن يطوى كتابه نهائيًا ، فإن عبد الناصر قد تولى ذلك . . فهو منذ النكسة لم يعد له دور ولا وجود . . لقد دخلت شمسه منطقة الخسوف الكلى فى الشرق الأوسط والعالم الثالث!

وكما أن هزيمة الجيوش المصرية والعربية فى سنة ١٩٤٨ هى التى أيقظت العسكرى فى قلب عبد الناصر ، والثورى فى رأسه والبطل فى خياله . .

فكذلك نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلت السادات يعبر من الغرب إلى الشرق .

ويقال إن موسى عليه السلام عندما كان فى سيناء ظهر له أحد العمالقة اسمه : عاج . . طوله ٨٠٠ متر وعصاه ٩٠٠ متر . . أما موسى عليه السلام فكان طوله عشرة أمتار وعصاه عشرة أمتار وخطوته عشرة أمتار . . وقف إلى جوار هذا العملاق فكان رأسه عليه السلام فى مقابل كعب هذا العملاق فظل يضربه موسى فى كعبه حتى مات .

ولما مات سقط فكان جسرًا على الماء يعبره المصريون من الغرب إلى الشرق!

***

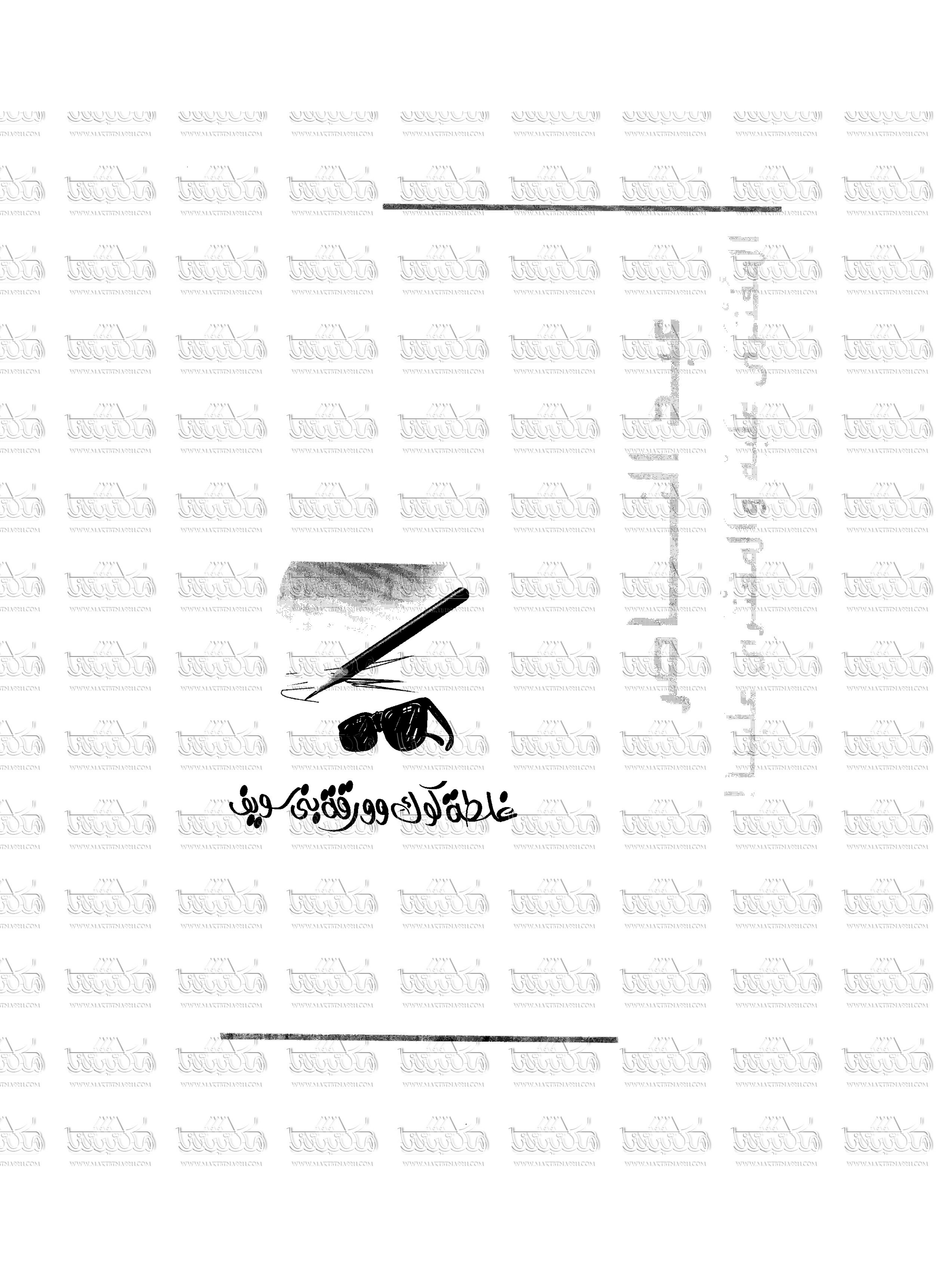
وهنا عبارة للمؤرخ البريطانى العظيم جيبون أتذكرها الآن . . قال عن أحد أمراء آل مديتشى الإيطالى : لقد تسلل ثعلبًا ، وحكم أسدًا ، ومات كلبًا!

ولكن أرجو أن أدفع بعيدًا ذلك المعنى الذى يتبادر إليك : فلم يكن عبد الناصر متسللاً ولكنه حاكم ثورى شرعى لبلاده . . حكمها نمرًا وقادها أسدًا فراحت تلعق جراحه!

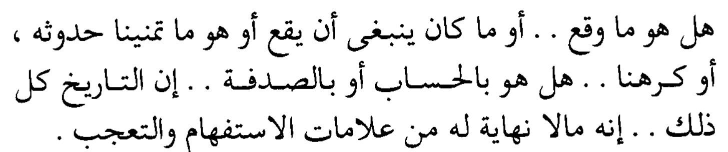
وعلينا بعد ذلك أن نحل هذه الفزورة : من يقتل واحدًا فهو مجرم ومن يقتل مائة ألف فهو بطل!

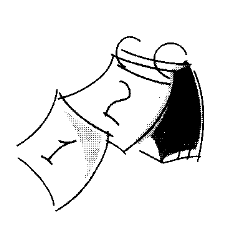
ثم هذه الفزورة : أرنى طاغية واحدًا ، وأنا أكتبْ لك ألف مأساة!

□□□


عبد الناصر
المفترى عليه والمفتري علينا!
غلطة لوك وورقة بني سويف

غلطة كوك
وورقة بنى سويف





ما هو التاريخ؟

هل هو ما وقع . . أو ما كان ينبغى أن يقع أو هو ما تمنينا حدوثه ، أو كرهنا . . هل هو بالحساب أو بالصدفة . . إن التاريخ كل ذلك . . إنه مالا نهاية له من علامات الاستفهام والتعجب .

وكلما كان الحدث جليلاً ، كان الغموض أشد . . مثلاً : لابد أن يكون قد صدر قرار الحرب مع إسرائيل من عشرين عامًا . . ولابد أن يكون قد صدر قرار الانسحاب . . ولكن نحن لا نعرف من الذى أصدر القرار . .

ولا نعرف كيف مات عبد الناصر . .

الصينيون يقولون : الروس قتلوه . .

والروس يقولون : الأمريكان سمموه . .

وكانت حياة عبد الناصر ، قبل النكسة أملاً عربيًا ، وبعدها : عذابًا مصريًا . .

ومن تسع سنوات كانت اتفاقيات كامب دافيد . وقد حكى الرئيس الأسبق كارتر فى مذكراته ، وكذلك زوجته فى مذكراتها ثم مستشاره برزنسكى فى مذكراته : أن الوفد المرافق للرئيس السادات حاولوا اغتياله . . فقد لاحظ أن الرئيس السادات نام مبكرًا . . وطلب ألا يوقظه أحد لأى سبب . . بينما ظل مستشاروه يتناقشون بصوت مرتفع . وكان الرئيس الأمريكى قد طلب من مستشاره ألا يضع أجهزة تصنت على الوفدين المصرى والإسرائيلى . ولذلك لم يعرف كارتر ماذا يقول المصريون ، ولا إن كان السادات حيًا أو ميتًا . ولما تأكد من أن شيئًا غير عادى

قد وقع استدعى برزنسكى مستشار الأمن القومى فجاءه بالبيجاما . وبدأ الرجل وزوجته ومستشاره يبحثون ما الذى حدث للرئيس السادات حتى طلع عليهم النهار ، وفوجئوا بأن السادات خرج كعادته يتمشى!

هذه الواقعة الخطيرة لم يناقشها أحد فى مصر أو فى إسرائيل . ولم يتحدث عنها أحد من أعضاء الوفد المصرى . . لا نفيًا ولا إثباتًا . . فإما أن تكون قد وقعت - أى كانت هناك محاولة لاغتياله ، ولسبب لا نعرفه فشلت . . وإما أنه لم تكن هناك واقعة وإنما سوء فهم للمناقشات التى كانت بين أعضاء الوفد المصرى!

ودخل هذا الحادث دائرة الظل والغموض - لقد كانت نبوءة بأن اغتيال السادات سوف يكون بأيدى المصريين!

وقد سألت الرئيس كارتر مزيدًا من التفصيل فقال إن الذى حدث أنه كان قلقًا على الرئيس السادات . . ثم إنه ضاعف الحراسة عليه . .

وإذا كان الحادث هكذا «تافهًا» فلماذا كتبه ، وكذلك زوجته ومستشاره برزنسكى ولماذا ضاعف الحراسة . . حراسة ضد من؟

ولكنه كان حريصًا على حكاية هذه الحادثة؟ لماذا؟ لم يشأ أن يقول ما هو أكثر . . فأين الحقيقة التاريخية؟!

وقد سألت الرئيس حسنى مبارك عن حكاية اغتيال السادات فى كامب دافيد فكان من رأيه أنه لم تكن هناك محاولة . وإنما مناقشات عالية النبرة بين المصريين .

***

وفى سنة ١٩٦٣ دعا البابا يوحنا الثالث والعشرون الكرادلة الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ليناقشوا أو يشاهدوا وثيقة تقدم بها الكاردينال الألمانى بيا . . يطلب فيها تبرئة اليهود من دم المسيح - أى استئناف الحكم فى قضية عمرها ١٩٣١ عاما . فقد كان الكاثوليك يلعنون اليهود فى صلواتهم ؛ لأنهم صلبوا المسيح ، ولكن الوثيقة تقول : إن الرومان هم الذين صلبوه . وحتى إذا كان اليهود هم الذين صلبوه ، فهم يهود ذلك الزمان فما ذنب يهود هذا الزمن؟

وقرر «المجمع المسكونى» ؛ أى العالمى الذى انعقد فى الفاتيكان : براءة اليهود .

ثم اغتيل الرئيس الكاثوليكى كيندى . والذى اغتاله مسيحى متزوج من روسية . . ثم اغتاله يهودى آخر - وضاعت دماء الرئيس الأمريكى . أى أن رئيس أعظم دولة فى العالم قد اغتالوه ، فى الظهر الأحمر ، ومع ذلك لم يعرف أحد حتى الآن من الذى اغتاله ، ولا لماذا؟ وظهرت عشرات الكتب تشك فى أن القاتل الذى رأيناه ليس هو القاتل الحقيقى- إذن كيف نقطع اليوم بأن اليهود وحدهم هم الذين صلبوا المسيح؟!

إذن فاليهود : لا صلبوا المسيح ولا قتلوا كيندى . . ولا فكرنا نحن فى اغتيال السادات ولا حتى اغتلناه . . ولا عبد الناصر أصدر قرار الانسحاب ولا قرار الحرب - فمن ياترى؟!

ومن ثمانى سنوات كتبت مقالاً أحكى فيه عن الذى دار بين كمال حسن على وبطرس غالى وشارون وشامير فى القدس .

كانت المناقشات عن السلام وتحسين العلاقات بين البلدين . وقال كمال حسن على : إن تطوير العلاقات يمشى ببطء . . ولكنه يمشى . .

ولكن شارون أكد أن المعلومات التى لديه عكس ذلك . وكذلك قال شامير . . ثم أخرج أوراقًا قدمها للجانب المصرى وهو يقول : وهذا هو نص محضر مجلس مدينة بنى سويف يطالب الناس ألا يتعاملوا مع إسرائيل . . إلخ .

ولم ينطق الجانب المصرى بكلمة واحدة . ثم إن أحدًا لم يصدر بيانًا يوضح ما حدث : لا الخارجية ولا الداخلية ولا المحافظة ولا مجلس المدينة ولا أعضاء مجلس الشعب والشورى عن بنى سويف .

ودخلت هذه الحادثة تاريخ العلاقات بين البلدين كنموذج لما يحدث يوميًا دون أن ندرى : إسرائيل لها ذراع طويلة ، ومصر ابتلعت لسانها الطويل ، فلم تسأل نفسها كيف حدث ، وكيف لا يحدث مرة أخرى . . ولا كم يبلغ طول ذراع إسرائيل ولا أين تلعب أصابعها وعيونها وآذانها . . ولا أين ذهب لساننا ولا إن كنا قد هضمناه . . ولا حتى إن كانت لنا عيون أو آذان هناك وهنا . . صمت طويل . . تمامًا كالصمت على ما حدث فى ١٩٦٧ وقبلها وبعدها فى ٧٣ .

أما الذين كتبوا التاريخ العسكرى فهم قادة إسرائيل . . كلهم كتبوا . وما كتبوه يقرؤه الملايين فى كل اللغات . . أما نحن فمن الذى كتب؟ وماذا كتب؟ ومن

الذى قرأ ما كتبه الجانب الآخر؟ ومن الذى صحح أكاذيب التاريخ؟ ومن الذى رد إلى المصريين اعتبارهم؟ ومن الذى أنصف العسكريين فى ٦٧ و ٧٣؟ وأى نوع من العسكريين المصريين وفى أية ظروف ولأى سبب كتبوا؟ ومن الذى راجع ما كتبوه؟

إنهم فى إسرائيل لا يكتبون التاريخ إلا إذا خرجوا من الوظيفة الرسمية . . فإذا كتبوا عرضوه على لجنة يرأسها وزير العدل ، ليحذف كل ما يتعلق بالأمن القومى .

قال لى موشى ديان : إن وزير العدل حذف من كتابه «الاختراق» عبارة عن الملك حسين .

قال لى عيزرا فايتسمان : إن وزير العدل حذف نكتة!

قال لى إسحاق رابين عندما ذهب لإجراء حديث مع الرئيس السادات : إنه يتوقع أن يبقى كتابه وقتًا أطول عند اللجنة التى تقرأ مذكرات الحرب ؛ لأنه يتحدث مع شخصيات مهمة .

وكان ما توقعه . .

وقد ناقشت كثيرًا مع المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة قصة كتابة التاريخ الصحيح أو التاريخ الرسمى للحروب . . وأنه يمكن تجاوز الصعوبات التى تفرضها اللوائح العسكرية على القواد ، وذلك بأن يساعدوا المؤرخين بإمدادهم بالوثائق ومساعدتهم من بعيد وترك كل مؤرخ لقدراته وضميره . .

واقترحت عليه أن تتكون لجنة للرد على ما جاء فى كتب جنرالات إسرائيل والمؤرخين الأمريكان . .

وأسعدنى المشير أبو غزالة عندما رأى أن نؤلف معًا كتابًا عن حرب ١٩٧٣ . . وتبقى مشكلة كتابة التاريخ كما هى . .

ومن نتائج النوعية الغريبة للمؤرخين عندنا أننا أمام رجلين هما : جمال عبد الناصر ، ولا نعرفهما . .

عبد الناصر الذى يكتبه الدراويش والوثنيون . . والذين يرون فيه بطلاً قائدًا عظيمًا لم ينهزم قط ولم يخطئ قط . . وهو بالضبط من لا نعرف .

وعبد الناصر الذى رأيناه وعايشناه نحن الناس العاديين . . ذلك الذى وقف طويلاً عريضًا أسمر عملاقًا يبدد الفساد الملكى ويغير مسار التاريخ . . كما غير مسار النيل عند أسوان . . وتلتف حوله العروبة لعله ينقذها مما فيها . . ولكنه لم يكن مؤهلاً للبطولة العربية . . وإنما كان فقط مشغولاً بمجده الشخصى ولو ذبح الأمة العربية ومصر فى مقدمتها . . وأخفى اسم «مصر» فى الجمهورية العربية المتحدة مع سوريا . . ونحن أصبحنا الإقليم الجنوبى وسوريا الإقليم الشمالى . . وكنا نقول لهم من أجل الوحدة معكم صرنا إقليمًا ، وكنا نظن أنها تضحية منا وحدنا . . وكانوا يردون علينا : ونحن أيضا صرنا إقليمًا - أى أنهم قد أنسوا اسمهم ، كما أننا أنسينا اسمنا!

وقد اعتادت شعوب هذه المنطقة على ظهور الأنبياء ، الذين كفروا بهم ، وكفروا بنا أيضًا . .

وأكثر الناس علمًا يتساءلون : بالضبط ما الذى حدث منذ قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢؟ كم دفع المصريون من أرواحهم فى اليمن وسيناء والقناة؟ وكم دفعوا من أموال على التسليح حتى لم يجدوا ما يصرفونه على المدن والشوارع والمدارس وإصلاح الأرض والمصانع؟ وكم نحتاج من الوقت لإصلاح النفوس التى ملأها الحقد . . حقد الناس على الناس ، كراهية الناس للناس . . يأس الناس من الحاكم والكاتب والمدرس والعلماء والفقهاء؟ ومتى تزول آثار العدوان - عدوان الحاكم المطلق على الشعب الذى استسلم . . وكان استسلامه دليلاً جديدًا على خطورة : عبادة البطل . . أى التسليم المطلق له ؛ يفعل ما يشاء بمن يشاء فى أى وقت يشاء . .

ولم تولد «ثورة يوليو ١٩٥٢» ثورة . . فعبد الناصر وزملاؤه لم تكن لديهم أية فكرة واضحة عن أى شىء . . بما فى ذلك طرد ملك مصر السابق . . وإنما أفلحوا فى تخويف الملك وتهويشه ، وكان رجلاً وحيدًا ضعيفًا . وأطلقوا له المدافع تحية له . . وجعلوا ابنه ملكًا على مصر وعينوا وصيًا على العرش . . أما الباقى فأمره سهل جدًا . .

والثورة المصرية متدرجة هادئة تمامًا بيضاء - فقد كانت القيادة جماعية . ولكن عرفت الدم ، عندما انفرد عبد الناصر بالقيادة . وهو معذور ، فهذه أخلاقيات الحاكم المطلق .

***

وكأننا نقرأ كتابًا عن مبادئ تاريخ الثورات . .

فنحن أمام الأوضاع التى لا نريدها نمر بعدة مراحل :

مرحلة التمرد: ومعناها أن يصبح السخط أكثر تركيزًا . فيكون كل الذى نراه أو نسمعه لا يعجبنا .

مرحلة السخط: وهى مرحلة أكثر تركيزاً وأضيق نطاقًا . . حين لا نعجب بوضع معين . . كأن نكره الإقطاع الزراعى . . أو نكره السياسة الحزبية . . أو برامج التعليم . .

ولذلك يكون الناس جميعًا غاضبين . . ثم ساخطين ، كل واحد حسب اهتمامه وتخصصه .

مرحلة التمرد: ومعناها أن يصبح السخط أكثر تركيزًا ، فكل الذى نراه أو نسمعه لا يعجبنا ، فنكون ساخطين على وضع بالذات وعندنا برنامج لإصلاحه . وهذه هى البداية التقليدية لكل المصلحين فى التاريخ . إنهم يبدءون بإصلاح جانب ، ثم ينتقلون إلى إصلاح جانب ثان . . وهكذا . . ولكن المصلحين قد عرفوا بالتجربة والغريزة السياسية أيضًا ، إنهم إذا اتجهوا إلى إصلاح جانب واحد ، تصدى لهم بقية المجتمع خوفًا على نفسه من التغيير أو السقوط .

ولذلك كثيرًا ما وجدنا المتمردين- إذا نجحوا- يعلنون أنهم سوف يصلحون هذا الوضع ، وبعد ذلك يعودون إلى مواقعهم السابقة . . وكذلك أعلن الضباط الأحرار المصريون ، أنهم بعد أن يصلحوا الأوضاع السياسية فى مصر ، سوف يعودون إلى الثكنات . فلم يكن لهم هدف إلا الإصلاح . ولأنهم يعرفون قدراتهم تمامًا ، فلن يتدخلوا فى السياسة . فقط يرقبون الساسة وهم يصلحون أخلاقياتهم . فإذا فعلوا ، عاد العسكريون إلى ثكناتهم؟!

ورفضوا أن يبتعدوا عن الشعب . . فركبوا الترام وأكلوا سندوتشات الفول فى مجلس الوزراء . . ومنعوا إقامة السرادقات . . أما الباقى فنحن نعرفه وكان طبيعيّا أن يحدث!

مرحلة الثورة: التمرد على كل وضع ، مع وجود برنامج عام للإصلاح الشامل . . ولم يكن ثوار يوليو يعرفون بالضبط ماذا يريدون قبل

أو أثناء أو بعد تمردهم . . ولكنهم عرفوا بعد ذلك . . وأضافوا لأنفسهم ولحركتهم أو انقلابهم اسم «الثورة» . .

ولتكن ثورة . . فالاسم لايهم . ولكن الذى يهم هو تطبيق هذه الثورة على الحياة العامة فى مصر ؛ أى تحويل الأفكار والأحلام إلى واقع . وهذا الواقع يتحدى واقعًا قديمًا راسخًا ، ثم ظهور واقع جديد . . ثم انهيار بعد انهيار لكل الأحلام والتحديات وبسرعة مذهلة مخجلة أيضًا!

وأمام حدث ظهور عبد الناصر ، وحدث اختفائه يكون الناس ثلاث فئات : المؤيدين والرافضين والمترددين . .

أو الذين يقولون : نعم . . والذين يقولون : لا . . والذين يقولون : ربما .

أو بعبارة أخرى : هناك الداخلون والخارجون والمتسللون إليه إن كان ناجحًا ، والمتسللون منه ان كان فاشلاً!

ونحن لا نعرف لجمال عبد الناصر «نظرية» سياسية . . أى تفسير علمى واضح لكل المشاكل الإنسانية مع وضع برنامج تطبيقى لحلها . . فليس فيلسوفًا أو مفكرًا . وإنما هو رجل عسكرى شجاع توسم فيه العرب والمصريون خيرًا عظيمًا . . ولكنه مع الأسف أساء قراءة صورته التى انعكست على وجوه الملايين . . لقد توهم الصمت صلوات له . . كما تصور الصراخ هتافًا بحياته . . وأخيرًا خدعه سكوت مئات الألوف من الشهداء ، فاعتقد أن السكوت علامة الرضا!

فإن كان أحد يريد إحياء ذكرى الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، فله ذلك ، ولابد أنه يرى عصره ذهبيًا . وأن إحياء ذكراه هو استرجاع لأجمل صور التاريخ المصرى الحديث . . وإن كان يرى أن الرئيس عبد الناصر قدوة للعسكرى والسياسى والعامل والفلاح ، ففى بلادنا ديمقراطية تعطيه الحق فى أن يكذب وأن يصدق وأن يتوهم وأن يرفض الحرية . .

ولكن لابد أن يفسر لنا كيف أدت قرارات الرئيس عبد الناصر إلى إضافة أرض جديدة إلى إسرائيل : سيناء والجولان والضفة والقطاع والقدس . فهل ياترى إذا دعا أحد إلى عودة أفكار عبد الناصر يدعو أيضًا إلى إعطاء سيناء لإسرائيل وإغلاق القناة والإبقاء على الأرض المحتلة كما هى؟ وهكذا تظل أيدينا على الزناد ، تاركين

الأرض والمصنع والمدرسة والمستشفى وندخل التاريخ - إن دخلناه - على أننا الجياع العراة الحفاة العبيد المحاربون بلا قضية!

إذن لا نظرية ولا أتباع . . ولذلك فالذى يسمى نفسه ناصريًا ، لا أعرف لماذا؟ كيف يكون تابعًا والذى يمشى وراءه لم تكن عنده خطة . . ولا فلسفة . . وإن كانت فأين ذهبت به وبنا؟!

ولأن أجهزة كثيرة تعمل فى عصر الرئيس جمال عبد الناصر ، وقد أدى ذهابه المفاجئ سنة ١٩٦٧ إلى تراجع هذه الأجهزة وتماسكها واختفائها تساندها دول عربية وأجنبية فى مصر وفى العواصم الأوروبية . . ثم إن القفزات السياسية والاجتماعية فى عصر السادات قد أدت إلى سكون الناصريين وتربصهم .

وقد برزت غضبة الدول العربية على نصر أكتوبر وفتح القناة والاستقرار الداخلى والسلام وانسحاب إسرائيل من سيناء وانفتاح مصر داخليًا وخارجيًا وظهور الأحزاب ، . فقد كان كل ذلك إحراجًا شديدًا لكثير من الدول الشقيقة التى خافت من العدوى ، والتى خافت ألا تعتمد مصر عليها وقد كانت تألقت سعادة الشعوب العربية عندما دارت طواحين البلاغة فى سوريا فأخرجت لهم العبارات المناسبة للأوضاع فى مصر . عزل مصر عن العرب . . أو عزل العرب بمصر . . التصدى للتردى المصرى . . ١٩٦٧ وهى النكسة العسكرية والانتصار السياسى و ٧٣ النكسة السياسية والانتصار العسكرى . . إلى آخر التعابير الغريبة التى تدل على أن مصر تآمرت على العرب وعلى الشعب المصرى ، وأوهمت الجميع أنها انتصرت . . والحقيقة أنها تآمرت مع أمريكا وإسرائيل على ضرب العرب؟!

ويحاول الناصريون أن يجربوا لعبة قديمة . . وهى أن يتسللوا من داخل الحزب الوطنى - وقد فعلوا - ليقفزوا على السلطة ويصبحوا مراكز قوى موالية لقوة أجنبية - لروسيا مثلاً وهم لا ينكرون أنهم شيوعيون ، ولا أن عبد الناصر كان ماركسيًا .

وقد جرب جمال عبد الناصر الاستعانة بالشيوعيين لضرب الإخوان المسلمين والمسلمين وضاق بالشيوعيين وطردهم وأودعهم

السجون . ولكن لا يهم ماداموا عندما خرجوا من السجون وجدوا الخبراء والقوات السوفيتية فى كل مكان!

وجرب السادات أيضًا نفس اللعبة . . أى الاستعانة بمجموعة لضرب مجموعة أخرى . . وإذا لم تنتصر واحدة على الأخرى فإنها تخلق صراعًا فى داخل الحزب ، ولابد من القضاء على الصراع فيستعين بقوة ثالثة . وبدلاً من إسكات القوى الداخلية ، فإنه ينعشها ويعطيها مزيدًا من السلاح لتعمل ضد بعضها البعض وضده أيضا!

وهو أسلوب مستعار من عالم الحيوان والنبات : وهو توازن القوى فى البيئة . فالإنسان يعيش على الحيوان والحيوان يعيش على النبات والنبات يعيش على التربة التى هى مقبرة للجميع!

ففى سنة ١٨٥٨ أدخل الإنجليز فى أستراليا عددًا كبيرًا من الأرانب للرياضة . . أى يربونها ويصيدونها .

وفجأة ودون أن يدرى هؤلاء الصيادون تكاثر عدد الأرانب حتى أخذت تأكل النباتات والثمار والأشجار والبذور . .

فأقاموا لها الأسوار فكانت تقفز فوقها وتنخر الأرض تحتها . . وأقاموا المصايد والشراك وأطلقوا عليها النار . . ثم استخدموا السموم .

ثم أتوا بالكلاب وأطلقوها عليها . . توحشت الكلاب فراحت تأكل الطيور والأغنام والدواجن . . ولم تعد الكلاب تخيف الذئاب والثعالب .

وقفزت الفئران من السفن ، وأصبح فى أستراليا وحدها ستون نوعًا منها فأكلت البذور والجذور . فكان لا مفر من استيراد القطط . وتكاثرت القطط فأكلت الدواجن والطيور وانصرفت عن الفئران التى توحشت .

وهى مشكلة متجددة عندما نحاول أن نتدخل لإقامة نوع من التوازن بين القوى ، حتى لايطغى جانب على جانب . لأننا نحاول التوازن بعنف . ونحاوله متأخرًا .

وفى حديقة حيوانات الجيزة نصف مليون فأر ، ويقال أكثر . . ولكن أحدًا لا يستطيع أن يقتل هذه الحيوانات بالسم أو المبيدات ، حتى لا تموت فى أقفاص الحيوانات الأخرى فتأكلها وتموت . .

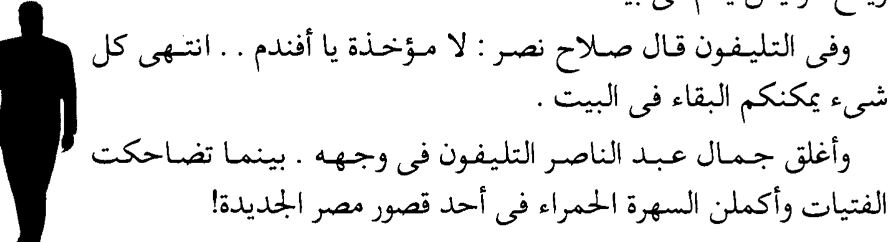
ولذلك فإننا نتركها الآن ، لأن محاولة القضاء عليها صعبة وخطرة فى نفس الوقت وإذا أتينا لها بالقطط ، فنحن نعرف الآن ماحدث فى أستراليا!

ولم يطلب أحد إلى الناصريين أن يقوموا بدور القطط فى الحزب الوطنى ، لمقاومة حزب الوفد أو الجماعات الإسلامية - فالثأر قديم - لم يطلب أحد ذلك ، ولكنهم وجدوا الفرصة . . فهاجموا الوفديين بتقديس جمال عبد الناصر ، أى بإغاظتهم وإخراج لسانه لهم . . وكذلك هاجموا الجماعات الإسلامية والإخوان ، فالثأر قديم . . وهم بذلك يحملون الحزب الوطنى مالا يطيق . . وكيف ينسى عشرات الألوف من الإخوان والجماعات الدينية الأخرى هتك الأعراض : الزوجة أمام زوجها . . والبنت أمام أبيها . . إن هتلر لم يفعل ذلك . . إنه أحرق الجميع . ولو خيرنا أبًا أو أمّا بين الهوان والتعذيب وبين الحريق ، لاختارا الموت بيد هتلر على الحياة على يدى صلاح نصر ورجاله .

لقد كان صلاح نصر مدير المخابرات المصرية يتباهى أمام نسائه بأنه وحده الذى يستطيع أن يجعل عبد الناصر يغير سريره وينام فى المكان الذى يختاره له . . فقد تحول الأمن القومى عند صلاح نصر إلى «أمن الرئيس» فقط . . ولذلك كان يعتمد عليه . وكان صلاح نصر يخيفه أيضًا .

وفى إحدى المرات ، وهى حادثة معروفة الأسماء عند الكثير . كان صلاح نصر يجلس فى أحد بيوت الضيافة . . أو «بيوت الأمان» بلغة المخابرات . . وقال لإحدى الممثلات سوف تسمعين صوت الرئيس ، وسوف أجعله ينام فى مكان آخر غير بيته إنه مزكوم . وجاء صوت الرئيس فى التليفون . . ثم فى التسجيل وهو يقول : ياأخى قرفتنى فى عيشتى ياسى زفت . . عاوزنى أنام فين الليلة . . إلخ .

فطلبت إحدى الممثلات من صلاح نصر إن كان جدعًا أن يرجع فى كلامه ويدع الرئيس ينام فى بيته .



وفى التليفون قال صلاح نصر : لا مؤخذة يا أفندم . . انتهى كل شىء يمكنكم البقاء فى البيت .

وأغلق جمال عبد الناصر التليفون فى وجهه . بينما تضاحكت الفتيات وأكملن السهرة الحمراء فى أحد قصور مصر الجديدة!

لقد كان هذا المزاج الشاذ المرضى هو الذى يدفع بصلاح نصر إلى تعذيب وهتك أعراض البنات الأبكار والزوجات المحصنات . . ويتضاعف العذاب واللذة أن يكون ذلك أمام الآباء والأبناء - ولم يكن صلاح نصر هو الذى ينفرد بالقرار ، وإنما كان يهبط عليه الوحى الشرير . . فلم يكن إلا قائد أوركسترا العذاب ، أما صاحب النوتة الموسيقية فهو الرئيس جمال عبد الناصر - قال ذلك صلاح نصر وآخرون كثيرًا فى المحاكمات المعروفة!

والذين قالوا عن الملك فاروق إنه من نسل النبى عليه الصلاة والسلام ، قالوا عن عبد الناصر إنه نبى لا صلاة عليه ولا سلام معه!

ومنذ انهزم نابليون فى معركة ووترلو ونفاه الإنجليز فى جزيرة ألبا ، ثم أفلح فى أن يهرب وأن يعود إلى حكم فرنسا ، وكل أنصار الزعماء يحلمون بعودة الظالم ، كما عاد نابليون ، وحتى عندما أبعد نابليون نهائيًا إلى جزيرة سانت هيلانة ، لم يتصور أحد أن يموت نابليون ككل خلق الله ، وإنما قالوا إن الإنجليز وضعوا له السم يستعجلون وفاته .

وأتباع هتلر يعتقدون أنه هرب إلى أمريكا اللاتينية .

تمامًا كالشيعة الذين يعتقدون أن الإمام الغائب موجود . حى يرزق وأن عمره الآن أكثر من ألف سنة . وأنه يدير حال المسلمين من بعيد لبعيد وأنه سوف يعود يومًا ليملأ الأرض عدلاً ، بعد أن امتلأت ظلمًا!

فإن لم يعد عبد الناصر بجسمه ، فليعد بإثمه ، وهم يحاولون ذلك فى داخل الحزب الشيوعى ، وفى داخل الحزب الوطنى .

وهم يقولون إن هناك نوعين من الناصريين أنصار يوليو . . وأنصار يونيو . . أنصار يوليو هم الذين يؤيدون مبادئ الثورة التى حاول عبد الناصر تطبيقها ، ولم يفلح - لقد ساروا فى موكبه بعض الطريق . .

ثم أنصار يونيو - أى الذين يرون أن عبد الناصر ، وإن انهزم فى يونيو سنة ١٩٦٧ فلأن قوى العالم قد وقفت ضده . . فهو لم ينهزم ، وإنما هزموه - فهم يمشون فى جنازته إلى آخر الطريق .

فأنصار يوليو : هم الذين يمشون فى زفة الثورة .

وأنصار يونيو : هم الذين يشيعون الهزيمة .

وقد حزن المصريون كثيرًا على فقد الزعيم جمال عبد الناصر .

بل إن المؤرخين يرون فى جنازته واحدة من كبرى جنازات القرن العشرين - اقرأ ما كتبه أرفنسج ولاس وزوجته وابنه وابنته فى كتابهم «الأرقام القياسية» - الجزء الثانى .

١ - جنازة الماريشال البولندى بلسودسكى سنة ١٩٣٥ .

٢ - جنازة الملك جورج الخامس سنة ١٩٣٦ .

٣ - جنازة غاندى سنة ١٩٤٨ .

٤ - جنازة ستالين سنة ١٩٥٣ .

٥ - جنازة جون كنيدى سنة ١٩٦٣ .

٦ - جنازة نهرو سنة ١٩٦٤ .

٧ - جنازة تشرشل سنة ١٩٦٥ .

٨ - جنازة جمال عبد الناصر سنة ١٩٧٠ .

٩ - جنازة ماوتسى تونج سنة ١٩٧٦ .

١٠ - جنازة هوارى بومدين سنة ١٩٧٨ .

ولقد اتسمت جنازة الرئيس جمال عبد الناصر بالبكاء والعويل ومحاولة الناس أن يحملوا النعش إلى مثواه الأخير - ومن العادات المصرية القديمة أن يبكى المصريون ويلطموا خدودهم ويشقوا ملابسهم وأن يرقصوا كما قال الشاعر القديم :

كالطير يرقص مذبوحًا من الألم!

ومن عجيب أمر المصريين أنهم إذا انتصروا رقصوا ، وإذا انهزموا رقصوا . . فنحن نرقص فى كل المناسبات ، ولذلك فالرقص عندنا لا معنى له وهذا دليل على طغيان العاطفة ، وغفلة الشعب .

***

فلم يعرف الذل والهوان من لم يعش سنة ١٩٦٧!

قرأت للرجل الطيب بوذا وصفًا لنظريته فى الحياة . ولماذا من المقدر لها أن تعيش كثيرًا وطويلاً . يقول : إن النظرية يجب أن تكون لها صفات المحيط فالمحيط كلما توغلت فيه ازداد عمقًا .

ومهما توغلت فى المحيط فإنه يحتفظ بلونه وطعمه . .

ثم إن الأنهار كلها تصب فيه .

وهذه الأنهار لها أسماء كثيرة عند المنبع وعند المصب . . ولكنها جميعا تندفع بحماس شديد لتذوب فى المحيط . . والأنهار لا تتوقف عن الجريان والمحيط لا يرفضها . وكما أن للمحيط شواطئ فكل شاطئ له اسم . . ولكنها جميعًا أطراف لوعاء واحد ، فكذلك النظرية الشاملة . .

وفى المحيط حيوانات ضخمة كالحيتان ، وكائنات ضعيفة مضيئة كاللؤلؤ .

وبين الحين والحين يطفو على سطح المحيط حيوان ميت . . ولكن سرعان ما يتلاشى الميت فى بطون الأسماك الأخرى .

هذه هى صفات النظرية التى تعيش على شواطئها وعلى أمواجها وعلى سطحها وفى أعماقها كثير من الكائنات الحية .

وهذه شروط النظرية التى تبقى .

ولست أجد من بينها صفة واحدة تنطبق على «الناصرية» - إن كانت نظرية أو كانت لها نظرية!

وأعتقد أن دراويش الناصرية قد ارتكبوا غلطة الرحالة «كوك» فعندما اكتشف جيمس كوك البريطانى جزر هاواى ، تساقط أهل البلاد ساجدين له ولعظمته . . فقد جاء فى أساطيرهم القديمة أن المنقذ سوف يجىء إليهم راكبًا جزيرة - سفينة كبيرة - وأنه سوف يكون طويلاً أبيض ذهبى الشعر . . يأتى بالمعجزات فإذا جاء ألقوا السلاح عند قدميه وتوجوه ملكًا مقدسًا عليهم . وجاء كوك وركعت الجزيرة وسجدت . وتكدست الثمار بين يديه وتمرغت الفتيات العذارى أمام فراشه : شرفًا لهن ومجدًا للجزيرة .

وفعل كوك ورجاله كل ما يفعله بحارة عاشوا فوق ويلات الموت شهورًا عديدة . ثم طغى وبغى وضرب الشباب وعصف بالشيوخ . . ولكنه لم يتنبه إلى أن هؤلاء البدائيين وإن كانوا أقرب إلى الحيوانات ، فالحيوانات لها مقدسات ، فعندما اعتدى على شيخ من مشايخ القبيلة أطلقوا عليه السهام . فأصابه سهم فى رأسه ونزف

دمًا وسقط ميتًا - وكانوا يؤمنون بأنه لايموت . . إذن هو بشر . وليس إلهًا ولا هو المهدى المنتظر ولا الرسول الموعود . . ولا هو الذى يستحق القداسة . هنا فقط أدركوا أنه مثلهم - وإن اختلف فى اللون - فأجهزوا عليه وقتلوا أكثر رجاله .

وغلطة دراويش الناصرية أنهم يقدسون الزعيم ويعصمونه من الخطأ ، بينما أخطأ العالم كله ، وأول الذين أساءوا فهمه وتقدير دوره التاريخى هم شعب مصر والأمة العربية - ونسوا أنه بشر مثلنا ، وأن خطيئة النكسة هى كالسهم الذى أصاب كوك فى رأسه فنقله من عرش الآلهة ، إلى أكفان البشر .

ولا أظن أن قائدًا انكسر ، يعتقد أنه انتصر . . إذا تظاهر بذلك ، فلكى يحمى انسحابه وتراجعه إلى الظل .

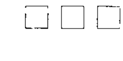
فما التاريخ بعد ذلك؟

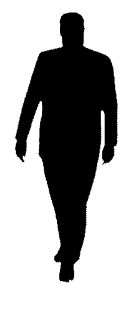
أعرض عليك - أخيرًا - عينات .

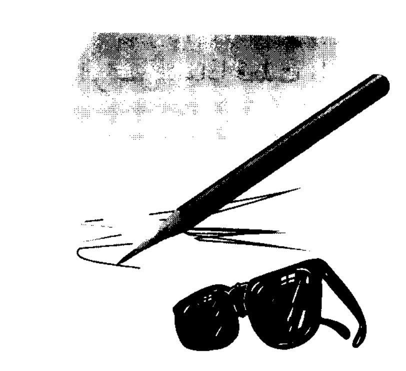
التاريخ يكتبه أخ شيوعى .

التاريخ يكتبه أخ مسلم .

التاريخ يكتبه أخ مصرى .

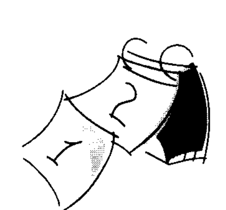






يا جمال يا مثال الوطنية .. أغنية الإخوان والشيوعيين !

ياجمال يامثال الوطنية..
أغنية الإخوان والشيوعيين!



كان الاحتفال العائلى بعيد ميلاد الرئيس السادات فى ميت أبو الكوم . آخر عيد . جلست أنتظره . خرج الرئيس ليجد السيدة منى عبد الناصر قد لفت يديها حول عنقى وهى تقول : أريد أن أخنقك . . أن أقتلك!

فقال الرئيس : ماذا فعلت يابنتى منى بأنيس؟

قلت : ياريس أنا لا أعرف ، لقد رأتنى أخيرا فى فرح ابن فوزى عبد الحافظ وحاولت خنقى!

أجابت منى عبد الناصر . هل يرضيك يا أونكل أن أسأله عن سبب اختياره اسم ٦ أكتوبر للمجلة التى يرأسها فيقول لى : وهل كان الأفضل أن أسميها ٥ يونيو!

ولم يظهر على وجه الرئيس السادات مايدل على الضيق أو الابتهاج فى مشاركتها أو مشاركتى . .

وبعد ساعتين جاءت السيدة جيهان السادات تقول لى : أنا أعطيت منى رقم تليفونك فى البيت ، لأنها تريد أن تعتذر لك . .

أما الشىء العجيب حقا فهو أن يتصل بى الرئيس السادات عند منتصف الليل ليسألنى : ياأنيس . .

- أيوه ياريس .

- ما الذى حدث بالضبط بينك وبين منى . لم أفهم ياأنيس!

فرويت له ماحدث .

وفوجئت بالرئيس يضحك من كل قلبه وحنجرته ويقول : ياساتر يارب . . وتقول إن الأستاذ العقاد كان سليط اللسان! يأخى أنت لسانك أطول من لسان العقاد . . هاها . . هاها . .

فالرئيس السادات لم يشأ أن يضحك أمام منى عبد الناصر!

وعندما دعوت زعماء حزب العمل الإسرائيلى إلى ندوة فى مجلة أكتوبر حضر شيمون بيريز وأبا إيبان وحاييم بارليف والدكاترة مصطفى خليل وإبراهيم حلمى عبد الرحمن وبطرس غالى . فسألنى أحد أعضاء الوفد الإسرائيلى ولماذا اخترت اسم «أكتوبر» لهذه المجلة؟

قلت : تيمنا بانتصارنا فى حرب أكتوبر .

وبدأ الضيق العابر على الوجوه . .

ثم عدت أقول مداعبا : ولكن عندما نصدر الطبعة العبرية لهذه المجلة سوف نجعل اسمها «٥ يونيو»!

فزاد الضيق على وجه الوفد الإسرائيلى . . أما الوفد المصرى فاستعار ملامح وجه الرئيس السادات ، تعليقا على الذى دار بينى وبين منى عبد الناصر!

فكل حدث له وجهان : النصر هنا والهزيمة هناك . . أناس يرقصون بالشمبانيا ابتهاجا بما حدث ، وأناس تتساقط منهم القهوة السادة حزنا على ما جرى .

وقديما قال المتنبى :

فنحن فى جذل والروم فى وجل　　　والبر فى شغل والبحر فى خجل!

وكان الإغريق يعبدون إلها اسمه جانوس . هذا الإله له وجهان . وكانوا يضعونه على باب البيت : يبارك من يدخل ، وعلى ظهر الباب يبارك من يخرج . . فالإله جانوس هو الذى يقول : حمدا لله على السلامة . ومع السلامة . .

ولكن الضحايا ليس لهم إلا وجه واحد . . إنهم تعذبوا حتى الموت . . وبكت عليهم أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم . سواء كان النصر حليفا لهم ، أو حليفا لأعدائهم . . فالذى شرب الشمبانيا حتى مات - الخديو إسماعيل والملك فاروق - والذى مات عطشا مثل مئات الألوف من جنودنا فى سيناء واليمن : جميعا ماتوا!



وهناك حيوان وحيد ينقل الناس إلى الكمال والجمال اسمه : الألم!

وأنت لست فى حاجة إلى بطاقة شخصية لأى إنسان وجدته ينزف دما على الأرض . إنه ضحية . .

وأنت لا تسأل إن كان شيوعيا أو مسلما أو مسيحيا أو يهوديا أو ملحدا لتقول : آه . . أنت تقولها ، كما يقولها هو . فقد جمع الألم بينكما والصدق أيضا . فكلاكما ضحية : هو ضحية لواحد ، وأنت ضحية الاثنين!

***

(١)

وقد أصدر الزميل إلهام سيف النصر الكاتب الشيوعى الذى اعتقلوه عشرين مرة ، كتابا سنة ١٩٧٧ عنوانه : «فى معتقل أبى زعبل» .

وفى هذا الكتاب يصف لنا ما الذى لقيه أقطاب الشيوعيين من أساتذة للجامعات وأدباء وساسة من عذاب وهوان فى داخل السجون . رآهم ينزفون دما ، ولا يعترفون على زملائهم . .

رأى د . إسماعيل صبرى عبد الله ، مستشار الرئيس عبد الناصر ، يقطعون ظهره بالسياط والشوم ويترنح على الأرض من الألم .

رأى د . لويس عوض يطاردونه بالسياط والخيول . .

ورأى د . عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم . . وشهيد الشهداء شهدى عطية ، ضربوه حتى مات . وجاء طبيب السجن يصدر قرارا بأنه مات بهبوط فى القلب . .

ورأى د . فؤاد مرسى سكرتير الحزب الشيوعى المصاب بانفصال فى الشبكية يلقى مالا حد له من الهوان والعذاب . .

ويلتفت إلهام سيف النصر إلى السفالة واللاأخلاقية فى داخل السجن : الرشوة والفساد . . ومن يدفع يحصل على كل ما يريد من الخمور والحشيش والذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية هربا من السجن . .

كما أن الجنود أو الضباط أو مديرى سجن طرة يزرعون الحشيش ويبيعونه فى داخل السجن وخارجه!

ومن أهم ما يمتاز به كتاب إلهام سيف النصر أنه رجل مثقف . وأنه يغتفر كل ما يحدث فى السجن له ولزملائه ؛ لأنهم جميعا يعتقدون أن حكومة عبد الناصر حكومة وطنية ، وإن كان أسلوبها فى الحكم غير ديموقراطى - تماما كما تضرب واحدا بالجزمة ويعترض على أنها غير نظيفة!

وهو يتهم كل الناس فى السجن ، صغارا وكبارا ، ولا يتهم الحكومة أو الرئيس ، كأن هؤلاء الناس يديرون السجن لحسابهم ، فى جزيرة من جزر المحيط . . ولا علاقة لهم بالإدارة أو النظام أو فلسفة الحكم . .

يقول : إن الأيام والتاريخ أثبتت أن عناصر فى قمة السلطة كزكريا محيى الدين وعبد اللطيف البغدادى اشتركت فى وضع الخطوط العامة لتعذيب الشيوعيين يساعدهم فى ذلك بعض المستشارين من رجال المخابرات الأمريكية : مثل مايلز كوبلاند الذى عمل فى فترة من هذه السنوات مستشارا لزكريا محيى الدين للأمن الداخلى ومحاربة الفكر اليسارى . حقيقة أن آخرين كعبد الحميد السراج تقدموا بخبراتهم وحقدهم ودفعوا عملية الانتقام . . إلا أنه فى النهاية . . من هو المنفذ الأول ، والذى أوكل إليه تعذيب وتصفية الشيوعيين ، وترك له رسم الأسلوب وأحكام التفصيلات؟ اللواء حسن المصيلحى ولا أحد غيره .

وزكريا محيى الدين فى الكتاب هو المعادى للديموقراطية والاشتراكية والموالى للغرب والأسلوب الأمريكى فى الحياة . . وهو الذى جعل مشكلة مصر هى الوجود السوفيتى وليس الاحتلال الإسرائيلى!

وكان إلهام سيف النصر ومحمود أمين العالم قد أبلغا عن مؤامرة لقلب نظام حكم عبد الناصر ، وتلقى الحزب الشيوعى خطاب شكر من عبد الناصر .

ثم ألقى القبض عليهما بتهمة قلب نظام الحكم!

ويندهش المؤلف قائلا : كيف يتهم الحليف حليفه بالتآمر عليه؟!

ومن مظاهر السخرية بهؤلاء الزعماء أنهم كانوا يوزعون عليهم فى السجن بدلا قصيرة للطويل ، وطويلة للقصير ، وضيقة للبدين ، وواسعة للنحيل - ليكونوا مسخرة . . وكانوا يطلبون إليهم نقل روث البهائم

بأصابعهم ، سمادا للأرض المزروعة . . ويطلبون إليهم نقل مياه الأمطار فى فنجان - ليظلوا يفعلون ذلك طوال اليوم . . ويطلبون إلى إسماعيل صبرى عبد الله أن يقول : أنا «مره» أى امرأة!

وكان يرفض .

يقول المؤلف : رغم أن إسماعيل صبرى عبد الله لايرى فارقا بين الرجل والمرأة .

ولكنه يرفض المعنى الذى أرادوه وهو إهانته وإذلاله . .

بينما شهدى عطية ظل يقول أنه امرأة حتى فقد النطق . .

أما أقصى درجات العذاب التى رفضها كل هؤلاء الضحايا فهو أن يرددوا أغنية أم كلثوم التى كانت تشدو بها بعد نجاة عبد الناصر من حادث الاعتداء عليه فى المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ .

الأغنية تقول وهم لا يقولون :

ياجمال يامثال الوطنية . . أجمل أعيادنا الوطنية . . بنجاتك يوم المنشية . .

ويسخر المؤلف من الشيخ الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين فقد أجبروه بالتعذيب على أن يغنى : ياجمال يامثال الوطنية .

وفى هذا الكتاب صفحات أدبية فلسفية عن العذاب والهوان وكيف : يتحول الإنسان إلى «لا - إنسان» . . آلة ؛ لا يشعر ولا ينفعل ولا يتألم . . لقد جردوه من إنسانيته . . فكان ذلك إنقاذا له من العذاب . .

ويقارن المؤلف بين كل سفاحى السجون فى معسكرات الاعتقال النازية . . ويرى أن هؤلاء السفاحين جبناء فى الحرب من أمثال : شمس بدران وصلاح نصر وحسن عليش وأحمد صالح وحسن طلعت .

والمؤلف يشيد ببطولة الشيوعيين عموما . فهم يرفضون العذاب من أجل قضية . ولا يتهمون عبد الناصر لا بأنه يعلم ويسكت ، ولا بأنه لا يعلم . ولكنهم يتهمون كل إنسان ابتداء من الحارس على الباب إلى مدير السجن ووزير الداخلية ورجال المخابرات .

مرة واحدة أشار فيها إلى «السيد» - هذه الأقواس من عندى أنا - ويقصد بها الرئيس عبد الناصر . .

وفى الكتاب لمحات فلسفية سياسية . . مثلا يقول : إن القاعدة فى التعامل مع الناس : اكسب خصمك وإلا فتحييده ، وإذا لم تتمكن ، فامض فى المحاولة . وكل إنسان له نقطة خير - أو نقطة ضعف أو بؤرة حقد - يجب أن نبحث عنها . .

وهو على استعداد تام لأن يقبل أى عذر للرئيس عبد الناصر . تماما كما يقول أهل العراق على أيام الحجاج بن يوسف الثقفى السفاح المعروف : ولكنه مسلم!

أو كما قال الكاثوليك فى القرن الخامس عشر عن القسيس السفاح نوركيمادا الذى أدار محاكم التفتيش ضد المسيحيين والمسلمين واليهود : ولكنه مسيحى!

وقد أعجب الملك فرديناند وزوجته إيزابلا بهذا القسيس السفاح ، وحتى عندما ذهب نوركيمادا إلى الدير كان يدير محاكم التفتيش لإعدام وتعذيب المخالفين له فى الرأى : فى الدين والسياسة!

وليس غريبا أن نجد شيوعيا مشهورا قد أعجبه من جمال عبد الناصر : ابتسامته . فقال عبارته الخالدة : ولكن له ابتسامة ساحرة!

وبذلك أضاف - بكل تواضع - الابتسامة الثالثة فى التاريخ : ابتسامة السيدة موناليزا التى رسمها دافنشى . وقيل : إن ابتسامتها الساحرة بسبب الفرق الموسيقية التى كانت تعزف حولها أثناء تصويرها . . وقيل لأنها حامل . . وقيل لأن أحدا لا يعرف . .

أما الابتسامة الثانية فهى للفيلسوف الساخر فولتير . وقد وصفها أديب فرنسا العظيم هيجو فى محاضرته الشهيرة بباريس يوم ٣٠ مايو سنة ١٨٧٨ بمناسبة مرور مائة عام على وفاة فولتير . يقول هيجو : هذه الابتسامة حكمة . هذه الابتسامة هى فولتير . هذه الابتسامة هى ضحكة . ولكن الحزن يسكتها . هذه الابتسامة سخرية بالقوى ، ولمسة للضعيف . هذه الابتسامة تكشيرة للظالم ، لمسة حنان للمظلوم . هذه الابتسامة قد أضافت الصدق والعدل والخير وكل ماله قيمة وفائدة فى هذه الدنيا . . إلخ .



(٢)

كنا نجلس فى فندق شيراتون عندما قال لى الزميل حسن دوح : تعرف وحق كتاب الله : إن بلدنا أجمل مكان فى العالم . .

ولم أصدق أنه يعنى كل كلمة يقولها . . فقلت طبعًا من الناحية الأخلاقية . .

فعاد يقول : ومن الناحية الجمالية أيضا . . إنها قريتنا أجمل مكان فى هذا العالم .

قلت : وأجمل من شيراتون؟

قال : نعم!

قلت : ومن بيروت هذه؟

قال : نعم!

ولابد أن رجلا أقام فى السجن عشرين عاما فى سبيل الله صادق تماما عندما يقسم بكتاب الله أن بلده طفنيس مركز إسنا بمحافظة قنا هى أجمل مكان فى هذه الدنيا

حتى أهدانى كتابا بعنوان «٢٥ عاما فى جماعة مرورا بالغابة» وقد صدر سنة ١٩٨٣ . وجاء فى الإهداء لى : أخى الحبيب السلام عليكم ورحمة الله . هذا الكتيب لايعدل كلمة مما كتبت . بارك الله فى قلمك وجعله نورا يستضاء به . وسلاحا يقهر أعداء الوطن والدين والحرية . أكرر شكرى لما كتبت . جزاك الله عنا خير الجزاء .

وفى أول سطر فى الكتاب يقول حسن دوح : قرية صغيرة ترقد على الجانب الغربى للنيل اسمها طفنيس . . هذه القرية لاتزال تحكمنى إلى اليوم فى كثير من تصرفاتى . وحكمها لا أرفضه دائما ولا أقبله . . علمتنى أشياء افتقدتها فى أكبر المؤسسات العلمية . . علمتنى السماحة والسهولة والصدق وقدسية الكلمة والحفاظ على العرض . .

علمتنى الديمقراطية لكن هل عملت بما علمت . . أقول : «أننى أحاول» .

إنه واحد من الإخوان المسلمين ، من المؤمنين ومن دعاتها . .

يتحدث عن أول معارك الإخوان : فهم تمكنوا من حصار الفالوجة وعملوا الأهوال لإنقاذ القوة المصرية التى أحكم اليهود حولها الحصار . ومن عجب المقادير أن قوة الإخوان بقيادة معروف الحضرى هى التى عملت على إنقاذ القوة التى كان من بينها جمال عبد الناصر ، والذى لقيت ولقى معروف الحضرى على يديه الويل والعذاب . .

ويقول : من أروع مواقف الإخوان المسلمين فى فلسطين أنهم حاولوا إنقاذ فلول جيشنا الذى منى بهزيمة منكرة عند الفالوجة : وفجأة تقدم ثلاثة جنود ، ومنهم ضابط لايحمل رتبته .

وقال الضابط : وهو يرفع يديه مستسلما ويقدم لى مسدسه : مستسلم . فقال له حسن دوح : لمن؟

قال لكم . . ففهم من الرجل أنه تصور أن حسن دوح وزملاءه من اليهود . فقال له : نحن مصريون .

وقال الضابط : لا تسخروا منا . . أنتم يهود .

ولما سألهم عن سبب استسلامهم فقال إنهم لم يذوقوا الطعام ثلاثة أيام وأن ذخيرتهم قد نفذت . .

ويقول حسن دوح : إن حرب أكتوبر تشهد بشجاعة وثبات وصبر الجندى المصرى ؛ لأن الجندى كان قد أولى ثقته لقيادته . . وعلى العكس من ذلك فإن حرب يونيو سنة ١٩٦٧ تعكس نفسية الجندى المصرى الذى لم يلمس الأمانة والصدق فى قيادته .

ويقول حسن دوح : كنت آمل أن تتضامن الثورة مع الإخوان ، وخاصة فى حربنا ضد الإنجليز . ولكن الأيام خيبت ظنى . فلم يلتزم رجال الثورة بالخط الإسلامى ، ووقع صدام مروع بين جمال عبد الناصر والإخوان لم ينته إلا بموته . . وعبد الناصر لم يكن يقبل المشاركة فى السلطة . ولا يقبل الرأى المعارض . . فكان يؤمن بنفسه وبفكره فقط . . ولذلك فإنه صادم جميع الأحزاب السياسية ، وصادم الإخوان ، وصادم جميع رجال الثورة ، فلم يبق على واحد منهم إلى جواره . . فهو حمل الأمة على دخول حرب سنة ١٩٥٦ ، ومنينا بهزيمة قلبها إلى نصر ، ثم هو الذى حمل الأمة لتحارب فى اليمن ، ثم هو الذى خلق هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وهو الذى حالف الإنجليز سنة ١٩٥٦ ، ثم هو الذى هادن أمريكا إلى أن ظهرت قضية بناء السد العالى ، ثم غير اتجاهه إلى الاتحاد السوفيتى وحالفه ، ومكن جيوشه وخبراءه وأعوانه من الشعب والجيش . .

أما كيف يؤرخ حسن دوح لعهد الرئيس عبد الناصر ، فيرى أن أول شىء يضعه أمام المؤرخين : السجن الحربى .

وفى داخل السجن التقى بالشيوعيين يقول : لقد سمعنا من الشيوعيين الذين رافقونا قولهم إنهم يتعاونون مع جمال عبد الناصر كمرحلة للوصول إلى الحكم . كانت خطتهم تستهدف تصفية خصومهم بيد جمال عبد الناصر ، ثم القضاء عليه هو بعد ذلك .

ويروى حسن دوح كل أساليب التعذيب التى ذكرها الكاتب الشيوعى إلهام سيف النصر ، ولكن حسن دوح رجل عفيف اللسان ولايذكر من الأحداث البشعة إلا ماراه هو ، ويسكت عن الذى سمعه مع أنه صحيح .

ويحكى حسن دوح : إنهم فرضوا على شاب أن يضرب أباه بالعصا . فإذا تردد انهالوا عليه ضربا . فإذا ضرب أباه ولم يكن موجعا . . ضربوه هو . . فكان الأب يتوسل لابنه أن يضربه هو بعنف ، حتى لا يضربوا ابنه؟!

وكانوا يضعون حجرا على صدر أحد الإخوان ويطلبون منه ساخرين به أن يردد ما كان يقوله بلال مؤذن الرسول : أحد . . أحد!

يقول عن نكسة ١٩٦٧ : «إن الكثير منا قد شمت فى عبد الناصر الذى كان يستمتع بسجننا وتعذيبنا وتمنينا له الزوال . . إلا أننى كنت أغالب عاطفتى وأحاول أن أتصور عبد الناصر وقد هداه الله ، وأنه سوف يثوب إلى رشده عندما يحاول أن يدرس السبب الحقيقى لهزيمة سنة ٦٧ والهزائم التى سبقتها فى اليمن وسوريا . ولكن عبد الناصر لم يتغير ؛ لأنه يؤمن بعبد الناصر . . وقد ألقى تهمة الهزيمة على أقرب أعوانه وهو عبد الحكيم عامر وأنصاره وتنصل من أكبر وأخطر جريمة يرتكبها حاكم فى حق أمته . .»

ويتحدث حسن دوح عن الحادث المسرحى للاعتداء على جمال عبد الناصر فى المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ :

هل مجرد الشروع فى قتل إنسان يستدعى أشد ألوان العذاب على خمسين ألفا من الإخوان المسلمين . . وقد سخر عبد الناصر كافة وسائل الإعلام من رجال الجيش والبوليس . . حتى المغنين والمغنيات سخرهم فى هذه المعركة ضد الإخوان . فغنت أم كلثوم قصيدة كتبت لها . . واستعملت هذه الأغنية لإثارة الغضب على الإخوان . . وكانوا يرغمونهم فى داخل السجون على ترديدها مع السياط فى السجن الحربى صباح مساء .

واختار السفاح حمزة البسيونى مؤلف هذا الكتاب ليقود الأوركسترا واختار الهضيبى ومنير الدلة وعددا من الإخوان لترديد الأغنية : ياجمال يامثال الوطنية أجمل أعيادنا القومية . . بنجاتك يوم المنشية . .

ورغم العذاب الذى لا ينتهى ليلا أو نهارا . فإنهم كالشيوعيين ، كانوا يفلتون من اليأس بالنكتة والسخرية من أنفسهم . .

وإن كان الشيوعيون أكثر مرحا وسخرية ؛ لأنهم أكثر تقبلا لكل ما أصابهم فى السجن . . ومما كتبه الإخوان عن حسن دوح والسخرية به ومن قريته طفنيس هذه قالوا :

طفنيس يا ست القرى	**يا وردة بين الورى**
هذا فتاك قادم	**للتوعيات قد انبرى**
حق الحلاوة جاهز	**إن قال قولا منكرا**
والاهلا هلا حاضر	**إن قال قولا نيرا**

وتفسير ذلك : الحلاوة هى الحلاوة الطحينية : الاهلا هلا . . أى الضرب . .

ثم يعود حسن دوح يفسر التفسير بقوله : إن زملاءه سوف يهدوننى علبة من الحلاوة إذا وفقت فى حديثى إلى أهلى ، أما اذا لم أوافق فسوف يضربنى رجال المباحث العامة!

وينهى الكتاب «ببرنامج للعمل الثورى الإسلامى : فالمشوار لم ولن ينتهى ، وهو على الرغم من صعوبته إلا أن الماضين على طريقه يستشعرون عظمته فى الدنيا ويطمعون فى ثواب الله يوم لقائه» . .

***

(٣)



أما كتاب الزميل محمد الحيوان «قصة الديون السوفيتية على مصر» الذى صدر سنة ١٩٨٧ ، فيمكنك أن تقرأه فى جلسة واحدة . فهو سريع واضح وممتع حقا . ومن الممكن أن يكون مقدمة من ألف صفحة لو أراد المؤلف .

يقول محمد الحيوان فى المقدمة : ماذا أخذنا من الاتحاد السوفيتى؟ ولأى غرض؟ وبأى سعر؟ ماذا قدمنا للاتحاد السوفيتى من خدمات ، ولم نحاسبه عليها؟ إن مراجعة بسيطة لذلك كله ، ستكشف لنا أن مصر دفعت للاتحاد السوفيتى أكثر مما قدم لنا ، وأن لنا الحق فى أن نطالبه بإسقاط ما علينا من ديون وأن نطالبه بالفرق . . وليست هذه مبالغة ، ولكن اتبعنى صفحة صفحة فى هذا الكتاب ، وسأحاول بقدر ما يمكن أن نقدم الدليل على ما نقوله . . وإن كانت الأدلة الأقوى ما زالت فى يد الدولة وما زالت الدولة حريصة على ألا تكشف كل أسرار الاتحاد السوفيتى . لماذا؟ – الإجابة أيضا عند الدولة» .

لقد استفاد الاتحاد السوفيتى كثيرا خلال حكم عبد الناصر . . كان السفير السوفيتى هو المندوب السامى . . يتحكم فى قرارات مجلس الوزراء . يختار الوزراء .

يقول مدكور أبو العز : إن السوفيت سألوا عبد المنعم رياض أثناء زيارته لموسكو : لماذا تأخر تعيين اللواء على بغدادى قائدا للطيران . .

لقد تحولت مرافق مصر لخدمة السوفيت . . تحولت مصر إلى مركز لنشر الشيوعية فى العالم العربى وإفريقيا .

قال حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة الثورة : إن عبد الناصر ماركسى يطبق الشيوعية تماما .

قال كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة : إن عبد الناصر أراد أن يكون إمبراطورا للعرب ، ولذلك تحالف مع السوفيت . ووضع نفسه فى خدمة الاستعمار السوفيتى فى المنطقة .

قال حسن التهامى : عبد الناصر وخالد محيى الدين شيوعيان . .

كتب محمد حسنين هيكل : إن عبد الناصر لم يكن مؤمنا .

وسجل حوارا بينه وبين عبد الناصر فى ساعاته الأخيرة فى فندق هيلتون ، وخلال هذا الحديث كان عبد الناصر يشك فى يوم القيامة!

وقد نشرت مجلة «صباح الخير» تحقيقا عن حوار بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قال فيه عبد الحكيم عامر أكثر من مرة أن عبد الناصر غير مؤمن .

ومما قاله عبد الناصر : احنا ضعفاء فى وسط العالم وعايزين قوة أكبر منا ننتمى إليها ، وأن الواحد لا يحقق كل ما يتمناه فى الدنيا ، ولذلك يتخيل أن هناك دنيا أخرى . .

حسن عشماوى قال : عبد الناصر كان عضوا فى خلية شيوعية واسمه الحركى موريس .

المهندس أحمد عبده الشرباصى قال : إن عبد الناصر عاتب كاسترو على إعلانه الشيوعية بسرعة . . وقال : إننى أطبق الشيوعية فى مصر بلا إعلان .

وقال الشرباصى : إن عبد الناصر لم يؤم الأرض حتى لايصدم الرأى العام الإسلامى ، ولكنه أمم الفلاح والمحصول .

وكان الاتحاد الاشتراكى تطبيقا شيوعيا لنظام الحزب الواحد وكانت منظمة الشباب معملا لتفريخ الشيوعيين .

قال عبد القادر عيد مدير مكتب المشير عامر : إن القرارات الاشتراكية صدرت بعد إنذار سوفيتى .

يقول محمد الحيوان : صدر الميثاق بصورة ماركسية تماما . وكان يزعم أن الأديان مجرد ثورات . . وعندما تمت مناقشته وطلب المؤتمر القومى تعديله ، وافق عبد الناصر على أن تكون مذكرة التعديل منفصلة عن الميثاق نفسه وعندما تراجع عنها واعتذر لكمال حسين بأنه وافق ؛ لأنه كان «مزقوقا»!

حسين الشافعى يحكى قصة الخلاف بين عبد الناصر مع على صبرى قال : إن عبد الناصر تلقى تقريرا من سفيرنا فى موسكو بأن على صبرى اتفق مع السوفيت على خلافة عبد الناصر . . وعلى أن تعليمات السوفيت تصله هو شخصيّا ؛ لأن عبد الناصر قد أسقطوه من حسابهم . .

أما عن حرب اليمن فيقول المؤلف استمرت حرب اليمن ١٨٠٠ يوم . . وخسارة مصر مليون جنيه يوميا ؛ أى ٣٦٠٠ مليون جنيه . . الشهداء خمسون ألفا ، وحساب الأرصدة الذهبية التى أخذت من مصر لتوضع بين يدى زعماء قبائل اليمن ، تمثل حسابا رهيبا . .

استطاع الاتحاد السوفيتى أن يسيطر على كل مرافق مصر . . وبقى الجيش وحده ضد الشيوعية ، ولذلك كان لابد من مؤامرة ضد الجيش

وضد عبد الحكيم عامر . السوفيت يعترفون بذلك . ثلاثة منهم أصدروا كتابا عن حرب ٦٧ عرضوه فى مصر بسعر ١٥ قرشا . وبعد عرضه ، اكتشفوا أنهم فضحوا أنفسهم فسحبوه .

«الكتاب يقول : إن حرب ٦٧ كانت للتخلص من عبد الحكيم عامر ورجاله ؛ لأنهم يقفون ضد النفوذ الشيوعى فى مصر» .

ويقول محمد الحيوان : مصر تحتفل بالمولد النبوى يوما واحدا ، والمسيح يوما واحد ، ولكن مصر احتفلت لمدة شهر كامل بمرور مائة سنة على مولد الزعيم لينين . لم تكن مصر هى التى أقامت الاحتفالات ، ولكن الأجهزة المسئولة . . والشعب لم يشارك فى هذه الاحتفالات ولا حتى الاستماع والمشاهدة . . وهناك دليل على ذلك هو أن الكتب التى وزعت عن لينين فى هذه المناسبة لم تمتد إليها يد مشترية - لقد بيعت ١٦ نسخة!

أما علاقة السوفيت بشارع الشواربى فقد حدث عندما قرر الاتحاد السوفيتى محاربة أنور السادات بعد طرد الخبراء السوفيت ، وذلك بتوزيع الأموال على العملاء ، فقد استورد السوفيت كميات ضخمة من البضائع من بيروت فى صناديق مغلقة على أنها حقائب دبلوماسية لايجوز تفتيشها وكان أعضاء السفارة يذهبون بالبضائع لبيعها فى شارع الشواربى والحصول على الأموال الضرورية للتآمر على أنور السادات . .

وكشفت أجهزة الأمن هذا العدد الهائل من الصناديق!

وهاجمت الصناديق الموجودة فى مطار القاهرة وجدت بها الساعات والخرز والترتر!

ثم ضبطوا كميات من الذهب مهربة من مصر مع الخبراء السوفيت!

والشيوعيون يقارنون بين رأس الإمام الحسين وبين رأس لينين ويقولون رأس الثانى أفضل ؛ لأن هذا الرأس قد حقق الثورة الشيوعية .

ويختم الأستاذ محمد الحيوان كتابه الممتع ، الذى يدوخك بالمعلومات والأحداث الكثيرة المروعة : أخيرا . هل يقبل الاتحاد السوفيتى أن يدفع ثمنا لكل جرائمه فى مصر؟ حتى وصل الحال بنا إلى تشكيل جيش سرى للاغتيالات

بقيادة كمال رفعت ، مهمته اغتيال كل من يعارض السيطرة الشيوعية فى مصر ، وباسم الولاء لعبد الناصر . فهل يجوز أن يستفيد المجرم من جريمته .

***

(٤)

وأخيرا : ولماذا الآن؟

كان من الأفضل أن يكون «تقييم» الرئيس جمال عبد الناصر بعد مائة عام . . عندما يكون المؤرخ أكثر حرية ، وعندما تكون الأحداث أكثر وضوحا . ولذلك يرى المؤرخون أن أحسن ما كتب عن الثورة الفرنسية هو الذى جاء على أقلام الكتاب فى القرن التاسع عشر . .

والذين هاجموا عبد الناصر أيام السادات ، كالذين هاجموا السادات أيام حسنى مبارك : منافقون . . يريدون أن يؤكدوا للحاكم أنه هو الأفضل . . وأنهم انتظروه حتى جاء . فلما جاء ، انكشف الغطاء وسقطت القيود؟!

ثم يصدق على كل من حاول أن ينتقد عبد الناصر همسا أو رمزا أو لمزا ما قاله الأستاذ محمد أحمد النعمان أحد زعماء اليمن عندما طلب إليه يوسف السباعى فى مؤتمر الأدباء ببلودان أن يكف عن مهاجمة الإمام أحمد فقال عبارته الخالدة :

هناك نوعان من الأدب فى اليمن : أدب فى مدح الإمام ، وأدب فى رجاء عفوه!

ولم يكن مدح عبد الناصر مسموحا به ، ولا رجاء عفوه مسموعا له!

وقيل : الضرب فى الميت حرام واذكروا محاسن موتاكم .

وأذكر هنا ما قاله الأستاذ عباس العقاد فى محاضرة له فى الجامعة الأمريكية فى ذكرى أمير الشعراء أحمد شوقى فقد استأنف العقاد الهجوم على شوقى . فقيل له : ولكن الرجل مات .

فقال العقاد : إن رأيى فى الرجل أفضل من رأيكم ، أنتم ترونه قد مات ، وأنا أراه مازال حيا!

فأى الناس يكتب التاريخ العسكرى والسياسى والاجتماعى والدينى للرئيس جمال عبد الناصر .

ليس هؤلاء الجنرالات الجالسين القرفصاء الذين يتوهمون معارك وبطولات ونكبات ، ويخترعون الأحداث واستحضار أرواح الموتى فكانت الحرب من صنعهم ، والهزائم والانتصارات من خيالاتهم . . إنهم يشبهون أبطال قصة «الضحية ترابس» التى كتبها الأديب السويسرى ديرنمات ؛ يحكى أن عددا من القضاة أحيلوا إلى المعاش فأقاموا فى فيلا لصديق لهم وراحوا يأكلون ويشربون ويتذاكرون قضاياهم وأشهر أحكامهم ومرافعاتهم ويتناوبون دور القاضى ووكيل النيابة والمحامى - قضاء على الملل واستدراكا للمتع التى فاتتهم .

وفى يوم تعطلت إحدى السيارات وجاء صاحب السيارة يطلب مساعدتهم . وهنا أحس القضاة أن الزمن قد أهداهم متهما نادرا وأطلعوه على سرهم . ودخل الرجل «ترابس» البرىء فى لعبة القضاة المحترفين المتمرسين وكشفوا بالحديث معه واستدراجه إلى أن يروى قصة حياته ويعترف بأنه ساعد على ارتكاب جريمة قتل أحد خصومه فى التجارة - وأدانته المحكمة رغم المرافعات البارعة . . ثم نفذت فيه حكم الإعدام؟!

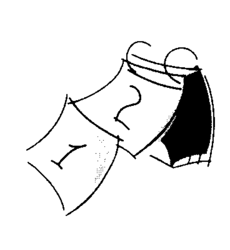
***

وفى سنة ١٩٦٧ اختفى من المسرح العالمى كثير . . ولكن بقيت آثارهم ، مات الزعماء : إديناور وجيفارا . . والأدباء : ساندبرج ومانسفيلد وموروا وأبو القنبلة الذرية أو بنهايمر وانتحرت الزه كوخ سفاحة المعسكرات النازية التى تذكرها إلهام سيف النصر عندما تحدث عن السفاح المصيلحى . . ثم اختفى الرئيس جمال عبد الناصر . لتحكم حاشيته مصر حتى جنازته سنة ١٩٧٠ .

وهكذا انتهى بسرعة «منطوق الحكم» فى قضية جمال عبد الناصر . . أما حيثيات الحكم فتلى فى مقام آخر!


وكم شهيد في اليمن ؟!
وكم سبيكة ذهبية ؟!

وكم شهيد فى اليمن؟!
وكم سبيكة ذهبية؟!



منذ ثلاثين عامًا جاء إلى القاهرة الأديب الكبير سومرست موم . ساعدتنى سكرتيرته الجميلة أن أراه - كانت أسئلتى غير جميلة . أول سؤال : كيف تعمل لحساب المخابرات وأنت الكاتب العظيم؟

هل هذه الرعشة فى يديه وفى شفتيه ولسانه غضب مكتوم؟ هل هى حيرة بين أن يجيب وبين أن يطردنى؟ لقد كان مريضًا نصف مشلول وكنت صغيرًا . . هو الكبير جدّا . نظر إلى سكرتيرته أن تخرج . قال : لو حدث بركان فى مكان ما من العالم ، وأرادت حكومتك أن تبعث أحدًا . فهل تبعث بمحام أو رجل جيولوجى . . هل لو انتشر وباء فهل تبعثون بطبيب أو برجل بترول . . إذا أرادت حكومتك أن تعرف الرأى العام ، أليس من المعقول أن تبعث أديبًا أو مفكرًا؟!

(١)

تذكرت هذا المنطق عندما تلقينا دعوة من المشير عبد الحكيم عامر لزيارة اليمن . الدعوة تسلمناها من المخابرات . وكان وفد الأدباء من يوسف السباعى وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل - يرحمهم الله - ومن د . مهدى علام ونجيب محفوظ وأنا . ولم تكن لدينا أية معلومات عن اليمن ، ولا عن القوات المصرية فى اليمن ، كلها معلومات خاطفة . بدأت أسأل وأقرأ .

قالوا : إذا ذهبت فلا تأكل ولا تشرب ؛ فالأمراض كلها فى اليمن : فى الماء . . فى الهواء . . ولولا نبات القات على شعب اليمن ، لمات من ألوف السنين ، فنبات القات الذى يمضغونه ويستحلبونه يسد النفس ويفتح العين فلا تعرف النوم ، وتجعلهم فى حالة وسط بين القلق والأرق . . وهو الذى يقضى على حيوية الرجال فى سن مبكرة . . وأشهر الأمراض تجىء من الطفيليات فى الماء . . وخاصة «دودة مدينا» أو «الدودة التنين» ، وهى تتسلل إلى الجسم الإنسانى عن طريق الماء ويصبح طولها مترا ومترا ونصف . وكلها من الإناث أما الذكور فضئيلة جدًا ، وتموت مباشرة بعد اللقاح . . وإذا دخلت هذه الدودة الجسم استقرت فى الأمعاء . . وتتسرب فى الدم ، حتى تنتقل إلى الخلايا «الضامة» فى الجسم ويقال تخرج من تحت الأظافر ، فإذا قطعتها عادت وخرجت مرة أخرى . . وهكذا أما القوات المصرية فمنتصرة . وقد ذهبت إلى تأمين النظام الجمهورى ضد حكم الأئمة الفاسد . . ومن أجل ذلك تهون كل التضحيات المصرية . . وقيل تضحيات تافهة من الممكن أن تقع فى أية مظاهرة من الطلبة والعمال . واليمن امتداد للثورة المصرية وتهديد لكل الدول القبلية على حدود اليمن .

ذهبت فورا إلى الزميلة د . نوال السعداوى وكانت مديرة لمكتب وزير الصحة : ساعدينى!

- كارثة؟!

- أريد إسعافات أولية لكل الأمراض التى سوف تصادفنى فى اليمن .

وأعطتنى صندوقًا يضم كل ماهو ضرورى من حبوب وأقراص ومساحيق وصبغة يود وليزول وحقن . ومعها ورقة طويلة عريضة لدواعى الاستعمال . وكيف . واحتفظت بنسخة فى جيبى . أعطيت يوسف السباعى نسخة إذا أراد أن يستعمل «الصندوق السحرى» فى غيابى . وكان السفر من السويس فى إحدى السفن المصرية التى تنقل الجنود ذهابًا وإيابًا ، واصطدمت بالباب الحديد لغرفتى ، وسال دمى ، وانطلقت إلى الصندوق السحرى . لقد نسيت د . نوال السعداوى أن تكتب ما الذى يمكن عمله فى حالة الجروح - مثل هذه الجروح . وانطلقت إلى القبطان عادل . . وبسرعة التفت حوله وضرب يده على جبهتى . لقد سد الجروح بالبن . وكان ذلك إعلانا بعدم جدوى الصندوق السحرى وأى دواء آخر .

قلت : ما معنى هذا؟

قال : معناه (وأشار إلى البحر) ألق بالصندوق فى البحر الأحمر ، فلن نحتاج إليه . . فهناك من الأمراض ما يحتاج إلى مائة صندوق كهذا .

وتركت الصندوق السحرى فى الباخرة .

وفى سوق «الحديدة» وجدنا الناس بملابسهم التى عرفناها أيام العصر المملوكى فى مصر . العمامة والأحزمة العريضة والخناجر . . والسوق لبيع نبات القات . . أهم ما يتعاطاه أهل اليمن . والوجوه صفراء والأجسام نحيفة ومعلوماتنا قشور . ولم نعرف إن كان الذى نراه أمامنا يبعث على الخوف أو الضيق . . أو كانت محاولة الحديث أو التفاهم أو التقارب لها أى معنى . . من المؤكد أن أحدا لم ينظر إلينا ، ولم يبادلونا هذه الدهشة .

والطريق من الحديدة إلى صنعاء ناعم ، رصفته حكومة الصين الشعبية . أما صنعاء فمرتفعة . وكل شىء فيها قديم . . وظهرت القوات المصرية . ولم نسمع طلقة واحدة . فأين مكان الحرب . . وللمصريين فى ذلك نكت - نكتة واحدة من اختراعى . . وانتشرت ، وعندما عدت إلى القاهرة بادرت بالاعتراف بها قبل أن تستفحل ويضيف إليها المصريون أبعادا سياسية أو يجعلونها خاصة بالزعيم جمال عبد الناصر!

إذن يجب ألا نشرب الماء وإنما نشرب المياه الغازية المتوافرة فى زجاجات وعلب . لا طعام وإنما بسكو مصر والجبنة . لا استحمام وإنما استخدام القطن المبلل بالكولونيا . وعندما كان المشير السلال يدعونا إلى غداء أو عشاء ، كان بعضنا يتظاهر بالمرض حتى لا يأكل : أسوأ طعام فى أفخر الآنية : الأطباق ماركة ليموج والملاعق والشوك ماركة كريستوفل والأكواب ماركة باركارا . .

جلس المرحوم صالح جودت إلى جوار المشير السلال وقال له : نريد بعض هذه الأطباق والشوك والسكاكين وخصوصًا الأكواب تذكارًا لهذه الزيارة!

ولم يفهم السلال النكتة . ولم يعلق بشىء . وذهبنا إلى قصر الإمام أحمد . . وتجولنا بين مخلفات القصر . . ووجدت نسخة من «رباعيات الخيام» نشرها صاحب المطاعم الأمريكى الأرمنى تاريان . أهدى نسخة منها إلى الإمام أحمد . النسخة

رقم ١٤ . . والقصر منهوب . لم يتركوا فيه إلا ملابس السيدات ، ولعب الأطفال والصناديق والدواليب .

وكان لابد أن نعود إلى مصر بعد أن جئنا . ورأينا . وفهمنا . ولابد أن نعود لنساعد الدولة على فهم الأوضاع فى اليمن ؛ فهذا واجب الأديب إلى جوار صاحب القرار . وكانت سعادتنا بالعودة بلا مرض . وسعادتنا بحمامات المياه وحلاقة اللحية . والجلوس على ظهر الباخرة نأكل الديوك الرومية وصوانى البطاطس والمكرونة والحلويات والفاكهة من كل نوع ، والأحاديث والنكت الأدبية والمطارحات الشعرية بين صالح جودت ومحمود حسن إسماعيل عندما لمحنا أن تحت عيوننا يوجد عدد من الجنود والضباط العائدين . . يغسلون ملابسهم ويعلقونها ويأكلون ما لا نأكل ويشربون ما لا نشرب . . والإرهاق واضح على الوجوه والعيون ، لديهم ما لا نعرف من الأسرار . . ودعوناهم ليشاركونا الطعام الفاخر والحديث .

وكانت أول صدمة لنا فقد تقدَّم ضابط شاب اسمه النقيب محمد فريد حجاج - لواء الآن . وشرح لنا الأوضاع السياسية والعسكرية فى اليمن واحتمالات النجاح والفشل . وكانت لديه قدرة هائلة على سرد التاريخ وتحليل الأحداث . لقد ضربنا على أدمغتنا وجعلنا نفيق من النشوة الكاذبة .

يانهار أسود ومنيل : قلناها جميعا فى نفس واحد!

إن هذا الضابط قد فضحنا أمام أنفسنا : فلا عندنا معلومات ذهابًا وإيابًا ، ولا نحن قادرون على أن نقول شيئا أو ننصح بشىء ؛ فالصورة عنده غير الصورة عندنا . وهو ضابط حارب ومارس ورأى وسمع وقاتل وقتل .

وهى حرب غير متكافئة من جميع النواحى : جيش نظامى يحارب العصابات التى لديها أسلحة وعندها الكهوف والجبال . وعندها الدراية الكاملة ببلادها ودروبها وكهوفها وجبالها . ثم إن الجندى اليمنى يستطيع أن يعيش أيامًا على حفنة بلح . وكل الجنود المصريين الذين قتلوا تكون إصاباتهم فى منتصف الرأس - الجندى اليمنى لا يخطئ . بل إن الطيارين الذين أسقطهم القناصة اليمنيون أصابوهم فى منتصف الرأس . فالواحد منهم يضع البندقية بين أصابع قدميه . ثم يطلق النار فلا يخطئ .

وفى مدرسة الرهائن فى مدينة صنعاء رأينا الأطفال يصيبون الأهداف وقد عصبوا أعينهم؟!

وسمعنا أن القبائل التى تعلن أنها «جمهرت» مساء ؛ أى انضمت للحكم الجمهورى الجديد ، تعود إلى الوقوف ضد السلال ومصر .

أما الفلوس التى تدفعها مصر لشيوخ القبائل فهى ليست بالجنيهات المصرية ولا بالدولارات ، فالقبائل لا يعرفون الورق - لايعرفون إلا «الظلط» والظلط معناه الفلوس . والفلوس اليمنية ريالات من الفضة . الريال عليه صورة الإمبراطورة النمساوية ماريا تريزة . ونسبة الفضة فى الريال ٢٨ قمحة ، أما الباقى فمن النحاس - الفضة تجعله لامعا ، والنحاس يجعله صلبا ، وهم يحملون فلوسهم فى جوالات ، والبنوك يعطون الفلوس للعملاء على صينية من البلاستيك أو النحاس ؛ لأن العملات ثقيلة جدًا ؛ ولذلك دفعنا مئات ملايين الجنيهات ذهبا - نعم ذهبًا - نقلناها من البنك الأهلى المصرى حتى أصبح الجنيه المصرى عاريا ملطا لا يساوى وزنه ورقا!

(ملحوظة : لا يعادل الذهب الذى دفعناه فى اليمن ، إلا مادفعناه قبل ذلك من الدولارات فى سوريا)!

وكنت قد عرفت من رجالات اليمن فى مؤتمر الأدباء فى بلودان الزعيم اليمنى أحمد النعمان ، رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية بعد ذلك ، ثم اللاجئ السياسى إلى السعودية ومصر . . وهو رجل خفيف الظل طويل اللسان . وإذا جلست إليه روى لى شعرا طويلا عن شاعر اسمه الزبيرى . وكنت أعتقد أن الزبيرى شاعر لا وجود له . وأنه هو الذى ينظم هذا الشعر . وفاجأنى بالشاعر الزبيرى . فهو حقيقة .

وهو من أعظم شعراء اليمن . وفى مؤتمر الأدباء فى بلودان كان الأستاذ النعمان شخصية لامعة مقلقة . فهو لايكف عن رواية شعر الزبيرى ، وعن مهاجمة الإمام أحمد - فلم تكن ثورة اليمن قد وقعت . وكان يوسف السباعى ينبه إلى عدم مهاجمة الإمام أحمد ، ولكنه كان يحتال على ذلك . وفى إحدى الليالى القمرية فى بلودان وقف النعمان يلقى قصائد للشاعر الزبيرى . وكانت كلها تبدأ هكذا :

مشانق علقت :

وكان يوسف السباعى يرجوه أن يكفَّ . فكان يرد عليه : ولكننا فى اليمن نبدأ كل شىء بالمشانق . . الأكل والشرب والنوم . . والإمام عندما يذهب للصلاة وعندما يفرغ منها .

وكان يقول : كان فى اليمن ستة من القراء ، قتل الإمام خمسة ولم يبق سواى . . إلخ .

وعندما أطلق الروس قمرًا به كلبة إلى الفضاء الخارجى فاجأنى الأستاذ النعمان فى ساعة مبكرة من الصباح : ياسيدى الصحف عناوينها الحمراء عن الروس الذين أطلقوا قمرًا به كلبة إلى الفضاء . . بينما لم أقرأ سطرًا واحدًا عن أن الإمام أحمد الذى أرسل ابنه «البدر» ومعه خمسة «خيول» إلى بريطانيا؟!

وكان سريع البديهة حاضر النكتة ، تسعفه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر . . وطال لسانه على الرئيس جمال عبد الناصر الذى يساند السلال الذى يرفضه الشعب اليمنى كله!

وفى يوم استدعاه الرئيس عبد الناصر . وقدَّم له الرئيس علبة من الشيكولاتة . وطلب إليه أن يفتح الشيكولاتة ويقرأ مافيها من بخت . وأخرج الأستاذ النعمان الورقة المكتوب عليها البخت وقدمها للرئيس . الورقة تقول : عدو عاقل خير من صديق جاهل!

وضحك الرئيس . ومد الرئيس يده واختار شيكولاتة وقرأ وضحك : اتق شر من أحسنت إليه!

وفجأة غاب الأستاذ النعمان فى السجن دون محاكمة . وبعد تسعة شهور خرج ليكتشف أن الشاعر الزبيرى كان فى الزنزانة المجاورة . ونظم النعمان أول قصيدة فى حياته . وكانت من أروع وأعنف ما نظم أحد فى الرئيس جمال عبد الناصر!

وكما بدأت حرب اليمن غامضة انتهت كذلك . فلا أحد يعرف لماذا ذهبنا؟ ولماذا ضحينا بسبعين ألفًا من الجنود والضباط؟ ولا كم دفعنا؟ ولا كم اقترضنا؟ ولا كيف ولماذا لا نقدم الحساب حتى الآن . .

ولا تساءل أحد عن شيء من كل الذى حدث . . وإنما اختفت هزيمة اليمن فى هزيمة الانفصال فى سوريا فى النكسة . وأصبحت حرب اليمن هى «الحرب المنسية» أو التى يجب نسيانها!! وكانت حرب اليمن نموذجا للفوضى والاستبداد ومحاولة المستحيل جوا وبرا ، عسكريا وسياسيا .

ودخلت حرب اليمن ضمن التهم الظالمة التى وجهت إلى الرئيس جمال عبد الناصر :

فأنور السادات هو المسئول عن هزيمة اليمن ، وحافظ الأسد مسئول عن الانفصال ، وعبد الحكيم عامر هو المسئول عن نكسة يونيو ، والسادات مسئول عن هزيمة أكتوبر سنة ١٩٧٣ - فقد قال «الناصريون» : إن خطة حرب أكتوبر قد وضعها عبد الناصر - فهو الذى انتصر عسكريًا ، والسادات انهزم سياسيًا . . أى كل الحروب التى حضرها عبد الناصر قد انهزم فيها ، ولكنه انتصر فى الحروب التى غاب عنها - أى انهزم حيًا وانتصر ميتا!!

ولكن الشيء المؤكد أننا خسرنا ألوف ملايين الجنيهات وسبعين ألف شهيد . . وأننا قتلنا عشرات الألوف من اليمنيين . نقتلهم ونعطيهم «بسكو مصر» ولشيوخهم الذهب . . بينما الروس يقدمون لهم الأرز والأفلام السينمائية . . أما إسرائيل فقد نقلت يهود اليمن معززين مكرمين . لم يمت منهم واحد . . قدمت لهم السرير الذى كانوا ينامون تحته ، قدمت لهم السكاكين ليأكلوا بها فكانوا يضعونها حول خصورهم . . يوم رفض يهود اليمن أن يركبوا الطائرة قرءوا عليهم آيات من التوراة تقول : ويوم يجيئون على أجنحة النسور . . والنسور هى الطائرات . فركبوا . وفى داخل الطائرة أشعلوا نارا للتدفئة - لقد حملوا معهم الحطب للتدفئة . ولكن أحدًا من يهود إسرائيل لم يقتل أحدًا من يهود اليمن!

(٢)

ولم تعرف الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، وفى المهجر فى أمريكا وأستراليا وكندا منشورًا عنيفًا كالذى تناقلناه سرًا من نظم الشاعر نزار قبانى . إنها قصيدة بعنوان :

«هوامش على دفتر النكسة» وجهها إلى «السلطان» عبد الناصر . . لقد كانت فى كل جيب . . فى كل بيت . . فى كل صحيفة ومجلة عربية .

أعنف وأقسى وأفضح وأفدح ما عرفت الأمة العربية . يقول :

أنعى لكم ، ياأصدقائى ، اللغة القديمة

والكتب القديمة

أنعى لكم :

كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة

ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتيمة .

أنعى لكم . .

أنعى لكم . .

نهاية الفكر الذى قاد إلى الهزيمة

مالحة فى فمنا القصائد

مالحة ضفائر النساء

والليل ، والأستار ، والمقاعد

مالحة أمامنا الأشياء . .

يا وطنى الحزين

حولتنى بلحظة

من شاعر يكتب شعر الحب والحنين

لشاعر يكتب بالسكين . .

لأن ما نحسه

أكبر من أوراقنا . .

لابد أن نخجل من أشعارنا

إذا خسرنا الحرب ، لا غرابة

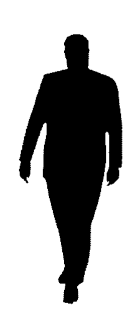
لأننا ندخلها

بكل ما يملكه الشرقى من مواهب الخطابة



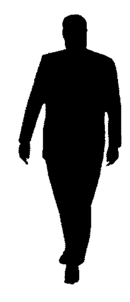
بالعنتريات التى ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة . .
السر فى مأساتنا
صراخنا أضخم من أصواتنا
وسيفنا . .
أطول من قاماتنا . .
خلاصة القضية
توجز فى عبارة
لقد لبسنا قشرة الحضارة
والروح جاهلية . . .
بالناى والمزمار
لايحدث انتصار . . .
كلفنا ارتجالنا
خمسين ألف خيمة جديدة . .
لا تلعنوا السماء
إذا تخلت عنكم
لا تلعنوا الظروف
فالله يؤتى النصر من يشاء
وليس حدادا لديكم
يصنع السيوف . .
يوجعنى أن أسمع الأنباء فى الصباح
يوجعنى . .
أن أسمع النباح . .

ما دخل اليهود من حدودنا
وإنما . .
تسربوا كالنمل من عيوبنا . .
خمسة آلاف سنة . .
ونحن فى السرداب
ذقوننا طويلة
نقودنا مجهولة
عيوننا مرافئ الذباب . .
ياأصدقائى :
جربوا أن تكسروا الأبواب
أن تغسلوا أفكاركم
وتغسلوا الأثواب
ياأصدقائى :
جربوا أن تقرءوا كتاب . .
أن تكتبوا كتاب . .
أن تزرعوا الحروف . .
والرمان . .
والأعناب . .
أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضباب
فالناس يجهلونكم . .
فى خارج السرداب
الناس يحسبونكم
نوعًا من الذئاب . .
جلودنا ميتة الإحساس



أرواحنا تشكو من الإفلاس
أيامنا تدور بين الزار . .
والشطرنج . .
والنعاس . .
هل (نحن خير أمة أخرجت للناس)؟!
لو أحد يمنحنى الأمان
لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان
قلت له :
ياسيدى السلطان
كلابك المفترسات مزقت ردائى
ومخبروك دائما ورائى . .
عيونهم ورائى . .
أنوفهم ورائى . .
أقدامهم ورائى . .
يستجوبون زوجتى . .
ويكتبون عندهم أسماء أصدقائى . .
ياحضرة السلطان
لأننى اقتربت من أسوارك الصماء . .
لأننى حاولت أن أكشف عن حزنى وعن بلائى
ضربت بالحذاء . .
أرغمنى جندك أن آكل من حذائى . .
ياسيدى . . ياسيدى السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأن نصف شعبنا ليس له لسان

ما قيمة الشعب الذى ليس له لسان؟
لأن نصف شعبنا محاصر كالنمل والجرذان
فى داخل الجدران . .
لو أحد يمنحنى الأمان
من عسكر السلطان
قلت له : ياحضرة السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأنك انفصلت عن قضية الإنسان
لو أننا لم ندفن الوحدة فى التراب
لو لم نمزق جسمها الطرى بالحراب
لو بقيت فى داخل العيون والأهداب
لما استباحت لحمنا الكلاب . .
نريد جيلا غاضبا
نريد جيلا يفلح الآفاق
وينكش التاريخ من جذوره
وينكش الفكر عن الأعماق
نريد جيلا قادما مختلف الملامح
لايغفر الأخطاء . . لا يسامح
لا ينحنى . . لا يعرف النفاق
نريد جيلا ، رائدا ، عملاق . .
يا أيها الأطفال :
من المحيط للخليج ، أنتم سنابل الآمال
وأنتم الجيل الذى سيكسر الأغلال
ويقتل الأفيون فى رءوسنا



ويقتل الخيال . .
ياأيها الأطفال :
أنتم - بعد - طيبون
وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون
لا تقرءوا عن جيلنا المهزوم ، يا أطفال
فنحن خائبون
ونحن : مثل قشرة البطيخ ، تافهون
ونحن منخورون . .
منخورون كالنعال . .
لا تقرءوا أخبارنا
لا تقبلوا أفكارنا
لا تقتفوا آثارنا
فنحن جيل القىء . . والزهرى . . والسعال
ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال
ياأيها الأطفال :
يامطر الربيع ، ياسنابل الآمال
أنتم بذور الخصب فى حياتنا العقيمة
وأنتم الجيل الذى سيهزم الهزيمة!

(٣)

وتلقيت من الصديق والفنان الكبير مدحت عاصم :

اسمح لى أن أصحح ما كتبته فى مقالك المعنون «البطل» فى عدد أخبار اليوم الصادر بتاريخ ١٤/ ٣/ ١٩٨٧ بأن الفريق عزيز باشا المصرى قال ، وهو فى المستشفى عقب أن زاره أعضاء مجلس قيادة الثورة : إن هؤلاء الشبان سوف يخربون مصر .

والحقيقة أن الفريق عزيز باشا كان بمثابة الأب الروحى لشباب ضباط الجيش الثوريين ، ولم يكن منطقيا أن يتهم أبناءه بقوله هذا . ولكن عبارته التى قالها كانت عن «جمال عبد الناصر» فقط وكان محمد نجيب حاضرًا . . إذ قال بعد انصرافهم : «إن هذا الرجل الأصفراوى» - يقصد جمال عبد الناصر - سوف يعطى خازوقا - وأشار بأصبعه - لهذا الرجل الطيب - يقصد محمد نجيب - ويستولى هو على الحكم ، ومصر حتروح فى داهية . . سوف . . يخربها . .

وأشهد أنى ومن كان معى قد صدمنا هذا القول ، فقد كنا جميعا فرحين بهذه «الحركة» متوقعين الخير منها لبلدنا . . ولم نكن نعلم ما تخبئه لنا الأيام . .!

ولم يكن الفريق عزيز باشا المصرى ليطلق الحكم على هؤلاء الشبان وكان فيهم «أنور السادات» ، والذى كان بمثابة الابن المقرب منه . . رحمهم الله جميعا .

أرجو أن تصوب عباراتك ملتزما أمانة التاريخ . . مع تحيتى . .

(٤)

وجاء من د . صلاح رواى أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة :

ورد بمقالكم الرابع عن «عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا» المنشور بجريدة «أخبار اليوم» بتاريخ ٧/ ٣/ ١٩٨٧ تحت عنوان «ولكن لا حياة لمن تنادى» تساؤل من جانبكم تقول فيه : فبالله عليك ما الذى يشعر به إنسان يذهب للصلاة فى مسجد عبد الناصر وهو يعلم أن صاحب الضريح لا يؤمن لا بالمسجد ولا بالسجود ولا برب هذا البيت؟!

ولما كنت من أبناء حى حدائق القبة ، وقد عاصرت بناء هذا المسجد الذى يدعى - زورا وبهتانا - أنه مسجد عبد الناصر . فإنى أرى أنه من واجبى وإحقاقا للحق أن أضع بين يديك الحقيقة برمتها فى صحة نسبة هذا المسجد إلى عبد الناصر من عدمه ، وهذه شهادة أحاسب عليها أمام الله تعالى يوم تقوم الساعة ، والله على ما أقول شهيد :

فقد شهدنا هذه القطعة من الأرض التى أقيم عليها المسجد وهى تُسوَّى وتُعد للبناء وبسؤالنا علمنا أن اللواء شرطة مصطفى الشعراوى رئيس جمعية كوبرى القبة الخيرية ومكانها خلف محطة بنزين كوبرى القبة قد تقدم بطلب للسلطات المسئولة لمنح الجمعية قطعة الأرض هذه لبناء مسجد عليها بالجهود الذاتية من التبرعات التى يقدمها أعضاء الجمعية ، وأنه سيتحمل شخصيا قسطًا وفيرًا من نفقات البناء . . وأقيم المسجد بوصفه الحالى من دورين : الأول خدمات عامة عبارة عن مستوصف للعلاج ، ومشغل ، ومعهد تفصيل . والدور الثانى مسجد ومكتبة عامة ، وتولى اللواء مصطفى الشعراوى إمامة المصلين وإلقاء خطبة الجمعة والعيدين به بعد أن تم افتتاحه بمعرفة الشيخ شلتوت شيخ الأزهر آنذاك - وكنت ضمن الحاضرين - وظل الأمر على هذا الوضع لسنوات طويلة ، وكانت تعلق عليه لافتة كبيرة تحمل اسم «جمعية كوبرى القبة الخيرية» .

ثم فوجئنا بموت عبد الناصر . وأن المسئولين لم يحسبوا لذلك حسابًا ، ولم يخصصوا المكان اللائق ليكون ضريحا للفقيد ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك المسجد ضريحا له . وتم لهم ما أرادوا ، ومن يومها تنحى اللواء مصطفى الشعراوى عن الإمامة والخطابة ، وعين له إمام وخطيب جديد ، وانتزعت ملكية جمعية كوبرى القبة الخيرية ودخل المسجد فى حوزة الدولة ليطلق عليه اسم «مسجد عبد الناصر» .

ولعل القول المشهور «مسجد سيدى المفترى» سببه أنه قد استولى عليه افتراء وغصبا دون وجه حق ؛ ولذا وجب التنويه . . والله على ما أقول شهيد .

(٥)

وجاءنى من مهندس زراعى على على العزبى . وكيل وزارة الإصلاح الزراعى سابقا :

أصدقك القول أننى اعتزمت أن أبعث إليك برسالتى منذ بدأت أقرأ مقالاتك ، فى مثل هذا اليوم من ٢٥ عاما ، فقد كان إعجابى شديدًا بما سطرته من وقائع ، وما استخلصته من أقوال الفلاسفة خلال المحنة التى ألمت بك . . ثم جاءت مقالاتك

«عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا» آية من آيات البلاغة ولوحة معبرة عن فترة من أهم فترات التاريخ التى مرت بنا ، وخاصة أمام المخضرمين أمثالى ممن جاوزوا الحلقة السابعة من أعمارهم . . ومرت عليهم أو مرت بهم مواكب العهد الملكى ، ثم ثورة يوليو وما تبعتها وصاحبتها من حوادث وأحداث!

ولكنى لم أستطع بعد أن انتهيت من قراءة الحلقة الرابعة إلا أن أمسك بالقلم لأسطر لك تعليقا أو تأكيدا لما جاء بمقالك من أن «الغيبوبة» الأولى التى أصابت جمال عبد الناصر كانت بعد الوحدة مع سوريا حيث قلت «إنه بها ارتفع وابتعد عن الناس وتعالى على المصريين ، ثم على السوريين وأصبح مشغولا بما يقال عن مجده وعظمته» فإذا سمحت لنفسى أن أؤكد لك هذه الظاهرة ، فلأنى كنت واحدا من شهود العيان عليها . . ذلك أنه عقب صدور قانون الإصلاح الزراعى لسوريا . . شكلت بعثة من هيئة الإصلاح الزراعى فى مصر لمتابعة تنفيذ القانون فى الإقليم الشمالى «سوريا» وكنت أنا وكيلا لهذه البعثة ، وكان يرأسها المهندس محمد عزت عبد الوهاب وكيل وزارة الإصلاح الزراعى . . وقضت البعثة ثلاثة أشهر تشرف على تنفيذ القانون وتعالج ما اعتوره من ثغرات وضعها حزب البعث عن قصد لتكون أول إسفين فى هيكل الوحدة وبداية النهاية . . وهذه تفاصيل كثيرة ليس هذا موضعها لأنها ستكون ضمن كتاب أعكف على الانتهاء منه قريبا بإذن الله كواحد من شهود العصر منذ عام ١٩٥٢ عندما تسلمت عملى كأول مدير للإصلاح الزراعى فى الدقهلية وحتى عام ١٩٧٢ وهو تاريخ تقاعدى . . يوم أن كنت وكيلا لوزارة الإصلاح الزراعى . .

وأعود للصورة التى رسمتها فى مقالك عن الغيبوبة الأولى للرئيس جمال عبدالناصر بعد الوحدة مع سوريا ، فقد شاهدت الاستقبالات الحافلة والمظاهرات الحاشدة التى كانت تغمر جماهير الشعب السورى وهى تستقبل الرئيس بما لم يكن يتصوره أحد . . أملا فى تحقيق وحدة العرب التى طالما حلموا بها وسعوا إليها . .

وإذا كنت أتفق معك فيما ذهبت إليه من أنه تعالى على المصريين ، ثم على السوريين وأصبح مشغولا بما يقال له عن مجده وعظمته - فإنى أود أن أضيف أن ما رآه من ترحيب من الشعب السورى لم يقف عند التعالى على المصريين ، بل فى يقينى أنه غرس فى نفسه احتقارًا لهم وحقدًا

عليهم ومرارة منهم ؛ لأنه لم يجد فيهم هذا التقدير والترحيب ، ودليلى على ذلك هذه القرارات الاشتراكية التى صدرت فى شأن المصريين عقب الانفصال مباشرة؟! ولم يكن لهم فى هذا الانفصال من ذنب جنوه!

ولعلى هنا أسمح لنفسى أن أضيف واقعة سمعت بها من رجل شهد له الجميع بالأمانة والصدق . وهى ما نقل للرئيس عبد الناصر عن الشيخ الباقورى رحمهما الله أنه فى أحد مجالسه يوم أن كان مبعدا بعد عزلة من وزارة الأوقاف والإشاعات التى أحاطت به . . قال عن عبد الناصر وعدم تقدير الشعب له العبارة المأثورة : لا كرامة لنبى فى وطنه . . فلما نقلت هذه العبارة للرئيس عبد الناصر فك قيده وأعاد له كرامته ونصبه فيما أظن رئيسًا لجامعة الأزهر!

بقى بعد هذا رجاء لى أن تعيد قراءة الخطاب الذى ألقاه جمال عبد الناصر عقب النكسة وهو يتحدث عن الخسائر التى لحقت بنا وعن عدد الشهداء الذين استشهدوا فى الحرب وعن المعدات التى استولت عليها إسرائيل؟!

وبعد أسطر قليلة من هذه المآسى وفى نفس الخطاب يقول «وإذا نفذت إسرائيل القرار ٢٤٢ يبأه ما خسرناشى حاجة»؟!

بالله عليك كيف تكون بعد هؤلاء الشهداء الذين لم تخل أسرة فى مصر من شهيد منهم . .

وهذه النكبة التى لم تر مصر مع تاريخها الطويل مثيلا لها وعلى فرض التزام إسرائيل بالقرار ٢٤٢ . . «يبأه ما خسرناشى حاجة» .

أنا واثق من أن هذه العبارة تحتاج إلى محلل نفسى ليشرح لنا أبعادها وأغوار قائلها ، ولهذا فأنا أحيلها عليك فأنت أقدر من أعرف من المحللين النفسيين . والسلام عليكم ورحمة الله .

(٦)

حدث كثيرا فى التاريخ أن راجعت الشعوب رجالها وقادتها والذين أصلحوها والذين ضللوها .

فمن حق الشعوب أن تنظر وراءها فى غضب ، وأن تنظر أمامها فى أمل .

فالسوفيت ، وهم أساتذة التفسير المادى للتاريخ ، والكافرون بالبطل وبعبادة الإنسان قد هدموا أبطالهم بعد أن كشفوا كذبهم .

فماذا حدث للرجل الذى أعلن أنه نصف إله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - ماذا حدث لستالين؟

ستالين حكم روسيا من ١٩٢٩ حتى سنة ١٩٥٣ حتى وفاته . ولكنه قبل أن يموت نهض ببلاده نهضة صناعية ، وأغلق الأبواب بأحكام على روسيا كلها ، وربط الأدباء والشعراء والفنانين بالسلاسل والحديد والنار . . وقتل خمسة ملايين روسى ، وجعل من نفسه أعظم عظماء التاريخ الثورى فى روسيا .

وفى سنة ١٩٥٦ أعلن خروتشيف خليفته فى الحكم تجريد ستالين من كل الصفات التى أعطاها لنفسه . فليس إلا سفاحا دمويًا فأزال اسمه ورسمه من الكتب ودوائر المعارف وأزال صوره وتماثيله .

وقامت معارضة عنيفة ضد خروتشيف وكان من رأيهم : وإيه يعنى . . نفرض أن ستالين كان سفاحا وإرهابيا ، لقد كانت مرحلة ضرورية من أجل بقاء الحكم ضد التيارات الانحرافية التى تهب على روسيا من داخلها وخارجها - وهذا ما قاله الشيوعيون المصريون عن عبد الناصر أيضا الذى عذبهم ومسح بهم أرض سجون مصر - وثاروا على خروتشيف وأسقطوه سنة ١٩٦٤ . وكان خروتشيف قد فشل فى قضية الصواريخ الكوبية ضد كيندى . . وفشل فى مواجهة التمرد الصينى . . ثم إنه فضح الشعوب السوفيتية كلها يوم ذهب للأمم المتحدة وخلع حذاءه وراح يدق المنصة - ورأى العالم كلُّه فلاحًا فظًّا يحكم نصف الكرة الأرضية . ويهدد النصف الباقى!

وتركوه يموت فى إحدى الحدائق بعد أن مسحوا اسمه وأزالوا رسمه من كل الكتب والمتاحف . ولما مات دفنوه فى مقابر الفقراء .

وجاء من بعده برجنيف الذى توفى سنة ١٩٨٢ فقد استولى على كل السلطات التى يمكن أن ينالها أى أحد فى روسيا : رئيس الدولة ورئيس الرياسة وسكرتير الحزب ورئيس الجيش - آخر الزعامات الشاملة فى التاريخ كله .

والآن يجرى الإعداد والاستعداد لمسح اسمه ورسمه أيضا للجرائم التى اقترفها فى حكمه الطويل .

والصين حطمت معبودها والصنم العظيم «ماو» . . وشردت زوجته ، وكثيرا من الدراويش .

(٧)

طبيعى أن يغضب بعض الناس إذا صدموا فى الزعيم جمال عبد الناصر . . فلم يعرفوه طاغية ولا معذبا ولا قاتلا لمئات الألوف من أبناء وطنه بلا قضية ، ومبددا ألوف الملايين من الجنيهات فى حروب شخصية - من أجل كبريائه والصورة المزيفة التى كانوا ينقلونها إليه ، عن عبادة الشعوب لله . كل الشعوب .

تماما كما تفاجأ أنت أيضا بأن الرجل الذى اعتقدت طول عمرك أنه أبوك . ليس أباك . . إنه تبناك - أى أنك لقيط . . ابن حرام - صدمة فظيعة رأيناها كثيرا فى الأفلام المصرية!

طبعا صدمة مؤكدة!

والذين ولدوا من عشرين عاما أو ثلاثين عاما ، ما الذى يعرفونه عن الذى حدث فى مصر . . إنهم قرءوا الكتب التى ألفها عبد الناصر تمجيدا لشخصه ، وتركها السادات كما هى . . ولكن فتحت عيونهم على صعوبات مصر فى أيام السادات - أكثرها قد تولت بسبب الحروب ، الفادحة الثمن ، التى كسرت وسط مصر وعنقها ونكست كرامتها وأطالت يديها تقترض من كل الشعوب . . ولم يعايشوا السبب ولكنهم عايشوا النتيجة . . عايشوا الطبيب الذى حاول أن يعالج مضاعفات المرض والمرض .

فعندما كانوا صغارا لم يعرفوا ما حدث ، ولا كيف حدث . عندما صاروا كبارا سمعوا عن الذى حدث ، ولكنهم عايشوا المصاعب والمشاكل والكوارث . . وهم حريصون على حلها . وليس أمامهم إلا الحاكم ، هو وحده الذى يحل ولا يهمهم كثيرا إن كان هو السبب ، أو كان هو الوارث للكوارث - ولذلك كان من الطبيعى أن تصدمهم الحقيقة .

ثم إننا نقدس «الأولياء» - أولياء السياسة وأولياء الدين ، والذين لا ولاية ولا ولاء لهم . . وإنما يكفى أن نجدهم كبارًا ، فنجعلهم أكبر ، وأن ندور حولهم ، ونلقى بهمومنا عند أبواب أضرحتهم!

لقد اكتشف د . البهى وزير الأوقاف الأسبق أن ٧٥ ٪ ممن نسميهم «أولياء» الله الصالحين . ليسوا كذلك . . بل بعضهم لصوص وقطاع طرق وأناس عاديون أقاموا لأنفسهم هذه الأضرحة ، وتكفل الناس الطيبون بالباقى - من اختراع قصص المعجزات والبركات ؛ فهم يشفون من المرض وهم يولدون العاقر ، وهم يجبرون الخواطر وهم يقضون الحوائج وهم ينجحون فى الامتحانات! وكلنا يعرف ذلك!

وقد خطر «لأخبار اليوم» فى ذلك الوقت أن تدفن حمارا ونقيم عليه ضريحا . . ونترك الناس . ثم نصدمهم بالواقع - وعدلت عن هذه الفكرة العلمية ؛ فالناس أحرار يختارون ما يريحهم . وأكذوبة مريحة ، خير من حقيقة موجعة!

(٨)

وقام المرحوم الزميل عبد العاطى حامد - الشيخ عطعوط - بهذه التجربة ، فارتدى ملابس واحد من هؤلاء الذين يتظاهرون بتحقيق المعجزات ، والتف حوله الناس الطيبون ودفعوا مالا كثيرا .

فلدى الناس الطيبين من الشيوخ والشبان مثل هذا الاستعداد لتصديق من يدعى القدرة الخارقة ، ومن يحاصر الناس ببركاته ومعجزاته .

ولذلك يعتمدون عليه . . ويجعلونه وسيلة بين الأرض والسماء . .

شىء من ذلك شعر به بعض الناس أمام الزعيم جمال عبد الناصر . صدقوه . وعندما انهزم فى كل مجال ، لم يصدقوا أنه هو الذى انهزم ، وإنما الأصدقاء هزموه . . وعندما عذب وذبح ، قالوا : الذين حوله . . وفى غياب من رحمته . .

ومن الصعب على من أقام فكره وشخصيته على عبادة البطل ، أن يقبل من أحد أن يقول له : لقد كنت ساذجا عبيطا مغفلا!

ولذلك كان التمسك به رغم كل ذلك ، حرصا على الكرامة وماء الوجه بين الأصحاب والأقارب . .!

ومن فضل الله تعالى على الإسلام فى مصر ، بلد الأزهر الشريف وألوف المساجد ومئات الألوف من الدعاة وملايين المؤمنين ، أن أحدًا من

أهل البيت لم يمت أو دفن فى مصر . . ومن فضل الله العظيم أنه لا أحد من الخلفاء الراشدين قد مات ودفن فى مصر - أو حتى أشيع ذلك؟

فلو حدث لجعل المصريون ضريحه كعبة تشغلهم عن الكعبة!

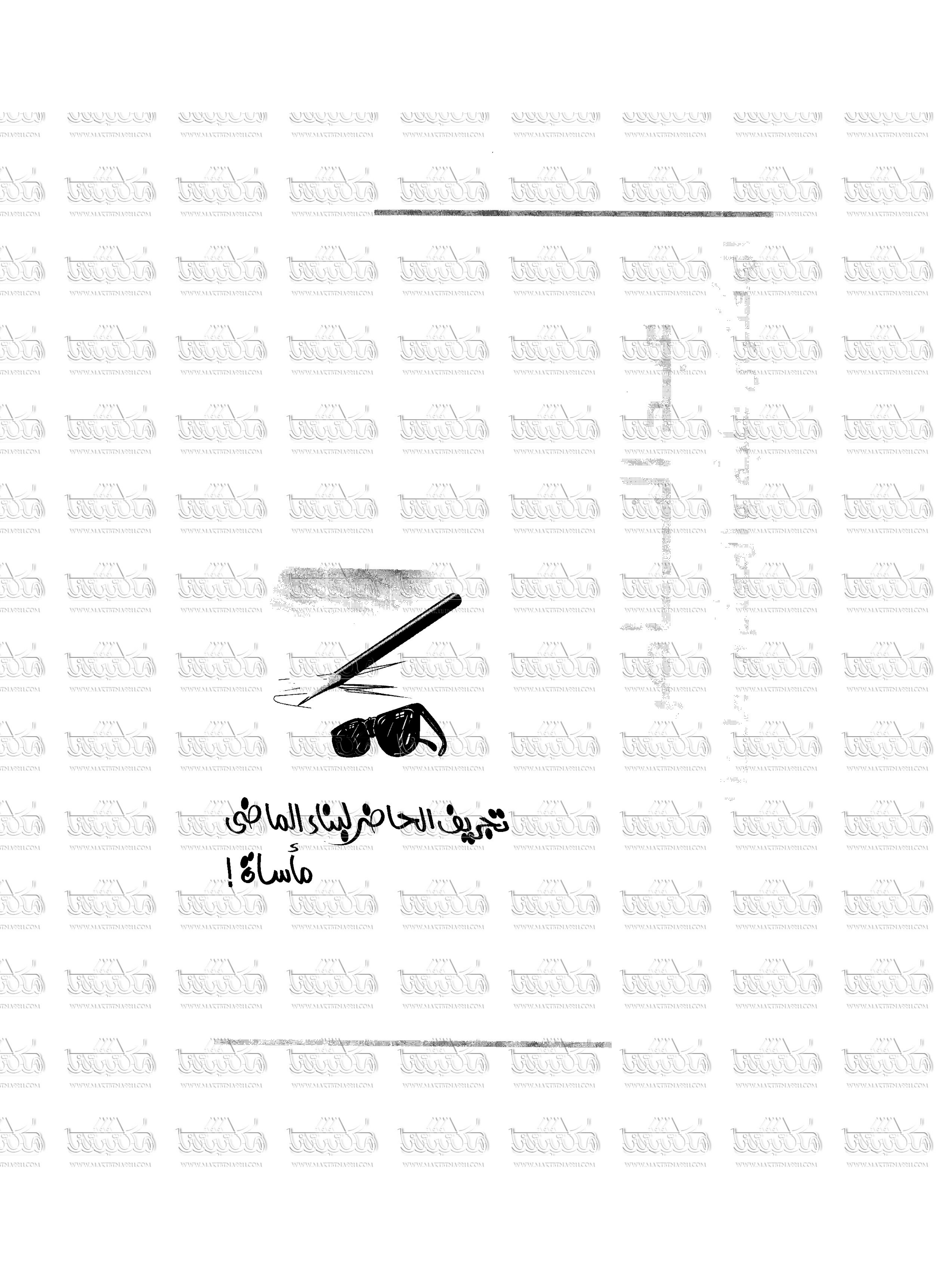
ففى مصر أولياء لم يدفنوا هنا - سيدنا الحسين مثلا - ولا يوجد أى دليل على أنهم دفنوا ، أو أى شىء من أجسادهم الطاهرة . ومع ذلك فأنت ترى ما الذى يفعله المصريون!

وهذه العصا التى يمسكها حراس قبر الرسول - لا يصح أن تقول مسجد الرسول - إنما يضربون بها المصريين الذين يقبلون الحديد والنحاس والحجر . وهذا حرام . ففى ذلك وثنية يرفضها الوهابيون السعوديون . ولكن المصريين يصرون على أن يفعلوا ذلك ، ولو كان الضرب بالكرباج - ولا يزالون يصرون على أن يفعلوا ذلك لمن ضربهم بالكرباج والحديد والنار والعار!

(٩)

أخيرا . . لابد أن أناقش موضوعيا ماذا حدث وكيف ولماذا وأى ثمن . . ما للرئيس جمال عبد الناصر ، وما عليه . . فالذى له كثير ، والذى عليه أكثر . .

□ □ □


تجريف الحاضر لبناء الماضي
مأساة!

تجـريف
الحاضر لبناء الماضى مـأسـاة!

التاريخ هو مسرح الإرادة الإنسانية من أجل أن نتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم . . من أجل المزيد من الحرية . .

ولكننا أوقفنا التاريخ . جعلناه الماضى فقط . فلا حاضر ولا مستقبل ، واخترنا من الماضى أتعس ما فيه . . واستوقفنا التعاسة وأقمنا مناحة كبرى على الذى أصابنا . . فهل ذهبنا إلى ما بعد النكسة العسكرية؟ نعم قليلاً جدًا . . فقط لكى نراها أوضح . ثم نعود إليها نبكى الذى كان ، والذى لا يزال يهد كيان مصر من أولها لآخرها . . فأقمنا السرادقات نتلقى فيها العزاء . . نعزى أنفسنا فى أنفسنا . . نمد اليد اليمنى نشد على اليد اليسرى . . نطوى عقولنا على قلوبنا ونقول : منه لله الذى كان السبب . . ولا يزال السبب!

– هل نقول عليه العوض؟

– نعم . قلها ولا تخف!

فقد ضاع الكثير . ولا عوض إلا فى وجه الله ، أما الذى ضاع فهو «النظرية الفلسفية» أى الرؤية لحياتنا . . كيف نفكر كيف نعمل . . كيف ننجو من الخسائر المتلاحقة .

– هل نعلن إفلاس الفلسفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى يجب أن نعيش وفقا لها؟ هل نقول أننا استنفدنا عدد مرات الرسوب؟ ؛ ولذلك يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر تحت الشمس أو تحت الأرض أو عن طريق آخر . . أو عن نظرية أخرى!

- نعم . قلها ولا تخف!

فما الذى أضاع من أقدامنا الطريق؟ . . ما الذى أضاعنا من أنفسنا؟ إنه فهمنا الخاطئ للتاريخ . .

وأمام النكسة العسكرية التى امتصت حاضرنا عشرين عاما وعشرين أخرى سوف تجىء ، استراح بعض الناس . .

استراح بعض الناس فقد وجدوا ينبوعًا لا يجف من الحزن والأسى . . وعذرًا قويًا لأن يتوقف كل شىء عن الحركة ، فقد سقطنا جميعا فى مستنقع الهوان والذل والشلل . أصبحنا مثل سفن «ألف ليلة وليلة» التى شدتها جزيرة المغناطيس . . فسحبت مساميرها وأعوادها الحديدية . . فإذا هى ألواح خشبية . . وإذا قادة السفينة وملاحوها مثل ركابها غرقى فى بحر الدموع!

واستراح دراويش النكسة العسكرية إلى التفاف الناس حولهم والبكاء فى حلبات الذكر . . وإذا بهم يقدسون أبطال النكسة القادرين على توحيد الأمة المصرية والأمم العربية فى يونيفورم أسود . . فى فعل واحد هو البكاء . . ورد فعل واحد هو محاربة كل من يحاول سحبهم من الحداد الأبدى وضرب النفس بالجزمة . . والدراويش يرون فى هذه القدرة الفذة على توحيد الزى وأداء نشيد قومى وهتاف واحد : بالروح بالدم نفديك ياجمال . . بغبغانات تفدى من قتل مئات الألوف وشرَّد مئات الألوف ومحا حاضر ومستقبل مصر وجعل ماضينا ممتدا . . وأوقف التاريخ وهدم المسرح والمعبد على رءوسنا كشمشون الجبار . . ومثل رومولوس العظيم آخر أباطرة روما الذى قرر أن يصفى الجيش وأن يحاكم الإمبراطورية وأن يدينها . وأن يدخل الشعب كله فى قفص الاتهام لماذا؟ لأنه قرر أن يحاكم الناس وأن يدين التاريخ قبل أن يحاكموه ويحكموا عليه! .

ثم إننا أوقفنا التاريخ مرة أخرى عندما صدقنا ما قاله عبد الناصر من أنه اشتراكى ، وأن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا - أى أنها شىء جديد لم نعرفه ولم يجربه أحد من قبل . كيف؟ اسألوه .

وجاء من بعده السادات يبحث عن ذاتنا . . فاستعصى عليه أن يفلت من الاشتراكية الذاتية ، أو أن يجد هذه الذات . . حتى انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تفلح بكل عظمتها وجلالها أن تهون علينا

الهزيمة . . وإنما جاءت مثل جاكتة جديدة أنيقة على جسد مقطوع الذراعين . . إنها تسترت على الخسارة الفادحة ، ولم تعوضنا عنها! .

أحسن ما قيل فى هذا المعنى ما قاله توفيق الحكيم عندما سألته ونحن فى جنازة ولده الوحيد : وكيف حالك ياسيدى؟ .

قال الحكيم ، وهو حكيم فعلا : ولا حاجة . . إنها عاهة أصابتنى ، وسوف أعيش بها! .

وكانت نكسة سنة ١٩٦٧ عاهة مصر ولا نزال نعيش بها . . وإن كانت هذه العاهة لا تزال أكبر منا ، بل نحن عاهة تعيش بها هذه النكسة . . فهى لا تزال الأقوى!

ومما يؤسف له حقّا أن العسكريين قد اعتصموا بالصمت عن تصحيح الأخطاء أو توضيح الحقائق . هل لأنهم لا يقدرون؟ هل لأنه لا يصح لهم أن يقولوا شيئا؟ هل لأن عندهم قانونًا يمنعهم من الخوض فى السياسة؟ وكلها أعذار . . فليس أسهل من أن يعطوا المادة العلمية والتاريخية لأى كاتب أو مؤرخ فيروى لنا ماهو صحيح . وينفى عن حاضرنا ماهو كذب وتضليل وتهويش وتخريف ووثنية!

ثم إن قادة إسرائيل جميعا قد كتبوا مذكراتهم وأوضحوا وفضحونا فى كل اللغات . . أما نحن ، فالعسكريون لا ينطقون ، وهواة التاريخ ودراويش النكسة يكتبون ويكذبون ويقدسون الخطيئة الأولى فى عصرنا الحديث . . وضاع الماضى وضاع الحاضر وارتبكت عقول الشباب بين الذى يصدقونه والذى لا يصدقون . . وضلت عقول وقلوب الشباب . . فقد تكوَّمت أمامها الأحجار وامتدت أيديها إلى الأحجار تريد أن ترجم عبد الناصر أو منظمة التحرير الفلسطينية أو إسرائيل . . أو القومية العربية – أما السادات فقد اغتالوه . .

والأحجار لا تزال فى كل مكان . . والملايين تبحث عن إبليس الأمة العربية . . بعضهم أضاف أحجارًا إلى الأحجار . . وبعضهم صعد فوق الأحجار وألقى بنفسه من فوقها عاجزًا عن الفهم . . فبدلا من أن يقتلوا القاتل وأنبياءه الكاذبين ، قتلوا أنفسهم!

هل ترى فداحة الخسارة؟!

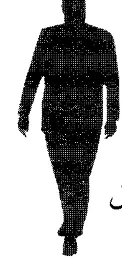
لقد خسرنا أجيالاً من الشباب . . كلهم حيوية وأمل وإرادة وشجاعة ، مستعدون لأن يصنعوا تاريخًا . ولكن عندما أخذوا وضع الاستعداد لم يجدوا الطريق . . أو وجدوا الطريق ولم يجدوا الطريقة . . أو وجدوا الطريقة ولم يجدوا سيقانهم . . أما عيونهم فلم تعد ترى ، فمن كثرة الظلام فقدت وظيفتها . . وعقولهم من كثرة الضباب لم تعد تفكر . . أما قلوبهم فمن نقص الحياة تحولت إلى حجر . .

أرأيت الذى أصابنا؟ لقد تحولت ساحاتنا وحقولنا ومعاهدنا إلى ما أصاب مدينة «بومبيى» الإيطالية . . ثار عليها البركان وألقى عليها الحمم فكانت نوعًا من الصمغ القاتل . . فتجمَّد كل الناس فى مواقعهم ، فكانت لوحة صارخة بارزة للموت الرهيب . . أما الرسام الحقيقى فقد نسى أن يوقع على لوحته . . إنه جمال عبد الناصر . .

إذن لقد آمنا إيمانا مطلقا بأننا انهزمنا . ولكن المصيبة أننا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فقد آمنا بأننا مهزومون . . لامرة واحدة ولكن ألف مرة . . لا فى الماضى ولكن فى الحاضر والمستقبل أيضا . . فنحن الهزيمة . وهذا الإيمان جعلنا لا نساهم بشىء فى شىء . ولا نريد . لقد حررنا أنفسنا من مؤهلات العمل . وحيثيات الحياة ، ومسوغات التعيين أعضاء عاملين فى المسرح المتحرك العائم القائم الدائرى الذى اسمه التاريخ! .

وفى نفس الوقت تسلطت علينا هذه السلبية المطلقة حين رفضنا الواقع المصرى والواقع العربى والواقع الدولى . . رفضنا كل محاولة لانتشالنا من وهدة الفشل والإحباط واليأس . . رفضنا أن يكون لنا دور . . أو أن نستأنف دورنا فى إلقاء أطواق النجاة للأجيال القادمة . . فى إقامة الجسور وإضاءة الطريق والتوزيع الموسيقى لبناة المستقبل .





شىء خطير قد حدث كنوع من الرفض والانسحاب والهروب : فبدلا من أن يقف الناس أمام غول الهوان العسكرى والذل النفسى وإقامة حائط للصواريخ . . للتيارات المعادية وتنشيط المضادات الحيوية للموت القومى ، فقد انفرط الناس . . تفككوا . . تكوروا . . داروا حول

أنفسهم بعيدًا . . كل واحد فى نفسه . . كل واحد لنفسه . يالله نفسى . . ياروح ما بعدك روح . . وأنا مالى – «وأنا ماليزم» : هذه هى النظرية الجديدة فى مصر!

كل واحد قفز من السفينة . . سابحًا إلى الشاطئ . . الشاطئ الحقيقى أو الشاطئ الوهمى . . المهم أنه قرر أن ينجو بنفسه . . فهو يعيش لنفسه ، ويموت فى نفسه! .

وأصبحت علاقة الناس بالناس هى أن يتقاربوا فى حذر . . وأن يتباعدوا فى راحة . . وإذا تقاربوا فلكى يخطفوا ويجروا . . وكل واحد يخطف اللقمة والقرش والمقعد . . وإذا استطاع فإنه يخطف أنفاس الآخرين ، ويسحب الأكسجين من هوائهم وكريات الدم من عروقهم . . ويسرق جهاز المناعة ليعيش ويموتوا . . المهم أن يعيش وحده على خرائب الآخرين! .

حتى تكوين الجمعيات والاتحادات والشلل الصغيرة ، ليس سببها أن الإنسان لايستطيع أن يعيش وحده وإنما بالآخرين ومعهم وضدهم ، وأما سبب هذه التكوينات الصغيرة ليس إلا تضخيما للفرد . . تعاظما للأنا فى مواجهة الإدارة والمؤسسة والسلطة والحكومة والدولة . . وليست هذه الجمعيات إلا دعوة عامة لأن تتفكك كل المؤسسات إلى شركات صغيرة . . إلى شراذم . . إلى عصابات . . تواجه الدولة وتعارضها وتعتدى عليها .

ولكن يجب ألا نسىء فهم هذه الفردية الصاعدة . . أو هذه الأنانية الاجتماعية . . أو هذه الذاتية النفسية . . هذه «الأناماليزم» فهى تدل على أن الفرد قوى . . وأنه متين . . قادر على أن يقوم بنوع من الحكم الذاتى . . فى مواجهة الدولة . . والحقيقة أنه أسوأ من ذلك كثيرًا جدًا . .

فمثلا : ما هذه الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات . . لماذا هى حيوية ضرورية . بغيرها لا نجاة ولا نجاح؟ لماذا هى أقوى من فقر الأب ، وصحة الأم ، وسلطان الدولة؟ لسبب مهم جدًا هو أننا قررنا أن يكون أطفالنا «عالة» علينا . . أن يظلوا أطفالا يرضعون ولا ينفطمون . . أن يظلوا عاجزين عن الاعتماد على أطرافهم ، ليبقوا مدى الحياة جالسين على حجر المدرس وصدر الأم . . مقعدين . . معوقين . . يمتصون مرتب الأب وعلاواته وحوافزه حتى يقترض ويرهن الدولاب والتليفزيون ومصوغات الأم والأخت ويمد يده إلى أيدى الآخرين!

والدولة لا مانع عندها . فهى لا تستطيع أن تعطى لأى مدرس ألوف الجنيهات التى يبتزها من أولياء الأمور .

فالدروس الخصوصية هى علاوة يقبضها المدرسون من الطلبة . . والدروس الخصوصية هى «البوليو» شلل الأطفال الذى يصيب الشباب والرجال بالطفولة الدائمة . . بالكساح . . بالتواكل والسلبية . . حتى إذا تخرج الشباب فى الجامعة ظلوا مثل عرائس الريف ينتظرن ابن الحلال لكى يحملها على حصان أبيض من بيت أبيها إلى «بيت العَدَل» ؛ أى بيت الزوجية السعيدة ؛ فالشباب يتخرجون وينتظرون أن تعينهم الدولة فى غير تخصصهم ، بعد أن يكونوا قد اشتركوا مع الدولة فى أكذوبة اسمها : الخدمة العامة . . فلا هى خدمة ولا هى عامة . . وإنما هى «الخدعة» العامة . . الدولة تخدع الشباب ، والشباب يخدع نفسه بأنه قد عمل شيئا من أجل الدولة . . أو من أجل نفسه . . أى تهيئته لأن يكون عاملاً - لا شىء من ذلك!

فكأننا قررنا سرا أنه لا عمل فى أى مجال . . ولكن لابد أن نملأ فراغًا . . وأن يكون لهذا الفراغ اسم ورقم ودوسيه وكادر وأن يكون اسمه : العمل . . فكل واحد منا «عامل أنه يعمل » . . «فالخدمة العامة» أصبحت مثل المسرحيات والأفلام . . أكذوبة اتفق عليه المؤلف والممثل والمتفرج . . أى أنها شىء ليس حقيقيّا . . شىء لم يقع . .

ولكن الممثل سوف يجعلنا نشعر أنها قد حدثت وأنه سوف يهزنا بعنف حتى البكاء . وبعد أن نبكى نصفق لبراعته وقدرته . . والخدمة العامة هى هذه المسرحية . . هى هذه الأكذوبة ، ولأنها ركيكة فإننا لا نبكى ولا نصفق!

ففى الأفلام والمسرحيات يتزوج الممثلون وتكون زفة وراقصة وطبل وزمر . . ثم يكون الموت للعروسين فى حادث - وكل ذلك لم يحدث . ولكن المؤلف والممثل والمخرج استطاع أن يقنعنا بكل ذلك فنصفق فى النهاية للذين ضحكوا علينا وأدخلونا فى حياتهم دون أن ندرى . ولكن «الخدمة العامة» هزيلة التأليف سيئة الإخراج . . ثم شبابنا هو الممثل والمتفرج على خيبته . . ملايين المرات!



أبشع من ذلك أن الشباب أحسَّ فجأة أنه غريب عن أهله . . عن بلده ، أنه «لا ينتمى» . . ولذلك فهو يقول : وأنا مالى – مع أن المال ماله – ويقول : وهل أنا الذى نكست الجيش ومصر كلها؟ هل أنا الذى خربت البيوت وهدمت النفوس؟! هل أنا الذى حبست الألوف وقتلت مئات الألوف وكدست الديون؟! هل أنا الذى حذفت اللون الأبيض من علم مصر فإذا هو أسود دموى أو هو دم حزين؟! إننا ورثة العار وأبناء الهوان . . أحفاد الخطيئة . . فمن هذا الذى يطلب أن نرتفع فوق الألم . . كيف . . إن الذين يطلبون من الشباب هذا التسامى . . هذا التنامى . . هذا التعامى . . لم يفلحوا هم أنفسهم فى أن يكفوا عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب . .

ولذلك فهم يقولون : وأنا مالى أعالج مريضًا فى مراحله الأخيرة . . وأنا مالى أزرع أرضًا حرثتها دبابات النكسة ودبابات النصر أيضا . . كيف أسدد ديون والد سكير وأم غانية . . إنهم لم يوفروا لنا القهوة السادة نشربها حدادًا أبديًا . . أن نجد لسانًا يتذوق ، بعد أن ضاعت وظيفته كعضو ناطق بالألم . . كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟

ولذلك أسند ملايين الشباب ظهورهم للحائط . . لسور المدرسة والجامعة والمسجد . . ونظروا إلى مواكب الحياة فى مصر ، لا يشاركون فيها!

***

قضية الشباب فى العالم كله واحدة . . لقد عزلوهم عن الحياة ، وعزلوهم عن المشاركة ، وأخفوهم فى بطون أمهاتهم وانتهزوا غيابهم فهدموا كل صروح الحضارة والإنسانية . . ومن هول الحرب وفداحة النكسات العسكرية فى كل مكان أجهضت الأمهات ، فكان هذا الجيل المبتسر الذى يجب أن ينمو بسرعة . . يقف يبنى الذى لم يهدمه . . يروى الذى لم يزرعه . . يحصد الشوك الذى لم يبذره . . وأن يبتسم من أجل الغد ، حتى يكون قادرا على صناعة المستقبل . . وتكفيرا لخطايا والديه؟! كيف؟!

ولما تعددت النظريات والمذاهب وظهر الأنبياء الكاذبون . . والمسيح الدجال فى السياسة والاقتصاد . . ولم يفهم الشباب شيئا ؛ لأن رءوسهم أصغر من الأكاذيب الضخمة والاجتهادات الأبهة . كانت الدروس الخصوصية فى الأحزاب والندوات والمؤتمرات الشعبية . . لابد من الدروس الخصوصية . . فقد اعتاد الناس ألا يفكروا ،

وألا يدبروا . . فقد كان يهبط عليهم التفكير من فوق ، وينزل عليهم التدبير من فوق أيضا . . وبذلك يتأكد عجز الشباب عن الفعل ورد الفعل . . ويتأكد أنه ليس له فى نفسه شىء ، ولا فى جسمه ولا فى إرادته ولا فى حياته ولا فى مستقبله ولا فى شهادة الميلاد ؛ فالكبار الذين يملئون له «خانات» الميلاد . . فيلدونه فى أى وقت ويجعلونه ذكرًا وأنثى ، وشرعيًا ولقيطًا . . ثم يتفاءلون به ويدعونه هو الآخر إلى أن يتفاءل!

وبعد ذلك نتقاذف التهم . . نحن نقول إن الشباب متطرف . . أى أنه يقف على طرف بعيد عنا . . ومن حق الشباب هو الآخر أن يقول إننا نحن الكبار متطرفون أيضا ، ولنفس السبب . . فنحن نقف على طرف بعيد منه . . ولكننا نملك وسائل إدانته فى الإذاعة والتليفزيون والصحف وعلى المنابر وهو لا يملك إلا أن يشكونا إلى الله . . يدعو . . ويستعدى علينا عدالة السماء .

ولما تعددت الكتب المقدسة فى أيدينا . . أناجيل عبد الناصر ومزامير السادات . . وخطب حسن البنا «وكاستات الخومينى» وبروتوكولات ماركس ، تساقط الشباب ساجدين أمام الكتاب الواحد الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

ولما تعددت الزعامات المشروخة والأنبياء النصابون وقف الشباب طابورا حول الشخص الواحد الذى هو على خلق عظيم ، الذى هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . . ولما ضاق الشباب بنفسه ، وضاق الذين حوله به ، احتشدوا . . فى المكان الواحد . . أنبل وأشرف مكان فى قبلة واحدة ، يدعون ربهم خوفا وطمعا مهاجرين إلى الله ، كافرين بهذه الأمشاج من الناس في البيت والمدرسة والحزب!

***

وأفظع من كل ذلك أن لديهم شعورًا بالنهاية . . نهاية القرن . . نهاية الطريق . . نهاية الحياة . . بأن القيامة سوف تقوم . . وكأن هؤلاء الشبان لم يكفهم ما يلقون من عناء وعنت ، فإنهم راحوا يستعدون للعذاب بالقراءة عنه . . فانتشرت كتب عذاب القبر والعذاب فى ساحات القيامة . وعذاب

البعث والنشور . . وعذاب الصراط المستقيم . . ونسوا أن يقرءوا عن الجنَّة والسعادة فيها وعن الراحة السامية ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا** ﴾ . . ولكن أحدًا لم يكتب عن الجنة . . كأنه لا جنة . . وإنما عذاب مقيم . . كأن العذاب هو نصيبهم فى الدنيا والآخرة . . أليسوا شبابا؟

إنهم مثل الذين وقفوا فى المحطة فى انتظار آخر أتوبيس . . قلقون . . يتزاحمون . . يتضاربون . . يدوس بعضهم بعضا . . يحشرون أنفسهم فى أضيق باب . . آخر فرصة . . ولذلك فهم لم يفهموا شيئًا . . فقط انتظروا . . أحرقوا أعصابهم . . دماءهم . . لم يأكلوا لم يشربوا . . لم يفكروا ، أحيانا يتوهمون أنه آخر أتوبيس . . ويتوهمون أنه جاء . . وأنهم وجدوا مقعدًا . . فإذا جاء مات بعضهم من الفرحة . . مات بعضهم من الزحام . . والسائق هو الآخر يريد أن يفرغ من هذه الشحنة الثقيلة . . فلا يتوقف . . وهو لا يسمع الصرخات . . يسابق السيارات ويصطدم بها ويدوس الناس . . فالكل يجرى . . يسابق . . ينهش . . يلعب . . يصرخ . إنها النهاية . . نهاية كل شىء . . وليس بعد ذلك أى شىء!

فكل شىء مخيف . . وإذا لم يجد الناس ما يخيفهم فإنهم يخترعون المخاوف . . يضعونها ويبكون أمامها . . لقد اخترعنا الموت الذرى ورحنا نلعنه . . اخترعنا التلوث وجعلنا نفزع منه . . اخترعنا الأمراض فى دمائنا ونحاول التخلص من دمائنا وجلودنا . . نقلنا الخوف من خارجنا إلى داخلنا . . لقد أسكنا الموت فى عروقنا ، ونعمل جاهدين على إخراج الموت لكى نحاربه فى ساحات القتال . .

ولكن الشعور بالنهاية يتعمق عند الشباب ، فهم على يقين من أن الموت قادم من داخلهم ومن خارجهم . . قادم لا محالة . وكما أن الفلكيين يتوقعون نهاية الحياة بأن تقترب الأرض من الشمس فتحترق ، أو تبتعد الأرض عن الشمس فنموت من البرد . . فالموت حارا أو باردا قادم لا محالة . ولذلك يجب أن يعيش الشباب ، فى حالة انتظار للنهاية . . وانتظار الموت هو موت يسبق الموت!

***

أفدح من ذلك أن يشعر الشباب بتفاهتهم . . فراغهم . . خوائهم بأنهم قد أفرغوا الحياة من المعنى والدور . . تماما كما أن حاضرهم قد أفرغ من المستقبل . . فالحاضر ماض قريب ، والماضى حاضر بعيد . .

بل إن لديهم شعورًا بتآكل المستقبل . . خائفون . . مضيعون . . مبددون . . شظايا . . شظاياهم . .

أما وسائل النجاة المزيفة فهى البطولات الوهمية السينمائية والمسرحية . . ففى الأفلام يجدون قصصا رائعة وقصورًا . . وحياة سهلة . . ومسارًا منطقيّا لكل الأحداث . . وله بداية ونهاية سعيدة . . يعيشون هذا الكذب الجميل ، ويتعلقون بالأبطال الخرافيين والخرافات . . ويجدون فى هذه المعايشة نوعًا من التعويض . . هذا التعويض النفسىِّ والمادىِّ ساعة أو ساعتين . . وبعد ذلك يعودون إلى حياة النهاية . . أو نهاية الحياة أو انتظار الفرج أو التفريج الذى يجىء فيبعدهم عن كل شىء . . فى انتظار موت هذا الزمان . .

أو بالمخدرات التى تحقق لهم ماهو أروع وأبدع وأهدأ من كل ذلك . . فإذا لم يجدوا المخدرات ، أراقوا الدماء من أجل الحصول عليها . . فكأنهم عندما كرهوا النكسة العسكرية وكرهوا الضحايا واستنكروا الدم ، كان لابد من دماء المدنيين لكى ينسوا بها دماء العسكريين!

ما الذى يريدونه؟ . ماهى آخر رغباتهم قبل النهاية؟ . إنهم يريدون أن يتركوا أثرا ، أى أثر ، بعدهم . . صرخة . آهة . . بقعة دم . . إنهم يمدون أيديهم إلى ما بعدهم ، ويلقون ظلالهم إلى ما وراءهم . .

هل تذكر لوحة الفنان العظيم ميكل أنجلو فى قبة الفاتيكان . . إنه قد رسم صورة الله – سبحانه – وهو يخلق الكون . . فامتدت ذراعه . . وخرجت من يده إحدى أصابعه . . وهذه الأصبع لمست السحاب فخرجت من السحاب كل الكائنات . . وكذلك الشباب . . يمدون أصبعًا من كف من ذراع الحاضر لعلهم يبلغون المستقبل . .

هل هناك أمل؟

نعم . كيف؟

لا سبيل إلا أن نتوقف فورًا عن «تجريف» الحاضر من أجل بناء الماضى!





خرجت اليابان من هيروشيما
وخرجت أمريكا من فيتنام
ولكننا لم نخرج من يونيو!

خرجت اليابان من هيروشيما
وخرجت أمريكا من فيتنام
ولكننا لم نخرج من يونيو!

مجموعة من الشباب الألمان كتبوا مذكراتهم عن رحلة فى مصر فى العام الماضى . جعلوا مذكراتهم على شكل خطابات بعثوا بها إلى أصدقائهم فى القاهرة والأقصر والإسكندرية والعلمين . . الكتاب عنوانه «وسوف نبقى أصدقاء» . . أى أنهم رغم النقد المرير لكل الذى لم يعجبهم فى مصر ، ستبقى الصداقة بينهم ولا داعى لأن أكرر ما نعرفه جميعًا عن النظافة - انعدام النظافة - والنظام والأخطاء الإملائية فى اللافتات الرسمية والأهلية . . وعن فوضى المرور وعن العمارات التى تنهار فور الانتهاء منها . . وعن الضوضاء والتلوث بكل أنواعه . . وعن أبشع منظر يراه إنسان فى كليات مصر : كلية الآداب جامعة القاهرة نموذج للقذارة . . الأرض والأبواب والنوافذ والسلالم والبوفيه .

وقد اندهش أحد الطلبة الألمان عندما زار أحد زملائه من كلية الهندسة فقد لاحظ أن البالوعة مسدودة . . وأن هناك «ماسًا» فى بعض الأسلاك . . وأدهشه أكثر أن يظل هو وصديقه يتحدثان عن هذا الخلل ، ثم لا يفكر صديقه المصرى فى إصلاح شىء . . وإنما استدعى شابًا بجلباب أصلح البالوعة والسلك الكهربائى . . وأعطاه مبلغًا من المال . . وراح يشكو من ارتفاع أجور الأسطوات والعمال الفنيين إلى أضعاف ما يتقاضاه المهندس . . ثم الشكوى العامة من كل الأوضاع فى مصر والوجود الإسرائيلى فى قلب الأمة العربية .

أما الذى لم يفهمه الطالب الألمانى فهو أن زميله المصرى يستطيع أن يصلح البالوعة . . ويستطيع أن يصلح الأسلاك الكهربية وبمنتهى السهولة .

أما تعليقه على ذلك فهو أن العمل اليدوى لايزال غير محترم فى مصر . ولم يفهم الطالب الألمانى كيف يكون الإنسان مهندسًا ثم لايستخدم يديه؟ . . وما العيب فى أن تتسخ يداه؟ لم يفهم!

ومعه حق . ولكن هناك سببًا أهم من ذلك هو أن لدينا إحساسًا عامّا بأن شيئًا «يغرق» . . أو بأن كل شىء يغرق . وأنه لا أمل فى علاج أو إصلاح . وأن المصريين يفضلون الشكوى والبكاء . . فنحن لا نصلح البالوعة ولا الأسلاك ، وإنما نأتى بمن يفعل ذلك وندفع له . . ثم نشكو من ارتفاع أجور الأسطوات . . وبدلاً من أن نصلحها نحن بأيدينا لتبقى أطول ، فإننا نختار من يصلحها بالفلوس ، ويبقى الإصلاح وقتًا قصيرًا فنشكو ونستدعيه وندفع ونشكو أكثر وأطول . . فكأننا نساعد السفينة على أن تغرق وتغرق .

وأحيانًا نرفض إصلاح الأشياء وإنما نتركها . لا لأن إصلاحها صعب . . ولكن لأن عدم إصلاح أى شىء «يتمشى» مع عدم إصلاح كل شىء فى الاقتصاد والسياسة والزراعة والتعليم . . فهناك شعور عام بأن كل شىء قد فسد ولا أمل فى إصلاح . . بل ولا داعى للإصلاح . . فقد وصلت الأشياء إلى أسوأ حالاتها . . وإنما الأمل أصبح نوعًا من الترف . . وننسى أن «غرق» كل شىء هو «غرق» لنا أيضًا . . وإذا أردنا أن ننجو فليس بالهرب من السفينة والقفز إلى المحيط ، وإنما بإصلاحها معًا حتى نبلغ أى شاطئ للأمان . . ونبدأ فى الإصلاح المكثف أو بناء جديد للسفينة وبناء لنفوس البحارة والقيادة والمسافرين!

وقد لاحظ الطلبة الألمان أن المصريين على درجة كبيرة من الغرور ، وأنهم سادة العالم وسادة العرب بصفة خاصة . . وأنهم لم ينهزموا فى كل الحروب مع إسرائيل!

والملحوظة صحيحة . ولكن لأسباب أخرى غير التى ذكروها . فهذا الغرور أو هذه النغمة الكاذبة ، سببها شعور عميق بالإحباط والفشل . . فالمصرى قد انسحب من المعارك إلى داخل مدينته ، ومن المدينة إلى داخل الأسرة ، ومن الأسرة إلى داخل الذات . . فهو قابع فى داخله . . وعندما وجد نفسه مع نفسه ، أحس أنه فى أمان وأنه قوى . . وأنه عظيم . . وأنها لم تلد غيره . . أمه لم تلد غيره وكذلك أسرته ومدينته ومصر والأمة العربية . . فهو مثل مخمور وقع فى الوحل ويقول : أنا جدع – هو الذى

يقول ، ولكننا لا نراه كذلك . فهذه النفخة أو هذه «العظمة» هى نوع من التعويض دفعه لنفسه ، عن الإهانات الشخصية والعائلية والقومية التى لحقت بنا بعد النكسة العسكرية بصفة خاصة . ومازال يعانى هو وأولاده لأجيال قادمة – ما لم نجد له حلاً أو علاجًا هو الحل ، أو حلاً هو العلاج!

وبعض الحيوانات والطيور تفعل ذلك . . فنجد أن الطائر عندما يتعرض للخطر فإنه ينفخ ريشه ويشغل مساحة أكبر وتتطاول رجلاه وجناحاه وعنقه ومنقاره . . إن الخوف يدفعه إلى التظاهر بأنه كبير . . قوى . . مخيف . والحقيقة أنه ليس كذلك . وإنما يوهم غيره ونفسه بذلك!

فهذا الغرور وهذا الامتلاء بالذات والزهو ليس إلا فهمًا خاطئًا للأشياء والعلاقات – فهم خاطئ لنفسه ولما حوله .

***

ولابد من هذه الأسطورة الإغريقية التى تساعدنا على فهم أنفسنا : يقال إن شابًا جميلاً اسمه «نارسيس» . . أبدعت الآلهة فى صنعه . . وفى صنع أخت له جميلة جدًا . ولسبب ما ماتت الأخت . وحزن الأخ عليها . وفى يوم جلس إلى نبع من الماء فرأى صورة على الماء . . فظن أن الذى يراه فى الماء هى صورة «روح» هذا الينبوع . . أو هى صورة «الحورية» التى تحرسه . . أو هى صورته هو . . ولأنه شبيه بأخته ، فهو يرى فى صورته ما يذكره بأخته . . وكلما حاول أن يمسك الصورة اهتز الماء ، واضطربت الصورة . . وظل يحاول وقد امتنع عن الطعام والنوم . ولما يئس قتل نفسه يأسًا وحزنًا . ولما سقط جسمه فى الماء اختفى الجسم الجميل وظهرت زهرة النرجس ، بيضاء ناصعة وعليها موجات من اللون الأحمر . . وملأ عطرها المكان . . ومن تناثر الماء إلى الشاطئ نبتت زهرات النرجس التى لا عطر لها .

ولما جاءت أمه وأبوه وأقاربه ينقلون الجثمان ليدفنوه فى مكان آخر ، لم يجدوا إلا هذه الزهرة .

وكانت الآلهة قد حذرت الأم من أن ينظر ابنها نارسيس – ومعناه نرجس – إلى صورته فى الماء . . وسوف يطول عمره إذا لم ير نفسه . وقد أفلحت أمه فى إبعاده كثيرًا عن الأنهار والمرايا حتى كبر ، ولكن عندما ماتت أخته ظل هائمًا يبحث عنها حتى وجدها فى صورته هو فى الماء!

وتقول أساطير الإغريق أيضًا إن كل من يحمل اسم نرجس تحل به هذه اللعنة . . فقد كان للإمبراطورة مسالينا سكرتير اسمه نرجس . . هذا السكرتير استولى عليها وعلى السلطة ، ومازال يتسلط عليها حتى أقنع الحاشية بقتلها . . وقتلوها . وقد جاءت أختها ، فانتقمت فقتلته . أما جريمة نرجس هذا فهى أنه كان يرى أنه أحق الناس بالملك . . بل إنه أول رجل فى التاريخ أعلن أنه لن يتزوج ، وإنما سوف يكتفى بنفسه . . فهو الزوج والزوجة معا . . وعندما كان يحس بحاجته إلى امرأة ، كان يرتدى أزياء النساء . وعندما كان يحس بأنه فى حاجة إلى رجل كان يرتدى ملابس الرجال . وكان يقول : أنا فى حالة اكتفاء ذاتى . . إننى غنى عن الناس . . وعن كل شىء!

وكان يقول : أنا البداية والنهاية!

وهذه هى «النرجسية» . . أى الأنانية المطلقة . . أى عشق الإنسان لذاته ، وكراهيته لغيره من الناس . . بل إنه يرى الآخرين وسيلة يحقق بها رغباته . . أو إنهم «أداة» آلة . . وأنه فاشل إذا اتصل بالآخرين . . ولذلك ليس أمامه إلا نفسه . . وإلا إحساسه . . وإلا رغباته . . وإرادته . . فهو لم يفلح فى التعامل أو التوافق مع الناس ، فهرب منهم إلى نفسه . . وفى نفسه وجد الحضن الدافئ والكنز الذى لا ينفد . .

والإنسان – عادة – لا يرتد إلى نفسه إلا فى أعقاب الهزات النفسية العنيفة . . فالنرجسية من مظاهر اضطراب الشخصية . . فالإنسان ليس سويًا إذا كان يتصور أنه هو العالم . . أو وحده فى العالم ، وأنه يستطيع أن يفعل وأن يكون كل شىء بنفسه ودون حاجة إلى أحد . . أو أنه لا أحد سواه!

***

فهل درسنا وحللنا وفهمنا ماذا أصاب المصريين من الزلزال العنيف الذى حدث فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعده حتى اليوم؟ هل ذهب علماء النفس يسألون الجنود والضباط : ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ وإذا كنت نجوت من الموت ، فهل نجوت نفسيًا أيضًا؟ ما الذى تراه فى نفسك ومن نفسك؟ وما الذى تراه فى أهلك وفى بلدك؟ خسران أنت أم كسبان؟ هل حاربت؟ هل انتقمت من عدوك؟ هل انتقمت ممن هزمك؟ هل تحارب مرة

أخرى من أجل مصر التى لا أعطتك ولا احترمتك ولا قدرتك ولا سألت عن الذى أصابك وأولادك وزوجتك وشرفك؟ هل لا تزال تعتقد أنك أفضل من عدوك؟ هل تعتقد أنهم هزموك ، أو أنك أنت الذى انهزمت قبل أن يهزموك؟

لم نسأل رجال القوات المسلحة العائدين من النكسة . ولا عرفنا ما الذى أحسوا به يومها وبعدها بأيام وشهور وسنين!

ولكن إسرائيل فعلت ذلك . فقد انتهت حرب الأيام الستة بسرعة مذهلة . حتى كأنها لم تكن حربًا وإنما كانت تدريبًا عمليًا على القتال . ورغم أن اسمها حرب الأيام الستة ، فبعض الجنود حارب يومًا وبعضهم حارب يومين . . فقد بدأت الحرب فى مصر واستمرت فى الأردن وانتهت فى سوريا .

لم تكن حربًا شاملة ، وإنما كانت حربًا دفاعية - قامت بها إسرائيل ضد قوات عربية أقوى وأكثر عددًا واستعدت للإبادة الشاملة - هذا ما يقوله العلماء الإسرائيليون للعسكريين والمدنيين .

ووجد علماء اليهود من إسرائيل ومن أمريكا أن الحروب تسبقها عادة مشاعر ودوافع قوية تجعل القتال راحة كبرى للجنود الذين استعدوا طويلاً للقتال ، والذين شعروا بالملل من الانتظار والذين يحنون لعائلاتهم ، ويريدون استئناف حياتهم العادية . وفى إسرائيل نوعان من الجنود : المنظمون والمتطوعون . . والمتطوعون لهم حياتان : عسكرية ومدنية .

وعند الجندى الإسرائيلى عقيدة أنه إما أن ينتصر أو يموت . . لابد أن ينتصر وإلا تكاثر عليه الأعداء من كل مكان وقضوا عليه . . ولذلك استعدت إسرائيل بأن جعلت الوحدات العسكرية وحدات عائلية . فالجندى ينضم إلى وحدة عسكرية لا يتركها حتى الموت . . فهم يعرفون بعضهم البعض تمامًا . ولا توجد فوارق بين الضابط والجندى . . ولذلك فالوحدة كأنها جندى واحد قوى . والجندى فى دفاعه عن الوحدة ، والوحدة فى دفاعها عنه ، إنها تحمى الفرد والدولة أيضًا . وهذه الوحدة العائلية تهون عليه الخوف والشعور بالخطر . . وفى نفس الوقت تجعله لا يفزع إذا رأى الموت والدماء . . فإن لم يقاتل ويقتل فسوف يلقى نفس المصير . . ثم شىء آخر : هو يجب ألا يعرض نفسه أو زميله للخطر . . وإذا أصابه شىء فلا خوف ، فسوف يصلون إليه مهما كان . . إن كان جريحًا نقلوه أو حملوه بالطائرات ، وإن كان

قتيلاً فسوف يعيدونه إلى أهله . . وأن يعيدوه كله . . فخصلة من شعره أو أصبع من قدمه . . أو حتى حذائه . . لن يتركوه مهما كانت إصابته .

ولاحظ العلماء أن هذه الحرب قد أفلحت فى تذويب الفوارق بين اليهود الشرقيين والغربيين . . كلهم حاربوا وقاتلوا وتفرقوا . .

ولاحظ علماء النفس أن الجنود الإسرائيليين قد أصيبوا بصدمة عنيفة . . فهم لم يتصوروا أن تنتهى الحرب بهذه السرعة . ولم يتصوروا أنهم بهذه القوة . لقد أخافتهم قوتهم . وبعضهم قد تعلم أن إسرائيل دولة تريد أن تعيش فى سلام . وأن دينهم يدعو للحياة والسلام وليس للقتل والدمار . . ولذلك عاد كثير من الشباب إلى مستعمراتهم لا يتكلمون ولايريدون . وعندما ذهب إليهم علماء النفس يسألونهم رفضوا الكلام . رفضوا أن يقولوا شيئا عن الذى حدث . . وأنهم كرهوا بلادهم وأنفسهم ودينهم أيضًا ، والأكاذيب الطويلة التى عاشوا بها ومن أجلها . . وأن قادتهم السياسيين والدينيين قد خانوهم!

وقد أطلقوا على هؤلاء الجنود : الجيل الصامت!

أما أكبر مشكلة واجهها علماء النفس فهى ظاهرة الغرور والنفخة والزهور والتعالى . . الغرور الفردى والغرور القومى والغطرسة السياسية والنرجسية الدينية . أحس العلماء أن هذه أكبر كارثة . . وأن هذه كلها تدل على مصيبة قد حلت بإسرائيل كلها . . فسوف يؤدى هذا الغرور إلى حرب أخرى . . وإذا انهزم اليهود فى هذه الحرب فسوف تكون أكبر كارثة حلت بالغرور الفردى والغرور القومى والعنصرى - إن إسرائيل كلها بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت ثلاثة ملايين نرجس الذى رأى صورته فهام بها ومات فى سبيلها . . لقد انتفخ حتى انفجر - هذه هى المصيبة الكبرى . ومعنى هذه المصيبة أن إسرائيل قد انتصرت عسكريًا ، ولكنها انهزمت نفسيًا وفرديًا وعائليًا وقوميًا!

وكلما بالغت إسرائيل فى عظمتها وبراعتها وعبقريتها ، ازدادت رغبة العرب فى الانتقام . . وزاد التعصب الدينى لليهود وللصهيونية العالمية ولأمريكا . ولذلك لابد أن يتدارك العلماء هذا الموقف بسرعة . . وأن يلقوا بعض الماء البارد على رءوس هؤلاء الذين أسكرهم النصر . . والذين

وصفوا شارون بأنه الملك شارون . . ووصفوا عودتهم إلى مصر ، بعودة موسى إلى الأرض التى طرد منها .

وظهرت رواية تقول بأنه لابد من نسف السد العالى وإغراق مصر كلها . . وبدلاً من إلقاء اليهود فى البحر ، فإنهم سوف يغرقون المصريين فى نيلهم . . وهنا تجىء سفينة نوح من إسرائيل لإنقاذ المصريين . . وبدلاً من إلقاء اليهود فى البحر ، فإن اليهود سوف يأتون بالبحر لكل العرب .

وظهرت الأغانى والنكت والقصص والمسلسلات كلها للسخرية من مصر والعرب . . وهنا فزع العلماء من نتيجة كل ذلك!

ولما انتصرت مصر على إسرائيل يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك أسوأ يوم فى تاريخها . . فقد ضربتهم مصر فى عيد الغفران . . وبكت جولدا مائير ومعها كل القادة . . فقد انهزموا بالزهو فى سنة ١٩٦٧ ، وبإيمانهم المطلق بأن نصرهم هو النهائى ، وأن مصر قد وجدت لتنهزم ووراءها ومعها كل العرب .

وكان الرئيس السادات قد حطم أعصاب إسرائيل عندما كان يبعث لهم من حين إلى حين بجثة وجدناها فى البر والبحر . فهذه الجثة كانت تجدد الأحزان فى إسرائيل . . وبقدر سعادتهم بأنهم وجدوا جثة ، بقدر حزنهم على أنها حركت الأوجاع النائمة والآلام المبرحة .

وقبل انسحاب إسرائيل من سيناء ذهب سفير إسرائيل موشى ساسون إلى الرئيس السادات يطلب إليه : سيادة الرئيس أرجو ألا تجعل يوم الانسحاب يومًا حزينًا فى إسرائيل . . أرجو أن يتم الانسحاب بهدوء بلا طبل عنيف وزمر مدو . .!

ولذلك كان الاحتفال برفع العلم المصرى هادئًا . . وكان السادات يقول : تكفينا هزيمة إسرائيل فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . ولنفتح صفحة جديدة للتعايش الهادئ والسلام!

***

أما أمريكا فقد درست حال الشباب بعد أكبر نكسة عسكرية فى تاريخها فى فيتنام . فقد اصطدمت رءوس الشبان فى أمريكا بناطحات السحاب وتمثال الحرية وتمثال واشنطون . . وأحس هؤلاء الشبان أن دولتهم كذبت عليهم . .

فعلى تمثال الحرية كتبت الشاعرة إيما لازاروس تدعو المضطهدين والمعذبين فى العالم إلى أحضان أمريكا التى هى أم المساكين والمظلومين . . أم التسامح بين الأديان والألوان .

لقد أحس الشبان أن أمهم كاذبة . . كيف تبعث بقواتها تقتل الأبرياء فى فيتنام دفاعًا عن أمريكا ، تقتلهم حبًا فيهم ، تشوههم إعجابًا بهم ، تضع السموم فى المياه وتقتل النباتات والحيوانات من أجل أن يبقى شعب فيتنام . . كيف ضربت بالقنابل الذرية شعب اليابان . . ثم تدعى بعد ذلك أنها حصن السلام ، درع الأمان كنز الفقراء ، جنة الخاطئين .

لقد كفر الشباب الأمريكى بهذه الدولة الجبارة ، بهذا العملاق الذى طار عقله ، بهذا العبقرى المجنون الذى يبدد البلايين على الصواريخ وسفن الفضاء ، بينما لو أعطاها لملايين الفقراء فى العالم ، لأصبحت الدنيا جنة حقيقية . . ولقضت بذلك على الشيوعية التى تكسب أرضًا وشعوبًا بتعميق كراهيتهم لأمريكا وتناقضاتها السياسية والفلسفية . . كفر الشبان . . تركوا المدارس وهربوا من الخدمة العسكرية . . وهاجروا من البيت وناموا فى الغابات يقلدون جثث القتلى فى فيتنام . . ثم هاجروا من أمريكا إلى غابات الأمازون ينتحرون معًا . . فقد كرهوا الحياة معًا فى أمريكا . . وكرهوا أن يموتوا على أرضها!

واتسعت لهم الحانات والمواخير والإصطبلات . . وارتفعت من أفواههم سحب الدخان الأزرق . . لقد قرر هؤلاء الشبان ، بمئات الألوف ، أن ينسحبوا من الحياة ومن العائلات ومن المعامل من الجيش . . وأن يضعوا أنفسهم فى قائمة الهاربين من الحياة . . وحذفوا أنفسهم من الأحياء فى بلادهم . . إن بلادهم تقتل أبناء فيتنام بلا قضية ، فلماذا لا يقتلون أنفسهم بأيديهم فداء لأهل فيتنام؟!

وظهر العنف بكل أشكاله . . والسرقات والخطف . . وهتك الأعراض .

وفى إحدى المحاكم سأل القاضى طالبًا صغيرًا : كيف تعتدى على فتاة صغيرة تحبها؟

قال الطالب : إننى لم أعتد عليها . . إننا اتفقنا على ذلك . . أما السبب الحقيقى فهو أن والدها قسيس . . وهذا الاعتداء على ابنته هو إهانة له . . وفضيحة له أمام الطائفة المسيحية : إذ كيف يدعو الناس إلى الفضيلة بينما

هو لايستطيع أن يحمى ابنته . . فأنا لم أعتد على ابنته ، وإنما عليه هو . . على مذهبه . . وعلى دينه . . وعلى الدين كله الذى لم يمنع أمريكا من قتل الأبرياء . . فلا أحد من أهل فيتنام قد اعتدى على أمريكى واحد فى أى مكان .

ونهض علماء النفس والاجتماع والتربية لدراسة هذه الحالة المروعة التى انحط إليها الشباب الأمريكى . . وكيف يمكن علاجها .

وتشكلت لجان حقيقية ذات صلاحيات عريضة وذات فترة محدودة لتقديم التشخيص والعلاج . وقدموا تقارير علمية لرئاسة الجمهورية . فالموقف خطير . والخطر شامل . وهذا الشمول يهدد المؤسسات العسكرية والمدنية . فالشباب ضد الدولة : ضد الإدارة بكل أشكالها . . وهذا الشباب هو المستقبل . وحتى لا يضيع المستقبل لابد أن يتداركه الحاضر بسرعة .

ومن أعجب التقارير وأمتعها التى قدمت للرئيس الأمريكى تقرير عنوانه : التقرير المصور المقدم لرئيس الجمهورية من لجنة بحث الخلاعة والصور العارية . . التقرير فى ٣٥٠ صفحة كل صفحة من ثلاثة أعمدة وبالبنط الصغير . . وهو من أعمق وأجمل وألطف الدراسات التى قرأت فيها . فقد لاحظت هذه اللجنة بعلمائها المائة والأربعين . . أن ظهور الإباحية والصور الانحلالية العارية والأفلام الجنسية دليل على أن الشباب مصرٌّ على أن ينسحب من الحياة ، وأن يستغرق فى الجنس دون أن يشارك فى الحياة الإيجابية . . ويساعده على ذلك الكثير من المخدرات . . وأهم ما يساعده على ذلك : إهمال الأب والأم ويأس المدرسين ورجال الدين واستهانة الحكومة بكل ذلك . . وابتعاد علماء النفس والتربية عنهم . . فقد تركوهم يفكون عقدهم ويخففون توترهم وحدهم . . أما العلاج فيبدأ بأن تمتد الأيدى إليهم . وأن نعانقهم بحرارة وبعد ذلك نفسر لهم هذا المسلك الأبوى الذى يجب أن يسبقه الاعتذار الشديد عن الإهمال لهم . . وبعد ذلك يبدأ الحوار .

ومما اهتدت إليه هذه اللجنة أن عددًا كبيرًا من الشباب يصنعون التماثيل ويضعونها فى مكان مرتفع . أما المعنى فهو نوع من تقديس الذات . كرد فعل عن إهمال الدولة لهم ، واحتقار المجتمع لسلوكهم . . فهم ليسوا عظماء هكذا ، وإنما هم ينتقمون لأنفسهم ، ويعوضون أنفسهم بأنفسهم عن خسائرهم المادية والمعنوية – وهى قمة النرجسية!

ووجدوا التشخيص وعرفوا العلاج واستأنف الشباب دوره الإيجابى فى حياته وحياة بلده!

***

أما نحن - وهذا هو الأهم - فلم ندرس ما الذى أصاب المصريين بعد النكسة العسكرية؟!

أول غلطة وقعنا فيها أننا تكلمنا عن الهزيمة ووصفناها نكسة ، وعن الذين نكسونا وأسرفنا على أنفسنا فى ذلك حتى مللنا . . وضقنا بأنفسنا . ورحنا نطالب بأن نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب .

وهى غلطة لأن الملل سوف يدفعنا إلى أن نسكت . والسكوت إلى أن نتجه إلى شيء آخر غير فهم وتحليل ماحدث ودراسة أثره العميق فينا ، ثم علاج ذلك - كما حدث فى اليابان بعد ضربها بالقنابل النووية ، وبعد نكسة أمريكا فى فيتنام ، وبعد انتصار إسرائيل فى يونيو وهزيمتها فى أكتوبر .

والغلطة الثانية : أن ظهرت كتب «الاعترافات» . . والذين اعترفوا كانوا عسكريين . . اعترفوا بأخطاء غيرهم من العسكريين . . أى أن العسكريين هم الذين ارتكبوها . وليكن؟ فما هو أثر ذلك على الجنود وعائلاتهم وأولادهم وعلى المدنيين وعلى مصر فى السنوات التى جاءت بعد الهزيمة . . وعلى العشرين عامًا الماضية!

فلم نكن نعرف أن العسكريين أيضًا ، مثل المدنيين ذئاب يهاجمون بعضهم بعضًا . . ولم نكن نعرف أن حقد العسكريين على العسكريين يجعلهم هكذا يفضحون مصر على أعلى مستوياتها العسكرية ويعرضون أمنها للخطر . . لقد قال لى قائد عظيم إن ما كتبه الفريق فلان الفلانى يرقى إلى مستوى الخيانة العظمى ؛ لأنه بما كتبه قد عرض مصر لأكبر خطر فى تاريخها - ولكن أحدًا لم يحاكم الفريق الفلانى على خيانته العظمى رغم اقتناع رئيس الجمهورية بذلك!!

الغلطة الثالثة : أن أحدًا من القادة العسكريين قد صحح أخطاء القادة الذين اعترفوا بأخطاء غيرهم وبراءة أنفسهم! وفى ذلك الصمت دليل على القبول . . أو دليل على العجز . . وفى الحالتين نحن أمام خيانة عسكرية ارتكبها الذين نكسونا والذين فضحونا!

الغلطة الرابعة : أن المدنيين من هواة التاريخ والمؤرخين والأدباء قد تفننوا فى السخرية من الجميع . . فقد لاموا العسكريين ، ولاموا المدنيين على أنهم سكتوا . . ومازال المدنيون ساكتين ، وفى ذلك تأكيد للعجز العام عن فعل شىء أو فهم شىء!

وإذا حاولنا اليوم فى هذه الساعة ، أن نصحح التاريخ فسوف تواجهنا مشكلة كبرى وهى أن كتب الفضائح العسكرية قد سبقت إلى النشر باللغات الأجنبية . . وسبقها أيضًا الكتب التى أقامت المهرجانات للجيش الإسرائيلى والتحقير للجيوش العربية . . فقد أضعنا على أنفسنا فرصة أن نصحح وأن ننصف أنفسنا من أنفسنا . . فقد أقفل باب التصحيح! والتاريخ غير قادر الآن على استئناف الحكم فى الهزيمة العسكرية التى هى وكسة مدنية وكارثة نفسية وردَّة حضارية!

الغلطة الخامسة : هى أننا لا ندرى تفسيرًا لهذا التشرذم الدينى والسياسى فى بلادنا . ونظن أن سببه نقص الحريات الدينية ، أو أنه الأزمة الاقتصادية .

أما أن هناك سببًا دينيّا فليس صحيحًا . فنحن لا نشكو من نقص فى الدين أو الإيمان بينما «الجرعة» الدينية المتزايدة تنهال علينا من كل القنوات والبرامج والصحف .

فالدولة هى التى تتزعم التطرف الدينى . . فالتطرف الدينى تطرف رسمى ، أما الذى تراه فى الشارع فليس إلا «رد فعل» . . أما الفعل فهو عشرات الساعات فى الإذاعة والتليفزيون والصفحات عن الدين وأهوال القيامة . . أما أن هناك عناء اقتصاديّا وخللاً اجتماعيّا فلا شك فى ذلك . . ولكن «التشرذم» والتعصب . . والعصابات . . ليس إلا بسبب النكسة العسكرية . . التى أصابت كل إنسان بالهزيمة فى نفسه وفى بيته وفى بلده وفى جيشه وفى أمته بين كل الأمم . . انهزمنا . . قهرونا . مسحوا بنا الأرض وهتكوا العرض . وقالوا لنا : اشربوا من البحر الأبيض والأحمر والأسود . . واشربوا مياهًا ملوثة . . وموتوا بغيظكم . . فأنتم الذين جعلتم حكامكم فراعنة عليكم . . يضربونكم بالجزمة . . ثم تبكون على ذلك . . فأنتم قد أعطيتم والآن أخذتم ما تستحقون . . فلماذا الشكوى؟

وأمام القهر الشخصى والعائلى والاجتماعى والقومى ، يتراجع المواطن . . ويتراجع حتى ينكمش فى ركن من بيته . . وحتى تنكمش نفسه فى ركن من

جسمه . . وبعد ذلك يقوم بعمل تعويض لكل ذلك فيقول : أنا . . عائلتى وحدها . . مدينتى وحدها . . دينى وحده . . مصر وحدها . . نحن العرب وحدنا . . نحن المسلمين .

وهكذا يخرج من تعصب إلى تعصب . . وكل تعصب يحمل فى طياته سلوكًا فرديًا شاذًا ، وعداء اجتماعيًا : عداءه للآخرين . . وللعائلات الأخرى . . والديانات الأخرى . . والشعوب الأخرى . . وكراهية للغرباء رغم احتياجه لهم – وهذا هو اضطراب الشخصية الفردية والعائلية والدينية والقومية . . وأنه كفرد على حق والمجتمع غلطان . . أو أن الجماعة على صواب والجماعات الأخرى على خطأ . . ودينه هو الأصح ، وكل الديانات ضالة مضللة . . وقومه هم القوم ، ومن عداهم برابرة وحوش .

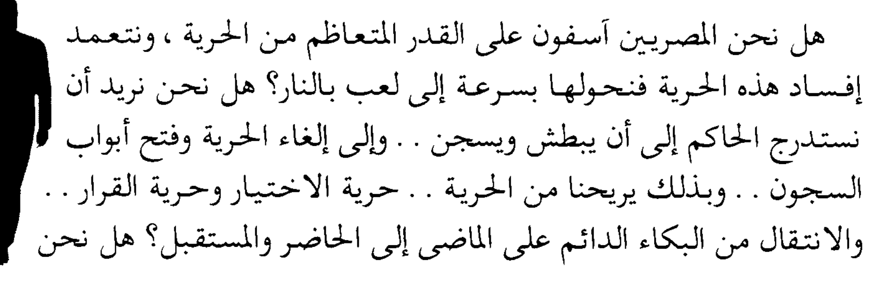
والفرد مليان بنفسه . . وإذا كان فى الجماعة . فلا يشعر بهم . . وإذا كان لاعبًا فى فريق ، فهو وحده الذى يأخذ الكرة ويجرى بها ليضعها وحده فى الشبكة . . فلا روح للفريق . . ولا روح للجماعة . . ولا روح للدين .

ومثل هذه «النرجسية» من علامات الطفولة أيضا . . فالطفل عندما تنمو شخصيته ، فهو يريد أن يكون وحده . . يلعب وحده ، يأكل وحده . . هو الذى يقرر وهو الذى يعارض الآخرين .

أما دور التربية والتعليم بعد ذلك فهو تحويل هذا الحيوان الصغير إلى حيوان اجتماعى يعتمد ويتعاون ويواجه الآخرين ثم يعيش معهم .

فهل ياترى نحن المصريين نريد أن نظل أطفالاً؟

هل نريد أن نبقى هكذا منفوخين قد امتلأنا غرورًا وفى نفس الوقت عجزًا ، دون أن تمتد أيدينا إلى أنفسنا نعالجها؟



هل نحن المصريين آسفون على القدر المتعاظم من الحرية ، ونتعمد إفساد هذه الحرية فنحولها بسرعة إلى لعب بالنار؟ هل نحن نريد أن نستدرج الحاكم إلى أن يبطش ويسجن . . وإلى إلغاء الحرية وفتح أبواب السجون . . وبذلك يريحنا من الحرية . . حرية الاختيار وحرية القرار . . والانتقال من البكاء الدائم على الماضى إلى الحاضر والمستقبل؟ هل نحن

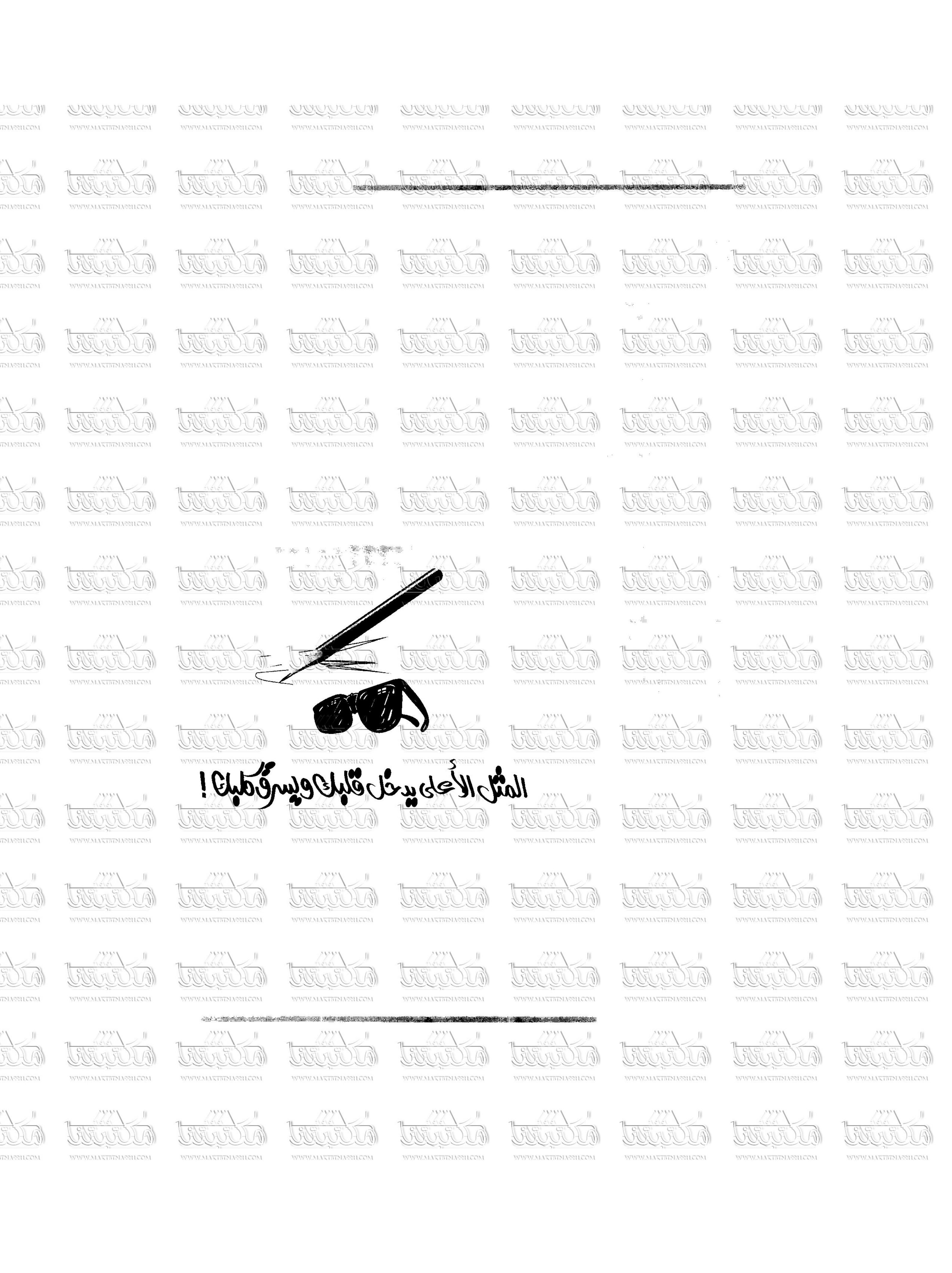
نحفر قبورنا بأظافرنا من أجل أن يظهر فرعون يلهب ظهورنا بالكرباج . . وبعملية حسابية نجد أن الكرباج الرسمى أرحم كثيرًا من كرباج الضمير ومن مشقة ممارسة الحرية؟

هل لو ظهر الفرعون نستريح إلى أننا نرى فيه أنفسنا : عظيمًا يبتلع كل العظماء - أو الذين يظنون فى أنفسهم العظمة . . حين تكون عصا موسى التى تبتلع الثعابين الصغيرة . . هل المصريون لسبب جهلهم بما حدث ، أى بجهلهم بأنفسهم وما أصابهم ، يريدون أن يريحوا أنفسهم وعقولهم بالتطلع إلى واحد يلغى العقل ويمحو النفس . . إلى واحد يطهر الأجسام والعقول بوضعها جميعًا فى النار . . فنموت أطهر وأنظف موتة - ولكننا نموت!

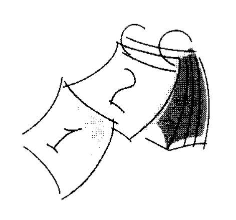
هل هذه رغبة مجنونة عميقة فى نفوسنا ، لميلاد من يحمل عنا كل الذنوب والندم ويكون مرة أخرى أكبر مجرم فى حق مصر والشعوب العربية؟

إننا لاندرى . . فلم يتبرع أحد من علماء النفس فيضع أصابعه على الداء الذى عمره الآن أكثر من عشرين سنة!

□□□


المثل الأعلى يدخل قلبك ويسرق كلبك!

المثل الأعلى يدخل قلبك ويسرق كلبك!



قال شاعرنا حافظ إبراهيم يعيب على الفلاحين المصريين أنهم يحلمون بأن يكونوا أفندية باكوات باشوات ، ومن أجل هذه الألقاب يهون كل شىء وكل أحد . . ولكنه يريد لبلاده أن تكون من المخترعين . . كاليابان مثلا :

وهل فى مصر مفخرة

سوى الألقاب والرتب

أرونى نصف مخترع

أرونى ربع محتسب

أرونى ، ناديًا حفلاً

بأهل الفضل والأدب

وماذا فى مدارسكم

من التعليم والكتب؟

وماذا فى مساجدكم

من التبيان والخطب؟

وماذا فى صحائفكم

سوى التمويه والكذب؟

فـــــهــــبــــوا من مـــــراقـــدكم

فـــــــــــإن الـوقـت مـن ذهـب

فـــــهــــــذى أمـــــة اليـــــابان

جـــــــازت دارة الـشـــــــــــهـب

فـــــهـــــامت بـالعـــــلا شـــغـــــفـــا

وهـــمـــنـــا بـــابـــنـــة الـــعـــنـــب

ففى ذلك الوقت كانت نوعيات المصريين أتراكًا وموظفين وفلاحين . . باشوات وأفندية وذوى الجلاليب الزرقاء . وكان المثل الأعلى هو أن يخلعوا الجلباب ويلبسوا البدلة والطربوش وألا يمسكوا فأسًا وإنما قلمًا . . ليكونوا فى خدمة الأتراك من الأسرة المالكة أو حاشيتها . . فالمصريون لا فيهم أديب ولا فيهم خطيب . . ولا هم من أمثال أبناء اليابان تقدموا الفلاحين والصيادين واخترعوا . لقد كانت اليابان - ولا تزال - مثلاً أعلى لكل دولة ناشئة ناهضة . .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كانت من أجل أنصاف ذوى الجلاليب الزرقاء من ذوى الياقات البيضاء ، أى الباشوات وحاشيتهم من الموظفين . .

وكان المثل الأعلى عند الفلاح أن يكون ابنه «أفندى» . . وأن يتوب الله عليه من الطين والترعة والشادوف . وأن يجلس على المكتب إلى جوار النافذة ، وأن يبقى فى القاهرة حيث الأتراك والبكوات والباشوات . من يدرى ربما صار واحدًا منهم . فالمثل الأعلى عند الفلاح الذى صار «أفندى» أن يكون «بك» . . والبك أن يكون باشا بشرط أن يأكلوا جميعًا من الريف من بعيد لبعيد . . أن تكون لهم أطيان ليعيشوا فى القصور . .

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ألغيت الألقاب . . ولم يبق منها الآن إلا لقب «باشا» نطلقه على كل الناس . . وفى توسيع استخدام هذا اللقب أصبح تافهًا . . أصبح حاجزًا بيننا . . فبدلاً من أن تقول لأى أحد اسمه الحقيقى تقول له : يا باشا . . وبدلاً من أن تقول فلان بك . . وقد يكون هذا وزنه أو حجمه فأنت تقول له : ياباشا . . وبذلك تعمل على إضاعة وزنه وحجمه . . وفى نفس الوقت «تمييع» صورته عندك . .

لأنك تريد ذلك ، ولأنك لا تعرف لأحد وزنًا حقيقيّا . . ولأن الناس جميعًا باشوات . .

سمعت من الملكة السابقة فريدة أن بوابًا كان ينقل لها إحدى لوحاتها فسألها : أين أضع هذه اللوحة يامدام؟

فقالت له : لا تقل لى يامدام . . قل لى أفندم . . أو قل لى جلالتك . . فقد سمعتك تخاطب بوابًا آخر وتقول له : ياباشا . . فكيف يكون هو باشا وأنا مدام؟!

وأصبحت كلمة باشا تساوى : فلان الفلانى . . فأنت باشا يعنى : أنت أى إنسان . . فهى ليست تحية لك . . وإنما هى إبعاد وتجهيل لك!

وفى السنوات الأولى للثورة كنا نقول لبعضنا البعض : ياسيد . . وكنا نطلقها بصورة مضحكة مهينة . . حتى ماتت على ألسنتنا ونبتت مكانها كلمة باشا . . ويا باشا!

وبعد ثورة يوليو انفتحت أبواب القرية على المدينة ، والعكس . . وانفتحت المدارس لكل الناس . . ابن الخفير وابن الوزير . . كلهم يريدون تعويضًا أدبيّا وماديّا عن الذى أصابهم . . كلهم يريدون أن يتعلموا وأن يتوظفوا . . فالوظيفة حق ، لأن التعليم حق . . والتعليم هو الطريق إلى الوظيفة . . وبدأ المجتمع المصرى يزحف ويتعالى ويتسامى على الأرض وعلى الطين وعلى الزراعة من أجل الوظيفة . . والفلاحون هم أيضًا تركوا الريف إلى المدينة . . وما زال النزيف الريفى يصب فى المدينة . . حتى ابتلعت المدينة كل القرى . . وبدلاً من أن تأكل المدينة من أيدى الفلاحين ، جلس الفلاحون إلى موائد الأفندية ينظرون الرغيف والخضار والفاكهة . . فالفلاحون تنكروا للأرض ، والأفندية تنكروا لآبائهم من الفلاحين . . وأصبحت الأغلبية الساحقة من الريفيين ؛ أى من الأفندية أولاد الفلاحين! فالفلاح هو الذى يضرب الأرض بالفأس ، والريفى هو الذى أبوه فلاح ولم ير الفأس إلا على شاشة التليفزيون!

سألتُ طفلةً صغيرةً أبوها من الفلاحين إن كانت قد رأت القبقاب فأجابت بسرعة : نعم مع طانط شجرة الدر!

تقصد أنها شاهدت ذلك فى فيلم شجرة الدر التى قتلت زوجها وقتلوها بالقباقيب!

وفى السنوات الأولى لثورة يوليو كان المثل الأعلى عند الشباب إلى جانب أن يكون طبيبًا وطيارًا أن يكون ضابط غواصة . . ليس فقط أن يكون فى الجيش ، وإنما أن يكون ضابطًا لا على الأرض ولا فى الجو ولكن تحت الماء . ليحارب العدو من أجل مصر . ولم يكن المثل الأعلى لأى أحد أن يعيش فى دمشق وبغداد . . أى ينتقل من مصر لأى سبب ، رغم دعاوى الوحدة العربية بين كل الدول . ولم تكن أحلام أحد أن يهاجر . كيف يترك العظمة المصرية وأحلام إمبراطورية صلاح الدين من المحيط إلى الخليج؟

ولكن بعد هزيمة ١٩٦٧ كانت كل أحلام الشباب أن يهاجروا . إلى أين؟ إلى أى مكان . . المهم أن يتركوا مصر . . الجمل بما حمل . . فلم تعد الحياة تطاق . وأقسى ما فى الحياة فى مصر : الكذب . . كله كذب . . لم يعد للكلام معنى . . لم تعد للخطب أية دلالة . . فالرجل الذى كان بطل أبطال العالم ، صاحب الأرقام القياسية فى وزن الهموم الثقيلة صار فى الحضيض السياسى . . كيف صدق الناس جمال عبد الناصر . . كيف ابتلع الناس الطعم خطبة بعد خطبة ، كيف أنام الناس ومغنطهم؟!

إن بعض الذين يديرون تسجيلات لصوته يندهشون كيف أنهم لم يكتشفوا هذه «الخنافة» الثقيلة فى أنفه . . كيف لم يكتشفوا هذه المرارة فى شفتيه ، كيف لم يتبينوا هذا الحقد فى عينيه ، كيف لم يدركوا أنه ليس إلا تمثالاً نصفيًا بعيد الكتفين ، والصدر يمشى على ساقين نحيلتين . . ولكنه الخوف والفزع والإرهاب والبطش جعل الناس يقفون عند عينيه ولا يدعون الله إلى الخلاص منه . . والذين لديهم تسجيلات لخطب هتلر أيضًا يندهشون كيف أن هذا الرجل الحاد الحركات والملامح ، الأجش ، والذى ليس عميق الصوت والنبرة ، استطاع أن يصيب شعبه كله بالجنون ، فيمشى وراءه حتى الموت سعيدًا بذلك . . كيف؟ إنها الرغبة العميقة عند الشعوب فى أن تمشى وراء من ينقذها ومن يخلصها . . فرغبتها العميقة وخوفها الغريزى ، هو الذى يجعلها لا تفرق بين الأشياء والدجالين . . فكان المثل الأعلى لكل مصرى هو أن يهرب من مصر . . فمصر لم تعد مصر . . وإنما مصر قد احتلتها قوات مصرية ، لها طعم القوات الأجنبية ، لها عنف الإنجليز ، وبطش اليهود ، وإن كانت تتكلم العربية بلهجة مصرية . لم تعد مصر هى البلاد المصرية . لقد أحس المصريون بأنهم غرباء فى بلادهم . . فلماذا لا

يختارون بلادًا أفضل؟ . . وسوف يبقون فيها غرباء أيضًا . ولكنهم فى بلادهم غرباء بلا أمل ، وفى البلاد الأخرى غرباء عندهم أمل!

سألت صديقًا مصريًا يعيش فى موسكو : كيف حالك؟

قال : غريب هنا وغريب فى مصر . . أقلية هنا وأقلية فى مصر . . ولكن أحدًا هنا لا يجعلنى أشعر بأننى غريب!

وهناك نوعان من الهجرة : الهجرة الطويلة فى أمريكا وكندا وأستراليا . . والهجرة القصيرة فى البلاد العربية . فالمهاجر إلى البلاد العربية عنده رغبة فى أن يعود وقد امتلأت جيوبه ، ليستأنف حياته فى مصر . . أو توطين نفسه فى وطنه . . فيتزوج وتكون له شقة وثلاجة وسيارة ويكون قادرًا على تربية أولاده . . وبعضهم رأى أن الهجرة إلى البلاد العربية كانت أقسى وأوجع . . فهذه الهجرة قد جاءت بعد الهزيمة العسكرية التى صدمت المصرى والعربى . . وكشفت كم هو «فشار» ذلك المصرى الذى أعلن أنه سوف يدخل تل أبيب فى ساعات ويستولى على القدس فى دقائق ويلقى باليهود فى البحر الذى جاءوا منه . . وينتهى كل شىء . . وبذلك يكون جمال عبد الناصر هو الطبعة المنقحة الأنيقة من صلاح الدين الأيوبى أو الإسكندر الأكبر أو نابليون . . أو هو أفضل من كل هؤلاء ؛ لأنه نابع من أرض مصر ، التى لا تنبت إلا القطن والدودة . . فهو خارق لكل قوانين الزراعة المصرية . . فهو «هبة» السماء إلى الأرض . . وبسرعة جعله المصريون نبيًا أو كأنه نبى . . وإن لم يكن مثل الأنبياء فهو خامس الخلفاء الراشدين . وهذه وظيفة ومرتبة يدخرها المصريون لكل حاكم خدمهم ، حتى يلقى مصير ثلاثة من الخلفاء الراشدين هم عمر وعثمان وعلى : فيموت قتيلاً!

وكان المصريون قبل الهزيمة العسكرية قد أجمعوا على أن المثل الأعلى هو أن يكون كل شاب ضابطًا طيارًا ، أى ضابطًا فى السماء يقتل العدو ويهرب ، وكان ما كان مما نعرفه . وقلنا فى ذلك الوقت إن الطائرات الإسرائيلية التى محقت الطيران المصرى ، كانت تقودها سيدات حوامل؟!

أى أن السيدات اليهوديات انتصرن على الرجال المصريين . . ولم يكن سيدات فى غاية اللياقة البدنية ، وإنما سيدات مريضات بسبب الحمل وانتظار الولادة . أى سيدات فى أضعف حالاتهن . وكان ذلك إمعانًا فى تعذيبنا وتحقيرنا لأنفسنا!

ولم نكتف بذلك وإنما صدقنا أننا استولينا على قطار مليء بالأسرى اليهود . . انتصار عظيم . . ولكن لكى نسلب هذا الانتصار من أنفسنا ، قالت الشائعات إن القطار كله مجندات . . أى أن إسرائيل حاربتنا برًا وجوًا بالنساء - أما الرجال فلم تجد داعيًا لتعبئتهم ضدنا - استمرارا في تعذيب أنفسنا وامتهان ذاتنا وتحقير قيادتنا وزعيمنا!

ولذلك كان على المهاجرين المصريين فى كل البلاد العربية أن يسمعوا الشتيمة وينظروا إلى الطعام الجيد الذى يأكلونه والسيارات المكيفة . وأن يقارنوا بين الذى هم فيه ، والذى هو فى مصر . . وكانوا يقررون جميعًا أن يأكلوا العيش بالجبن!

وأصبح المثل الأعلى عند المصريين فى الخارج : لا شأن لنا بالسياسة . نحن خبراء مصريون . أو خبراء يجب أن ننسى أننا مصريون!

وكان المصريون بعد الهزيمة العسكرية يسمعون الأشقاء يقولون لهم : يابتوع الفول . . يابتوع الطعمية . . يابتوع البلهارسيا!

والشاعر القديم يقول :

ولأم المخطئ : الهبل!

ما دام قد أخطأ فهو عبيط وأمه وأبوه!

ويقولون المثل : العجل وقع فكثرت السكاكين!

وكنت أقول : إذا انهزمنا فنحن مصريون ، وإذا انتصرنا فنحن عرب . .

ونحن منهزمون دائمًا . . فراعنة . . فلاحون . . وفى نفس الوقت نحن بالنسبة للعرب كالزواج : شر لابد منه لابد منا ولابد منهم!

ولا أحد فى مصر على كل مستوياتها يعرف عدد المصريين المهاجرين . . إنهم لا يقولون عند خروجهم من مصر إن كانوا مسافرين أو سائحين أو أن عشرات البلاليص قد انكسرت وراءهم حتى لا يعودوا . هم الذين اشتروا البلاليص!

وكأن الدولة لا تريد أن تعرف عددهم . . فهى لا تريد أن تبدى اهتمامًا بالذين تركوا لها البلاد وما عليها ومن عليها . . فهى لا تعترف بأن هؤلاء المهاجرين غاضبون ساخطون هاربون . . أو أن الدولة سعيدة بذلك . . فالباب يسع الجمل وما حمل . . أو السكة التى تودى . .

فالفلاحون هجروا القرية إلى المدينة . . ثم هجروا القرية إلى المدن الأجنبية ، دون أن يتوقفوا لحظة فى أية مدينة مصرية! الفلاحون هاجروا إلى العراق . . يقال مليون ويقال اثنان ويقال ثلاثة . . والصيادون المصريون هاجروا من دمياط إلى الجزر اليونانية . . والصيادون اليونانيون تركوا لهم البحر ليعملوا سائقى تاكسى . وسائقو التاكسى ليعملوا جرسونات فى الفنادق التى هجم عليها المصريون هربًا من مصر . فاليونان أرخص وأنظف وأجمل!

لقد كانت الهزيمة العسكرية مثل طوفان نوح ، خربت بعده الأرض ونجا القليلون مع نوح . . فنوح عليه السلام هو «آدم الثانى» الذى بدأت به البشرية حياة جديدة . . وتفرق أولاده بين القارات . . تمامًا كما حدث بعد «سيل العرم» فى اليمن تفرقت بعده قبائل خزاعة وغسان والأزد والأوس والخزرج . ولكن المصريين المنكوبين فى عقولهم وقلوبهم وأحلامهم تفرقوا وتشرذموا على أرضهم . . فإذا كان لابد من الهوان والإهانة فلتكن إهانة وطنية . . إهانة إخوتهم المصريين لهم أوقع وأوجع . والشاعر يقول : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة . . والمثل الشعبى يقول : الدخان القريب يعمى . . والعيار القريب يدوش . . وقد اشتدت مضاضة ومرارة المصريين الذين أعمارهم دخان ونار أقاربهم . ولكنه أرحم من دخان ونار الأشقاء العرب!

وكل الجماعات الدينية مهاجرة من مصر إلى مصر . . كلهم رافضون ساخطون غاضبون . . اقتلعوا جذورهم بأيديهم من الأرض الخصبة . وأعادوا زراعتها وشتلها فى الكهوف المظلمة وعلى أطراف الصحراء . . إنهم مهاجرون من مصر إليها . . تمامًا كما تضرب طفلك فيلوذ منك إليك!

فما المثل الأعلى؟

عند الفلاح : أن يكون «أفندى» .

وبعد الثورة : أن يكون الأفندى جامعيًا . .

عند الجندى : أن يكون ضابطًا . .

عند جندى الشرطة أن يكون : أمين شرطة . . عند أمين الشرطة أن يكون ضابطًا . . عند ضابط الجيش أن يكون مثل ضابط الأمن لا يحال إلى المعاش فى الخمسين؟!

جاءت ثورة يوليو واقتلعت ملكًا واحدًا وعينت مائة ملك . . ألف ملك . . وضعت على رءوس كل المؤسسات ملوكًا وأمراء من لابسى الكاكى . . لماذا؟ إنهم الذين أشعلوا الثورة ولابد من المكافأة . والمكافأة أن يظلوا فوق . . فوق كل المدنيين ، دون ثقافة أو علم أو كفاءة!

ولذلك كره المدنيون أن يكونوا مدنيين . . فلا أمل عندهم ؛ لأن السقف قد هبط فوقهم كتلة من الخرسانة المسلحة ، لايحق لهم أن يخترقوه أو يتطاولوا إليه أو عليه . . وكرهوا أن يكونوا عسكريين . فما الذى فعله العسكريون بمصر . . فالعسكريون بعد الهزيمة العسكرية قد أهينوا مرتين : مرة فى الحرب عندما واجهوا إسرائيل ومرة عندما عادوا يواجهون الشعب . .

ولكن العسكريين شعروا بالارتياح عندما خرجت المظاهرات «المفبركة» من المدنيين تطالب الرئيس جمال عبد الناصر أن يبقى رغم الهزيمة . . لقد شمت العسكريون فى المدنيين الذين ارتضوا الهزيمة . . وطبلوا وزمروا ورقصوا : فداك ألف هزيمة وهزيمة ياريس! وكانت المظاهرات نوعًا من «الزار» القومى . . ألوف يضربون أنفسهم بالجزم والسيوف حزنًا على النكسة ، وحزنًا على أن قائد النكسة فكر لحظة واحدة فى أن يلقى المصير الذى يستحقه من الشعب . . كيف يفكر فى ذلك؟ صحيح أنه هو الذى انفرد بالتفكير لكل الناس والتدبير لهم . . فهو الذى خلع الملك وخلع العقل أيضًا . . لقد ترك الأمر للشعب . والشعب لا أمر له ولا رأى . فالرأى رأيه والأمر أمره . ولذلك كان قرار الشعب هو قراره هو . وأمره هو . فقال بلسان المتظاهرين : يجب أن أبقى . وبقى وأحس الناس الطيبون أن المظاهرات استفتاء شعبى حر بعودته إلى قيادة مصر من هزيمة إلى هزيمة . . ومن كفر به إلى كفر بأنفسنا . وضاعت كل الطرق وكل القيم ، ثم مدلول الكلمات والشعارات . . وعجز الناس عن التفكير والتدبير والتقرير . . وعن البقاء وعن الهجرة . فكان الحل الوسط الذى هو انعدام القرار أو هو تعليق الحكم : أن يبقوا وكأنهم ليسوا فى مصر ، وأن يهجروا مصر إلى مصر!

وداخ الأطفال والشباب بين بابا جمال والبطل جمال وبين مهندس الهزيمة ونقص المناعة النفسية والجسدية والقومية . ضاعت الحقيقة . ولا تزال ضائعة . ماذا حدث؟ كيف حدث؟ ماذا قلنا للأطفال ماذا بقى للشباب؟

وجاء أنور السادات يصحح كل الأخطاء والخطايا . . وفى ثلاث سنوات عرفت مصر أعظم انتصاراتها . . وأروع أمجادها العسكرية . ولكن كان النصر مثل زفاف عروسين فى غرفة الانعاش . . صدمة قوية بعد صدمة أقوى . . لكمة فى الرأس ولكمة فى القلب . . حضن حار حطم الضلوع . . وتوالت انتصارات السادات داخليا وخارجيًا . . وكانت مثل باقات الورد فى غرفة مريض . . العطور قوية ولكنها خانقة؟!

قال شوقى : الموت بالزهر مثل الموت بالفحم!

أى دخان الفحم قاتل ، مثل الزهور الكثيرة إذا تنفست ثانى أوكسيد الكربون . فهو قاتل أيضًا!

وإغراق إنسان فى طمى النيل ، مثل إغراقه فى بانيو من الشمبانيا . كلاهما مميت!

وارتبك الناس مرة أخرى . ما المثل الأعلى؟ ماذا تريد لنفسك ولأولادك ولبلادك؟

انفتحت أبواب مصر . . دخلت البضائع والفلوس . . انتعشت التجارة والصناعة . كل الناس يريدون أن يكسبوا الفلوس . . صنم جديد كنا قد نسيناه . . أحسسنا كأننا بنو إسرائيل تركهم موسى ليكلم ربه . . ثم عاد موسى ومعه وصاياه العشر : لا سرقة . . لا قتل . . لا زنى . . ولكن وجد قومه قد اهتدوا إلى سر الكون : جمعوا الذهب وصنعوا منه تمثالاً يعبدونه!

وأمام الذهب يذوب الحديد والحدود . وتناولت القصص والمسرحيات والأفلام عريس المستقبل . . العريس المثالى : وكان على الفتاة الجامعية وعلى الأسرة كلها أن تختار بين الأسطى الغنى صاحب الشقة والفيديو وبين الجامعى المفلس إلا من آماله الكاذبة وغضبه النبيل وإيمانه بتدخل السماء عند آخر لحظة . واختارت أسرة الفتاة : الأسطى صاحب العمارة القادر على أن يكون أبًا لأولاد يتعلمون فى مصر وخارجها!

وكان ذلك بداية وتعميقا لأزمة ثقة بين الشباب وبين الدولة :

هل زواج الجامعية من غنى جاهل معناه أن التعليم لا قيمة له . . وأن المثل الأعلى عند الشباب بأن يكون جامعيًا كلام قديم . . كلام فارغ؟! فكأن الدولة تعلم

الناس مجانًا لتخلق منهم ساخطين متعلمين وكافرين جامعيين . . ثم تطل عليهم من تليفزيون الدولة وصحفها وتخرج لسانها وتقول لهم : كما مات آباؤكم بغيظهم ، عيشوا أنتم بغيظكم!

وبسرعة انقسم الجميع نصفين : أناس عندهم فلوس ، ولذلك فعندهم كل شيء آخر . . وأناس جامعيون مفلسون وليس عندهم أى شيء ، إلا السخط على الدولة وعلى أنفسهم . . وإلا التربص بالجميع!

لقد وقف رجلان فى مواجهة الشعب المصرى والعربى :

عبد الناصر والسادات . .

أيهما البطل . . هل المنهزم كان على حق ، والمنتصر كان خائنًا . . الذى أعطى إسرائيل كل الأرض وكرامة مصر وعزة العرب . . أو الذى استرد الأرض والعرض والكرامة والثراء ووعد بالسلام والرفاهية . .

وعبد الناصر مات مسمومًا؟

والسادات قتيلاً!

فما هو الثواب وما هو العقاب!

وما هذا البلد الذى يقتل أبطاله ويبكيهم؟ وما هذا الشعب أيضًا؟ وما هذا العنف فى رواية التاريخ؟ وما هذا العنف فى مسح التاريخ؟ وما الذى يريده الشباب لنفسه ولبلده ومن بلده؟ من الذى قهره على أمره؟ من الذى أكرهه على دينه؟ من الذى أطال أظافره خناجر ، وجعل دينه «ديناميت»؟ .

ولماذا كل ناجح غشاش؟ .

ولماذا كل غنى لص؟ .

وكيف ينجح الناس؟ وكيف يصبحون أثرياء؟ ما هى قواعد النجاح؟ ما هو هدف النجاح؟

النجاح : فلوس وشهرة وسلطة . .

والنجاح : يشترى كل السبل من أجل استمراره . ولو كان ذلك على جثث الآخرين من الفقراء والأبرياء . .

الفلوس من أى طريق ومن كل طريق . . والفلوس كالأسمدة لابد من نثرها فى كل مكتب ، وبذرها فى كل أرض . . ولابد من الرشوة وشراء العلاقات والخطوات وكل المواصلات إلى الشهرة والسلطة!

واختلط على الناس كل شىء :

لقد جاء عليهم وقت يقولون إن الهزيمة العسكرية وفرت لهم الطعام والشراب . . أى أن الهزيمة العسكرية كانت خيرًا على الفقراء!

وكانت الهزيمة كالانفتاح الاقتصادى أيام السادات : الدكاكين مليئة بالبضائع والجيوب مليانة بالفلوس . .

ولكن الهزيمة كانت أفضل فلم تكن لنا صلة بإسرائيل ، أما الانفتاح فقد ملأ البيوت بكل أنواع الأطعمة ، ولكن جعلنا نتفق مع إسرائيل فيغضب كل العرب . .

مغالطة كبيرة وقعنا فيها ، وعندنا استعداد للوقوع فى المغالطات لأننا لا نفكر . . لأن عقولنا قد نزعت منا منذ وقت طويل . . هى الأخرى أمموها وصادروا معها الأمل فى أى شىء وأى أحد . . فقد صدرت الأوامر بملء أفواه الناس بالطعام . . وإذا امتلأ الفم استحت العين أن ترى ، وإذا رأت أن تقول ، وإذا قالت أن يكون همسًا . . وألا تكون نكتًا ، فالرئيس عبد الناصر هو أول حاكم فى التاريخ طلب من الشعب ألا يطلق نكتًا على الجيش . . ولم تكن على الجيش وإنما على قيادة الهزيمة العسكرية والخديعة الوطنية!

ارتبك الناس واختلطت عقولهم وتداخلت آمالهم وهذيانهم ، وتحيرت فى أيديهم أدوات اغتيالهم لزعمائهم . . وتلعثمت الأقلام تلطخ تاريخ مصر الحديث بين العدوان على عبد الناصر سنة ١٩٥٤ والعدوان على السادات سنة ١٩٨١ . . وقبل ذلك بعد اغتيال النقراشى باشا والإمام حسن البنا . . ثم اغتيال أجهزة الأمن القومى ، ووزراء الداخلية!

ياناس ياهوه . . لقد توضأنا ونريد أن نصلى : أين القبلة؟ أين الإمام؟ ما الصواب؟ ما الخطأ؟ ما الوطنية؟ ما الخيانة؟ ما الأمانة؟ ما النجاح؟ ما السعادة؟ ما الحل؟ .

لقد حاول عبد الناصر والسادات أن يحققا نوعًا من التوازنات العنيفة . . استعان عبد الناصر بالشيوعيين لضرب الإخوان . . لقد اختل التوازن بعد

الهزيمة . . واستعان السادات بالإخوان لضرب الشيوعيين فقد اختل التوازن بعد النصر . . إنها قصة الفئران والقطط فى أستراليا . . عندما استشرت الفئران تأكل الطيور والحقول ، استوردت أستراليا القطط تأكل الفئران . . فأكلت الفئران وانتقلت تأكل الطيور والأطفال الصغار . . فأتوا لها بالكلاب تطارد القطط ولكنها تأكل الأرانب ، وتحولت الكلاب إلى ذئاب . . ولم يتحقق التوازن العاقل بين قوى البيئة . . وفى الهند عندما انتشرت موضة الشنط والجزم من جلد الثعابين فى أوروبا وأمريكا ، هجم الهنود على ملايين الثعابين يقتلونها ويبيعونها . . وفجأة أحس الهنود أنهم ارتكبوا غلطة قاتلة لملايين الهنود . . فالثعابين كانت تأكل الفئران التى تأكل حبوب القمح والذرة . . فلما اختفت الثعابين انفردت الفئران بكل المحاصيل . . ولذلك حرمت حكومة الهند قتل الثعابين لكى تأكل الفئران فلا يموت ملايين الهنود من الجوع . .

لقد قام عبد الناصر والسادات بتقليب المجتمع وتأليب فئاته بعضها على بعض . لعبة خطيرة . وأخطر من هذه اللعبة أننا انتقلنا من حرب مع إسرائيل إلى حرب مع مصر . . انتقلنا من حرب محدودة معروفة الملامح ، إلى حرب داخلية سرية حدودها بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين أسرته وجامعته ومجتمعه وبلده . . بين دينه ودنياه . فطالت لحى الشباب وتبرقعت الفتيات . .

ولكن المثل الأعلى لهذا المجتمع التجارى الصناعى - أو الذى يحاول أن يكون كذلك - هو الخطف . . الخبطة . . اللطشة . . المكسب السريع . . والهرب بعد ذلك . . وأصبح الخطف معادلاً للشطارة . . والشطارة هى الذكاء . . وأصبح اللص الفاشل هو الذى يقع فى قبضة البوليس ، أما اللص الشاطر فهو الذى يشترى أمنه وأمانه ، ويبقى بعيدًا عن العيون والآذان . . فاللص الضعيف هو الذى يجب ألا يكون ، وإنما اللص القوى ، هو أيضًا اللص الشريف ؛ لأن أحدًا لايدرى به . .

وامتلأت الدنيا باللصوص من التجار والشطار والساسة . ولهم جميعًا صفة واحدة : خداع الناس!

وعند الإغريق إن للتجار واللصوص والخطباء والساسة ربًا واحدًا ، هذا الرب اسمه : عطارد . . هذا الرب عنده قدرة فريدة على أن يظهر وأن

يختفى . . وأن يتخذ أى شكل : إنسان . . حيوان . . نبات . . جماد . . وهذا الإله الإغريقى هو الذى اخترع القيثارة بأوتارها . . فهو قادر على أن يخدع وأن يكذب وأن يغالط وأن يقنع وأن يبهر . . وأن يسرق أيضًا . . وشعاره : أن يدخل قلبك ويسرق كلبك! وعيده هو شهر يونيو من كل عام ، ففى ذلك الشهر يمشى التجار واللصوص والساسة فى طوابير يقدمون القرابين لهذا الرب ويستغفرون لأخطاء عام مضى ، ويطلبون معاونته على خطايا عام قادم . . وكان يعدهم بذلك . فهو يعلم أن اللصوص لا يتوبون ، وأنه هو شخصيّا يسرق الكحل من العين ، والبريق من النجوم ، والحرارة من الشمس والرحمة من القلوب . . وهو القادر على أن يحول الوردة تلقيها إلى من تحب ، إلى سهم يصيب القلب!

***

ما الذى أصاب الناس؟

تسأل أى واحد : ماذا تريد؟

ويكون جوابه : وحياتك ولا حاجة . . الستر . . وأربى العيال!

كأنه غلطان لأنه تزوج وكأنه غلطان لأنه أنجب أطفالاً . . وهو لا يطلب إلا أن يكون مستورًا أمام أولاده فلا تفضحه ملابسهم الممزقة ، ومصاريف الدروس الخصوصية ، وأن يجدوا عملاً بعد التخرج . فقط أن يجد شباكًا يقفله إذا نام ، وبابًا يغلقه إذا أكل ، وأن يضع أولاده على أول الطريق والباقى عليهم . . فقد قام بما عليه . . ويا الله حسن الختام!

وكما ترى فهو لايعمل ولم يعمل ولا يريد أن يعمل . . فقط أن يعيش على الحد الأدنى من أى شىء . . وإن أراد أولاده أن يعيشوا أفضل فهذا شأنهم . ولكن كيف يعيش الأولاد أفضل ، وإذا كانوا غير قادرين على أن يغيروا دنياهم؟ فلا دخل لهم فى الذى حدث . . فكيف يغيرون ما لم يرتكبوا؟ وكيف ينجحون وقد انسدت أمامهم كل أبواب الأمل فى شىء أو إلى شىء!

قيل : الأمل فى الأرض . .

قيل : الزراعة كنز لا يفنى!

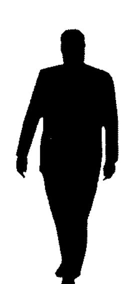
وما أوسع أرض مصر . ولكننا نحن الذين نضيقها . . ونشدها علينا ونخنق بها أنفسنا . . نحن نأكل الأرض المزروعة ونبنى فيها البيوت أو نبنى عليها البيوت . . وإذا أعطينا الشباب أرضًا وأملاً ليزرع ، عدنا وخنقناه فى أرضه وعلى أرضه . . فكأنه فاتنا أن نخنقه على الأرض المزروعة ، فانتظرناه حتى يصلح أرضًا جديدة لنقطع عنه الماء والنور ونطلق عليه جراد الضرائب والمجتمعات الجديدة والإصلاح والكهرباء والرى وهى الآفات الجديدة لكل المجتمعات الشابة . . وتبقى الأرض ، كما كانت من ملايين السنين . . أما الذى يذبل شكلاً ومعنى فهم الشباب .

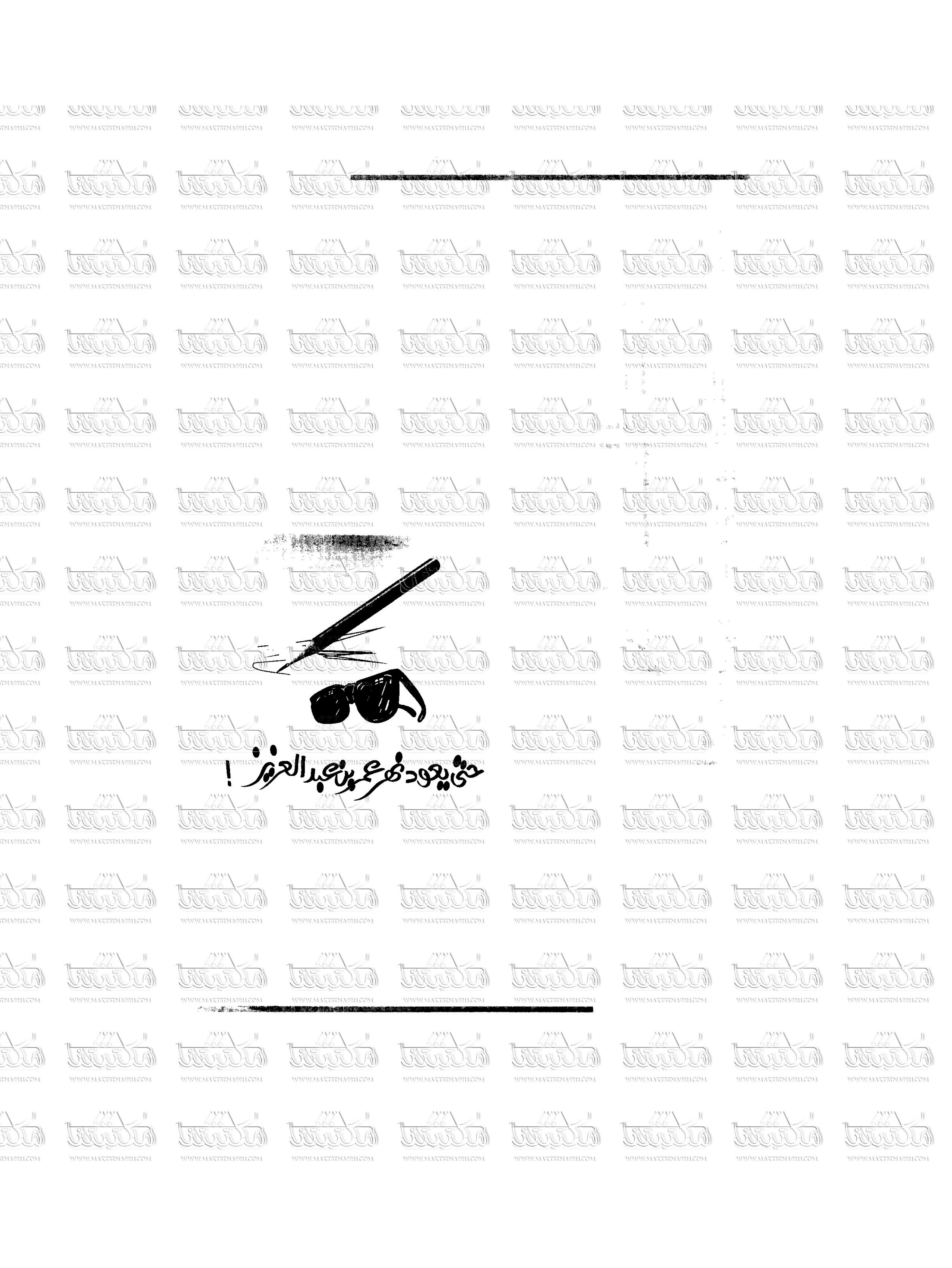
ياناس ياهوه . . ارفعوا أيديكم عنهم واتركوا أيديهم تعمل وتزرع . . واتركوا عقولهم تفكر ، وقلوبهم تخفق ، وآمالهم ترفرف . . أعيدوهم إلينا ، حتى لا يهجرونا ويكفرونا . . أعيدوا لهم «المثل الأعلى» . . والقيم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية . .

إن الإغريق قالوا قديمًا : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب!

وأرضهم تتحرك يمينًا وشمالاً وأعلى وأسفل ، وهم أيضًا . فبالله كيف ينبتون على أرضهم . . وكيف يثمرون أملاً ونورًا فى مستقبل مصر؟!

□ □ □




حتى يعود عمر بن عبد العزيز !

حتـــى يعــود
نهر عمر بن عبد العزيز!



كان ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ فى طهران . وكان المتحدث هو ستالين . قال كثيرا عن بلاده وعن استعداد القوات السوفيتية لخوض كل أنواع الحروب . وأنه سوف ينتصر حتى لو انهزم الحلفاء جميعا . . واقترب من تشرشل أكثر وأكثر وقال : حتى لو انسحبت بريطانيا من الحرب . . فإن الجيش السوفيتى سوف يجتاح أوروبا كلها وسوف يدق باب مكتبك ويوقظك من نومك السعيد!

وأحس تشرشل أن ستالين يكذب ، وأنه يريد أن يوهم تشرشل أن روسيا قوية لهذه الدرجة . وأنه لايثق فى الإنجليز . فقال له تشرشل : اسمع ياسيدى إن الحقيقة ثمينة جدا لدرجة أنه من الضرورى أن تحشد لها جيشا من الأكاذيب لحمايتها!

ومعنى ذلك أنه يقر ستالين على كل هذه الأكاذيب . ويراها ضرورية فى الحرب . وهذا ما فعله تشرشل نفسه . فعندما هاجمت القوات اليابانية حامية بريطانية فى سنغافورة لم يجد اليابانيون إلا ثلاثة جنود . . بينما كانت الإذاعة البريطانية تؤكد أنها حامية القدر . . وأن اليابان سوف تفنى جميعا عند أبوابها ولن تدخلها!

ولكن الذى قاله تشرشل كان مجرد إحساس الزعيم السياسى الذكى بالأزمة التى تعانيها بريطانيا والحلفاء . . وأمام الاستعداد الهائل للألمان كان على الحلفاء أن يحاربوا بهذين الجيشين : قواتهم المسلحة وأكاذيب الدعاية التى تحمى حقيقة هذه القوات!

وفى ذلك الوقت كان الألمان قد اهتدوا إلى نظرية جديدة فى السياسة والدعاية والحرب . هذه النظرية هى التى ابتدعها وزير الدعاية النازى جوبلز . النظرية تقول : إذا كانت هناك أزمة ، فمن الضرورى جعلها أعمق وأقوى . . حتى يشعر المواطن بأن هذه الأزمة مزمنة ، وأنه لا خروج منها . فإذا كان هذا إحساسه فمن الواجب إظهار المعجزة . والمعجزة هى الحل ، فإذا انحلت عاد اليقين إلى الشعب بأن القيادة ما تزال قادرة على المعجزات ، قادرة على النصر على العدو . .

أو بعبارة أخرى : إنها نظرية الشحن والتفريغ . . أى شحن الناس بالأزمة حتى تتفجر جوانبهم أو تكاد . . ثم حلها . ويكون لهذا الحل دوى . ويكون الدوى دليلا على القدرة والانطلاق!

ففى سنة ١٩٤٢ استطاع مونتجمرى أن يتغلب على القوات الألمانية فى العلمين . إنها بداية النصر الإنجليزى والهزيمة الألمانية!

والقيادة الألمانية أمامها عدة بدائل :

إما أن تعلن أنها انهزمت تماما . .

وإما أنها تتراجع لتنظم خطوطها ، وأنها سوف تنتصر حتما . .

وإما أن الانسحاب وبداية الهزيمة الألمانية فى شمال إفريقيا هى سياسة عليا لتتمكن القوات الألمانية من مواجهة الحلفاء فى أوروبا .

ولكن وزير الدعاية الألمانى كان لديه بديلان فقط :

أن يعلن أن الهزيمة تمت وكان روميل على رأس القوات الألمانية . . أو يعلن أن الهزيمة تمت وكان روميل غائبا فى أوروبا يفتش عن الاستحكامات ويدعمها . . أى أن الهزيمة وقعت بسبب غيابه عن الجبهة ولو بقى روميل فى الجبهة ما استطاع مونتجمرى وجنوده أن ينتصروا على الألمان!

ولم يتردد هتلر فى أن يعلن أن القوات الألمانية تنسحب لأنها انهزمت . دون ذكر لغياب روميل!

أما المعنى فهو أن هتلر يريد أن يقول أنه انهزم مع وجود روميل . فالهزيمة لاشك فيها . وأن على الجنود أن يدركوا أن روميل الأسطورة من الممكن أن ينهزم . وقد انهزم!



وكان ذلك هو القرار الصحيح ؛ لأنه لو أعلن أن الهزيمة تمت فى غياب روميل ، لتساءل الجنود ، ولماذا غاب؟ ومن هذا الجاهل الخائن الذى أصدر قرار غيابه؟ ولابد من عودة روميل ليحقق النصر . وعلى ذلك يطالب الجنود بضرورة أن يعود القائد الأسطورة . فلماذا لم يعد القائد؟

والحقيقة أنه غاب عن الجبهة . . ولكن ليس من المصلحة أن يقال ذلك . وإنما الكذب أسلم . لقد انهزمت ألمانيا . وليس من الضرورى أن يعرف الناس ما الذى حدث بالضبط . . وإنما سوف يجىء وقت ليعرف الناس تفاصيل ما حدث!

هذه النظرية هى القاعدة الأولى لنظرية أوسع اسمها : نظرية إدارة الأزمات . . فن إدارة الأزمات . .

وقبل أن أقارن بين الذى حدث فى هزيمة سنة ١٩٦٧ عندنا والذى حدث عندهم ، فإنه يجب أن أشير إلى ما فعله الأمريكان فى إدارتهم لأزمة فيتنام - هزيمتهم فى فيتنام - لقد استخدم الأمريكان قوات ضخمة وأحدث أسلحتهم الفتاكة للإنسان والحيوان والنبات . ورغم كل ذلك انهزمت أمريكا .

فكيف أدار الأمريكان هذه الأزمة؟

كان عندهم هدف أهم من الحروب . هو أن يظل الشعب الأمريكى والعالم كله يصدقهم . يجب أن يصدقهم الناس مهما حدث . فالهزيمة والنصر تجيئان فى الدرجة الثانية . أما الذى يجىء فى المقام الأول فهو أن أمريكا لم تكذب . ولن تكذب . وأنها سوف تصارح العالم بما حدث . . يجب أن يصدقها الناس فى الحرب القصيرة والسلام الطويل . . يجب أن يصدقها العالم كله . . التاجر الأمريكى والمهندس والمدرس ورجل الدين والسياسى والرئيس ورجاله . . يجب أن يصدقهم الناس إذا تحدثوا عن الهزيمة وعن ويلاتها وأثرها العميق على الشباب وعلى صورة البطل الأمريكى والأمل الأمريكى .

وهكذا خرجت أمريكا منهزمة عسكريا منتصرة سياسيا فى معارك فيتنام . وعندما ثار عليها الشباب وتظاهروا ضدها ، أعلنت أن الشباب على حق ، إنها هى التى أخطأت فى إحدى عمليات الحساب ، لا فى كل الحساب . . وانتهت أزمة فيتنام لصالح الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى أيضا!

بينما فشلت أمريكا قبل ذلك فى معركة خليج الخنازير أيام الرئيس كنيدى . فكان الذى يهم الرئيس كنيدى أنه انتصر وسوف ينتصر . أما الحقيقة فلم تكن تهمه . فكذب ورجاله أيضا . ولم تؤد الصواريخ السوفيتية فى كوبا إلى اختلال فى توازن الرعب النووى بين الشرق والغرب!

فماذا كان يحدث لو أعلن الرئيس عبد الناصر أننا انهزمنا عسكريا سنة ١٩٦٧؟ وأنه هو المسئول عن الهزيمة . أو أعلن أننا انهزمنا . وترك لنا أن نفهم أنه هو الذى انهزم - أى هو ورجاله وكل استراتيجية الحرب وتكتيكات الدفاع . . وأن الهزيمة ليست نهاية مصر ولا نهاية الصراع بين مصر وإسرائيل . . وأن الحرب لابد منها ، وأن التعبئة العامة مؤجلة . . . إلخ . . وترك حكاية الفاعل الحقيقى للهزيمة إلى ما بعد سنة أو سنتين . . لو حدث لتغير الكثير جدا فى ظروف مصر العسكرية والسياسية . وأهم من ذلك ما تركته هذه الصاعقة الصريحة الجريئة من أثر على حالتنا الاجتماعية والنفسية .

ولكننا لم نكن نعرف نظرية تشرشل ولا فلسفة جوبلز . . وإنما كان الارتجال والحداقة والفهلوة هى التى جعلتنا نشير إلى عبد الناصر الذى يشير إلى عبد الحكيم عامر الذى يشير إلى صلاح نصر الذى يشير إلى اعتماد خورشيد - اقرأ مذكراتها؟! . . فلا أحد فيهم مسئول عن الذى حدث . . ولكنه شخص ما ، رجل أو سيدة ، مصرى أو أجنبى أو عفريت هو الذى أدى إلى الهزيمة العسكرية .

ولو كان جوبلز وزيرا للإعلام المصرى ، لقام بتعميق الشعور بالأزمة . . حتى تتمكن الأزمة من كل النفوس . . ومع الأزمة حزن الزعيم على الذى كان . . على الخيانة الأمريكية للشعوب العربية كلها والشعب المصرى بصفة خاصة ومحاولة القضاء على الزعيم ودفنه حيا بين جنوده . ويكون الحداد شاملا والحزن عميقا . وفجأة بعد أن يتأكد لدى الناس أنها الهزيمة ، وأن القتال سوف يستمر بأسلحة أخرى ، يعلن أن الزعيم لم ينهزم ، وإنما هى غلطة من غلطات الزعيم - الذى لا يخطئ - إنه كان عميق الثقة بأعز أصدقائه . ويتجه الناس إلى الصديق الخائن . . فالصداقة من الممكن أن تؤدى إلى الخيانة ؛ أى من الممكن أن يخونك أقرب الناس إليك . . ومن الممكن أن تعميك الثقة بالصديق ، وأن يعميك الصديق عن أن ترى

الحقيقة . . حقيقة الصديق وحقيقة الواقع . . وهكذا يؤدى كشف الغطاء عن الحقيقة إلى انهيار الأخلاق أيضا . . ويصبح الانهيار تاما : عسكريا وأخلاقيا واجتماعيا واقتصاديا .

وفى مواجهة هذا الضياع المفاجئ لابد من التلويح بأطواق النجاة . ومن أحق الناس بأن يكون «نوح» الجديد غير الزعيم . . إنه زعيم الحرب زعيم السلام . . إنه هو الذى هدمنا ، وهو الذى سوف يبنينا . . وهو الذى أماتنا وسوف يحيينا ، وهو الذى مسح بنا الأرض ، وسوف يمسح بنا السماء . . إنه وإنه – ولحسن الحظ لم يحدث كل ذلك . وإنما حدث استعراض ركيك لفن مسرحى هزيل جدا . عندما حشد الزعيم رجاله يطبلون ويزمرون ويطالبون بعودته : ولا يهمك الهزيمة ولا ألف هزيمة ياريس . . اركب ياريس . . خدودنا مداس ياريس . . وضربك لنا بالجزمة شرف ياريس!

وكل هذا لايهم ، سواء كان تطبيقا ناجحا أو فاشلا ، لنظرية ادارة الأزمات ، ولكن الأخطر ، ولا يزال خطيرا ، هو أننا لم ندرس ، لم نفهم ، لم نحلل ماذا حدث فى مصر بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وبعد انتصارنا سنة ١٩٧٣؟ – فكما كانت الهزيمة – فالنصر كان أزمة أيضا . فقد خلقت موقفا معقدا . وقد تضاعفت العقد وكبت بعضها البعض ، حتى أصبح من العسير علينا أن نعرف البداية والنهاية . . وأن نعرف أين نحن وأين كنا والى أين .

وكما أن هناك أجهزة للردار فى الطائرات ترسم شكل الجو . . شكل السحب ومواقع المطبات الهوائية والشحنات الكهربائية . . فيستعد الطيار . . والركاب بربط الحزام وعدم الحركة . . أو بالدعاء والصلاة . . فهناك موقف آخر للطيار نفسه . . كيف يدخل المطب وكيف يخرج منه . . ويكون اتجاه الريح معاكسا ، ويكون اتجاه الريح مناسبا . . وتكون الطائرة فى قلب الإعصار . . فى عين الإعصار . . نحن أحد أطرافه . . هل يعلو الطيار فوق الإعصار . . هل يهبط تحته ، هل يقتحمه . . هل يخاطر . . وكلها حسابات دقيقة . فما هذا الذى حدث ويحدث فى هذا الوقت القصير وبهذه السرعة الكبيرة وعلى هذا الارتفاع الشاهق وبهذا العدد الكبير من المسافرين .

إنها أزمة . . انتظار للأزمة دخول فى الأزمة . . تلاحم مع الأزمة . . احتواء لها . . خروج منها وانتصار للعلم والعقل والأعصاب ونجاح لصناعة وفن الطيران والرحلات بين القارات . . وعودة إلى ركوب الطائرات من كل نوع فى أى وقت؟

وماذا تحدثه البراكين والفيضانات والسيول والجفاف والحرائق والسحب السامة والإشعاعات النووية . . وكلها مقدمات لأزمة وأزمة وحل لكل مشاكلها بعد ذلك!

فما الذى انتهينا إليه فى مصر – أقصد دراويش عبد الناصر : إن الهزيمة حدثت فى غيابه . . وإن النصر أيضا حدث فى غيابه . . فإذا غاب انهزمنا ، وإذا غاب انتصرنا .

أى أنه انهزم حيا ، وانتصر ميتا – كيف؟!

ماذا حدث فى عالم الأدب والفن؟

كيف كانت الهزيمة . . كيف تلقينا كل ذلك . . كم من إشعاعاتها السامة امتصتها أرضنا وسماؤنا وأجسادنا وأقلامنا . . كيف واجه المفكر والأديب والفنان والمدرس وخطيب المسجد هذا الذى حدث . . ماذا قلنا لبعضنا البعض . . ما الذى قالة الأب للابن . . وما يقوله الابن الذى هو فى العشرينات الآن . . وماذا سيقوله هو أيضا لابنه . . وهل ابن العشرين يكنُّ أى احترام لوالده . . وهل يتصور أن ابنه سوف يحترمه هو أيضا . . ولماذا انعدام الاحترام بين الجميع . . فما هذا الذى لم نعد نحترمه . إننا وقعنا فى الذى حرص الأمريكان ألا يقعوا فيه بعد فيتنام . أن تغرق الدولة والشعب فى بحور الكذب . . الكل يكذب . . ولا أحد يصدق أحدا . وإذا كنت أنت لا تصدقنى فما الذى يدعونى إلى الكلام . . وإذا كنت كلما فتحت فمى بكلمة ، فتحت فمك بتثاؤب . . فإذا تثاءبت انسدت أذناك .

دخلت مصر مرحلة التثاؤب الطويل . الكل يتكلم والكل يتثاءب . . الكل يتكلم والكل لا يسمع . ما اسم هذا الحوار بيننا؟ . ما معنى هذا الإصرار على الكلام والصمم . . ما معنى الأفواه التى فتحناها والأذان التى سددناها . .

إن روحًا من «الهزل» قد أغرقت مصر بعد الهزيمة العسكرية . . الكل يهذى ويهزل . . أو الكل يهزل فهو هذيان ، أو الكل يهذى فهو هزل!

ليس بالضبط كذلك . ولكن الأصح أن نقول إننا دخلنا فى حالة من «العبث»- أى اللعب فى موقف الجد . والجد فى مقام اللعب .

فالعبث معناه الفلسفى : فقدان المعنى . . فقدان المنطق . . فقدان دلالة الألفاظ . . تماما كما تمتلئ جيوبك بعملات ورقية كانت لها قيمة . . ولسبب ما ألغيت . . فأصبحت ورقًا لا تساوى وزنها ترابًا . . . وكذلك الكلمات أصبحت بلا عائد بلا مدلول . . بلا معنى . . فالكلمات أصوات . . وليس غريبا أن نقابل هذه الأصوات بلا أذن . . هن . . حق . . ها . . بها . . شوها - مثل هذه الأصوات تخرج من الصحف ومن الإذاعة ليلا ونهارا . ومن يطلقها يعلم أنه لا يقول شيئا ، ومن يسمعها يعلم أنه لا شئ . . ولكن هناك إصرارًا على أن يقال ، وعلى أن يسمع!

وقد تنبأ الرئيس جمال عبد الناصر بحالة العبث هذه فى كتابه «فلسفة الثورة» . فقد أشار إلى نفسه وزملائه الثوار كأنهم شخصيات فى مسرحية الكاتب الإيطالى بيراند للو - المسرحية اسمها «ست شخصيات تبحث عن المؤلف» . يريد الرئيس عبد الناصر أن يقول من الفهم البسيط لعنوان المسرحية - هو يسميها (رواية)؟! إنهم كانوا حائرين بأفكارهم وأشخاصهم يبحثون عن واحد ينظم لهم أفكارهم وأهدافهم أو يضعهم فى النص الصحيح ويطلقهم على المسرح أدوارًا فى الحياة!

هذا هو الفهم العابر البسيط لعنوان المسرحية التى لم يقرأها الرئيس قطعا . . ولكن المعنى الذى قصده المؤلف الذى أصدر هذه المسرحية عندما كان الرئيس فى الثالثة من عمره ، فهو شيء آخر تماما . . فالمسرحية تصور مجموعة من الممثلين يقومون ببروفات لإحدى المسرحيات . وفجأة ظهر ستة أشخاص يقتحمون المسرح ويواجهون المخرج ويقولون له : إن مؤلفًا قد اخترعنا جميعا . فكل واحد يعرف اسمه ورسمه ومكانه فى الحياة . ولكن المؤلف لم يشأ أن يكملنا . . فكل واحد منا هو حقيقة إلا قليلا . ونحن نريد أن تؤدى أدوارنا التى خلقنا لها . .

وهى مفاجأة كبرى للمخرج وللممثلين الآخرين . . فنحن أمام شخصيات لها قوة الواقع . وأمام ممثلين يحاولون أن تكون لهم قوة . . وممثلين يحاولون أن يقوموا بأدوار هذه الشخصيات . . وهؤلاء الممثلون لا يستطيعون أن يؤدوا أدوار الشخصيات . . لأن الشخصيات «تعيش» أدوارها . . بينما هؤلاء الممثلون «يؤدون» أدوار الشخصيات . .

أى أن هناك واقعا ووهما . . والشخصية لها واقع أدبى ، ولكنه واقع قوى . . والممثلون لهم واقع مسرحى ، وهو واقع وهمى . .

فالمؤلف بيراند للو يريد أن يقول أن كل شىء وهم . . وكل شىء وهمى بدرجات متفاوتة . .

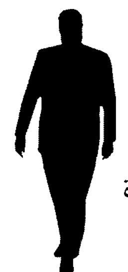
وأعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استراح الى هذا المعنى ؛ لأنه فعلا لم يكن يدرى بالضبط ما الذى يفعله بنفسه وزملائه وبلده . . فلا عنده نظرية ولا مذهب سياسى . ولا كان مؤهلا لكل ما حدث بعد ذلك . . وهذا واضح فى الأسماء المختلفة التى أعطاها لنفسه ولزملائه الثوار . . قالوا : الحركة المباركة . . وقالوا الانقلاب . . وبعد ذلك قالوا : الثورة . . وواضح أنهم كانوا يبحثون عن المؤلف . . ووجدوه . . فراح يصوغهم ويصوغ أفكارهم . . ويجرجر وراءهم الشعب المصرى والعرب من المحيط إلى الخليج . .

والشيخ أحمد حسن الباقورى فى كتابه «بقايا ذكريات» فزع من النشيد الذى كان يتردد فى الخمسينيات :

من المحيط الهادر
إلى الخليج الثائر
لبيك عبد الناصر!

كأنه لا زعماء ولا رؤساء ولا ملوك . . هو فقط . . وهو أيضا يقال له : لبيك . . لبيك!

وبعد ذلك كان عبد الناصر يستمع إلى من يقول له : إنه استطاع أن يوحد بين العرب كما لم يستطع الرسول عليه السلام؟!- اقرأ مذكرات الشيخ أحمد حسن الباقورى!



ولم يكن يضيق بذلك . . بل إن هذا هو المعنى العميق الدفين . . هذا المعنى لم ينطلق إلا مع رصاص حادث المنشية . . فقد كان يصرخ ويقول : إن قتلونى فقد قتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان . . ولكننى إذا قتلت يجب أن يتذكر المواطنون أننى منحتهم الحرية والعزة والكرامة . . سيبنى ياشيخ أحمد - يقصد الشيخ أحمد حسن الباقورى!

ولم يعترض عبد الناصر عندما أعلن بعد ذلك أحد محافظى الصعيد أنه نبى . . أو كأنه نبى . . أو أنه من أهل البيت!

أذكر أننى كنت أتناول طعام العشاء مع الأمير أحمد فؤاد وزوجته الأميرة فضيلة فى باريس . . والأمير فؤاد أو الملك السابق لمصر شاب طيب بسيط محب لمصر . ومنتهى أمله أن يكون عنده جواز سفر دبلوماسى ليدخل ويخرج من مصر كأى مواطن مصرى . . والأمير فؤاد طبعا لا يعرف ماذا حدث له ولمصر . . فهو ولد يوم حريق القاهرة . . ولد ملكا (سابقا) . . وخلع من الملك وهو لا يدرى . . فكنت أداعبه وأقول : إنها غلطة والدك . . فقد هوشه على ماهر . . فخاف أبوك مع أن ضباط الثورة كانوا أكثر خوفا منه . . ولو صبر أبوك قليلا ، لكنت ما تزال ملكا لمصر . . ولا ستحال على واحد مثلى أن يتناول العشاء معك الآن!

وكان يضحك هو وزوجته . .

ولما سقط الملك نهض الضباط الشبان ودارت رءوسهم ودرنا حولهم . . لا نحن عارفون ولا هم . . هم يبحثون عن مؤلف ونحن نبحث عن مخرج . . وكان ما كان .

ولكن الذى تنبأ به الرئيس عبد الناصر قبل الثورة ، قد وقع بعدها . وكان ذلك هو الطبيعى والمنطقى . فبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وقبلها بقليل ، كانت مصر تهيأت تماما لقبول «العبث» كواقع حقيقى صادق . . لقبول المعنى الغائب واللفظ الحاضر على انه حقيقة الشعور المتبادل بين الكاتب والقارىء . . فقد غاب من هوائنا الأوكسجين ، وانحسرت عن ألفاظنا المعانى . . وكانت الصحوة مثل الدوخة تماما . . والذى فى يده زجاجة حبر كالذى فى يده كأس . . ولم نعد نعرف إذا ذهبنا إلى المسرح إن كانت الستارة أمامنا أو وراءنا . . إن كان الممثلون فوق أو هم تحت . . أو كنا نحن الممثلين والمؤلفين والمخرجين معا . . أو إن الذى تراه ليس إلا حلما وهميا . . فنحن أيضا نبحث عن مؤلف ومخرج ونص ومسرح . . فكله تمثيل فى تمثيل . . كذب فى كذب . . وهم فى داخل حقيقة فى قلب وهم . . ضاع الناس من الناس . . وضاعت الدنيا من العين ، والصدى من الأذن . . والمستقبل من الحاضر!

وكان من الطبيعى أن تظهر مسرحيات «العبث» فى مصر وظهرت . وترجمنا . وتحمسنا . ظهرت مسرحيات يونسكو وأداموف وبيكت . . وقبلها مسرحيات

برشت . . وبعدها مسرحيات توفيق الحكيم : ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتسقينى بالملعقة الصينى . . فكما ترى طالع الشجرة سيجد فوقها بقرة ، والبقرة تدر لبنا واللبن تشربه بملعقه صينى . . وترى كل ذلك معقولا مقبولا . فكلنا نطلع الشجرة ، ونتخيل ذلك ، ونجد أبقارا حقيقة تدر لبنا وهميا لنشرب بملعقة ذهبية صينية خشبية؟!

مجانين نحن؟ نعم ولكن بعضنا عقلاء . . ولكن العقلاء إذا تكلموا لم يستمع إليهم أحد . والحل؟ لقد وجد توفيق الحكيم الحل أيضا فى حكايته عن «نهر الجنون» . . الناس شربوا من هذا النهر فكانوا مجانين . . ولكن ظل الملك وحاشيته عقلاء . . ولكنهم عاجزون عن التفاهم مع المجانين . . والحل هو أن يصيروا مجانين فشربوا من نهر الجنون وصاروا . . والجنون فنون – أى الجنون أشكال وألوان . . ومن الجنون أن نبقى عقلاء والأغلبية مجنونة ، ومن العقل أن نصبح مجانين كالأغلبية!

فماذا كان يقول مسرح العبث فى الستينيات فى مصر؟

يكرر ما قاله مسرح العبث فى أوروبا كلها : إن الكلمات لا معنى لها . . وإن الاتصال بيننا مستحيل . . لأن اللغة هى وسيلة الاتصال بيننا . . وحيث لا توجد لغة ، فلا صلة . . ولا اتصال . . ولا توصيل . . ولا تواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل . . وانما نحن فى حالة الغيبوبة – التى هى حاضر باهت لماض غامض ومستقبل أكثر غموضا . .

وفى مسرحيات الكاتب الفرنسى الرومانى الأصل «يونسكو» نجد ممثلين على المسرح يتحركون ويقدمون المقاعد والطعام والشراب لأناس لا وجود لهم . . ومطلوب من المتفرج أن يشاهد وأن يصدق . . يصدق هذا الكذب . . هذا الوهم . . هذه الخرافة . . أى يصدق أن هناك أناسًا أو عليه أن يتخيل ذلك . . دون أن يكون هناك معنى . . وليس من حق المشاهد أن يطلب من الممثل أن يكون منطقيا . . ولو فعل لنزل الممثل وصفعه ثلاثة أقلام على خده الأيمن والأيسر وعلى قفاه وهو يقول له : وهل أنت منطقى؟ . وهل أنت عاقل؟ فكيف أكون أنا؟

وقد اعتاد يونسكو على أن يجد مسرحيته المسماة «الكراسى» بلا جمهور . . أى أن الستار ينفتح على عدد هائل من الكراسى . . فعلى

خشبة المسرح عدد من الكراسى الخالية وفى الصالة أضعاف هذا العدد من الكراسى الخالية .

يقول يونسكو : فعلا المسرح مرآة الواقع . . فأعظم تحية للمؤلف أن يواجه الجمهور هذه الكراسى الخالية على المسرح بأضعافها من الكراسى الخالية فى الصالة!!

فبالذمة لماذا هذه المسرحية؟ . ولماذا المسرح إذا كان المؤلف لا يهمه أن يذهب الناس؟ بل يسعده ألا يذهبوا؟ أليس هذا هزلا - إنه فعلا عبث ولكن ليس من حقك أن تسأل عن المعنى ؛ لأننا اتفقنا على أن لا معنى . . وليس من حقك أن تسخر منه ، لأنك يجب أن تقدم له معنى يقبله هو لكلمة السخرية . .

هذا ما حدث فى مصر : ما الذى يمكن أن تقوله للناس عن البطل والنصر القريب والهزيمة المؤكدة؟ . أين إلهام البطل الملهم والزعيم الخالد . . وأين المحيط الهادر والخليج الثائر لبيك عبد القاهر والظافر؟!

هل يقول للناس إنهم لا يفهمون فى الحرب فكيف تناقشون النصر والهزيمة؟ وأنتم لا تفهمون فى الاستراتيجية والتكتيك فكيف تناقشون فى العروبة والسلام والفرعونية والوطنية؟ ثم إن هذه الكلمات التى تستخدمونها قد تغيرت معانيها؟ وقواعد اللعبة السياسية والعسكرية والأخلاقية قد تغيرت قواعدها - ولكن دون إخطار سابق . . ولكنها تغيرت والسلام!

يعنى تغيرت ، ولكن ليس من الضرورى إخطار الناس بذلك - لأنه لا معنى للناس ، ولا قيمة للناس ، وما شأن الناس بشئونهم وحياتهم والأفكار والقرار؟!

وأحس المصريون فى ذلك الوقت أنهم فى أواسط أفريقيا . . وأنه حدث لهم ما يحدث للناس السذج هناك . . ففى أواسط أفريقيا قبائل تغير اسمها كل يوم . . ويقوم كل فرد بتغيير اسمه . فتناديه باسمه الذى كان معروفا به بالأمس فلا يرد . . وتظل تحاول ولكنه لا يرد ؛ لأنه قد غير اسمه دون أن يخطرك . . فإذا حاولت أن تهتدى ، فإنه لايساعدك . . فكأنه غير اسمه حتى لا يناديه أحد ، فلماذا الاسم؟ فكأنه جعل لنفسه اسما لا يعرفه سواه . . مع أنك لست فى حاجة إلى اسم لكى تنادى به نفسك . . وإنما هذا الاسم ليناديك به غيرك ويميزك عن الآخرين . . فالدولة والقيادة والزعيم هو هذا الذى يغير اسمه واسم القبيلة والطعام والشراب وقواعد السلوك ، دون أن يجد من الضرورى أو اللائق أن يخطر بذلك أحدا - لأنه لا أحد سواه!

وانسحبت مسرحيات «العبث» من دور العرض . وانتقلت المسرحيات إلى الكتب . . أى أن العبث المسرحى الذى هو صورة للعبث السياسى ، قد قبع فى الكتب . . انتقل إلى التاريخ الأدبى!

***

والعبث ما يزال موجودا ولكن بصورة أخرى . .

فالعبث معناه : أنه لا فائدة من شىء . . لا جدوى . .

وانتشار المسارح الهزلية فى مصر الآن ، ليس إلا «العبث» ولكن بأسلوب آخر . . فكل هذه المسرحيات تسخر من الواقع ومن الناس . . وتسخر من التمثيل والممثلين أنفسهم . وقد تحولت المسارح إلى حياة مسرحية يشارك فيها الممثل والمتفرج فى الضحك والتضاحك والزغزعة . . الممثل يزغزع المتفرج والمتفرج يزغزع الممثل . . والكل يضحك . والمعنى : أن المسرح هو الزغزغة اليومية لكل الناس وكل القادة والوزراء . . والناس يضحكون ضحكا شاملا . والمعنى هو أنه على الرغم من النقد لكل شىء وكل أحد ، فلا خوف على الممثل ولا على المتفرج ؛ لأنه لا معنى لكل هذا النقد . فلن يأخذ به أحد . ولا يخيف أحدا . . فكأنه لا مسرح ولا نقد ولا رأى . وإنما غيبوبة من الضحك . . وغيبوبة المعانى والأهداف . . لأنه لا معنى لهذا المسرح ولهذا النقد!

وإذا كان المفهوم التقليدى للمسرح الضاحك هو أن المتفرج يضحك على عيوبه . . وينفضح أمام نفسه وغيره ، وعن طريق هذه الفضيحة الضاحكة أو الضحكات الفاضحة ، يصلح نفسه بنفسه ، فإن مسرح العبث الضاحك معناه : اضحك ولا يهمك . . اضحك ولا تصدق كلمة واحدة مما تقول . . فلا نحن نعنى ما نقول ، ولا أنت تصدق ما نقول . . ونحن هازلون وأنت أيضا . فلا كأننا قلنا ، ولا كأنك سمعت .

فالعبث الأول كان عبث الهزيمة . . عبث الغيبوبة الحزينة . .

والعبث الثانى هو عبث النصر . . عبث النشوة السعيدة . .

فالناس بعد الهزيمة كلامهم رمز وهمز ولمز . . وهمس . .

والناس بعد النصر كلامهم زعيق وصراحة وقباحة ووقاحة . .

وعبث الهزيمة : يأس!

وعبث النصر : أكثر يأسا!

***

دعنى أضرب لك مثلا آخر . .

افرض أنك دخلت أحد المستشفيات وتنقلت بين ممراته ولم تسمع صوتا لواحد يقول : آه . . ولا رأيت عربة إسعاف . . ولا رأيت غرفة عمليات . . ولا وجدت صيدلية فى هذا المستشفى . . فالمعنى الذى يخطر على بالك : أن الناس جميعا فى صحة جيدة . لا مرض ، ومادام لا مرض فلا حاجة إلى دواء . . ولا عمليات جراحية . . إنه مستشفى الصحة والعافية . .

ونفرض أنك دخلت مستشفى مجاورا فوجدت الصرخات والصيحات والناس داخلون خارجون . والصيدليات فى كل مكان والأطباء يهرولون وغرف العمليات تتفتح . . هيصة وفوضى . . وأمراض وأوبئة كثيرة!

وملاحظتك خاطئة فى الحالتين : فالمستشفى الأول قد صدرت له تعليمات قاطعة ألا يفتح المريض فمه ويقول : آه . . ولا كلمة ولا نفس . فالهدوء اضطرارى والصمت قهرى واختفاء الطبيب إجبارى!

كذلك كانت مصر قبل الهزيمة وبعدها .

والمستشفى الأخير عادى جدا . طبيعى أن يقول المريض : آه ، وأن يقولها طويلة وقصيرة ، وأن يسأل عن الدواء ويجده . وأن يفزع الأطباء وأهالى المريض . . وأن يلعن الناس الممرضات . . والدواء المغشوش والأجور المرتفعة . . فالضوضاء هنا ليست فوضى . . ولكنها الحرية فى مواجهة الأزمات العادية فى حياة الناس . وكذلك كان الناس فى عصر السادات . . يقولون ويصرخون . . وتتعالى أصوات الرأى والآراء الأخرى وتكون أبواب ونوافذ ومداخل ومخارج وتنفتح مصر على الدنيا ، والدنيا عليها!

***

ولكن «العبث» ما يزال نصًا وإخراجا وفرجة . . فكما أن المسرح العبثى كان خاليا من الممثلين ، وكانت الصالة خالية من المشاهدين ، فكذلك مسرح العبث اليوم . . المسرح مليان بالناس الواقفين ، والصالة أيضا قد غصت بالواقفين ، لأن المقاعد قد ضاقت عنهم .

ومن أهم معالم مسرح العبث القديم أنه لا يوجد «بطل» واحد طويل عملاق والناس حوله أقزام . . أو واحد طرزان يقفز بين الأشجار وينتصر على الحيوانات ويقتلها دون أن يصاب بسوء . . لا أحد كذلك فى الواقع . ويجب ألا يكون أحد من مثل ذلك على المسرح . . لأن الأبطال هم الأنبياء بلا كتب مقدسة . . أو هم الأنبياء فى غيبة الأنبياء . .

أما السبب فهو أن الحضارة الغربية قد أصابها الكوارث بسبب الزعماء الأنبياء . . وبسبب هؤلاء الأبطال الذين يمشى وراءهم الناس عميانا لا يفكرون ولا يدبرون . ثم كانت المصائب الكبرى . . مصائب هتلر وموسولينى وستالين وفرانكو . . والشعوب تنظر إلى الأبطال نظرتها إلى الأشخاص الأفذاذ القادرين على إنقاذ البشرية من ويلاتها وعثراتها . . ولكن الشعوب من الممكن أن تقتل أبطالها . إذن الأبطال خانوا الشعوب . .

فالبطل الذى يجعل الناس تستسلم له تماما ، وتترك له الأفكار والقرار ، إذا هو سقط . . أو انهار . . أو ضعف فإن الشعوب تشعر أنه غدر بها . . أنه صدمها فى عزيز لديها . . وأنه إذا كان سبب العظمة ، فقد أصبح أساس الهوان . . وينسون ماكان لهم على يديه ، ولا يذكرون إلا ما أصابهم بسببه . . فيقتلونه . . يقتلون الخائن الغادر . ولا يدركون أنه هو القاهر الظاهر الأمين . .

وكان من الممكن أن يغتال عبد الناصر أقرب الناس اليه . . وأحبهم أيضا - أى أكثرهم حبا له . . ولنفس هذه الأسباب . تماما كما تفعل المرأة العاشقة إذا خانها العاشق . . فإن انتقامها رهيب والشعوب أيضًا!

ولذلك كان اغتيال السادات منطقيا . . أن يقتله ضابط فى يوم عيد الضباط والجنود . لماذا؟

لأن السادات قد غير قواعد اللعبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون إخطار سابق . . دون أن يتهيأ الناس لهذا التغيير العظيم فى كل نظراتنا وطرقاتنا ومستقبلنا . .

كان الناس قد اعتادوا على البكاء واليأس والضياع . . واعتادوا على أنه انتهى كل شىء . . لا أمل فى شىء . . لا أمل فى أحـد . . الكل يكذب والكل يعلم ذلك . .

وجاء السادات وحقق النصر . . وكان الناس قد اعتادوا الهزيمة . واستراحوا إليها ؛ لأنه ليس بعدها عمل أو أمل . . فكان النصر دليلا على سخافة عقول الناس . وعلى بلادتهم . ، وعلى سوء تقديرهم لأنفسهم ولغيرهم ، يعنى أننا جهلاء أغبياء لا نعرف قدرنا . .

وكان النصر معناه أن نضحك وأن نرفع رءوسًا انكسرت وأن نثبت أقداما ارتعشت . . وأن نحرص على النصر . . وألا نكتفى . . وأن نستثمره . . أى نبيعه فى سوق السياسة الدولية . . أى أن نقف وننهض ونعمل ونكسب فى الحرب وفى السياسة وفى التجارة . .

وكنا اعتدنا أن نقف عند قناة السويس ونقول : كده رضا . . فلا نذهب إلى الشاطىء الآخر نسترد أرضا . . فالحدود العسكرية ليست الا حدودًا سياسية . . وحدود وقف إطلاق النار ليست إلا حدودًا وطنية . . أبدا . . بل النصر هو البداية . . وبعد ذلك نستأنف المسيرة . . أى يجب أن نصحو وننهض ونعمل . . ولم نكن نريد ذلك ولا نتوقعه . . إذن هذا الرجل السادات قد أزعج المصريين والعرب وأخرجهم من أحلى نومة . . إنه أثبت للمصريين وللعرب أن هناك أملا . أنه يستطيع ، وأن النصر ممكن . وأن الحرب ليست هى الأسلوب الوحيد . وأن الحوار أسلوب آخر . وأن الدول كلها بعد الحروب فعلت ذلك . وأنه استطاع أن يصل إلى أعز أمانينا دون حرب جديدة . . وأنه أولا وقبل كل شىء رئيس دولة فقيرة تواجه دولة صغيرة قوية وقوتها أعظم ؛ لأنها تقف على كتفى أمريكا إلى الأبد . وما دمنا نريد السلام والسلامة ، فلابد أن نؤكد للعالم أننا جديرون بذلك . . أحرار يتعاملون مع أحرار ، وأن الحرية أبواب مفتوحة ونوافذ يدخل منها ويخرج الهواء والناس والفلوس والسلع تروح وتجىء .

وبسرعة تغير كل شىء . . وبسرعة تغير أناس ومازال آخرون نائمين ، ويريدون أن يبقوا كذلك!

ولأن الناس استراحوا إلى اليأس والنوم ، إلى رفض الحرب ورفض السلام ورفض أى تغير فقد أذهلهم السادات بما جاء به من مضايقات ومزعجات . . وبمليون «مسحراتى» أطلقهم على كل الناس : ياعباد الله قوموا . . ياعباد الله اصحوا . . ياعباد الله اعملوا شيئا من أجل أنفسكم وبلادكم . . النجاة ممكنة والنجاح ممكن!

فكان لابد من إسكاته . . وسكت!

***

إنها مشكلة «النهر الأعظم» الذى كان يبحث عنه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز . يقال إنه عندما تولى الخلافة صادر أموال الأسرة المالكة لصالح الشعب . فبعثوا اليه بعمته تطلب منه الرحمة . ولكنه قال لها عبارته المشهورة التى معناها : إن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا عليه السلام رحمة ولم يبعثة عذابا . . ثم مات الرسول وترك نهرا يشرب منه كل الناس دون تمييز بينهم . وجاء أبو بكر فترك النهر على حاله . وجاء عمر فترك النهر على حاله . . فلما جاء عثمان فإنه شق من النهر الأعظم نهرا آخر . وجاء من بعده معاوية فشق أنهارا كثيرة ، وجاء من بعده يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وكلهم يشقون أنهارا من الأنهار . . حتى جئت أنا وكان النهر الأعظم يابسا . ولن يرتوى أصحاب النهر من أنهارهم هذه إلا إذا عادت الأنهار كلها وصارت النهر الأعظم!

وعادت عمته تقول لأفراد أسرته : إنها غلطتكم ؛ لأنكم تزوجتم من أسرة عمر بن الخطاب!

فهو عمر بن عبد العزيز وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب!

وكان السادات يحاول أن يعيد الأنهار الصغيرة إلى نهر أعظم يفى بكل احتياجات الناس!

***

وأعتقد أننا فى مرحلة انحسار للعبث الضاحك . . وأن الضيق بالعبث قد بدأ عند بعض الممثلين والمؤلفين . . فبعض الممثلين يحاول

أن يكون متفلسفا أو «منظِّرا» أى يخرج من ثوب البهلوان ويدخل فى مسوح الرهبان - الزاهد فى الحياة الضاحكة والداعى إلى الجد والنظر إلى مآسى الحياة . . ومن مآسيها : أن المسرح لم يعد هو «المصحة» لاستشفاء الشعوب . . وأن المسرح ليس إلا غرفة عمليات بها أحسن الأطباء ، ولكن أدواتهم غير معقمة . . أى أنها سامة . . قاتلة . . فالأطباء إذن مجرمون - لأنهم يقومون بإجراء عملية تنجح ، ولكن المريض يموت!

□□□

نهاية كرة الذم ..
بداية كرة القدم ...!

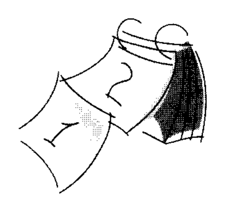
عزيزي «أنيس منصور»

مقالك «نموذج» يجب أن يوضع تحت أعين من يمارسون «النقد»
والنقد أحيانا أصعب من التأليف. لأن التأليف ذاتي يعتمد في الأغلب
على ذات المؤلف وشخصيته ومواهبه.. أما النقد فهو ذاتي وموضوعي
والموضوعية فيه أن الناقد يجب ألا ينظر إلى المؤلف نفسه فقط، بل
هو محيط بالعالم الثقافي كله الذي يعيش فيه... ويجب أن يكون في
رأسه وذاكرته نوع من «الأرشيف» يحوي الملف الكامل لأعمال
المؤلف الذي يتناوله ونقده... وكذلك ملفات الآخرين الذين يعيشون
ويبدعون معه في نفس المحيط الزمني لبلده والبلاد الأخرى.. هذا إلى
الأهم وهو: التكوين الثقافي والفكري للناقد... ولقد كان لك أيها
العزيز «أنيس منصور» هذا التكوين ببدايتك بالفلسفة دراسة وتدريسا..
ومن هنا كان تعلقك بالعقاد... وإن كان العقاد قد غلب التفكير عنده
على الأسلوب. أما أنت فقد امتزت بالأسلوب الرشيق...
ولا أعود إلى مقالك الذي وصفتني فيه بجملة واحدة هي العنوان:
«توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وأمامه باشا».. وهذا صدق وحق،
استطاعت عبارتك الثاقبة أن تكشفه في الحال.. وربما استطعت أنا أيضا
في جملة أن أوضح السبب وهو: «كانت البطولة عندنا في الماضي هي بطولة «القلم»
أما بطولاتنا اليوم فهي بطولة «القدم».. وكانت «الكرة» في الماضي هي
«الأفكار».. أما اليوم وغدا فهي في «الأرجل»!...
ولك الشكر والتهنئة بالجائزة العالية التي تستحقها عن جدارة...

توفيق الحكيم

١٨ يناير ١٩٨٤

نهاية كرة الندم..
بداية كرة القدم..!



«توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وأمامه بائسا»... وهذا صدره وجهه، استطاعت فطنتك الثاقبة أن تكشفه في الحال.. وربما استطعت أنا أيضا في جملة أن أوضح السبب وهو: «كانت البطولة عندنا في الماضي هي بطولة «القلم» أما بطولاتنا اليوم فهي بطولة «القدم»... وكانت «الكرة» في الماضي هي «الأفكار»... أما اليوم وغدا فهي في «الأرجل»»!...
وأكرر لك الشكر والتهنئة بالجائزة العالمية التي تستحقها عن جدارة...

١٨ يناير ١٩٨٤ توفيق الحكيم

قال أمير الشعراء أحمد شوقى :

نحن الكشافة فى الوادى
جبريل الروح لنا حادى
يارب بعيسى والهادى
وبموسى خذ بيد الوطن!

***

فى السهل ترف رياحينا
ونجوب الصخر شياطينا

نبنى الأبدان وتبنينا
والهمة فى الجسم المرن!

***

الرياضة أصبحت حقداً وعنفاً ودماً وسفالة - إنها حرب لا ينقصها إلا الديناميت!

***

الله مع الفريق الذى عنده أحسن مدرب!

***

لم أجد رياضية واحدة تقول إنها قادرة على شغل البيت!

***

مصارعة الثيران يكرهها الناس ، لا لأن فيها تعذيباً للثيران ، وإنما لأن فيها تعذيبا للإنسان!

***

الفرق بين الرياضة والحب أن الرياضة تتوقف عندما تظلم الدنيا!

***

أعظم رياضة الآن : الفلوس!

***

عندما يقتل الإنسان نمراً فهى رياضة ، عندما يقتله النمر فهى وحشية!

***

وهذا هو المعنى التربوى الأخلاقى الوطنى للرياضة : صحة وعافية وعمل وبناء . وظل هذا هو المعنى للرياضة والألعاب الرياضية إلى وقت قريب جداً . . أما بعد ذلك فقد فسدت الرياضة وأصبحت الرياضة تجارة وشطارة .

مع أن الرياضة هى أعظم هروب من متاعب الحياة اليومية . فأنت إلى عملك تذهب وتتزاحم وتجلس وتقع الضغوط على دماغك . . وتركز

على الذى أمام عينيك وفى يدك . . ومن الشد والجذب والتوتر والضغط عليك والضغط على غيرك يكون التعب والإرهاق والعجز عن العمل والمشاركة والإنتاج . هنا تجىء الرياضة فتنقلك من حالة من الوعى إلى حالة أخرى . . ومن تركيز إلى تركيز من نوع آخر .

وتكون الرياضة مثل هروبات أخرى مختلفة : الجنس والمخدرات والخمور . . فهى تنقل الإنسان إلى درجات أخرى من الوعى وشبه الوعى واللا وعى .

والفارق بين الرياضة وبين هذه الهروبات المختلفة أن الرياضة ليست لها مضاعفات جانبية . . فالذى يتعاطى الرياضة ليس كالذى يتعاطى الخمر أو الحشيش يصاب بالدوخة أو الصداع أو التقلصات المعوية والمعدية . .

والرياضة نشاط إنسانى ليس له فائدة مادية . . والذى يلعب ليس كالذى يزرع الأرض أو يصنع الزجاجات . . أو يزيد مساحة الأرض المزروعة . . وإنما الإنسان يلعب ، لأن اللعب متعة . ولأن هذه المتعة تقضى على متاعب أخرى . . فهو يلعب لأن اللعب غاية . . هدف .

ثم إن الرياضة تطلق خيال الإنسان وتجعله يعيش فى عالم آخر . . ليس هذيان المخمور أو المسطول . . وإنما أن نذهب إلى الملعب وتجلس بين المتفرجين . . وأمامك حدود وسدود . . لك حدود لا تخرج عنها . واللاعبون قد رسمت لهم على الأرض حدود . . هذه الحدود من الرمال ومن الطباشير . . حدود يمكنك أن تمسحها بجزمتك . . ولكن هذه الحدود لها قوة القانون . . أنت لا تدخلها واللاعبون لا يخرجون منها . . وهذه الحدود لها قوانين . هذه القوانين لها قوة كل أنواع القوانين . . والحكم قاض لا راد لقضائه . . فالقاضى له ضميره . ونحن نتركه لضميره . حتى لو أخطأ . فلا استئناف لحكمه . واللاعبون كأنهم معتقلون . . معتقلون بإرادتهم . . فالناس بين العلامات البيضاء لهم عالمهم . . دنياهم . . فقد حبسناهم مع القاضى فى محاكم علنية . . هم يلعبون والقاضى قد انفرد بهم . . ونحن نتفرج ونصرخ وكأنهم لا يسمعوننا . . وهم يلعبون وكأنهم لا يروننا .

والفرجة على اللاعبين تستغرقنا . . تغرقنا فى حماس وبهجة ومتعة .

ونحن المتفرجين قد ساوت الرياضة بيننا . . فأنت لا تنظر إلى جارك من هو ولا ماذا يعمل ولا ماذا يرتدى ولا ماذا يقول . . وقد يصرخ ويبكى وقد ينفجر فيك

صارخا أو شاكيا . . وقد يشتم ويلعن . . وقد يكون واحد من المشتومين أخاك أو ابنك . . وأنت لا ترى فى ذلك إهانة شخصية . . وإنما هذه الإهانة هى من شروط اللعبة . . اللاعب يقبلها . . والمتفرج يقبل عليها . . وكما أن اللاعب يرضى مقدما أن ينكسر وأن يقع على الأرض . . وإذا طال وقوعه على الأرض فإن الجماهير تطالب بإخراجه حتى لا يتوقف اللعب . . فاللعب أهم من اللاعب . . والمتعة والإثارة هما الهدف .

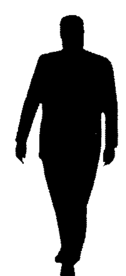
فاللاعب المكسور على الأرض يفسد هذه المتعة . وقد يكون اللاعب المكسور هو مصدر المتعة . . هو الذى أحرز هدفا بعد هدف . . ولو . . ولكنه فى هذه اللحظة يوقف مسار الإثارة . . ولذلك يجب أن يخرج . . هذه القسوة من المتفرجين يقبلها اللاعبون ، كما يقبلون الإهانة والبهدلة من المتفرجين . . إنها شروط اللعبة . واللاعب قد وافق عليها قبل أن ينزل إلى ما بين العلامات البيضاء . . التى هى حدود ذلك العالم المثير الذى يشعل النار فى خيال اللاعب والمتفرج .

والرياضة تحتاج من اللاعب إلى البراعة والذكاء والمقامرة والتركيز على الأهداف . . هذه هى الرياضة . جوهرا وشكلا وأسلوبا وغاية .

والرياضة لا تساهم مثلا فى صراع الإنسان من أجل السيطرة على قوى الطبيعة : الشمس والماء والهواء والجوع والمرض والجهل والظلم . لا شأن لها برفاهية المجتمع أو تنظيم النسل أو سعادة الأسرة . . لا شىء من ذلك! فالرياضة نشاط بلا فائدة مادية .

ولذلك استحقت الرياضة بكل أنواعها عداء رجال الإصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى . لأنها تشغل الناس عن الإنتاج . ولأنها لهو . ولأنها مضيعة للوقت والطاقة والمال . ولأنها تضع أمام الناس نماذج لا قيمة لها . وأنها تغرى الناس بأن يلعبوا وأن يهربوا .

ويقال إن الرياضة هى من مظاهر الترف عند الأغنياء هم الذين يلعبون . فليسوا فى حاجة إلى زراعة الأرض أو صناعة الطعام - فعندهم من يقوم بهذا العمل . والأغنياء هم الذين ساعدوا على بقاء الرياضة . لأنهم قد أكلوا وشربوا وناموا وقاموا يكملون المتعة بالفرجة على اللاعبين .



وكان ذلك هو جوهر النقد الذى وجهه المصلحون إلى اللهو الرياضى . . وعندما ظهرت الاشتراكية رأى الاشتراكيون أن الاقطاعيين والرأسماليين يشجعون الرياضة ؛ لأنهم يشجعون الحرب والدمار وتسخير الشعوب من أجل أطماعهم التوسعية . فالرياضة ليست إلا نوعًا من العسكرية . . من الانتظام والالتزام والعنف الهجوم والدفاع . . وليست إلا تشجيعًا على الصراع والخلاف والأزمات . . والتعصب للفريق وللوطن . . وليست إلا نوعًا من التفرقة العنصرية . . وذلك بتمجيد الرجال والرجولة وفى ذلك عداء للمراة . . أى أن الملاعب هى المصنع الحقيقى لكل الأحقاد وإثارة الغرائز من أجل القتل والحرب والموت .

وفى العصر الحديث ، وفى الدولة النازية الشمولية كان الشعار الهتلرى : القوة عن طريق المرح . . أى القوة العسكرية عن طريق اللعب واللهو . . فقد شحنت ألمانيا كل أطفالها وشبابها جيوشا تحت التمرين إلى أن تجىء لحظة الحرب . وجاءت . وكان وقودها ملايين الشبان الأصحاء . .

ولم تختلف النظريات الماركسية والنازية عن الرأسمالية أيضا . فكلها تنظر إلى الرياضة على أنها وسيلة لتحقيق القوة والصحة والجمال والحرب .

فالرئيس كنيدى مثلا أنشأ مجلسا اسمه «مجلس اللياقة الشبابية» يقول فى برنامجه : إن نعومة الشباب وطراوته المتزايدة ، خطر فادح على الأمن القومى!

أو بعبارة أخرى : هناك فرق بين اللاعب والمتفرج . . بين الشاب النشيط المتحفز والمتفرج المسترخى . فاذا استعار اللاعب سلبية المتفرج فهذا هو الخطر . وهو نقد عنيف للمتفرجين أيضا . وتهمة كبيرة أن يوصف اللاعب بأنه متفرج . . أو كأنه يتفرج على اللعب ولا يشارك فيه!

وفى سنة ١٩٦٧ أعلنت حكومة كوبا الماركسية : أن التربية والثقافة والصحة والدفاع والسعادة وتنمية الشعب كلها حلقات فى سلسلة واحدة : الرياضة!

وفى سنة ١٩٢٥ أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : إن الرياضة يجب أن تستخدم كوسيلة للتجمع الجماهيرى من العمال والفلاحين فى نشاط اجتماعى واحد . .

والدول الماركسية ضد تمجيد الفرد ، وإن كانت كثيراً ما تقع هى فى ذلك . . والا فلماذا قداسة لينين ونجاسة ستالين؟!

ولذلك كثيراً ما رأينا فى تاريخ الماركسية أنهم نزعوا البطولة من الأفراد وجعلوا البطولة للمتظاهرين . . ألوف الناس الذين لا نعرف لهم ملامح . . إلا أنهم حشد يتدفق كأنهم موج . . طوفان . . حريق . . إعصار . أو بطولة المدن . . المدينة هى البطل . . الحائط . . الكوبرى هو البطل . . أو القلق هو البطل . . أو الصبر . . أو الجليد . . أى شىء وأى نشاط إلا أن يكون فرداً محدداً . . وكذلك الرياضة هى البطل أو مصدر الفساد . . ليس واحدا من اللاعبين . وإنما تجمع اللاعبين .

ولكن لحسن حظ الرياضة والقيم الفنية والجمالية ، أن قاوم كثير من الشعوب فرض هذه القوالب الحديدية على اللعب . . على متعة الفرجة . . ومتعة الكفاح على أرض الملاعب . . كفاح على أرض الملعب وداخل علاماته البيضاء من الطباشير والرمال . . فقط فى داخل العلامات ، لا من أجل أن يفوز لاعب بكرة . . أو بالشبكة . . أو الاستيلاء على الملعب . . على النادى . . على البلد . . أبدا كل شىء بين العلامات البيضاء . . يبدأ داخلها وينتهى داخلها ، وهذه العلامات على الأرض كأنها جدران من الكريستال . . ترى منها ولا تذهب إلى ما بعدها . . هذه هى الحدود والأصول والقواعد . . ارتضيناها لاعبين ومتفرجين .

وليس صحيحا أن يقال إن المتفرج سلبى . إنه إيجابى جدا . ولكن بصورة أخرى . . أى بالصورة المسموح بها قانونا . . فهو يجئ ويدفع ويجلس ويتحمس ويصرخ ويشترى ويدفع ويأكل ويشرب وهو يحل مشاكله كلها جالسا واقفًا صارخًا ، وهو الذى يقوم بتمويل النشاط الرياضى . وهو المسئول عن اتساع الملاعب ورواج صناعة الرياضة . . فالرياضة علوم وفنون وصناعة وتجارة . والمتفرج هو أكبر قوة استهلاكية لكل ذلك!

***

وفى مواجهة الأزمات الكبرى والهزات العنيفة تختلط الأشياء والعلاقات بين الناس . ونحن فى قلب الطوفان أو قلب البركان لا نعرف من أين جاء الماء أو جاءت النار والدخان . . ونحاول ولكننا لا نعرف . . ولن نعرف إلا بعد أن ينحسر الماء وينقشع الدخان وتخمد النار ، وتسكن الأرض وتستقر عيوننا فى محاجرها وألسنتنا فى حلوقنا . . ورءوسنا فوق أعناقنا وقلوبنا فى ضلوعنا وكل ذلك يحتاج إلى وقت . . والآن ليس

أوانه . . وإنما يجب أن نبعد كثيرًا وطويلاً من مكان الكارثة . . نبعد فى المكان وفى الزمان لنرى أوضح ونسمع أعمق ، ونكون أكثر حرية ، أمانا . والمفكر الفرنسى مالرو يقول : اننا فى حاجة إلى مائتى سنة لكى نحسن رؤية الثورة الفرنسية .

أى فى العام القادم - أى ١٩٨٩ - يمكن لأى مفكر أن يقول بوضوح كل ما كان غامضا على المعاصرين للثورة وأحقادها والخائفين منها والخائفين عليها .

ولكن قبل ذلك لا نملك إلا أن نشير بأصبع فى الكف . . أو الكف كلها أو الذراع . . وليست هذه إشارة كافية . ولكن هذا هو الممكن لكل مائتى سنة .

وبعد الهزيمة العسكرية فى مصر ارتبكت النظرة وتعمقت الحسرة . . والتفت الناس يسألون : ما الخبر؟ من فعلها؟ من أين جاءنا الطوفان من أين تفجر البركان . . من الذى ركب سحابا ، ونطق رعدا ، وامتشق برقا ، وهرم الإنسان . . إرادة الإنسان ، كبرياء الإنسان .

لم نترك أحداً أو شيئا لم نجعله مجرما . . إلا المجرم . . إلا المجرمين حقا!

ولم يكن صعبا على الناس أن يدركوا أن هناك علاقة بين الرياضة والعسكرية . . بين الرياضة التى أفسدها العسكريون ، أو العسكريون الذين أفسدتهم الرياضة . . حتى إذا ذهبوا إلى القتال : راحوا يلعبون . . وكانت الهزيمة .

فكأن العسكريين كانوا مهزومين قبل أن يحاربوا . . انهزموا فى الملاعب قبل أن يلعبوا فى الميدان . . فلأنهم استغرقوا فى اللعب عندما ذهبوا إلى القتال ، استمروا فى اللعب .

أو لأنهم عسكريون فاشلون فلم يفلحوا فى تحويل الرياضة إلى معسكرات إلى جيوش تحقق النصر فى النهاية . .

أى أن العسكريين انهزموا مرتين : مرة فى الملاعب ومرة فى الميدان . . وكان الناس يقصدون :

الفريق أول مرتجى رئيس النادى الأهلى . .

والفريق أول سليمان عزت رئيس نادى الأوليمبى . .

والفريق أول صدقى محمود رئيس نادى الطيران . .

وكان المشير عبد الحكيم عامر رئيس اتحاد الكرة . .

فإما أنهم أفسدوا الرياضة . .

وإما أن الرياضة أفسدتهم . .

والنتيجة أنهم لم يصبحوا عسكريين ولا رياضيين . .

ولم يكن فى استطاعة الناس أن يحاكموا كل هؤلاء . . وكل الذى استطاعه الناس هو إدانة الرياضة . . إدانة كرة القدم . .

أذكر أننى كتبت بعد الهزيمة العسكرية مقالا فى الصفحة الأخيرة لأخبار اليوم بعنوان : كرة الندم!

وفى هذا المقال كنت ألوم على الناس أنهم حملوا الكرة والرياضة ما لاتطيق . . فلا الكرة ولا رياضة كرة القدم . . وإنما هو الجهل بالعدو والاستخفاف بالحرب . . وضياع المسئولية بين الزعيم الكبير والمشير الأسير . بل لو أننا أتقنا الكرة وتذوقنا علوم الرياضة ، لكنا فى الحرب أحسن . ولكانت أعصاب المقاتلين والمتفرجين أهدأ . . ولكن دخلنا الرياضة محاربين ، ودخلنا الحرب لاعبين . . فلا أصبنا هدفا ولا استعدنا موقعا .

وفعلنا ما تمليه النكتة الشهيرة : إن رجلا ضبط زوجته مع رجل فى فراشه ، فباع السرير .

نحن أوقفنا المباريات الكبيرة فى كرة القدم أربع سنوات . . خمس سنوات . . خجلا من هزيمتنا . . وخجلا من عجزنا عن الإشارة إلى المجرم والمجرمين . . بعنا السرير . . أو أقفلنا نوافذ غرفة النوم حتى لايرى أحد مسرح الخيانة .

ومادمنا قد انهزمنا فى الملعب وفى الميدان ، فنحن إذن قد انهزمنا فى كل شىء . . والمواطن المصرى ليس له إلا وصف واحد : إنسان مهزوم – منتهى القسوة على أنفسنا ؛ لأننا قد بلغنا أقصى درجات الندم!

وجاء علينا وقت كنا نندم عند الضحك . . ونرى أن الضحك لا يليق بنا ، وإنما الذى يليق هو البكاء والحداد . .

ولذلك ظهرت فى أفراحنا فرق موسيقية تردد الأناشيد الوطنية . . لا لأن الناس يريدون ذلك . . ولكن لأن هناك شعورا بالندم . هذا الشعور يجعلنا عاجزين عن الاستغراق فى البهجة . . والاستغراق فى اللعب . فكان الفنان محمد نوح يهز الأفراح بأغنيات : شدى حيلك يابلد . .

وكانت لحة ندم . . وخزة ألم . . وكان الناس يرددون معه ووراءه وبعد ذلك ينصرفون إلى الراقصة . . ويصفقون لها بنفس الحماس . وبقيت الراقصة وذهب محمد نوح ، فلم نكن جادين عندما ارتضينا محمد نوح بعض الوقت . . ولا استرحنا الى ذلك . . وإنما نحن فى حالة من الاستسلام لأى إنسان يصفعنا على الخد الأيمن فنعطيه الأيسر وقفانا أيضًا . .

وظهر عندنا مسلسل تليفزيونى اسمه «فرافيرو» . . وهو لا يختلف كثيرا عن السوبر مان أو عن توم وجيرى . . وهاجمته الأقلام ، التى هاجمت الرياضة ؛ لأن فرافيرو هو المسئول عن تعميق الشعور بالخرافة عند الأطفال والأدباء . . لأن فرافيرو هذا صانع المعجزات . ومن شأن الايمان بالمعجزة أن يشعر الإنسان أنه صغير تافه . . وأنه فى حاجة إلى قوة أكبر . . ومادام لا يملك هذه القوة ، فسوف يظل عاجزا . . كسولا . . فى انتظار المعجزة التى لا تجئ .!

وإن فرافيرو هو المسئول عن ارتكاب الناس للجرائم . . كأن الشر والقتل والسيطرة والطمع من اختراعات التليفزيون . . فأين كان هذا التليفزيون يوم ارتكبت أول جريمة على الأرض . . يوم قتل قابيل أخاه هابيل .

وقبلها قيل إن أم كلثوم هى التى أشاعت الذل والهوان وانتشار الحشيش فى مصر . . بسبب أغانيها الرومانسية للشاعر أحمد رامى . .

إن الرومانسية فى فرنسا لم تمنع قيام الثورة الفرنسية . . ثم إن الصينيين الذين زرعوا الأفيون ودوخوا العالم كله معه ثم شنقوا كل من يزرعه أو يدخنه ، لم يسمعوا أم كلثوم!

ولكننا نتخبط فى البحث عن المجرم . . وانتهينا إلى أننا جميعا مجرمون . فلا أحد برىء . فقد شاهدنا وشاركنا وسكتنا . فالجريمة عامة . والإدانة شاملة - أصابعنا يجب أن ندبها فى أحشائنا ، ففى أحشائنا يكمن المجرم الذى صفق وطبل وزمر وهتف بالروح بالدم نفديك ياجمال . . ياسادات . . يامبارك . . وكلنا بنحبك ناصر . ومن قبل الثورة كنا عارفينك . وقولوا لعين الشمس ما تحماشى لاحسن حبيب القلب راجع ماشى . . مهزوما من الجبهة!

ومن الثورة الصناعية وتطور أدوات الانتاج وقيامها بكل العمل اليدوى . . وقف الإنسان أمام الآلة يساعدها ويراقبها ويستعير منها أسلوبها فى الانتظام والانضباط

والصلابة . . فهو الذى اخترع الآلة ، وأصبح آلة . . هى التى تضغط عليه . وهى التى تتدخل فى تشكيله النفسى والاجتماعى . . والإنسان أيضا مثل الآلة : قطع غيار . . إذا ضعف أو «نعم» كان لابد من إبداله . . لأن الآلة . . لأن المصنع يجب أن يمضى فى الانتاج .

والمثل الأعلى فى المجتمعات الصناعية هو : صلابة وبرودة وانضباط الآلة!

ولذلك أصبحت الحياة «آلية» . . رتيبة . . مملة . ولهذا كان لابد للانسان أن يفلت من قبضة الآلة . . إن هرب من الرتابة . . من الملل . . أى أنه فى حاجة إلى شىء يهزه . . يثيره . . يعصف به . . يشيله ويهبده . . يغرقه ويستغرقه . . ويدوخه . . أى يهرب به من ضجيج المصانع إلى صراخ الملاعب . . ومن الانضباط إلى الانفلات والانطلاق . . والاقتلاع والانخلاع . . وكانت الرياضة هى الملجأ والمهرب الوحيد . . فإليها هرب وفى أحضانها ارتمى ، ولشروطها استسلم . . فالعمل الممل بلا متعة فيه . . العمل المنضبط لا إثارة فيه . . ولذلك كانت الرياضة هى العلاج لكل متاعب العمل .

والمثل الأعلى للعمال هو : البلادة . . أى لا يهتز ولا ينفعل . وإنما يستمر . . يمضى . . يروح ويجىء كأنه آلة . . أو بعبارة أخرى : مت عاطفيا لكى تعيش!

بينما الرياضة تقول : تنفعل أكثر تعيش أطول!

ولكن الآلات لا تنفعل . . وكذلك يجب أن يكون العامل والموظف والفلاح!

وكل مواصفات الرياضة مرفوضة تماما فى المصانع . فاللاعب يقامر ويخاطر ويضحى ثم إن اللاعب يقلق والمتفرج يقلق . . وكلها صفات وحالات مرفوضة فى المصانع . فلا مقامرة . . فكل شىء دقيق ومنظم . ولا يصح أن يتدخل فيه الإنسان .

ولكن ظهور الإنتاج بالجملة فى المصانع أدى إلى أن المستهلك أصبح قوة عظيمة . . أى المتفرجون قوة . وهى قوة لا غنى عنها فى الملاعب . قوة لها دور . ودورها هو أن يشعر بها اللاعب . يشعر بوجودها عندما يرى ألوانها وأعلامها فى المدرجات . ويعتز بصراخها . ويرى أن شروط اللعب الجيد هو وجودها . .

ولذلك نحن نقول فى وصف المباريات أن جمهور الأهلى يلعب على أرضه ووسط جمهوره ؛ أى أنه مادام يلعب على أرضه ، فهذه قوة ، وبين

جمهوره فهذه قوة أعظم . وعلى ذلك فلا عذر له إذا لم ينتصر . . فأقصى ما يمكن أن نقدمه له : أرضه ومشجعيه . . وإذا لم يلعب النادى على أرضه أو بين جمهوره ، فنحن نتوقع ألا ينتصر!

ومعنى ذلك أن الجمهور قوة . وأن تدخل الجمهور شرط للعب . . أو شرط لإصابة الأهداف . . فنحن هنا قد اقتطعنا جزءا من قوة اللاعبين وأعطيناها للمتفرجين!

أكثر من ذلك أدى إلى إفساد روح الرياضة : إن اللاعبين أيضا يستعرضون براعتهم أو يبالغون فى إصابتهم ؛ لأن الكاميرا تتابعهم . فهم يلعبون للكاميرا . . ويلعبون للجمهور . . وكلما ظهرت صورهم ارتفعت أجورهم .

والشعار الذى يتردد فى العالم كله هو : الكرة أجوال!

أى أن أهم أهداف اللعب هو أن تكون هناك أجوال . . فمن أجل الجول يهون كل شىء ، وندوس كل قيمة وكل مبدأ وكل أحد . . فلم يعد اللعب لمجرد اللعب . . لم يعد اللعب الجيد هدفا . . لأنه ليس أسهل من أن تقول : ولكن ما الفائدة؟ . أى ما فائدة أن تلعب دون أن تهز شبكة . . كيف نعرف أننا انتصرنا إذا لم نحرز أهدافا . . ودون أن نكش الملك .

انتهى زمن اللعب فن . . والفن للفن . وإنما اللعب أجوال . . والهدف هو الكسب أو المكسب أو الانتصار . .

وبدلا من أن يكون اللعب . «لعبا» أى نشاطا بارعا ذكيًا فيه طفولة وبراءة أصبح فى اللعب عنف المراهقة وغلظة الرجولة ، وخشونة الملاعب ، وجفاف الرمل . وبدلا من أن تكون الروح الرياضية معناها : التسامح والمساواة بين كل الناس أيا كان لون الفانلة - الفانلة خطأ - أيا كان البلد . . أيا كان الدين واللون . . أصبح اللاعب والمتفرج يتعصب للون والدين والجنس والبلد .

وأصبح من أهم عيوب اللاعبين إحساسهم بالجمهور وليس باللاعبين معهم وضدهم . . فالجمهور هو القوة ، والكاميرا هى طاقة القدر . . وكذلك الجمهور لم يعد يهتم باللاعبين وإنما بالكاميرا أيضًا يضحك لها ويصرخ ويرفع الأعلام من أجلها . إنه هو الآخر يستعرض قوته . . واللاعبون كذلك . . فاللعب أصبح استعراضا تمثيليا!

والإحساس بالجمهور هو أهم مشاعر الممثل والمطرب .

ولذلك فهناك فرق بين الأغنية التى يسجلها المطرب فى الاستديو ، والأغنية التى يسجلها فى إحدى الحفلات . . الفرق هو الجمهور يشعر بالمطرب ، والمطرب يشعر به . .

وصارت شركات الأسطوانات تضيف إلى الأغنية المسجلة فى الاستديو صوت الجماهير وتصفيقها مأخوذا من الحفلات العامة . . كوسيلة لاقناع الجمهور أنه موجود . . أنه كان هناك أو أن هذه الأغنية قد لقيت حماسًا جماهيريًا . . هذا الحماس التسجيلى يشعل حماس المستمع ويؤثر عليه . .

وكذلك هناك فرق بين «التمثيلية» المسجلة فى الاستديو . . والمسرحية . . المسرحية هى «التمثيلية» أمام الجمهور ، والتمثيلية هى المسرحية بلا جمهور . . فالتمثيلية تشبه الفيلم تماما . . تم تمثيله وتسجيله أمام عدد من المصورين وموظفى الاستديو ، اعتادوا على مثل هذه المناظر ، فهم أقل الناس حماسا لها ، وأكثر الناس قرفا من الكذب الفنى الذى يعيشون به وعليه ليلا ونهارا .

ولذلك أكبر عقوبة لأحد الأندية الرياضية أن يلعب بلا جمهور!

وأكبر صدمة يتلقاها الجمهور هى عندما يذهب الى الملعب يشجع الفريق الذى يحبه ثم ينهزم الفريق . . هنا يشعر الجمهور أن اللاعبين قد خانوه . . فقد أوهموا المتفرجين أنهم إذا جاءوا فسوف ينتصرون . أى أن شرط النصر أن يجئ المتفرجون . وصدق المتفرجون ذلك . فذهبوا . وكانت الهزيمة!

ولذلك ينقض المتفرجون على اللاعبين الذين ضحكوا عليهم وخدعوهم . . فاللاعبون قد استعدوا نفسيا وتهيأوا وتخيلوا المباراة ، وتخيلوا الأهداف وتخيلوا النصر والخروج إلى الشوارع والمظاهرات . . وتخيلوا ما سوف يقولونه للخصوم . . وتخيلوا الولائم والنكت والسخرية بالخصوم ، وفجأة انهدم الخيال كله . والسبب هو اللاعبون . والسبب أنهم صدقوهم . . فكذبوا عليهم وجعلوهم أضحوكة للخصوم ولكل الناس . وبعض المشجعين يتوارى فى بيته ولا يذهب إلى العمل . . أو ينهار . . أو يصاب بأزمة قلبية . . أو يموت . . أو ينتحر . . كأنه راهن بكل ما يملك ، وخسر كل شىء . .

وجاء التليفزيون وزاد عدد المتفرجين . . نشر الوعى بالرياضة ، ولكنه لم ينشر قيم الرياضة أو تذوقها . . ولذلك كان هدف متفرجى التليفزيون هو العنف والإثارة .

حتى الرياضة دخلتها النظريات : الهواية والاحتراف .

أيهما أفضل لفن الكرة . أن يكون اللاعب هاويا ؛ يلعب لأنه يحب اللعب ، ولا يهمه المكسب المادى .

أو يلعب لأنه يعيش فى اللعب . . فإذا لم يلعب مات . . ولذلك فهو يتفنن لكى يعيش أفضل . . بالكسب الكثير .

اختلف علماء الرياضة . . ولكن أحدا لا يفكر ، لم يعد يفكر ، فى أن يتفرج فقط . . وأن يجد فى ذلك متعة .

انتهى ذلك الزمان الذى كان المتفرج يظل متفرجا لا يتدخل . . يرى ويسمع ويقول فى نفسه : الله . . تماما كالذين يتفرجون على التمثيل المسرحى أو الغناء المسرحى أو الموسيقى السمفونية . . فقط أن يصفق فى النهاية ، ولكنه لا يتنفس ولا يتدخل أثناء العزف . .

ولكن تقاليد المسرح هى الأخرى قد انهارت . . فكان الممثلون يظهرون على المسرح ويعيشون حياتهم الفنية . . ونحن نتفرج فقط . . كأنهم لا يشعرون بنا ، وكأننا لا نعايشهم .

أما الآن فمسرح العبث جعل من حق الممثل أن ينزل إلى مقاعد المتفرجين . . ومن حق المتفرج أن يصعد إلى المسرح ويضرب الممثل قلما . . أو يدخل معه فى قافية . . ويدور حوار خارج عن النص . . أو بالاتفاق مع المؤلف أو الممثل . . تماما كما يحدث فى الملاعب . . اللاعب عينه على المدرجات ، والمدرجات عينها على الكاميرا . . ولا أحد ينظر إلى اللعب أو اللاعبين . . فلم يعد اللعب للعب ، أو الفن للفن . . وإنما كل شىء من أجل الاستعراض والمكسب!

لقد فسدت الرياضة نهائيا . . لم يعد لها ذلك البريق . . ذلك السحر . . لم تعد لها تلك الطقوس الدينية : المتفرج قد احتشد نفسيا وعقليا واجتماعيا أيضا . وذهب يتمتع فى استغراق . . واللاعب عينه على الكرة وعلى زملائه . . وكل همه هو أن يبدع وأن يتفنن . انتهى كل شىء . . أما الأهداف ، إن جاءت ، فليست هى الهدف!

وجمهور التليفزيون الجالس فى بيته يريد من الجميع أن يقوموا بالتسلية . . أصبحت الرياضة تسلية . . مثل أعمال السيرك . . فالكاميرا عندما تتسكع بين المدرجات فلكى تبحث عن شىء غريب شاذ . . يجعل المتفرج يضحك . . واللاعب عندما يتشقلب أو يتهجم على اللاعبين أو الحكام ، فإنه يساهم فى العنف والإثارة التى يتعطش إليها المتفرجون!

حتى ملاعب التنس ، التى هى رياضة أرستقراطية ، تجد الجمهور يصرخ ويقلق ويشتم ، ونسمع الحكم ينبه المتفرجين إلى الهدوء والأدب!

ويحدث الآن ما كان يحدث فى القرن التاسع عشر . ففى القرن الماضى كان المصلحون يستنكرون الرياضة ؛ لأنها تدعو إلى الفوضى وإلى تعاطى الخمور . . والخمور من شأنها أن تطلق سراح الناس على الناس . . ولذلك لعنوا الرياضة التى تجعل الناس يفقدون عقولهم مرتين : مرة بالحماس ومرة بالخمر .

والآن فى كثير من الملاعب يمنعون تعاطى الخمور . . بل يمنعون كل من شربها قبل دخول الملعب . . والسبب هو حماية اللاعبين والمتفرجين من العنف والتدمير .

والرجل الذى أنشأ الدورة الأوليمبية واسمه بير دى كوباتان له عبارة مشهورة قال : إننى معجب بإنجلترا لأنها جعلت الهدف من الرياضة هو بناء الشخصية المتكاملة!

وماتت هذه العبارة معه فلم يعد ذلك هو هدف الرياضة من أى نوع . ضاعت الأهداف ، وفسدت السبل . . أفسدها اللاعبون والجمهور والمعلقون والأندية وشركات الكرة!

***

طبيعى أن يقول رجل مثل الجنرال ماكارثر : إن بذور النصر فى الحرب كانت هناك فى الملاعب!

ولا أعرف ما الذى قاله يوم انهزمت أمريكا فى موقعة بيرل هاربور .

قالوا الكثير . ولكن ليس من بين الذى قالوه : إنها الملاعب التى انهزمت فيها أمريكا أمام أمريكا قبل أن تهزمها اليابان .

والسبب أن هناك أنواعا مختلفة من الملاعب . . ملاعب الرياضة وملاعب القتال . . وإن كانت أمريكا ، بتقدمها الصناعى الهائل ، قد

أفسدت الرياضة بكل أنواعها فأصبحت تجارة . . ولكن عندما هددت السياسة بإفساد الدورة الأوليمبية أعلنت كل دول العالم أن السياسة لا علاقة لها بروعة الشباب وجماله وبطولته . . ولا يحق للسياسة أن تفسد ما تبقى من ملذات الناس ، فتقضى على الملاعب أيضا . . وامتنعت دول عن المشاركة فى الدورة الأوليمبية الأمريكية . . وامتنعت أيضا دول عن الدورة الأوليمبية فى كوريا الجنوبية : كوبا وألبانيا وأثيوبيا وكوريا الشمالية . . ولكن الأغلبية المطلقة ترى أن الرياضة يجب أن تبقى ، بعيدة عن السياسة وأن تحتفظ لها بمبادئها القوية فى إزالة الفوارق بين الناس . . وفى الإبقاء على المعادلة الصعبة بين التنافس والتعاون . . أى أن يتعاون الفريق الواحد فى تنافسه مع فريق آخر . . ودولة أخرى . وأن تكون الرياضة استعراضا لأعظم ما بلغه الشباب . . مثل مهرجانات الأغنية والمسرحية والأفلام . . ومعارض الكتب . . كلها أسواق للدعاية والإبداع .

وفى الحرب العالمية الثانية كانت قوات الحلفاء فى مصر . . يلعبون ويرقصون . . ولكن رأينا أعظم ما أبدع العقل الإنسانى : مئات ألوف الكتب فى طبعات صغيرة ورخيصة . . كل الشعر والمسرح والفلسفة والعلوم والروايات . . كلها على أرصفة مصر وفوق عرباتها الكارو وعلى سور الأزبكية . . فقد كانت هناك حرب ورياضة وقراءة .

وهذا هو التعادل والعدل . . والتوازن والانسجام بين اللعب والجد - مع أن اللعب هو الآخر جد فى جد . . لأن له قواعد وأصولا وأعرافا وقضاة ، ثم إن محاكمات اللعب كلها علنية . . ونحن جميعا نحترم قانون اللعب وقدسية القضاء ونضرب دماغنا فى الحائط . . ولا نقترب من الحائط الوهمى المرسوم على الأرض بالطباشير . . لأن هذا الحائط الوهمى حقيقة مؤكدة . . حقيقة القانون وقوته واستقلاله .

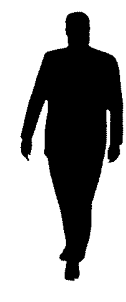
ولن نتقدم فى الرياضة مالم نحقق التوازن والانسجام بين اللعب والجد بين التنافس والتعاون والتسامح بين القدم والقلم - كما قال لنا توفيق الحكيم .

ولابد أننا الآن نخجل من أنفسنا عندما ألقينا على كرة القدم كل اللوم فى هزيمتنا العسكرية . . ولكننا مع الأسف ما نزال نلعب بكرتين : كرة القدم وكرة الندم .

ولم نعد نحن بدعا فى ذلك .

فالاتحاد السوفيتى الذى لعن ستالين وأحرقه أيام خروشوف ، أعاد نبش قبره بأصابع جورباتشوف ليبصق المواطنون (٢٧٠ مليون) على رفاته . . أو ترابه ؛ لأنه كان مجرما . ويجب أن يكون هذا القرار نهائيا . فلا أسف ولا ندم على ذلك . . ولا إدانة للملايين . . فهو المجرم وهم الضحايا . فلا يلوم أحد نفسه . . وإنما اللوم على معاصريه الذين استسلموا والذين أركبوه عقولهم وقلوبهم وإرادتهم . . وعليه وحده!

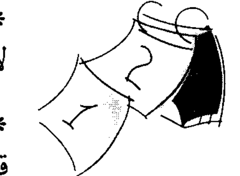
لقد أوقف جورباتشوف كرة الندم ، ليتفرغ إلى كرة القدم فى أوروبا وأمريكا!



لا أدخلكم الله هذه

"البوابة السوداء"!

لا أدخلكم الله هذه «البوابة السوداء»!



* السجون والمعتقلات والمحاكم ورجال الأمن ، عددهم جميعًا لا يكفى لتنفيذ قانون لا يتفق مع الدين!

* من الممكن أن تكون حكومة بلا قانون ، مستحيل أن يكون قانون بلا حكومة!

* القانون المصرى يشبه سيدة أجهضوها كثيرًا حتى أصبحت سيئة السمعة!

* إذا اعتدت الدولة على القانون خلقت فى الناس الاحتقار لها وللقانون!

* ارتفاع نسبة الجريمة دليل على أن ذراع القانون أصبحت قصيرة . . أو أصبحت أطول مما يجب!

* يزعجنا : الناس فى السجون ، والناس الذين لم يدخلوها ، والذين كان يجب أن يدخلوها!

* أول اعتداء على حرية الإنسان أن يتدخل البوليس فى هذا الحديث الذى بينى وبينك!

* نحن لم نولد متساوين ، القانون جعلنا كذلك!

* أكثر الناس قلقًا فى داخل السجون : حراسها!

* السجون هى علامات الاستفهام ، والمعتقلات هى علامات التعجب فى كتاب الحضارة!

إن أول خوف كبير فى حياتى يوم استدعوا والدى مساء لسبب لا أعرفه . فقد كنت صغيرًا . ولكن ظلت أمى تبكى ونحن حولها ، وطلع نهار ولم يظهر أبى .

وطلع نهار ولم يعد أبى . وجاء أناس يسألون ولم تنطق أمى . وتهامس الناس ولم نسمع ، فقد كانت حريصة على أن ننام مبكرًا حتى لا نراها تبكى . هل كانت مريضة؟ هل تظاهرت بالمرض؟ . . ثم عاد أبى ونحن وكلاب الحراسة نتعلق بملابسه . . هل الحصان الذى كان يركبه فى طول السماء وعرضها؟ كنا نراه كذلك؟! هل البندقية التى على كتفه فى طول النخلة؟! هل صحيح أنه قتل بها ألفًا من رجال البوليس ، وفى مقدمتهم المأمور؟ . . إن أمى هى التى تقول ذلك .

وكنت أحكى لزملائى فى مدرسة أبى حمص الابتدائية أنهم وضعونى فى السجن ووضعوا السلاسل فى يدى وقدمى وأدخلوا الصراصير فى صدرى والنمل فى أذنى . لأننى اعتديت على المأمور بالضرب . وسمعتنى أمى وأنا أتخيل هذه القصة وأقسم على صحتها فطلبت منى أن أكف ما دام والدى قد عاد سالمًا ، وكدت أصدق هذه القصة التى اخترعتها انتقامًا من المأمور ، أى مأمور . . أو من السلطة التى سجنت والدى ، مع أن شيئًا لم يصب والدى!

وفى سنة ١٩٥٢ ولسبب غامض شجعت زملائى على أن نرى السجون فى ولاية بافاريا الألمانية وكنا جميعًا مدرسين فى الجامعة : د . عبد العزيز حجازى ود . عبد المنعم البنا ود . حسن عثمان ، والرائد حسنى نجيب ود . مراد كامل ، وكان أستاذ اللغات السامية فى جامعة القاهرة ، والذى رشح نفسه بعد ذلك ليكون بطريرك الأقباط . ولم تكن السجون فى برنامج الزيارة . وذهبنا ومعنا وزير العدل . . وكانت لدىَّ رغبة عميقة فى معرفة شىء ما . . هل كنت فى ذلك الوقت أفكر فى أن أتفرغ لدراسة الفلسفة : للقراءة والتأليف . وأن أقضى حياتى فى أحد الأديرة فى إحدى الصوامع : سجن انفرادى أنيق من أجل البحث عن الحقيقة؟ أظن كانت هذه آمالى . ولكن الأب قنواتى شفاه الله ، وأحد الرهبان فى الدير الدومنيكى بالقاهرة نبهنى الى أن هذا ممكن . . ولكن كيف أعيش وكانت أمى مريضة ومات أبى؟ ولم أكن قد فكرت فى ذلك . . هل كنت أعرف السجن الذى قد دخله والدى بسبب وشاية سياسية؟ . . هل الفلاسفة هم وحدهم الذين لا يضيقون بالسجون؟ هل الخوف من البرد والزكام هو الذى أبعدنى عن هذه الفكرة الجنونية؟! لم أكن قد حسمت كل هذه المعانى عندما رأيت السجن فى

بافاريا : المبنى فخم ضخم . . وزير العدل الألمانى يتقدمنا جميعًا . . ثم يقول لأحد مديرى السجن : استأذن السجين إن كان يحب أن يرى هؤلاء السادة الأجانب!

يقول : استأذن السجين!!

ودق باب إحدى الزنزانات وانفتح الباب ، الغرفة صغيرة أرضها وجدرانها وسقفها من الخشب ، السرير صغير نظيف . . ومنضدة عليها بعض الكتب والورد ، نهض السجين واقفًا وصافحنا ، وسأله الوزير إن كانت له رغبة فى شىء . فهز رأسه شاكرًا . . أما جريمته فهى الإهمال الذى أدى إلى قتل أحد المشاة بسيارته! وسجين طبيب ، وسجين ضابط ، وسجين تاجر وكل الغرف - الزنازين - نظيفة أنيقة . . وقيل لنا بوضوح شديد : السجن معناه أن يفقد السجين حرية الحركة فقط . . فلا يخرج من هذا المكان ، ولكن كل الذى يريده من طعام أو شراب أو كتب أو الاستماع إلى الموسيقى والرياضة . كل ذلك ممكن وحقه كمواطن فى دولة متحضرة!

ولم أعرف بالضبط ما مزايا هذه السجون عن السجون فى مصر مثلاً؟ بعد ذلك عرفت بشهور قليلة عندما تحدثت إلى الزميل إسماعيل حسين مدير مكتب أخبار اليوم بالإسكندرية ، وتشاء الصدفة أن يذهب إلى بافاريا وأن يزور هذا السجن مع المرحوم عز العرب عبد الناصر ، شقيق الرئيس جمال عبد الناصر ، وعاد مبهورًا . يروى نوادر حياة السجون فى ألمانيا . وكيف أنها أمنية أى مواطن مصرى . ثم هذه الغلطة الفظيعة . لقد ردد إسماعيل حسين عبارة عن شقيق الرئيس : إن المصريين كلاب لا يستحقون إلا ضرب الكرباج لا سجونًا من هذا النوع الفاخر!

واختفى إسماعيل حسين فى سجن القلعة . . ولم يره أقرب الناس إليه إلا وهم يقفلون عليه باب قبره ، حتى لا يعرف أحد مدى التعذيب الذى أصابه والتشويه فى وجهه وبشرته وكل عضو فى جسمه ، نعم كل عضو وليس أحد فى العالم العربى لم يقرأ ما كتبه الكاتب الكبير مصطفى أمين عن الهوان الذى أصاب ملك الصحافة ظلمًا له وحقدًا عليه . ولم يصدق أحد أن كل الذى أصاب مصطفى أمين من هوان وتعذيب وتحقير قد حدث - لأنه أكثر من أن يحتمله إنسان ولكنه حدث ولتسع سنوات!

ولو كان الذى أصاب مصطفى أمين وألوفًا من الإخوان المسلمين ومن الشيوعيين ، تعذيبًا لشخص واحد من الخمسين مليونًا لهان الأمر . . ولتوارثه أولاده وأحفاده ، ولكنه عذاب لمئات الألوف ، عذاب لشعب . . ولذلك فهذا العذاب لايمكن أن يموت . وإنما سوف يتوارثه الناس جيلاً بعد جيل . . بقعة سوداء تتسع حتى تكون عارًا قوميًا . . لعل الذى حدث لا يتكرر ، ولعله إذا تكرر أن يكون أقل امتهانًا لإنسانية المواطن .

ولذلك يجب ألا نمل الحديث عن ذلك حتى لا يقع مرة أخرى!

***

وإذا نحن ضقنا بذلك ، فإن المعذبين لايضيقون . كيف يمل من فقئت عينه ، وبترت ساقه ، وقطعت ذراعه ، وأهين فى عرضه فى سبيل الله؟!

أحدث هذه المذكرات الرائعة المروعة ما صدر للأستاذ أحمد رائف : «البوابة السوداء - من منشورات الزهراء للإعلام العربى فى ٥٩٧ صفحة» .

والمؤلف أديب شاعر مسلم ، وجريمته أنه ليس من الإخوان المسلمين ، وإن كان له أصدقاء كثير ، وأن بعض الأصدقاء متهمون بقلب نظام الحكم فى سنة ١٩٦٥ ، فاعتقلوه ليلاً وهو يقرأ رواية « عن الفئران والناس» للأديب الأمريكى جون شتاينبيك . ومنذ تلك الليلة لم يعد من الناس ، وإنما أصبح من الفئران حتى أفرج عنه بعد وفاة الرئيس عبد الناصر بستة شهور!

***

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ

مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾ سورة إبراهيم .

(صدق الله العظيم)

وقد قدم لهذه المذكرات السيد حسن التل رئيس تحرير دار اللواء بقوله – وهو على حق تمامًا :

« إنها وثيقة اتهام لا تدين نظامًا بعينه ، بل تدين جيلاً بأكمله ؛ لأن النظام لم يقو على ارتكاب كل هذه الفظائع إلا بعد أن استخف بالإنسان على الخريطة العربية!

وتبدأ ملحمة العذاب فى داخل المعتقلات والسجون .

وفى تاريخ العذاب يستطيع المؤلف أن يميز بين درجات العذاب . . فالعذاب فى المباحث العامة فيه براعة ، والعذاب فى السجن الحربى فيه خشونة .

والعذاب يبدأ بالإهانة والصفع والضرب بالعصا والهراوة . . ثم أن يتولى السجناء ضرب بعضهم البعض وبمنتهى الشدة . . ثم بالزحف على أربع ، وإطلاق أصوات الأغنام . . ثم السير عراة حفاة على ألواح بها مسامير ، ثم كنس الأرض من الزجاج بأيديهم العارية . . فإذا أصيب أحد بجروح وصديد ، تركوه فى العراء حتى يجف دمه .

والمطلوب أن يعترف بما لم يفعل وإلا . . عاد العذاب بنفس القوة والقسوة من البداية . . وبلا نهاية .

وجاء من يقول له :

– قبل أن تموت ماذا تريد؟

- أن أصلى ركعتين استعداداً للقاء الله .
- وماذا تفيد صلاتك؟
- إننى استأذنه سبحانه وتعالى فى المثول بين يديه . .
- لا صلاة!

وكان معصوب العينين واقفًا على حافة هاوية . وقيل له :

- اقفز!
- لا أقدر .
- اقفز .
- ادفعنى أنت!
- اقفز هذه أوامر المشير عبد الحكيم عامر . . لابد من إعدام خمسين أنت أولهم!

وكانت الصرخات حوله فى كل مكان . وهو لايدرى . إنه فى غيبوبة . ثم قيل له : لقد تأجل حكم الإعدام! هل عندك معلومات تريد أن تقولها؟!

- لا .
- هل لديك رغبة فى شىء؟!
- لا .
- تكتب اعترافاتك الآن؟!
- ليس عندى ما أقوله .
- عندى أنا . . أنا أملى عليك وأنت تكتب!
- حاضر ياسعادة البيه .

وكتب بخط يده : أنا شاركت فى مؤامرة لقلب نظام الحكم فى مصر!

وأحرقوا بالولاعة أماكن مختلفة فى جسمه . . ومرغوه على الأرض . وسجنوه مع خمسين فى غرفة تسع عشرة أشخاص . . وشربوه البول .

وحاول أن يفلسف عذابه . . ويقول لنفسه : ليس الألم إلا فكرة يمكن طردها بفكرة أخرى . هذه الفكرة الأخرى أننى أقوى من الألم ، وأعظم

من الألم . تمامًا على الطريقة البوذية . ولكنه فشل تمامًا ، فلم يكن الألم فكرة وإنما كان جسمًا ملتهبًا محترقًا مشوهًا . فاحترقت فكرة مقاومة الألم فى فرن العذاب البدنى!

وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر فى موسكو فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٥ فى أحد أندية الشباب أن البوليس قد ضبط مؤامرة للإخوان المسلمين لقلب نظام الحكم ، وأنه كان قد عفا عنهم فى سنة ١٩٥٤ . ولكن هذه المرة لن يفلتوا . وكان ذلك تصريحًا جديدًا بمضاعفة العذاب لهم فى المعتقلات والسجون .

قال أحد الضباط لأحمد رائف : سوف تعترف . لا تحاول أن تهرب . إن الله نفسه لا يستطيع أن ينقذك . . إن الله لا يدخل هذا المكان وسوف ترى!

وتنقلوا بالسلاسل والقيود مثل أسرى الجيوش الرومانية . أو مثل العبيد ينقلونهم إلى حقول القصب والقطن من إفريقيا إلى أمريكا . . أو مثل اليهود الذين اعتقلهم الجستابو فى عهد هتلر .

وقال أحد الضباط : من جاء إلى هنا يجب أن يكون عبدًا لجمال عبد الناصر . اعرفوها وافهموها!

واستسلم لحكم الله وقضائه وقدره . . وتذكر أبياتًا صوفية تقول :

لا تدبر لك أمرًا

فأولو التدبير هلكى

سلم الأمر تجدنا

نحن أولى بك منكا

ورأى الحاجة زينب الغزالى يصفعونها ويجلدونها .

وقابل الشهيد سيد قطب العالم الجليل مفسر القرآن الكريم المريض الشيخ الذى لم يشفع له شىء من كل ذلك فأعدموه؟

سأل سيد قطب :

- ماذا تنتظر؟

- الوفود على ربى!

وفى السجن ألف مسرحية . قام فيها شكرى مصطفى الذى أصبح أميرًا لجماعة «التكفير والهجرة» بدور الطالب العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل . المسرحية اسمها «أشمونى أفندى» .

وأشيع فى السجن أنهم إذا قدموا التماسًا أو طلبًا للعفو ، فسوف يعفو عنهم . . وواحد منهم كتب لشادية ونجاة الصغيرة ، وبعض الراقصات ، فقد قيل فى السجن إنهن وحدهن القادرات على كل شىء .

ويوم حاصر الفريق محمد فوزى بدباباته وعشرين ألفًا من الجنود كرداسة بحثًا عن المتآمرين ، نقلوا إلى السجن ألفًا من الرجال والنساء . واشترطوا لدخولهم : أن يبرك الرجال على الأرض وأن يحملوا النساء على ظهورهم!

***

وكانت هناك لحظات تأمل خاطفة فى حاله وحال الناس ، وهو ينظر من القلعة إلى القاهرة وتخيل شاهين بك الذى هرب بحصانه من «مذبحة» محمد على . .

وهناك لحظات يحس فيها بأنه فى السجن أمان تام فليس هناك أسوأ من الذى أصابه ، وليس قلقًا على شىء ، ولا خائفًا من شىء أو من أحد . . فهنا القاع الذى لا شىء بعده . . بل حتى إذا جاء الموت ، كان الراحة العظمى من هذا الهوان الأعظم!

أما الفزع الأكبر فهو المؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس عبد الناصر (٤٩ سنة) قبل النكسة . وسخر من أنتونى إيدن ووصفه بأنه «خرع» ولم تعرف وكالات الأنباء العالمية أن تترجم هذه الكلمة إلى أية لغة أجنبية . . وكان إيدن مريضًا . ولكن هذا المريض مات بعد عبد الناصر بسبع سنوات ، وأعلن عبد الناصر أنه قادر على أن يحارب أمريكا نفسها!

وكانت الفرحة الكبرى يوم النكسة . . شماتة فى الرجل ، وحزنًا على مصر وخوفًا من أن يؤدى ذلك إلى مزيد من التعذيب!

وأعلن الرئيس عبد الناصر : كان الغرض هو إسقاط النظام . والنظام لم يسقط . أما الجيش فلا يهم ، سوف يكون لنا جيش آخر .

ثم أعلن : أنا المسئول عن كل ما حدث!

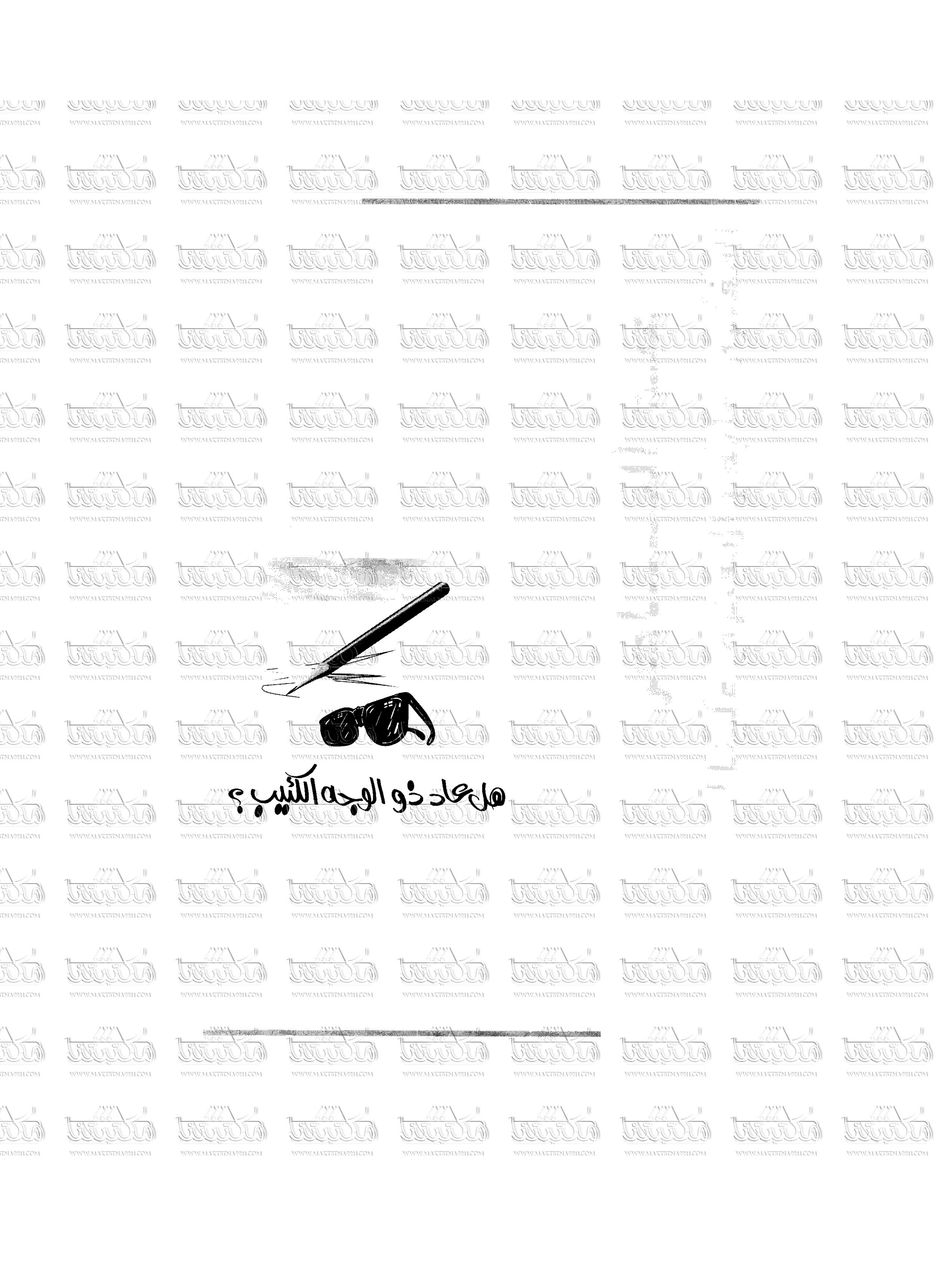
وصفق الناس وطبلوا وزمروا سعداء بذلك . كأن النكسة كانت مطلبا قوميا!

وفى داخل السجن قال لهم عبد الفتاح حسن باشا : نحن فى حاجة إلى خمسين عامًا من الإصلاح لكى نصل إلى الفساد الذى كنا فيه قبل ثورة يوليو . لقد قضى عبد الناصر على أى أمل فى الإصلاح لأجيال قادمة . لقد أفسد أخلاق الناس وقتل فيهم الشهامة والمروءة والمثل الأعلى .

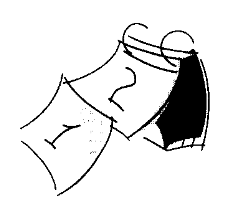
***

ثم غادر الأستاذ أحمد رائف المعتقل بعد أن سمع قائد المعتقل يسب الزعيم ويصفه بوضاعة الأصل ، وأنه ضيع الوطن وسرق الثورة من السلطان العظيم أنور السادات القائد الحقيقى للثورة المباركة ، ولكن الله يمهل ولا يهمل!

□□□


هل عاد ذو الوجه الكئيب ؟

هل عاد ذو الوجه الكئيب؟



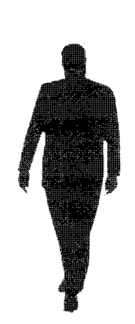
هذه القصيدة كتبها صديقى الشاعر صلاح عبد الصبور ، وقال لى وللآخرين أيضًا : إنها عن الرئيس جمال عبد الناصر .

هل عاد ذو الوجه الكئيب؟
ذو النظرة البكماء والأنف المقوس والندوب
هل عاد ذو الظفر الخضيب
ذو المشية التياهة الخيلاء تنقر فى الدروب
لحنًا من الإذلال والكذب المرقش والنعيب
ومدينتى معقودة الزنار
عمياء ترقص فى الظلام
ويصفر الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب
فى عرس ذى الوجه الكئيب .

***

من أين جاء؟
ويقول سادتنا الأماجد حين يزوون الجبين
شأن الثقاة العارفين
من السماء . . .
من أين جاء؟

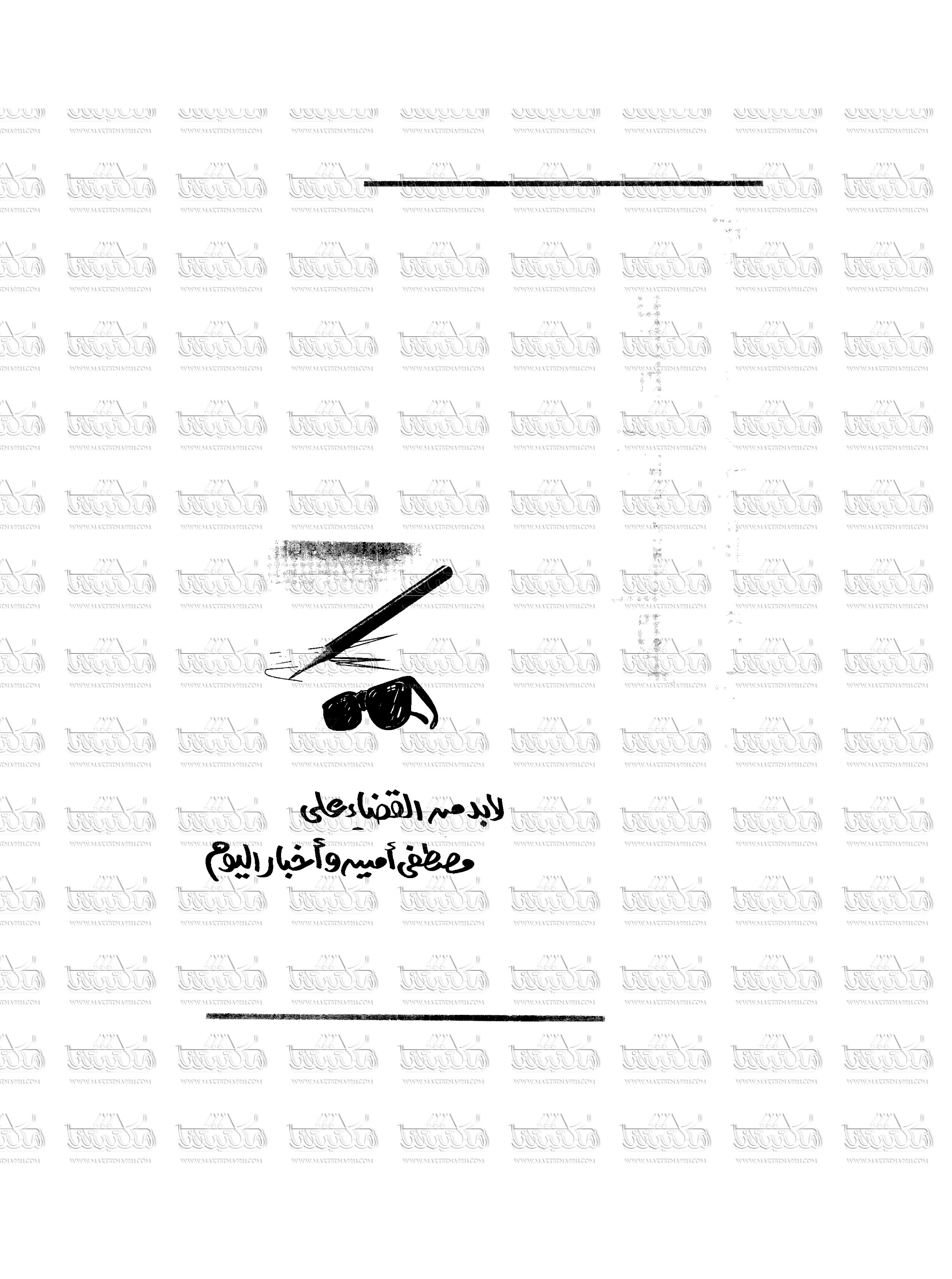
ويظل أهل الفضل فينا حائرين
ويتمتمون على مسابحهم وهم يتلاغطون
هذا ابتلاء الله! هذا من تدابير القضاء
من أين جاء؟
ويقول أصحابى وهم كالزعزع النكباء قوة
العزم يلمع فى عيونهم وتجرى فى عروقهم الفتوة
من الجحيم
وكيف جاء؟
هذا «أبو الهول» المخيف
نصب السرادق عند باب مدينتى للقادمين
وللعائدين
والهاربين إلى الفضاء
والواجين إلى البناء
لا! لم يدع أحدًا . . . .
إلا وألقى دونه هذا السؤال
من خالق الدنيا؟
الملتحون تهللوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :
الله خالقها . .! وهذا لا يصح به سؤال
وعوى أبو الهول المخيف ، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار
ورمى بجمع الملتحين إلى الدمار
والأمر دون تأملوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :
لا نستطيع! بل نحن نعرف! إنه قدم الطبيعة
وعوى أبو الهول المخيف ، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار
ورمى بجمع الأمردين إلى الدمار



وتقدم الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب
وتضعضعوا! قالوا معاذك! أنت خالقها ، أجل . . . .
أنت الزمان
أنت المكان
أنت الذى كان
أنت الذى سيكون فى آتى الأوان
وعوى أبو الهول المخيف وقلب الوجه الكئيب إلى اليمين
وأشار ، ثم تواثبوا فوق الآرائك جالسين

***

سيظل ذو الوجه الكئيب وأنفه ونيوبه . . .
وخطاه تنقر فى حوائطنا الخراب
إلا إذا . . .
إلا إذا مات
سيموت ذو الوجه الكئيب
سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفن على وجه السماء
فى ذلك اليوم الحبيب
ومدينتى معقودة الزنار مبصرة سترقص فى الضياء
فى موت ذى الوجه الكئيب



لابد من القضاء على مصطفى أمين وأخبار اليوم

لابد من القضاء على مصطفى أمين وأخبـــار اليـــــوم!

قرار اعتقال الأستاذ الكبير مصطفى أمين كان مفاجأة كبرى ، ومحاكمته بالسجن المؤبد ـ ٢٥ عامًا - وأفرج عنه الرئيس السادات صحيًا يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٧٤م ؛ أى بعد حوالى عشر سنوات . انتقل فيها مصطفى أمين من عرش الصحافة إلى برش السجن . . أما كيف عذبوه وأهدروا كرامته ، فحكاية طويلة رواها مصطفى أمين فى كتبه . . وتناقلتها كل وسائل الإعلام فى مصر والعالم .

وكانت تهمة مصطفى أمين هى (التخابر) ؛ أى إعطاء أخبار هامة للمخابرات الأمريكية ، هو يقدم لهم أخبارًا وهم يقدمون له أخبارًا ، والذى قام به مصطفى أمين هو ما يفعله دون أن يكون خائنًا . كل الذين يعملون فى الصحافة يحتم عليهم عملهم أن يسألوا وأن يجلسوا وأن يتحاوروا . . ولو أمكن تسجيل ما يدور بين مندوبى الصحف ووكالات الأنباء فى مجالسهم ليلاً ونهارًا ، لوجب إدخالهم السجن جميعًا بتهمة خيانة الوطن .

وما من صحفى إلا دار معه مثل هذا الحديث : إيه الأخبار؟

- كما ترى زى الزفت . .
- من ناحية إيه؟
- من كل النواحى . .
- فى السياسة؟
- وفى الاقتصاد أيضًا .
- مثلاً؟

- البصل . . الأرز . . الديون . . القمح . . الفوائد على الديون . . ما موقف أمريكا . .

- موقفنا واضح؟

- لا . . ليس واضحًا!

- واضح بدليل أننا أرسلنا . . وأوفدنا . .

- كل شيء ممكن في لعبة المخابرات . .

وروقب مصطفى أمين . . وتلقى الشكر من الرئيس عبد الناصر على ما قدم له من أخبار هامة . . ولم يعرف مصطفى أمين أنهم استدرجوه إلى أن يكون خائنًا . . وكان للرئيس ما أراد . .

وفي ليلة زفاف ابن المشير «أبو غزالة» . وكنت أجلس مع محمد نسيم وكيل المخابرات ، والرجل الذي درب الجاسوس المصري رأفت الهجان . . وفجأة قال لي محمد نسيم : انظر وراءك هل تعرف من هذا؟

ونظرت . وقلت : لا أعرفه . .

- تعرفه جيدًا . .

أعدت النظر وقلت : لم أره قبل اليوم . .

قال مؤكدًا وقاطعًا : بل تعرفه . . وقدم لك طعامًا وشرابًا . . ولكن في زي مختلف . . بالجلباب الأبيض والحزام الأحمر والطاقية . .

إنه أسمر اللون كأولاد الصعيد .

قلت له : مش فاهم . .

قال : هذا الرجل كان يعمل جاسوسًا في بيت مصطفى أمين سنتين يجمع الأخبار ويسجلها ، وقد دربناه في فندق ماريوت ستة شهور حتى صار جرسونًا من الدرجة الأولى . . وقد رآكم جميعًا وعرفكم وسجل أخباركم . .

أما من هؤلاء؟ فنحن الذين كنا نلتقي عند مصطفى أمين كل ليلة : عبد الحليم حافظ ، وكمال الطويل ، وشادية ، وفاتن حمامة ، وعلى أمين ، وآخرون . .

قال لي محمد نسيم : إنه السفير د . إيهاب سرور!

وسافرت إلى إسرائيل فى وفد سياحى برئاسة د . ممدوح البلتاجى وزير السياحة . سألت محمد نسيم : طبعًا فى إسرائيل يعرفون من أنت؟

- مؤكد . .

- هل تلاحظ أن أحدًا يراقبك؟

- طبيعى . ولكن لا أعرف أى أحد من الذين تراهم . ولكنهم يراقبون كل حركاتى وكلماتى وهى مبادئ بسيطة عندنا فى جهاز الأمن القومى ـ أى المخابرات . .

وسألت محمد نسيم إن كان مصطفى أمين جاسوسًا؟

قال : يمكن اعتباره جاسوسًا . .

- ويمكن ألا يكون!

- ممكن!

- يعنى إيه؟!

- يعنى لعبة المخابرات خطيرة . . فالجاسوس يأخذ ويعطى . . يأخذ معلومات مقابل معلومات ؛ ولذلك يوصف بأنه جاسوس مزدوج . . ومن الصعب أن تأخذ دون أن تعطى . .

يعنى ممكن أن يكون وطنيًا وممكن أن يكون خائنًا للوطن . هذا يتوقف على من الذى يقرر ذلك . فإذا كانت النية تكريم مصطفى أمين فهو وطنى ، وإذا كانت النية إلى اتهامه بالعمالة ضد مصر فهو خائن!

وبعد حوالى أربعين عامًا من إدانة مصطفى أمين والإفراج عنه أصدر د . على السمان رجل المخابرات الأول فى الشرق الأوسط كتابًا سجل فيه حوارًا مع الفريق كمال حسن على الذى كان رئيسًا للمخابرات يقول فيه : إن مصطفى أمين من الناحية الفنية ـ أى من الناحية المخابراتية ـ ليس جاسوسًا ؛ أى يجب ألا تدينه الدولة .

ولما كتبت مقالاً أشرت إلى هذا الحكم الفنى على مصطفى أمين تعرض د . على السمان للهجوم والنقد الشديد من الناصريين . وقد ذكرهم لى بالاسم . . ومن جهاز المخابرات أيضًا ، فتلقيت منه ردًا ـ لا أظن أنه رد ولا أظنه تراجعًا وما هو تأكيد لما قاله ولا حتى تنصُّل ـ هذا إن كنت أو أى إنسان قد فهم مما قاله د . على السمان أى شىء . . أما أنا فلم أفهم ، ولكن أجد له عذرًا هو أنه تدحرج . . انزلق وقال ما لا يصح أن يقال . .

A.El-Samman

علي السمان

عزيزي الأستاذ الكبير/ أنيس منصور

تحية طيبة وبعد

يهمني أن أوضح لسيادتكم أن الموضوع الخاص بقضية الكاتب والصحفي الأستاذ مصطفى أمين وسجنه أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والذى نشرتموه فى - أهرام ١٢/٢٠ وقبلها فى ٧/٢٧ وفى ٨/٧ ٢٠٠٥ - يستحق مني توضيحاً لموضوعية العرض ودقة الصياغة لاسيما فى موضوعات تمس الأمن القومي .

ما ذكرتموه سيادتكم وخاص بالمناقشة التى تمت بيني وبين الأخ والصديق كمال حسن علي وقت أن كان رئيساً للمخابرات حول قضية الأستاذ مصطفى أمين وأعطيت رأياً شخصياً نشرته فى كتابي "أوراق عمري" من الملك لعبد الناصر والسادات فى الصفحة ٢٤٣ ، والذى جاء فيه "أن الأستاذ مصطفى أمين كان ينصح الأمريكان بتأخير تسليم شحنات القمح لعبد الناصر" حتى يخضع ، وأن رأيي أن ما قاله ليس "معلومات" بالمعني الفني وضعها الأستاذ مصطفى أمين تحت تصرف الأمريكان ، وأنه من البديهي أنه بمصطفى أمين أو بدونه فأن مبدأ الضغط بكارت القمح موجود.

يهمني أن أوكد لسيادتكم أن ما قلته لرئيس المخابرات وقتها لا يمثل من ناحيتي تبرئة كلية للأستاذ مصطفى أمين فى بقية جوانب دوسيه قضية لم أطلع عليها ولكن رد محدد على نقطة محددة تمثل تقييم "فني" خاص بأهمية الضغط على عبد الناصر من خلال تأخير تسليم القمح .

كما أصارحكم أن إصرار الرئيس السادات أن يكون الإفراج عن الأستاذ مصطفى أمين لأسباب صحية أى إنسانية جعلني أفهم أنه لم يرد حسم الموضوع الأمني أو القانوني الخاص بالأستاذ مصطفى أمين .

مع كل الشكر مقدماً على تقبلكم نشر هذا التوضيح – أن أمكن – فى مقالكم "مواقف" .

علي السمان

A.W.S

٢٠٠٥/١٢/٢٨

١٣٢ شارع النيل - الدقي - القاهرة *تليفون:٧٣٥٠٠٥٤ - ٧٣٥٠١١٠ *فاكس:٧٣٥٠٢٣٦
132 El nil street - Dokki - Cairto *TEL.73500547350110FAX: 7350236
PARIS: 21, Rue Valette - 75005 Paris, TEL. 01-43291790 FAX: 01-43290009
EMAIL : - EUROPEGYPT@EUROPEGYPT.COM

أرجو أن تلاحظ أن هذا الخطاب انتهى بإمضاء بحبر سرى . . بحيث يمكن الطعن فى هذا الخطاب ، كأن يقال إن أحدًا غير د . على السمان قد بعث بهذا الخطاب . وأنا اعتقد أنه ليس د . على السمان الذى كتب هذا الرد . . فهو الذى يعرف كيف يكتب وكيف يقول . وعباراته سريعة قاطعة ، أما الذى جاء فى هذا الرد فالعبارة ملتوية لا تعرف لها أولاً من آخر . . المهم أنه أراد أن يقول ، فلم يقل . ولم يعلق . . ولكن (كأنه) قال . . وكأنه رد . . وكأنه أقنع أحدًا بشىء آخر . .

وكأننى تلقيت هذا الخطاب وكأننى نشرته . وكل هذا يؤكد أن الرئيس عبدالناصر لم يكن فى حاجة إلى تهمة لكى يعتقل مصطفى أمين . وإنما هو أراد وقرر وكان له ما أراد . . والتاريخ محكمة على رقاب العباد . . وسوف نستأنف الحكم من هذه القضية وعشرات غيرها . .

وسوف يبقى د . على السمان صديقًا للجميع ، فهو رجل لطيف ناعم كالحرير وكالسيف أيضًا . وإذا حرصت على صداقته فقد اخترت الحرير الذى من الممكن أن يكون السيف الذى من الممكن أن يكون حريرًا .

أنيس منصور

□□□

جمهورية مصر العربية
وزارة العدل
المركز القومي للدراسات القضائية



مذكرة

مرفوعة من المتهم بتاريخ ٥/٨/١٩٦٥

الى الرئيس جمال عبد الناصر

يذكر بها وقائع اتصاله

بالسفارة الأمريكية



مركز التنظيم والميكروفيلم

تسليح إسرائيل [illegible] المتحدة وأن الرئيس للحرب الاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة لأنه إذا استمرت الأمور على وحدها بدون تحرك .

٤- وجرى حديث عن الوضع الداخلي فقلت إنه يبدو أنكم مهتمون بتقوية الاتحاد الاشتراكي ومهتمون بالوزارة الجديدة وأن المرشح لرئاسة الوزارة هو زكريا محيي الدين .

وجرى حديث عن المستشارين في اليمن فقلت له على لسان [illegible] إنكم أصلحتم كثيرًا من الأخطاء [illegible] عن استبدال المستشارين في اليمن [illegible] .

ثم قلت إنه يبدو [illegible] رئاسة الوزارة وأن [illegible] تردد أن [illegible] وأن البغدادي [illegible] من الضباط إلى بيته وأنهم كانوا يتحدثون أنه [illegible] ما حدث في [illegible] المالية في [illegible] وأنهم كانوا [illegible] وأن الرئيس [illegible] أحد من هؤلاء الضباط هذه المدة لما ذهب إليهم .

٥- وجرى حديث عن [illegible] فقلت له على [illegible] أن [illegible] والباقي للمساعدة في إتمام بناء المؤتمر .

وقلت له إن [illegible] وطلب مساعدات مالية [illegible] وأن [illegible] .

٦- وجرى حديث عن [illegible] فقلت له [illegible] أن [illegible] الكونغرس وأن الرئيس [illegible] إسرائيل [illegible] أن [illegible] الكونغرس [illegible] .

٧- وجرى حديث عن [illegible] أن السفير [illegible] السفير [illegible] وأن هذا [illegible] .

وقلت له [illegible] سوريا [illegible] وأن [illegible] سوريا [illegible] .

[illegible]

ومن اجتماع قبل ذلك بسجعيه عرض عن الثار الذي ورفت تكررت على الأثر
اللاتينية باللغة الإنجليزية ، وفيها ان الانفجار حدث في مدرسة مصرية وان عددا
من ضباط الجيش المناصرين لناصر هم الذين قاموا بهذا التأييد انتقاما
منه ، وان هناك ثورة في عدد من البلاد المصرية وان حوادث
تخريب حصلت في بلاد [illegible] اخرى تابعة للأسطول المصري .
وتركت هذه الورقة وامتثل له .
وقلت له في اثناء روايتي عن احاديث مع سيادتكم ، انك صالح بجزمه بسبب وقوع
الانفجار في المدرسة الناصرية ، وان هذا الانفجار حدث في الإسكندرية ، وكان تعليقه
ان هذا غير صحيح لأنه لو كان هذا الانفجار حدث في الإسكندرية لعرفنا بذلك . ثم شرحت
له ايضا كيف ان الضابط والجندي قتلا رغم [illegible] الضابط وأصيب جندي والجندي الثالث أصابته شظية
وان الانفجار حدث في [illegible] وكانت هذه المدرسة واحدة من أهم [illegible] .
وتحدثنا عن علاقة الولايات المتحدة بالجمهورية العربية ، فقلت له [illegible]
عن سياسة التدخل ، وان الشيء [illegible] من ان هذه السياسة على مصر والبلاد
الأخرى ، وخاصة ان الاتحاد السوفيتي لم يرد ردا قويا على هذه السياسة
العنيفة .
وتحدثنا عن زيارة الأستاذ احمد محجوب لسيادتكم ، وان محجوب قال لكم
انه متضايق لتدخل الشيوعيين في الصحافة المصرية ، لأن جريدة أخبار اليوم هاجمت
الحكومة السودانية لأنها [illegible] اتجاهات شيوعية ، وان الحكومة السودانية احتجت
في السفارة المصرية في السودان . وان الرئيس قال انه لا يوافق على تدخل الشيوعية في
الصحافة المصرية ، وان محجوب قال للرئيس انه [illegible] من ان تترك الآراء الشيوعية
المتطرفة [illegible] الصحف المصرية عن الشعب السوداني . وانا [illegible] سيتولى رئاسة الوزارة
وان محجوب سيتولى رئاسة الوزارة ، وانه سيعين [illegible] سفيرا ، وانه يخشى [illegible]
[illegible] سفيرا في القاهرة لذلك الشيوعيون . وان محجوب قال ان عددا من قادة الكونغو
وصلوا إلى السودان بأسلحة لم يستخدموها ، وانهم كانوا يستنجدون [illegible] ، وان احدهم ارسل
الى حكومة السودان مذكرة يسأل فيها [illegible] حقيقة [illegible] خطة [illegible] آخر ، وان
[illegible] الكونغو ارسل الى حكومة السودان مذكرة يقول فيها ان [illegible] سيارة [illegible] زوجته
وفيها [illegible] ومعها ٤٨٠ كيلو ذهب . وان الرئيس [illegible]
السودانيين [illegible] هؤلاء الناس [illegible] ، وان محجوب عرض
[illegible] إلى مصر . وان الرئيس طلب
ابقاء هذه الأسلحة للسودان .
[illegible] الرئيس [illegible] على
[illegible] السودان .

[illegible]

مذكرة مرفوعة من المتهم(*)
الى الرئيس جمال عبد الناصر

سيادة الرئيس جمال عبد الناصر . .

اننى اشعر اننى اسات اليك ، واننى لم اعد جديرًا بالثقة التى وضعتها فىّ . وقد تصورت دائمًا اننى قادر على ان انتزع معلومات هامة لبلادى ، ولقد سبق اننى جئت اليك باكبر الاسرار واخطرها مستفيدًا من صلاتى العديدة بالامريكيين من رجال السفارة الامريكية والمخابرات الامريكية ، ولقد هيا لى الوهم اننى حر فى التحرك ما دمت قد نلت منك الاذن فى الاستمرار فى اتصالاتى . ولقد كان من السهل القيام بهذه الاتصالات طالما كنت على اتصال يومىٍّ بك ، وكان هذا الاتصال المستمر الدائم يجعلنى آمن الخطا او الانحراف . ثم حدث فى الشهور الاخيرة ان قضت كثرة اعمالك ومهام الدولة بان يصعب هذا الاتصال ؛ وبذلك لم اعد قادرًا على ان استاذنك فيما اقول باسمك ، او عن لسانك ، او منسوبًا اليك . ولقد سبق ان قلت لسيادتك اننى استعمل اسمك فى احاديثى ، وانه اذا رايت ان المصلحة فى ان تكذبنى وتكذب كل صلة بى ، فاننى مستعدٌّ ان اتحمل بشجاعة تبعة هذا التكذيب .

ثم حدث اننى شعرت اننى اسات اليك بنسبة احاديث اليك بغير استئذانك ، وبغير علمك ، ثم زاد شعورى بالاسى عندما رايت فى الاجراء الذى اتخذ ضدى انك ترى اننى انحرفت عن الطريق الذى تصورت اننى اخدم به وطنى .

ولقد وجدت ان خير طريقة اكفِّر بها عن خطئى ان اكتب اليك معددًا المرات التى ذكرت فيها اسمك ، ونسبت فيها اليك افكارًا وآراء معينة ، معتمدًا على اننى

(*) نص الخطاب المرسل من الأستاذ/ مصطفى أمين للرئيس جمال عبد الناصر ، رأينا عرضه كما هو دون تدخل بالتصحيح أو التعديل لما ورد به من أخطاء لغوية اعتمادًا على عرض نص الوثيقة الأصلية . الناشر .

استعمل هذه الطريقة فى الدردشة ؛ لأحصل على معلومات تفيد بلادى ، كما فعلت قبل ذلك مرات فى المعلومات الخطيرة التى حصلت عليها من هذه المصادر وقدمتها اليك منذ قيام الثورة الى اليوم .

واذا رأيت ان هذا التصرف يستحق العقاب فإننى قابل برضاء ما تراه ، واذا رأيت ان شفيعى حُسن نيتى ، وسلامة هدفى ، فإن الامر لك على الحالين .

ان الذى دفعنى الى الكتابة اليك فى هذا الموضوع هو ما علمته من ان الدردشة التى كنت اتحدث بها الى مستر بروس اوديل كان يكتبها فى تقارير متوهمًا انها تعبر عن رأيك ، ولهذا اريد ان احرص على ان اذكر المرات التى ذكرت فيها اسمك ؛ حتى يمكن علاج ما قد يكون حدث نتيجة سوء استخدام اسمك فى هذه الاحاديث ، واننى على استعداد ان اعمل ما ترون ، ولو كان ثمن ذلك التضحية برأسى ، اذا كانت هذه هى الوسيلة لإصلاح ما افسدت ، او ما قد اكون اسأت به اليك فى هذه الاحاديث . واننى كنت اتوهم ان فى ان انسب آرائى وافكارى اليك مما يزيد اثر حديثى على مصادر معلوماتى ، ولقد كنت اعطيهم بضاعة زائفة ، واحصل منهم فيما اعتقد على بضائع حقيقية ، وقد لا ترضيك هذه الطريقة ، ولكنها كانت دائمًا الطريقة الناجحة فى الحصول على ما كنت اقدمه لك من معلومات .

ولهذا ، فسوف احاول ان اعدد بعض ما قلته على لسانك من احاديثى مع بروس اوديل الملحق السياسى فى السفارة الامريكية بالقاهرة :

١- ففى حديثى معه يوم الاربعاء ٧ يوليو سنة ١٩٦٥ قلت له عندما تحدثنا عن حادث سقوط الطائرة انتيزن على بعد ١١ كيلو من السويس ، وان جميع ركابها قد لقوا حتفهم فيما عدا ضابط روسى تمكن من النجاة ، وان ثمن الطائرة يبلغ حوالى مليون جنيه وان الضابط الروسى الذى نجا رفض التحدث مع السلطات المصرية وتوجه الى السفارة الروسية ، وهذه الطائرة هى التى اذاعت السلطات المصرية بلاغًا رسميًا عن سقوط ووفاة كل من فيها .

٢- وعندما تحدث معى مستر بروس عن اليمن ، وعن وان تاخير القوات المصرية فى الجلاء عنها يؤدى الى عدم تجديد المعونة ، قلت له على لسانك : ان الفريق الاول مرتجى قائد اليمن ابدى ان عملية تطهير

الجيوب فى جبال اليمن من المتمردين يلزم لها عام كامل ، وان الرئيس يعتبر فترة العام فترة طويلة جدًا .

٣- وعندما جرى الحديث عن ازمة محمد احمد النعمان رئيس وزراء اليمن السابق قلت له على لسانك : ان النعمان يريد ان يكون شيئا كبيرا على حساب الجمهورية العربية ، وانه يصر على تنحية الرئيس السلال ، ولكن الرئيس مصرٌّ على بقاء السلال ؛ لأنه يثق فيه ولا يثق فى النعمان ، كما ان القوات المصرية فى اليمن لا تثق فى النعمان ، وان الرئيس السلال لا يتمسك بالحكم . . وان الرئيس يعتقد ان لسان النعمان مع مصر وقلبه مع فيصل .

٤- وتحدثنا عن موقف السعودية من مصر ، وقلت ان الرئيس يفكر فى شن حملة صحفية ضد السعودية تبدا فى الصحف اللبنانية ثم تنقلها الصحف العربية ، وقال مستر بروس ان هذه الحملة بدات فعلاً فى صباح يوم الحديث . وعندما بدأ حديثى معه عن الرئيس بن بيلا قلت على لسانك : ان بومدين كان على حوار مع ثلاثة من مستشارى بن بيلا هم لطف الله سليمان وهو شيوعى مصرى ، وهنرى كورييل وهو مليونير يهودى كان زعيم الحركة الشيوعية فى مصر عام ١٩٤٦م وسكرتير تروتسكى .

وتحدثنا عن اخطاء بن بيلا فقلت على لسانك : ان الجيش الجزائرى كان يعارض التسلل الشيوعى فى الجزائر ، وان خطا بن بيلا كان بسبب تركيزه واهتمامه بالشؤون الخارجية خلال الاسبوعين اللذين سبقا الانقلاب .

٦- وجرى حديث عن البغدادى فقلت على لسانك : ان بغدادى يعتقد انه اذا اتى الى الحكم فسوف يحرق ، اما اذا ظل بعيدا عنه وحدث انقلاب فهو يعتقد ان القادة الجدد سيقدمون له السلطة ، وان الرئيس سوف لا يترك الحكم ، وانه لو حدث انقلاب فان البغدادى سوف يكون فى نفس القارب الذى فيه الرئيس .

٧- وجرى حديث عن الاتحاد الاشتراكى فقلت : ان الرئيس لا يريد ان يقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه بن بيلا بان يظل هذا الاتحاد مجرد مظهر دون صفة .

٨- وجرى حديث عن الحصار على مصر ، وقلت ان الرئيس يريد الخروج من هذا الحصار وان الزعماء العرب والافريقيون غضبوا ؛ لان الرئيس اجتمع بسوكارنو وايوب خان شواين لاى بمفرده ، دون ان يدعوهم للاشتراك فى مباحثاته ، وانه اوفد

محمد فايق بمهمة ان يطلع الزعماء بان الحالة مسيئة بالنسبة للدول الافريقية والاسيوية وان الضرورة تدعو الى الاتحاد وان الرئيس قلق بالنسبة لمنظمة افريقيا واتحاد مالاجاش وان نتيجة هذا الانقسام تقسيم افريقيا الى تجمعات .

٩- وجرى حديث عن الحالة فى العراق ، فقلت على لسانك ان الحالة فى العراق سيئة ، وان امين هويدى الغى اجازته ، وان ١٢ وزيرا ناصريّا سيستقيلون ، وانه يخشى ان يحدث فى العراق ما حدث فى الجزائر ، وان الرئيس يفكر فى استدعاء القوات المصرية الموجودة فى العراق .

١٠- وجرى حديث عن الملك حسين ، فقلت على لسانك : انك تلقيت معلومات تؤكد ان هناك عناصر هاشمية طلبت من الملك حسين ان يقوم بتغيير نظام وراثة العرش ؛ فيجعل اخاه وليّا للعهد حتى اذا حدث انقلاب فى العراق فلن يقبل العراقيون ملك امُّه انجليزية ، وان حسين يطمع فى ان يخلف نظام الحكم فى سوريا .

١١- وجرى حديث عن الموقف العربى ، فقلت ان الرئيس يعتقد ان هناك مخطط بريطانى يهدف الى عزل مصر عن بقية العالم العربى ؛ باحياء مشروع الهلال الخصيب والمغرب الكبير بجانب ان السودان فى الجنوب قد ضاع ، وبذلك تكتمل حلقة عزل مصر ، وان الرئيس علق على الحالة فى افريقيا كلها .

١٢- وتحدث بروس عن خالد محيى الدين وسلمنى مجلة لبنانية نشرت حوارا مطولا حول ميول خالد محيى الدين الشيوعية ، وقال بروس انه يعتقد ان نهاية خالد محيى الدين قد قربت .

وتساءل بروس : ماذا سيكون رد فعل الرئيس عبد الناصر اذا ثبت ان خالد محيى الدين عميل شيوعى سوفيتى .

فقلت له : ان الرئيس لن يصدق ذلك فى خالد محيى الدين .

وقال بروس انه منذ ان تسلم خالد محيى الدين منصبه فى اخبار اليوم وهو يشك فيه ، وانه قام بتحليل كل كلمة كتبها ، ويعتقد ان الروس اذا اعطوه مقالا لينشره لهم ، فسوف يفعل ذلك .

ولقد اعطانى مستر بروس مقال جريدة الصفاء ضد خالد محيى الدين وعن اتصاله بالصين ، فلم أر ان أرسل لسيادتكم هذه المجلة ؛

لأننى اعلم انها جريدة مأجورة للغرب ، وفهمت ان الغرض هو الدس لخالد محيى الدين عندكم .

١٣- واذكر فى جلسة اخرى تحدثت فيها عن مواضيع اخرى ، من بينها صفقة القمح الروسى وقلت بلسان سيادتكم انه برغم ان الصفقة لم تكن كبيرة الا انكم امرتم بالاشادة بها ، وانكم قمتم بالاتفاق بانفسكم على هذه الصفقة مع الاتحاد السوفيتى ، برغم ان السفير الروسى فى القاهرة والسفارة الروسية نفسها كانت ترى فى انه من الصعب ان تحصل مصر على كمية من هذا القمح فى الظروف الحاضرة وان الولايات المتحدة تقوم بضغط شديد على البلاد الموردة للقمح ؛ لتمنع ارسال قمح بالثمن الى مصر وافهمته اننا نشعر بان الولايات المتحدة وراء الصعوبات التى تقوم ضد الاتفاق مع هذه الدول ، وان الاتحاد السوفيتى يكسب بهذه الصفقة عدة أبناط فى بلاد افريقيا واسيا وان مبادرته الى ارسال القمح لمصر سوف يزيد من هيبته فى المنطقة كلها .

١٤- وتحدثت معه بشان انقلاب الجزائر ، وقلت له بلسانكم : انكم كنتم تتوقعون قيام هذا الانقلاب منذ عامين ، وطالما حاولتم ان تتدخلوا وتتوسطوا لتوقفوا الخلافات بين زعماء الجزائر ، وان الرئيس فى الاسبوع الماضى قال : ان الانقلاب كان مفاجأة له ، وقلت على لسانكم : انكم قلتم لبوتفليقة انكم لا تسمحون باستعمال كلمة الخيانة ضد بن بيلا ، وان الرئيس طلب من على صبرى ان يعلن فى البرلمان ان مصر تأكدت من انه ليس هناك يد اجنبية وراء انقلاب الجزائر ، وذكرت له بلسانكم كيف ان خالد محيى الدين اتصل بكم وطلب السماح بنشر خبر بأن السفير الامريكى فى الجزائر نصح الزعماء الجزائريين باعدام بن بيلا وان سيادتكم رفضتم ذلك ، وان على الشلقانى اتصل باخبار اليوم من باريس وقال ان المخابرات الامريكية وراء انقلاب الجزائر ، وقلت له بلسانكم ان الشيوعيين يريدون ان يقع خلاف بين الجزائر والقاهرة ، ولكن سيادتكم لا تريدون ان يقع مثل هذا الخلاف ، وذلك حتى لا تعزل مصر ونحقق رغبة الغرب فى حصارها .

١٥- وان الحزب الشيوعى فى الجزائر كان على خلاف مع بومدين ، وذكرت له على لسانكم انكم اجتمعتم مع شو ان لاى وايوب خان وسوكارنو ، وانكم حاولتم تسوية الخلاف بين الهند وباكستان ، وبين اندونيسيا وماليزيا ، وبين

الصين والاتحاد السوفيتى ؛ لأن هذه الخلافات تضعف كتلة اسيا وافريقيا ودول عدم الانحياز وتقوّى الغرب . وان الرئيس يرى انه لولا الخلاف بين الاتحاد السوفيتى والصين لما جرؤت امريكا على ضرب فيتنام ، وان الرئيس يأمل ان يسوى هذه الخلافات . وان الزعماء أجمعوا على ان كل الخلافات التى تحدث هى من تخطيط الولايات المتحدة ، وان سوكارنو يعارض قيام انقلابات يقوم بها الجيش كما حدث فى الجزائر ؛ حتى لا يحصل له ما حصل لبن بيلا ، وان شواين لاى اعرب عن ابتهاجه بانقلاب الجزائر ، وانه قال بان الجزائر لا تعتقل الشيوعيين ، وانما عملاء السوفيت فقط .

وان الرئيس سبق ان نصح بن بيلا بعدم اعدام العقيد الشعبانى ، وان الشعبانى من اهم القادة المسلمين فى الجيش ، ولكن بن بيلا أخطأ باعدامه ، ولو كان بن بيلا قد سمع نصيحة الرئيس لما حدث له ما حدث . وان الرئيس مكث ٤ ساعات فى آخر مرة يحاول اقناع بن بيلا بالصلح مع بومدين ، ولكن بن بيلا قال ان بومدين أضعف من ان يقوم بانقلاب .

١٦- وذكرت له ان الوفد المصرى فى مؤتمر هلسنكى ، على لسانكم ، انه سيتألف من خالد محيى الدين رئيسًا ، ومجدى حسنين وسيزا نبراوى وانجى افلاطون والدكتور احمد خليفة وشخص آخر وهما من غير الشيوعيين ، بخلاف الأولين .

وان الرئيس سوف يتخلص من خالد محيى الدين ويعينه سفيرا فى فرنسا ، وكان خالد يريد ان يعين سفيرا فى احد الدول الافريقية ، وان خالد محيى الدين يريد بسفره الى باريس ان يعالج ابنته .

وذكرت له على لسانكم ان معبود الجبلى عين مديرا للطاقة الذرية واننى اخشى ان يحولها الى خلية شيوعية وان سيادتكم قلتم انتم «موش عاوزين الشيوعية لا فى الصحافة ولا فى التلفزيون أمال عايزهم فين» .

وفى أسبوع آخر فى احدى مقابلاتى مع بروس التى كانت تتم عادة فى يوم الاربعاء ، وجرى حديث عن انقلاب الجزائر ، وكيف ان سيادتكم علمتم به وتالمتم له كما تالمتم عندما حدث الانفصال فى سوريا ، وان سيادتكم لا تريدون ان تختلفوا مع كل الدول ، وان بن بيلا

هو الوحيد فى الجزائر الذى كان يقف معنا ، وان الرئيس يرى ان بومدين وطنى ولا يناقش وطنيته ، وان الرئيس قام باتصالات رئاسية مع رؤساء الدول ؛ لانقاذ حياة بن بيلا ، وانه لهذا السبب اوفدتم سيادتكم «عامر» الى الجزائر .

٢٠- وقلت على لسانكم : ان العلاقات بينكم وبين عبدالحكيم عامر قوية جدًا ، وانكم كالاخوة ، وانه لا يمكن ان ينقلب عبدالحكيم عامر على الرئيس وانهم اشبه باسرة واحدة . وان عامر يرى ان العلاقات ستحتاج الى بضعة اشهر لتصل الى ما كانت عليه مع بن بيلا ، وان كل الاشاعات التى تذاع عن خلافات بينكم وبين عامر كاذبة لا اساس لها من الصحة .

٢٢- وقلت على لسانكم : ان سوريا بادرت بالاعتراف بالنظام الجديد فى الجزائر ؛ اغاظة فى مصر ، وان الصين سارعت بتاييد النظام الجديد ؛ لتكسب الجزائر قبل ان تكسبها روسيا وانه غير صحيح ان انقلاب بومدين انقلاب شيوعى بل هو انقلاب وطنى .

وقلت له ان هناك بعض من شمتوا فى سقوط بن بيلا ، لا كراهية فيه ، ولكن كراهية فى النظام الماضى ، وان الرئيس يعتقد ان هناك منظمة رجعية تقوم بنشر الاشاعات الكاذبة وانه سيقضى عليها .

٢٣- وقلت على لسانكم : ان جبهة التحرير فى الجزائر ضعيفة جدًا ، وان بن بيلا لم يهتم بها ، وان تنظيمها اقل من الاتحاد الاشتراكى .

وتكلمنا عن راى المشير عامر فى الحالة فى الجزائر بانها غير مستقرة بعد ، وان زعماء الانقلاب غير متفقين ، ولا يستبعد حدوث انقلاب ، وان الجزائريين رفضوا ان يفرجوا عن بن بيلا ، ويذهب الى مصر ، ولا يكون له نشاط ، وان المشير احضر معه من الجزائر صحيفة الشعب الجزائرية وقد كتب عن الزيارة فى العمود الاخير من الصفحة الاولى ، ونشرت نص برقية الرئيس بتهنئة بومدين فى صفحة داخلية .

٢٤- تحدثنا عن الموقف فى العراق وقلت بلسانكم بان العراق قد يحدث فيه ما حدث فى الجزائر ، وانكم تفكرون فى سحب قواتكم من العراق ، واننا سحبنا قوات ولم تبق سوى قوات مظلات ، وان الناس فى مصر فوجئت بانقلاب الجزائر ؛ لانها كانت تتوقع ان يكون الانقلاب فى السعودية او فى تونس او فى المغرب او فى ليبيا .

٢٥- وسالنى بروس : هل الرئيس قلق؟ فقلت : قلق كثيرا على الحالة فى المنطقة كلها ، وانه عندما قابل الرئيس النعمان قدمت له شيكولاتة فيها بخت ، وان الرئيس فتح الشيكولاتة فوجد فيها «عدو عاقل خير من صديق جاهل» ، وورقة شيكولاتة النعمان فيها «بالصبر تنال المنى» ، وانه عندما عاد النعمان الى صنعاء ذهب اليه المشايخ يسالونه عن النقود التى اخذها من القاعدة .

واننا عندما ننسحب من منطقة فى اليمن ، يضرب اليمنيون فى الجيش المصرى ؛ لانهم لا يريدون ان ننسحب ؛ لانهم يستفيدون من وجود الجيش المصرى فى اليمن ، وان شعور النعمان ؛ ان لسانه معنا وقلبه مع فيصل .

(. . . . .)(١) ، على لسانكم ان هناك ٤٣ دولة تؤيد دخول الاتحاد السوفيتى المؤتمر ، ودول اكثر من هذا العدد تؤيد دخول ماليزيا ، وان شواين لاى يكره الروس ، وانه كلما قابله شعر ان كراهيته للروس زادت ، وان الصينيين يعتقدون ان روسيا فى جيب امريكا وان الصين يتهمون روسيا بان كل الخطط الروسية ضدهم تدبر فى واشنطن ، وان الفرق بين خروشوف والزعماء الجدد ان خروشوف كان صريحا فى سياسته ، بينما الزعماء الجدد يعملون ضد الصين حتى داخل اراضيها .

وان سيادتكم نصحتم شواين لاى بان لا يهاجم امريكا فى خطاباته فى مصر ؛ حتى لا يحرج مصر .

٢٧- وجرى حديث عن المعونة الامريكية ؛ فقلت على لسانكم : انكم حصلتم على المعونة الامريكية دون ان تدفعوا اى مقابل سياسى ، خلافا لما كانوا يقولون من ان امريكا تطلب شروطا للمعونة .

وقد جرى فى هذا الحديث كلام عن رغبتى فى ان احصل من اخبار اليوم على اجازة طويلة ، واننى اتمنى اجازة سنة على الاقل ؛ لاننى غير متفائل من عمل الصحف حتى لو خرج الشيوعيون من الصحافة ، واتمنى ان اخرج من الصحافة بعد خروج الشيوعيين وان اعمل مراسلاً متجولاً ، وقلت اننى اتمنى ان احصل على موافقة الرئيس على ذلك ، فقال ان مثل هذا يعتبر خَسارة ، واننى خدمت العلاقات الطيبة بين امريكا ومصر ، وقال ان المهم هو سعادتى . فقلت ان سعادتى هى ان اسافر فى اجازة طويلة .

(١) غير واضحة بالأصل .

وفى جلسة مع بروس قبل ذلك باسبوع ، جرى حديث عن المؤتمر الافريقى الاسيوى وقلت على لسانكم انكم متعبون من مقابلاتكم لجميع الزعماء الدوليين الموجودين فى القاهرة ، ومحاولة ايجاد حلول للمشكلات فى الخلاف بين الهند وباكستان ، وبين ماليزيا واندونيسيا وبين الصين والاتحاد السوفيتى ، والمشكلات الموجودة بين الافريقيين انفسهم ، وانكم ترون انه اذا لم تحل هذه المشكلات قبل المؤتمر فسوف يفشل ، وان الذى يدفع الرئيس لحل هذه المشكلات ان قوته فى وحدة المعسكر الافريقى الاسيوى .

وقلت لبروس على لسانكم ايضًا ان المارشال تيتو ارسل لكم رسالة يقترح فيها ان تؤيدوا روسيا فى موقفها من فيتنام ، وان تعملوا على ان تؤيد الجزائر والهند هذا الموقف ، وكذلك الدول الافريقية ، وكذلك بالنسبة لبعض المسائل الاخرى ؛ وذلك لان روسيا فى حاجة الى هذا التاييد نظرًا لموقفها السلبى بسبب نزاعها مع الصين ، وان تيتو سوف يزور موسكو ويقنع زعماء (. . . . .)[1] بان يعطوا معونة ضخمة للجمهورية العربية فى مقابل هذا الموقف ، وتحدثنا عن معونة الولايات المتحدة ، وان هناك اتصالات مع الولايات المتحدة بشانها وانكم لا تبنون آمال على هذه الاتصالات السرية ، (. . . . .)[2] الى امريكا ، وان السفير الامريكى معجب بهيكل لسفره الى الولايات المتحدة ، وان الرئيس لا يريد الاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة ؛ لانها اذا شعرت اننا نعتمد عليها وحدها فسوف تكسرنا .

٣٠- وجرى حديث عن الوضع الداخلى ، فقلت ان سيادتكم مهتمون بتقوية الاتحاد الاشتراكى ومهتمون بالوزارة الجديدة ، وان المرشح لرياسة الوزارة هو زكريا محيى الدين .

وجرى حديث عن الشيوعيين فى الصحف ، فقلت له على لسان سيادتكم انكم اتصلتم بخالد محيى الدين وتكلمت سيادتك معه عن استفحال الشيوعيين فى الصحف ، ووضع حد له .

ثم قلت : ان بغدادى يصلح لرياسة الوزارة ، وان سيادتكم ترون ان بغدادى يريد ان يكون ملكا . وان بغدادى استاذن فى دعوة عدد من الضباط الى بيته ، وانهم كانوا يتصورون انه سيتحدث معهم عما حدث فى مذبحة المماليك فى القلعة ، وانهم كانوا يضحكون ويقولون هذا كنكتة ، وان الرئيس لو شاء ان لا يحضر احد من هؤلاء الضباط هذه الدعوة لما ذهب واحد منهم .

---

(١) غير واضحة بالأصل .

(٢) غير واضحة بالأصل .

٣١- وجرى حديث عن مؤتمر الجزائر ، وقلت له على لسانكم ان مصر ارسلت النقاشين والعمال والبنائين للمساعدة فى اتمام بناء المؤتمر .

وقلت له ان النعمان قابل الرئيس وطلب مساعدات مالية لليمن ، وان الرئيس رفض .

٣٢- وقال انه ليس عنده نقود ، ولو كان عنده نقود فلا يدفعها لحكومة فيها سبعة من اليمنيين .

٣٣- وجرى حديث عن الوقف مع امريكا ، فقلت له على لسانكم ان سبب سوء العلاقات بيننا وبين امريكا هى اسرائيل واليمن والكونغو ، وان الرئيس استخدم نفوذه ؛ كى يعدل امين الحافظ عن فكرته فى شن حرب فورية على اسرائيل ، حتى ان جريدة الوفد كتبت تقول ان عبد الناصر قال ما قاله بورقيبة وانما بطريقة اخرى . وان الجمهورية العربية اوقفت مساعدتها لثوار الكونغو واننا نستعد للرحيل من اليمن ، وبذلك لا يكون هناك سبب للخلاف بين البلدين ولموقف امريكا من المعونة . وجرى حديث عن تغيير سفير الاتحاد السوفيتى وان السفير الجديد له علاقات طيبة مع زعماء الاتحاد السوفيتى الجدد ، بينما السفير القديم كانت علاقته طيبة مع خروشوف فقط ، وان هذا التغيير فى مصلحة الجمهورية العربية المتحدة ، لأن السفير الجديد يتمتع بثقة الحكام الجدد ، وان بهذا لا يحدث اى تاخير فى اجابة طلبات الجمهورية العربية من الاتحاد السوفيتى .

وقلت فى حديث عن العلاقات مع سوريا ، انها سيئة ، وان الجمهورية العربية ستقوم بحملة على سوريا ، وان سوريا طلبت منا ان ندفع (. . . . .)[١] فى مقابل استعمالنا للقاعدة الجوية ، وان عبدالحميد السراج سافر (. . . . .)[٢] فى العراق ، وانه ستحدث احداث فى سوريا .

وفى اجتماع قبل ذلك باسبوعين ، عرض علىَّ اثناء الحديث ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة الانجليزية ، وفيها ان انفجارًا حدث فى مدمرة مصرية وان عددا من ضباط البحرية المعارضين لناصر هم الذين قاموا بهذا التدبير ؛ انتقاما منه ، وان هناك ثورة فى عدد من البوارج المصرية ، وان حوادث تخريب حصلت فى بوارج وسفن تابعة للاسطول المصرى .

(١) غير واضحة بالأصل .

(٢) غير واضحة بالأصل .

وقرات هذه الورقة واعدتها له . .

وقلت له : فى اثناء روايتى عن احاديثى مع سيادتكم ، انك حدثتنى بحزن بسبب وقوع انفجار فى المدمرة القاهرة ، وان هذا الانفجار حدث فى الاسكندرية ، وكان تعليقه ان هذا غير صحيح لانه لو كان هذا الانفجار حدث فى الاسكندرية لعرفوا بذلك ، ثم شرحت كيف ان كثيرا من الضباط والجنود قتلوا وهم ٥ من الضباط واصيب خمسة واربعون اصابات سيئة ، وان الانفجار حدث من الداخل ، كما ان هذه المدمرة واحدة من احسن قطعنا .

وتحدثنا عن علاقة الولايات المتحدة بالجمهورية العربية ، فقلت على لسانكم ان امريكا تسير على سياسة القوة ، وان الرئيس يخشى اثر من هذه السياسة على مصر والبلاد الاخرى ، وخاصة ان الاتحاد السوفيتى لم يرد ردًا قويًا على هذه السياسة العنيفة .

وتحدثنا عن زيارة الاستاذ احمد محمد محجوب لسيادتكم ، وان محجوب قال لكم انه متضايق لتقليل الشيوعية فى الصحافة المصرية ؛ لان جريدة اخبار اليوم صادرتها الحكومة السودانية ؛ لان فيها اتجاهات شيوعية ، وان الحكومة السودانية احتجت فى السفارة المصرية فى السودان وان الرئيس قال انه لا يوافق على تغلغل الشيوعية فى الصحافة المصرية ، وان محجوب قال للرئيس انه يخاف من ان تؤثر الآراء الشيوعية المنشورة فى الصحف المصرية على الشعب السودانى . وان سر الختم سيعتزل رياسة الوزارة وان محجوب سيتولى رياسة الوزارة ، وانه سيعين سر الختم سفيرا ، وانه يخشى لو عين سر الختم سفيرا فى القاهرة لاكله الشيوعيون ، وان محجوب قال : ان عددا من ثوار الكونغو وصلوا الى السودان باسلحة لم يستخدموها ، وانهم كانوا يتشاجرون فيما بينهم ، وان احدهم ارسل الى حكومة السودان مذكرة رسمية يطلب فيها ان تعيد له عشيقته التى خطفها زعيم آخر ، وان احد زعماء الكونغو ارسل الى حكومة السودان مذكرة يقول فيها : ان سائق سيارة خطف زوجته وهربت مع السائق ومعها ٤٨٠ كيلو ذهب . وان الرئيس يرى تنظيم الانسحاب من مساعدة هؤلاء الناس تدريجيًا ، وان محجوب عرض ارسال الاسلحة غير المستعملة الى مصر ، وان الرئيس طلب ابقاء هذه الاسلحة للسودان .

وطلب محجوب من الرئيس وضع خطة الانسحاب على ان ينفذها السودان .

٣٩- ثم اطلعنى المستر بروس على مذكرة مكتوبة باللغة الانجليزية على الآلة الكاتبة وفيها :

ان الشيوعية تغلغلت فى الجيش المصرى .

ان ٧٠ فى المائة من الجيش اما نصير للشيوعية او تحت قيادات شيوعية .

ان الشيوعيين وصلوا الى رتبة كولونيل .

فقلت له ان المعلومات التى عندى هى انه اكتشفت خلايا قليلة شيوعية فى بعض وحدات الجيش وانه قضى عليها ، واننى سمعت هذه المعلومات من الرئيس شخصيًا . فهز راسه واخرج لسانه دهشة من كذب المعلومات التى فى هذه المذكرة التى كانت معه .

٤٠- وقد حدث قبل ذلك باسبوع ان قلت لمستر بروس ان المشير عامر قال امام الرئيس وامامى وامام على امين انه ليس فى الجيش شيوعيون اطلاقًا ، ويجب ان تعلموا ذلك جيدًا .

فاراد بروس ان يرد على هذا الكلام ، فجاءنى فى الاسبوع التالى بالمذكرة التى تدّعى انه يوجد فى الجيش المصرى ٧٠ فى المائة شيوعيون او نصراء للشيوعية او تحت قيادات شيوعية .

فلما قلت له بان الرئيس قال انه كانت هناك خلايا شيوعية وقضى عليها فتح فمه دهشة واخرج لسانه ؛ لان هذا يخالف ما لديه من معلومات .

٤١- وفى هذه المقابلة ، تحدثت معه على مقابلتكم لعلى امين ، وعلى انه سيعمل لتحسين العلاقات بينكم وبين لندن ، ولكنى لم اخبره عن الطريقة الحقيقية التى تم الاتفاق عليها بينكم وبين على امين بشان طريقة المراسلة ، وهى ان يكتب رسائله لسيادتكم عن طريق هيكل ، وهيكل يسلمها لكم ، بل رايت ان الاسلم ان اذكر له ان الرسائل سترسل لكم شخصيًا او للاستاذ سامى شرف ، وقلت له انكم طلبتم اليه ان يعطى رسائله مقفولة الى السفير الذى سيرسلها لكم او لسامى شرف .

وقلت له ان الرئيس مستعد لتحسين العلاقات مع بريطانيا وحل مسالة التعويضات ، وسيرسل مذكرة بذلك لعلىّ فى لندن . وان الرئيس يفضل علاقات طيبة مع حكومة العمال ، وان «على» اخبره السفير البريطانى انه يامل ان تؤدى رحلة السفير الى تحسين العلاقات بين البلدين .

وان الرئيس قال لعلى امين انكم تعطون الشيوعيين فى الصحافة اهمية اكثر مما لهم ، وانهم فى الواقع الآن اضعف مما كانوا عندما خرجوا

من المعتقل ، وانهم منقسمون فيما بينهم ، ويتكالبون على المناصب اكثر من اهتمامهم بنشر الشيوعية .

وان الرئيس قال ان الشعب يكره الشيوعيين المصريين وان كل ما الامر انهم جسر بيننا وبين الاتحاد السوفيتى ، ويعودون بالفائدة فى اغاظة امريكا ، وان الرئيس لا يريد ان يخاطر مع الغرب ، وانه لا يريد ان تسوء العلاقات مع روسيا ؛ اى ان الرئيس لا يريد ان يكون تحسين علاقاته مع الغرب على حساب علاقاته مع الشرق ، بل انه يرغب فى علاقات طيبة مع المعسكريْن .

وان على امين سيقوم بالسفر الى فرنسا والمانيا الغربية ؛ لنحصل على مساعدات منها ؛ حتى نخفف الازمة لان قطع المعونة الامريكية ارهق مصر . وجرى حديث مع بروس عن موقفنا من بريطانيا فى الخليج العربى واليمن ، وقلت له على لسانكم ان الرئيس على استعداد ان يهدئ الحالة ، ويصل الى اتفاق مع بريطانيا باستخدام نفوذ مصر على شعوب المنطقة ، بشرط ان توقف بريطانيا مساعدتها للملكيين ضد الجمهوريين فى اليمن . واذا توقفت بريطانيا عن هذا التدفق فان مصر مستعدة ان تسحب قواتها من اليمن ، او تحل محلها قوات من القيادة العربية المشتركة ، وان الرئيس قال انه لا يريد ان تستخدم القاعدة الجوية الموجودة فى ليبيا ضد مصر .

وجرى حديث مع بروس عما تقوم به المخابرات الامريكية فى المنطقة ، فذكرت على لسانكم انكم تعتقدون ان المخابرات الامريكية تقوم بنشاط ضد مصر فى كل المنطقة ، وانها هى التى اسقطت الناصريين فى انتخابات ليبيا ، واسقطت الناصريين فى انتخابات السودان ، وانها تسيطر على جيش الملك فيصل فى السعودية ، وانها اقامت حصاراً حول مصر وانها تسيطر على الحكم فى تونس ، وانها هى التى اقامت الحصار حولنا من السعودية وليبيا ومن السودان ومن المغرب ومن تونس .

وتحدثنا عن الحالة فى اليمن والعراق وان لبنان تقف علنا مع الغرب ، وجرى حديث عن استعمال امريكا للقوة ، وان الهزيمة فى الكونغو كلفتنا كثيرا ، وانه يجب جعل روسيا تقف موقفا حاسما فى فيتنام ، كالموقف الذى وقفته سنة ١٩٠٦ عندما هددت بتدمير باريس ولندن . واذا كان الروس يقفون هذا الموقف فى فيتنام ، فكيف يقفون اذا تعرضت مصر لمثل هذا الخطر ، وتحدثنا فى هذا المعنى الذى سبق لسيادتكم ان خطبتم فيه فى احدى خطبكم واشرتم اليه .

وتحدثت اليه عن حضور الرئيس عارف الى القاهرة ، وان الرئيس كلف عشرة اطباء بفحصه ، وانهم يعتقدون انه مريض بالسرطان ، وان من رأى الاطباء ان يجرى الدكتور تانى هذه العملية الخطيرة ، واننى عندما رايت عارف فى القصر الجمهورى لاحظت انه مريض فعلاً ، وان هذا هو السبب الحقيقى فى زيارة عارف .

وقبل ذلك باسبوع ، اجتمعت ببروس وجرى حديث عن اخراج حلمى سلام من الجمهورية ، وقلت له ان السبب ان حلمى سلام نشر كلامًا على لسان سيادتكم عن مقابلتكم لماكلوى مندوب رئيس جمهورية امريكا ، وكيف انه هدد بقطع المعونة ، وانكم قلتم له لا نريد معونة ، وان سيادتكم غضبت ان نروىَ على لسانكم موقف بطولى لم يحدث ، وانك لست فى حاجة الى بطولات زائفة ؛ لان ماكلوى لم يهدد بقطع المعونة ، وان سيادتكم لم تقولوا له هذا الكلام .

وتحدثنا عن الميزانية ، وذكرت لبروس على لسان سيادتكم انه سيخصص مبلغ ١٧ مليون جنيه ومبلغ ٢٠ مليون جنيه فى الميزانية القادمة لشراء قمح ، وان هناك فكرة لخلط الخبز ورفع ثمن البترول وانه على مكتبكم اقتراحيْن من وزير التموين بهذا الشان لم تاخذ باحدهما بعد ؛ الاول : رفع ثمن الخبز او خلطه بقمح وذرة دون اعلان ذلك ، والثانى : رفع ثمن منتجات البترول ، وجرى حديث عن السد العالى ، وتحدثت على لسان سيادتكم باننا باحثنا الاتحاد السوفيتى لاختصار المدة ، وتحدثنا عن وقف موسى صبرى من اخبار اليوم ، وان سبب وقفه هو ان الرئيس راى انه كان عليه ان يمتثل للاوامر ولا يتحداها ، وان على امين قابل السفير البريطانى .

وقبل ذلك باسبوع ، جرى حديث مع بروس بشان المعونة الامريكية ، وعن مقابلة السفير الامريكى للدكتور القيسونى ، وقلت على لسان سيادتكم انكم غير متفائلين من ان الامريكيين سيستانفون المعونة ، واننا سوف ندبر انفسنا على اسوا الاحتمالات ؛ اى ان امريكا سوف لا تستانف المعونة . وقد قلت لبروس انه فى حالة توقف امريكا عن اعطائنا القمح ، فان الرئيس لن يسكت على هذا ، بل سوف يرد على ذلك بالالتجاء الى الكتلة الشرقية .

وجرى حديث عن اليمن وقلت له : انمن راى سيادتكم ان مسالة اليمن وحربها لن يكسبها احد ، وان الرئيس يعمل للوصول الى حل يبقى على هيبة الجيش المصرى وسط الراى العام العربى ، وان الانسحاب يجب ان يتم بطريقة مشرفة لمصر ، وان الرئيس يعمل على الوصول الى حل لهذا الموضوع فى اجتماع مؤتمر القمة العربى .

وجرى حديث عن العدوان فى سان دومنجو ، وذكرت لبروس على لسان سيادتكم ان الاتحاد السوفيتى طلب منكم فى رسالة حملها السفير السوفيتى تاييد قضية العدوان على سان دومنجو فى مجلس الامن عندما تثار بنفس الطريقة التى اثير بها العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ ، واننا لم نتدخل تدخلاً مباشرًا فى ازمة سان دومنجو .

جرى حديث عن موقف العرب من المانيا الغربية ، فقلت على لسان سيادتكم (. . . . .)[1] الاتفاق تم بان يبدا العراق بقطع العلاقات ، وان العراق سيعمد الى سفارة سويسرا فى برن بشئونه ، والذى سيتولى رعاية مصالحنا افغانستان ، وكان الكثيرون قد تصوروا ان الرئيس عبدالسلام عارف خالف اتفاقه مع الجمهورية العربية وسبقها بقطع العلاقات .

وجرى حديث عن الحكومة ، فقلت على لسان سيادتكم انكم(. . . . .)[2] ان هناك امورا لا تعجبه ، وانها كثيرة فى الحكومة التى تسير سيرًا سيئًا ، وان الشعب يريد (. . . . .)[3] .

وجرى حديث بخصوص شراء اسلحة من روسيا ، فقلت له على لسان سيادتكم انكم طلبتم من المشير عبدالحكيم عامر تخفيض نفقات الجيش ؛ لان البلد يواجه صعوبات ، وانكم ذكرتم ان هناك بعثة ستسافر لشراء اسلحة من الاتحاد السوفيتى وانها سافرت بغرض حضور احتفالات الذكرى العشرين فى موسكو ، وكان ذلك ايضاحًا لموقفنا ، واننا دبرنا انفسنا على اساس ان لا ناخذ معونة من امريكا ، وان الاتحاد السوفيتى سيعطينا ما نحتاجه من اسلحة باقل من قيمتها ؛ نتيجة لموقف امريكا منا .

وقبل ذلك باسبوع اجتمعت ببروس وقلت له ، اننا سنرسل علماء الى الصين على لسان سيادتكم ، واننا سوف نُصنِّع القنبلة الذرية ، وانه تم الاتفاق على ذلك فى زيارة شو ان لاى .

---

(١) غير واضحة بالأصل .

(٢) غير واضحة بالأصل .

(٣) غير واضحة بالأصل .

وجرى حديث عن معونة القمح من امريكا ، وادعاء الولايات المتحدة باننا لم نطلب منها قمحًا وقلت ، على لسان سيادتكم ، انكم تعمدتم فى خطابكم ان تقولوا اننا طلبنا قمحا من الولايات المتحدة ؛ لان مسئولا امريكيّا صرح فى الولايات المتحدة بان مصر لم تطلب قمحًا ، ولهذا لم تعطها امريكا ، وان الرئيس اراد ان يقطع الحجة على هذه الدعوى .

وهناك ملاحظة وهى : تعلمون سيادتكم بان الامريكيين يستعملون فى احاديثهم الحروف الاولى من اسماء الاشخاص والاشياء (. . . . .)(١) وقد كان يحدث فى بعض الاحيان ان نذكر اسمك بحرف «**R**» وهو الحرف الاول من كلمة «ريس» واحيانًا نقول : «الريس» ، واحيانًا نذكر اسمك «**P**» وهو الحرف الاول من كلمة «**President**» وفى بعض الاحيان ذكرت اسمك «**N**» وهو الحرف الاول من كلمة ناصر .

وان كان على ما اذكر ، ان فى كل ما كتبته فيما تقدم اشرت اليك بحرف «**R**» ، وفى مناسبات اخرى كثيرة اشير الى (. . . . .)(٢) عن اسم «**R**» او الى الرجال المسئولين باسم «**R**» او بـ«**Responsible People**» .

وقد كانت المقابلات بينى وبين بروس تحدث فى بيتى ونتناول الغداء يوم الاربعاء من كل اسبوع ، واحيانا كان يتغير اليوم فيصبح الثلاثاء او الخميس ، وقد قمت بعدة مقابلات فى مكتبى باخبار اليوم .

وهناك بعض الامور التى دارت بيننا فى احاديثنا فى فترات لقائنا قبل ذلك ، ولا تسعفنى ذاكرتى فى ان احدد تواريخها او تتابعها بالضبط بسبب ابتعاد المدة .

فقد حدث فى احدى المرات ان سألنى بروس ماذا يحدث اذا اصيب الرئيس جمال عبد الناصر فى حادث؟ فقلت له : انه اذا حدث شىء من هذا للرئيس عبد الناصر فسوف تتحول مصر مباشرة الى بلد شيوعى ، بل اننى اخشى ان المنطقة كلها ستتحول الى الشيوعية ؛ لان جمال عبد الناصر يمثل الحاجز امام البلاد العربية الذى يمنع الشيوعية . فقال : انه سمع انه يوجد فى الجيش شخصيات قوية يمكنها ان تقود البلاد فى حالة اختفاء جمال عبد الناصر ، فسألته عن اسماء هذه الشخصيات التى يقول عنها ، فلم يذكر اسما واحدا .

(١) غير واضحة بالأصل .
(٢) غير واضحة بالأصل .

والغريب انه عاد ، فى مقابلة بعد ذلك باسبوعين او ثلاثة ، وعاد يفتح الموضوع ويقول : انه لا يفهم كيف ان اختفاء جمال عبد الناصر من الميدان سوف يؤدى الى ان تقع البلاد العربية فى الشيوعية؟! فقلت له : انه اذا كان اختفاء جمال عبدالناصر نتيجة حادث اغتيال ، وحتى لو كان القاتل مصريًا وهذا ما استبعده ، فان المصريين سيعتبرون ان الامريكيين او الغرب او اسرائيل بالاتفاق مع الغرب هى التى دبرت هذا الحادث ، وسوف تكون النتيجة الاولى حدوث مذبحة فى كل المنطقة ضد الامريكيين والغربيين كلهم ، وان الذى اعلمه من الرئيس جمال عبدالناصر شخصيًا انه الف جهاز سرى تحت الارض مهمته ان يقوم بالانتقام فى حالة حدوث مثل هذا الحادث او ما يشابهه ، فالذى يحدث انه ستقوم المذبحة اولاً ، ثم تجىء الفوضى ، وفى رايى ان القوى الشيوعية المختفية والمتحركة ظاهريًا سوف تتجمع وستحدث انقلابات شيوعية فى كل البلاد العربية .

فسالنى بروس : هل اعرف من هو رئيس هذا الجهاز السرى المشرف على حوادث الاغتيالات؟ فقلت له اننى لا اعرفه ، والمعلومات التى لدىَّ من الرئيس ان احدًا من رجاله لا يعرف اسماء هؤلاء الاشخاص ، واننى حاولت ان اعرف من الرئيس اسم هذا الشخص فلم استطع ، وقد قال لى الرئيس مرة ان هذا الشخص ليس وزيرًا وليس ظاهرًا ، ولا يعرفه احد حتى ولا نواب رئيس الجمهورية ، فقال بروس : معنى هذا ان هذا الرجل هو الذى سيخلف عبد الناصر اذا حدث له شىء ، فقلت له : ان الذى علمته من الرئيس ان مهمة هذا الشخص هو قيادة هذه العملية السرية فى المنطقة كلها فى حالة حدوث اى محاولة اغتيال للرئيس جمال عبد الناصر . فقال بروس : انه يهمه كثيرا ان اعرف اسم هذا الشخص . فقلت : اننى اعتقد ان هذا صعب جدًا .

وحدث مرة ان سالنى ولا اذكر هل كان قبل هذا الحديث او بعده عن كمال الدين حسين وعن ان الاخوان المسلمين يعتبرونه الزعيم المنتظر فقلت له : ان الذى اعرفه ان كمال الدين حسين متعصب دينى ، ولكن ليس له اى قيمة شعبية ، وان الرئيس جمال عبد الناصر قال لى ان كمال الدين حسين اعترض على الفوائد ؛ لانها ضد الاسلام ، وانه عارض فى القوانين الاشتراكية فساله الرئيس : اذا كنت لا تؤمن بالفوائد فلماذا لا تبيع الاسهم التى تملكها؟ فقال كمال الدين حسين : اخشى ان اخسر فيها ، وان الرئيس قال اذا كان كمال الدين حسين لا يريد ان يخسر بضعة جنيهات فكيف يجىء ويطالب بالغاء الفوائد؟!

قال بروس فى احد الاجتماعات انه تلقى معلومات بان على صبرى شيوعى وبانه هو الذى يتجه بمصر الى الشيوعية ، فقلت له ان الذى اعلمه ان على صبرى ليس له اى سياسة خاصة به ، وانه لا يمكن ان يكون له اى اتصالات بالشيوعيين بدون علم الرئيس جمال عبد الناصر ، وان الرئيس يحبه ؛ لانه يعرف كل تفاصيل مسائل الوزارات منذ كان يعمل مديرًا لمكتبه .

وقال بروس فى مرة اخرى ان الشيوعيين يقولون ان على صبرى هو الذى يساعدهم ، وانه هو الذى اختار الوزراء ذوى الميول الشيوعية فى الوزارة ، فسالته عمن يعتقد انهم شيوعيون فى الوزارة فذكر اسم الدكتور نزيه ضيف واسم الدكتور خلاف وقال ان كمال رفعت حوله عدد من الشيوعيين .

وقال لى بروس انه علم ان الرئيس جمال عبد الناصر قرب له فى المدة الاخيرة صلاح دسوقى ، وانه اصبح يعتمد عليه فى المسائل الخارجية ، وانه يثق به فى الجهاز ، وانه اختاره فى عدة عمليات سياسية هامة ، وان هناك اخبار تقول انه الرجل القادم .

وتصادف ان نشرت جريدة الاهرام كاريكاتورا هاجمت فيه بعنف صلاح دسوقى فاعطيته عدد الاهرام ، وقلت لو ان المعلومات التى لديك عن صلاح دسوقى صحيحة لما قبل هيكل نشر مثل هذا الكاريكاتور ، وقال لى بروس مرة انه سمع اشاعة بان عدداً من قوات اليمن ترغب فى العودة وانها تمردت فى اليمن ، واقيمت محاكمات فى اليمن ، وصدرت احكام عنيفة جدًا ضد عدد من الضباط ، فقلت له ان الرئيس جمال عبد الناصر اخبرنى بان الضباط «يتخانقون» على الذّهاب الى اليمن ، وانهم يستفيدون ماديًا من هذا السفر ، وان هناك اوامر باعطاء سيارة نصر وشقة ووظيفة لكل عائد من اليمن .

وذكر لى بروس بان الولايات المتحدة عقدت اتفاقا سريا مع المملكة السعودية بانه فى حالة اذا ما دخلت القوات المصرية ارض السعودية تحركت الطائرات الامريكية فورا لضرب الجيش المصرى ، فقلت له : اننى علمت من الرئيس جمال عبد الناصر بانه اصدر تعليمات الى الجيش المصرى بعدم ضرب الاراضى السعودية . وعند سقوط خروشوف او بعد ذلك بفترة لا استطيع تحديدها ، قال لى بروس ان تعليمات سرية صدرت

من واشنطن بان امريكا قررت استعمال القوة ، وان الحالة داخل الاتحاد السوفيتى تسمح لها باتخاذ هذه السياسة ، دون خشية رد فعل الروس ، وان لديهم معلومات سرية بان الروس لن يتحركوا ، وسوف يكتفون بالاحتجاجات ، وذكر لى مرة اخرى ان حكومة الولايات المتحدة ثائرة ؛ لاسلوب الكتابة فى الصحف المصرية ، وانه اسلوب شيوعى فى الكتابة وان واشنطن حللت اسلوب الكتابة فى الصحف المصرية فوجدته اشد روسية من جريدة برافدا .

فقلت له ان الرئيس جمال عبد الناصر قال لى انه يعرف ان الولايات المتحدة غيرت سياستها بعد وفاة كنيدى ، وانها اصبحت تلجا الى استعمال القوة ، وانه سبق ان اصدر اوامره للجيش المصرى بعدم عبور السعودية ، رغم الحاح اليمنيين على ضرورة ذلك . وان الرئيس فعل ذلك قبل ان يعرف ان امريكا لجات الى سياسة القوة ، وقلت له ان البلد غير شيوعى ، وان المقالات الشيوعية التى يكتبها الشيوعيون تحدث رد فعل عكسيًا فى الراى العام المصرى ، وان الرئيس جمال عبدالناصر قال لى انه مسرور ؛ لانكشاف الشيوعيين المصريين امام الراى العام ، وانه يعلم ان الناس يمقتون الشيوعيين .

وقد قابلت الاستاذ سامى شرف وابلغته بما سمعته من ان الامريكيين مستائين من ان الصحف المصرية تهاجم امريكا بعنف ، وقلت له ان السياسة الامريكية تغيرت ، فقال سامى اننا نعرف ذلك من قبل ، واخبرنى مستر بروس بان الملك فيصل قال انه سيجعل اليمن مقبرة عبد الناصر ، وان فيصل استطاع ان يكسب من حرب اليمن بان اصلح علاقاته مع الانجليز ، وان الشيخ حافظ وهبة يقوم بتحسين العلاقات مع لندن ، بينما عبدالرحمن عزام يوثق العلاقة مع واشنطن ، وان امريكا ساعدت الملك فيصل ضد الملك سعود ، وان الولايات المتحدة هى التى شجعته على التخلص من اخيه الملك سعود ؛ لانه لو بقى الملك سعود سنتين فى الحكم لانهار الحكم السعودى كله ، وان الخطر على الملك فيصل ؛ لان صحته سيئة ، وقال ان زوجة الملك فيصل تكره جمال عبد الناصر ؛ لانه صادر ثروتها ، وان نفوذها قوى جدًا على الملك فيصل .

وهناك موضوعات اخرى تكلمنا فيها انا وبروس خلال المقابلات بيننا ، فقد سالنى بروس ذات يوم : هل اعرف شخصًا مسئولاً فى الازهر تثق فيه؟ فسالته عن السبب .

فقال ان الازهر طلب مساعدة ثقافية من الولايات المتحدة . انت تعرف انهم ليسوا تبع وزارة التربية والتعليم ، وانه يريد شخصًا موثوقا فيه لمعرفة معلومات عن هذا الموضوع .

فقلت له انه يمكن سؤال الباقورى ، وهو عنصر طيب ، واننى ارى ان من مصلحة امريكا منح المعونة للازهر ، دون عمل دِعاية كبيرة لهذا .

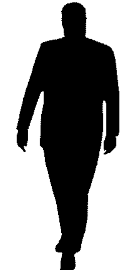
وحدثنى مرة عن كتاب الفه تيودور هوايت عن الرئيس جونسون وكان تعليق بروس ان جونسون يشبه الرئيس جمال عبد الناصر فى عدة مسائل وهى : ان كل منهما معتد برايه وجرىء ولا يتراجع .

وانه سيرسل لى الكتاب ؛ لارسل نسخة منه للرئيس .

وحدثنى بروس عن الحملات التى تشنها الصحافة المصرية على امريكا ، وانها تدل على سياسة معينة ، واتجاه ، فقلت له ان هذه المقالات ليست موجهة ضد امريكا وانها للاستهلاك المحلى .

وكان هذا تعقيبا على حديث سابق ؛ فقد اثار بروس لهجة الصحف المصرية ، وقال انها عدائية الى امريكا ، وان المقالات تترجم وتتحلل ، وتصل الى نتيجة بان مصر اتجهت الى روسيا وان هذا سيمنع اى امل فى المعونة ؛ فقلت له ان هذه المقالات ليست موجهة الى امريكا ، وانما هى للاستهلاك المحلى ردًا على الحملات الامريكية .

وقد تحدثت معه فى اكثر من مرة اننى افكر جديًا فى ان اطلب اجازة طويلة من عملى فى اخبار اليوم ؛ لاننى مرهق ، ومن رايى انه يجب ان اعتزل اى عمل صحفى ادارى بعد بلوغى سن الخمسين واننى افكر فى ان اكون مراسلاً متجولاً فى اخبار اليوم ويكون مركزى فى بيروت ، ولكنى اخشى على حياتى فى بيروت وقد سبق ان حذرت من ان حياتى فى خطر فى هذه المدينة وطلبت منه ان (. . . . .)[1] اصدقاءنا عن آمن مكان فى رايهم ، من وجهة نظر سلامتى الشخصية ، (. . . . .)[2] مركزى فيه ، خصوصا اذا حدث اثناء وجودى خارج مصر اى انقلاب فيها .



فقال لى ان هذا يتوقف على القائمين بالانقلاب ، فاذا كان انقلابا شيوعيًا ، فلن يكون مركزك طيبا لا فى مصر ، ولا فى اى دولة عربية فى الشرق الاوسط .

(١) غير واضحة بالأصل .

(٢) غير واضحة بالأصل .

وقلت اننى أُفضل ان يكون مركزى كصحفى متجول لاخبار اليوم مركزه لندن ؛ لاننى استطيع ان المَّ بالاخبار ؛ بحكم معرفتى للغة الانجليزية .

وقال لى بروس انك طبعا ستحصل على موافقة الرئيس جمال عبد الناصر قبل ان تقوم بهذا العمل .

فقلت اننى طبعا سوف اطلب موافقة الرئيس ، ولن اقوم بمثل هذا العمل او اى عمل الا بعد موافقته .

وقال لى بروس ان من رايه ان لا اتقدم الى الرئيس طالبا الموافقة على هذا العمل قبل انتهاء مؤتمر الجزائر ، وقال انه يعلق اهمية خاصة على هذا المؤتمر ، وقال مقترحا انه حضر المؤتمر فى الجزائر ، وذكر انه يامل ان يكون فى الجزائر .

وقد تطرق الحديث الى الموقف فى الصين بعد خروج الشيوعيين منها ، وقلت انه لا يمكن ان انتظر حتى يخرج الشيوعيون لاقوم بعملى كمراسل متجول لاخبار اليوم .

فقال بروس انك اذا اصبحت مراسلا متجولا لاخبار اليوم فى الخارج ، والشيوعيون لا يزالون فى اخبار اليوم ، فانهم لن ينشروا اى مقال من مقالاتك كمراسل متجول .

وسالنى : ماذا سيكون الموقف فى الصحافة بعد خروج الشيوعيين من الصحف؟

فقلت ان هذا يتوقف على الطريقة التى سوف يتبعها الرئيس فى اخراجهم واذا كانت هذه الطريقة ستجعل الشيوعيين ، حتى بعد خروجهم ، قادرين على الحاق الضرر بى ؛ نظرا لموقفى ضد الشيوعية .

فقال بروس انه فى مثل هذه الحالة فانه يحسن ان اطلب من الرئيس تعيينى فى وظيفة لها صفة متجولة فى الخارج .

ولقد كان بروس دائما يصف الاقامة فى بيروت بانها خطر عظيم ، وانه من الممكن قتلى فى بيروت ببضعة ليرات ، وقال لى مرة ان من السهل التصويب عليك ، وكان يردد ان البعثيين او اليهود او الشيوعيون يستطيعون ان يرتكبوا جريمة قتلى بسهولة جدّا فى بيروت .

وقال بروس ان اصرارى ان اكون مراسلا متجولا فى الخارج سوف يجعله يفتقدنى شخصيّا ، ولكن صِلاتنا ستستمر ، واقترح بروس ان اكون سفيرا متجولا غير رسمى .

وقال ان من الصعب ان اسافر الى الخارج مع وجود اخى على امين فى الخارج .

وذكر بروس ان كل ما يهمه هو سعادتى الشخصية ، وقال لى : لقد ساعدت الولايات المتحدة مساعدات عظيمة بغير جدال .

واذكر فى احدى المقابلات مع مستر جون سيدر فى صيف العام الماضى ان عرض علىَّ كشفا باسماء بعض محررى اخبار اليوم وموظفيها الشيوعيين وطلب منى رايى ؛ هل هؤلاء شيوعيون حقيقة ام فى ركاب الشيوعيين؟!

فاخبرته برايى فيما سالنى عنه .

وقد احضر بعد ذلك بروس هذا الكشف وعاد يسالنى عن اسم شخص طنطاوى؟ وهل هناك اثنان طنطاوى؟ ومن الشيوعى منهما؟ فاجبته على سؤاله .

وحدث مرة ان سالنى بروس عن اشاعة القبض على السفير المصرى فى الجزائر عقب انقلاب الجزائر ، فقلت له ان الاشاعة صحيحة ، فقال ان السفير لم يقبض عليه ولكن فتِّش فقط .

وعقب انقلاب الجزائر ، قال لى بروس معلقا على زيارة المشير ان تصرف المشير فى الجزائر كان بحماقة ، وانه اعتبر نفسه «اله» متعاليا على الجزائريين ؛ لدرجة انهم كانوا يتساءلون من هو عامر هذا ، وانه اذا كان هذا التصرف قد تم بناء على رغبة الرئيس فان تصرفه المتعالى هو الذى يسبب الضرر للعلاقات المصرية الجزائرية ، وان الرئيس لا يواجه الحقائق كما هى .

وحدث ان اشار بروس الى مقال مناهض لامريكا نشر فى صفحة ٢ بجريدة الجمهورية يوم ٦/٧ وطلب منى ان اتحرى عن كاتب هذا المقال ، وكيفية وصول المقال الى الجريدة ؛ لانه يعتقد ان هذا المقال فى صيغته الاصلية ليس صادرا عن قلم مصرى ، ولكن مكتوب بقلم سوفيتى ، وهو يريد ان يتوصل الى معرفة مَن من السوفيت على اتصال بجريدة الجمهورية ، وان هذا لن يكون احد رجالَ المخابرات السوفيتية ، وذكر انه عند التوصل الى معرفة المصدر الحقيقى لهذا المقال ؛ وانه اذا كان سوفيتى ، فسيكون هذا برهانا للرئيس عبد الناصر على ان السوفيت يدسون المقال فى الصحف .

وخلال شهر يونية ، اطلعنى بروس على صورة للسيدة قدرية صَديقة السيد حسن ابراهيم وقد كتب عليها باللغة الانجليزية «نائبة رئيس الجمهورية الجديدة» .

فقلت له ان هذه السيدة ليست زوجة حسن ابراهيم ، وان الرئيس لم يوافق على زواج حسن ابراهيم بها .

وحدث فى نفس المقابلة ان قدم لى ورقة زرقاء مكتوبة على الآلة الكاتبة بالانجليزية جاء فيها :

الكولونيل احمد .

سلاح المشاة .

قبض عليه وهو يقود خلايا سرية كبيرة جدًا فى المشاة ، وله قوة كبيرة .

وقد هززت راسى باننى لم اسمع مطلقًا على مثل هذا الاسم ، ولم اسمع ان هناك خلايا سرية كبيرة ، وكل ما هناك انه كانت هناك بضع خلايا سرية ولم تُعرف بعد ميول هذه الخلايا .

ومرة اخرى ، قال لى انه علم ان الدكتور الشحات وطه النمر ومحمد مندور قُتلوا فى ظروف غامضة ، وان هذه المعلومات وصلت اليهم عن طريق تقارير قدمت اليهم .

فقلت له ان الدكتور الشحات انتحر لمرضه ، وان طه النمر لم يمت ولايزال حيًا ، والدكتور مندور مات بالذبحة الصدرية .

وفى مرة اخرى ، قال بروس انه يريد ان يعرف سر وجود المشير عامر فى المستشفى .

فقلت له ان المشير اجرى عملية الزائدة الدودية ، وان هذا نشر فى الصحف .

فقال كنت اتمنى ان تكون العملية اسوا من الزائدة الدودية ، فرددت عليه بان الذى يقال انه حدث خلاف بين الرئيس والمشير بسبب مناقشة مصاريف الجيش ، وانه عقب ذلك شعر المشير بتعب ، وان صحبه الرئيس الى المستشفى وحضر اجراء العملية .

وقال لى بروس ان الحكومة الامريكية ترغب ان توصل بعض التوجيهات الى السيد رئيس الجمهورية العربية فى قالب يقبله ، وذلك عن طريقى ، بصورة مباشرة او غير مباشرة .

فقلت له ان احسن طريقة لهذا ان اقدم تبليغ الرئيس ببعض الانباء المبكرة عن التصرفات التى ستقوم بها الحكومة الامريكية حيال مصر ، وبذلك سيقتنع الرئيس بانه على بينة من هذه الامور عندما تنشرُ بعد ذلك فى امريكا بطريقة رسمية .

وقلت له ان الرئيس لن يقبل اى توجيهات من امريكا اذا عرضت عليه فى قالب نصيحة ؛ اذ انه قد ضاق صدره بالناصحين الامريكيين .

وكان الامريكيون ، كما تذكر سيادتكم ، يقولون عن عبدالحميد سراج انه شيوعى ، وتذكرون سيادتكم انه اثناء محادثات الجلاء بعد العدوان فى امريكا ، ان طلب منى الامريكيون ان ارجو سيادتكم العمل على اخراج عبدالحميد سراج من الحكم فى سوريا ؛ لانهم واثقون انه شيوعى مائة فى المائة .

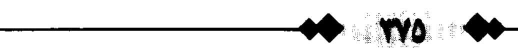
واذكر ان سيادتكم هزاتم بهذا الطلب ورفضتموه وقلتم ان عبدالحميد سراج غير شيوعى وان الامريكيين مغفلون .

وقد حدث ان قابلت عبدالحميد سراج فى شهر مايو ودار حديث معه ، وقد رويْتُه لبروس فقلت ان سراج قلق جدّا بالنسبة للشيوعية وانه قال لى انه عندما يقرا جريدة الاخبار يشعر انه يقرا جريدة شيوعية مائة فى المائة ، وكذلك مجلات آخر ساعة وروزاليوسف ، وانه يرى ان ذلك يسىء جدّا الى الناصريين فى الدول العربية ، ورجانى ان ابلغ هذا على لسانه للرئيس .

وانه منذ عام ١٩٥٩ لم ينضم احد الى الاحزاب الشيوعية العربية ، ولكن منذ دخلت الشيوعية الى الصحافة بدات حركة الانضمام الى الاحزاب الشيوعية واضاف السراج انه رغم ان الرئيس جمال عبد الناصر قال انه يمكنه القبض على الشيوعيين فى ساعة واحدة ، الا ان الموقف حاليّا قد تغير عن طريق سلاح الصحافة ؛ اذ تنشا خلايا شيوعية جديدة لم يتعرف عليها بعد وانه عندما دخل السراج سفارة الجزائر فى مصر وجد ان جميع المصريين فيها شيوعيون .

وسالنى بروس عن صدى مقال عن الرئيس نشرته جريدة نيويورك تايمز ، وقالت فيه ان عدد الجنود المصريين فى اليمن وصلوا الى مائة الف .

وسالنى مرة عن ان لديه اخبار بان المشير عامر ذهب الى اليمن فى رحلة سرية وطلب منى ان يعرف حقيقة هذا الخبر .



فقلت له ان الخبر غير صحيح .

واصر على ان يعرف مصدرى .

فاوهمته انه مصدر موثوق به جدّا وانه شمس بدران .

وسالنى بروس عن انه علم بان مصر ارسلت قوات اضافية الى اليمن ، فقلت ان الذي يحدث هو استبدال القوات بنظام المناوبة ؛ اى ان وحدة تسافر ، وتعود وحدة اخرى .

واوهمته بان المصدر هو شمس بدران ، بينما ان شمس لم يذكر لى شيئًا من هذا ، وانما اردت ان انفى نبا زيادة قواتنا فى اليمن .

وكان بروس دائم السؤال عن رحلات صدقى محمود ، ولعل ذلك يرجع الى ما سبق ان ادعيته باننا نقوم بصنع قنبلة ذرية .

واطلعنى بروس على صورة تقرير عن القبض على ابن على صبرى ، وان البوليس ضربه كما يضرب الجستابو الضحايا ، فانا قلت ان خبر القبض صحيح وان شخصيته لم تكن معروفة للبوليس ، وان عسكرى البوليس عوقب .

وجاء ذكر قضية الاستيراد المتهم فيها صهر على صبرى ، وكيف ان السيد مصطفى الهلباوى كتب مذكرة يطعن فيها حكم المحكمة ، وان حامد محمود مدير مكتب رئيس الوزارة لن يعدل هذه المذكرة وان سلطات حامد محمود كبيرة وان الوزراء كانوا يجدون من الاسهل ان يقابلوا الرئيس جمال عبد الناصر عن مقابلة حامد محمود .

وكان يسالنى كثيرًا عن اخبار المشير ويطلب منى ان اتحرى عن بعض الانباء . ومن امثلة ذلك ، ما ذكره حول زيارة المشير لليمن واشتراكه فى مؤتمر خمر وانا افهمته ان الغرض من اسفار المشير الى اليمن انه يرفع معنويات القوات .

وقال ان تحركات المشير واضحة فى خلال هذه المرحلة الا ان ايام ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ابريل غير معلوم عنها اى شىء وسالنى عنها ولم اخبره عن ذلك .

واحب يا سيادة الرئيس ان اروى لكم بامانة تامة كيف بدات علاقتى بالامريكيين . . ففى سنة ١٩٣٥ عين والدى وزيرا مفوضا فى واشنطن ، وسافرت معه واقمت فى السفارة المصرية بواشنطن .

وكنت ارغب فى ان ادخل كلية لدراسة الصحافة .

ولكن والدى كان يرفض ان اعمل بالصحافة ، واصر على ان ادرس العلوم السياسية ودخلت جامعة چورچ تاون فى مدينة واشنطن فى سنة ١٩٣٥ فى كلية العلوم السياسية حيث حصلت على ماجستير فى العلوم السياسية فى عام ١٩٣٨ ، وهذه الكلية هى المدرسة التى يتخرج فيها اغلب رجال السلك السياسى فى امريكا ، والذين يتولون وظائف وزارة الخارجية الصغيرة ؛ اذ ان الوظائف الكبيرة فى السلك السياسى الامريكى كانت دائما وقفا على رجال الاحزاب ، ولم يصبح هناك سلك سياسى بمعنى الكلمة يترقى فيه الموظف الى اعلى الدرجات الا بعد الحرب العالمية الثانية عندما خرجت الولايات المتحدة من عزلتها .

وفى اثناء وجودى فى واشنطن ، كانت السفارة المصرية تقيم حفلات يحضرها شبان موظفى الخارجية ، وكنت ادْعى الى جميع الحفلات التى يقيمها السفراء الاجانب فى واشنطن ؛ فقد كان اسمى مكتوبا فى قائمة الدبلوماسيين فى مدينة واشنطن باعتبارى ابن السفير المصرى .

وفى هذه الفترة تعرفت الى عدد ضخم من شبان وزارة الخارجية والى طلبة الجامعة ، وكل هؤلاء اصبحوا يشغلون بعد ذلك اهم مناصب السفارات الامريكية فى العالم ، باذن وزارة الخارجية الامريكية ؛ ولهذا كانت لى علاقات وصداقات مع كثير من الدبلوماسيين الذين كانوا شبانا فى اعوام ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ عندما كنت طالبا فى چورچ تاون .

وبعد عودتى من امريكا واشتغالى بالصحافة ، التقيت بكثير من هؤلاء ، وصنعت صداقات معهم ، ثم حدث فى اثناء الحرب العالمية ان حضر كثيرون من الشبان الامريكيين مع جيوش الحلفاء الى مصر ، كانت علاقاتى مستمرة باصدقائى الذين كنت اعرفهم من قبل وكان من بين هؤلاء كاى كار وهاى هولت وبرت سمث وماهونى ، وكان بعض هؤلاء يعمل فى مكتب مستر لندس وزير الدولة الامريكى المختص بشؤون التموين ، وفى هذه الفترة ايضا التقيت بارشى روزفلت وكيم روزفلت وكان روزفلت يؤلف كتابا عن البترول فى الشرق الاوسط وكنا نلتقى باستمرار مع هؤلاء جميعا وكنا نتحدث فى شؤون الحرب وفى كل شؤون الشرق الاوسط ، وكانوا يسالوننى عن آرائى فى الشرق الاوسط ، وكانت آرائى تختلف مع آراء الكثيرين منهم ، فقد كنت فى اثناء الحرب متحمسا لعلى ماهر ولسياسة عدم الانحياز ،

وكان رايهم جميعا ان على ماهر هو عميل المانى ، وكانوا يذكرون ان مصر سوف تخسر من سياسة عدم الانحياز فى الحرب ، وحاولوا كثيرا اقناعى بان مصلحة مصر فى ان تدخل الحرب الى جانب الحلفاء ، ولكن لم اقتنع بهذا الراى ، وكنا فى ايامها نهاجم سياسة الانجليز وحادث ٤ فبراير ، وكانوا فى تلك الايام يؤيدون هذه السياسة ويدافعون بشدة عن حادث ٤ فبراير ، وحصار قصر الملك بالدبابات ، وكانوا يؤكدون ان لديهم وثائق سرية تؤكد ان الملك فاروق كان يتخابر سرّا مع الالمان وهتلر فى اثناء الحرب ، وانهم ضبطوا هذه المحادثات ، وكانت سياسة امريكا وقتئذ ان مصر داخل منطقة النفوذ البريطانى ، وانهم لن «يتخانقوا» مع الانجليز فى اثناء الحرب من اجل مصر الواقفة على الحياد ، والتقيت فى ذلك الوقت بالسفير الامريكى مستر كيرك ، وكان يدعونى باستمرار للغداء والعشاء معه ، وكان له عدة بيوت فى القاهرة ، وكان لا يهمه امر مصر اطلاقا ولا يجد لذة فى ان يسمع اى شىء عنها ، وكان كل اهتمامه بالحفلات ، وبتاييد الانجليز فى الحرب وبصابون سان لايت الذى كان يملك اغلب اسهم شركته .

وفى اثناء ذلك ، امكننى ان اعرف منهم عدة اخبار هامة افادتنى صحفيّا ، وقد سبقت صحف العالم بنشر نبا تسليم ايطاليا ونشرته فى جريدة الاهرام ، وبخبر فتح الجبهة الثانية ومكانه وموعده واشرت اليه فى مجلة الاثنين ، بل ان احدهم وهو هاى هولت اخبرنى بتوقع هجوم هتلر على روسيا واردت ان انشر هذا الخبر فى جريدة الاهرام ، ولكن انطون الجميل رئيس تحرير الاهرام اجل نشر الخبر ٢٤ ساعة فاذا بهتلر يهاجم روسيا فى نفس الليلة .

وحصلت منهم على خبر مفاوضات الصلح مع الالمان ونشرته وكان نقلا عن صديقة هاى هولت وكانت تعمل سكرتيرة لوزير الدولة البريطانى .

واستمرت علاقاتى واتصالاتى بالسفارة الامريكية بالقاهرة وبموظفيها وحدث فى سنة ١٩٤٧ ان طلب منى المرحوم النقراشى باشا رئيس الوزراء ان اكون واسطة الاتصال بينه وبين الامريكيين بمناسبة سوء موقف المفاوضات بين مصر وبريطانيا وكنت دائم الاتصال بهم ، وقد وعدونا فى اول الامر بتاييد مصر فى عرض قضيتنا فى مجلس الامن ثم خلوا بنا بعد ذلك ، وكل ما فعلوه ان رئيس جمهورية امريكا عرض وساطته بين الملك فاروق وامريكا ، وقد حصلت على الخطابات السرية

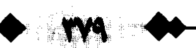
المتبادلة بين رئيس جمهورية امريكا والملك ، ونشرتها فى اخبار اليوم ، فقامت الدنيا وقعدت وثار الامريكيون لهذا النشر يومها .

ثم تولى مستر تاك منصب سفير امريكا ، وكانت علاقتى به قوية جدًا ، وكنت اقابله باستمرار . وفى تلك الايام ، تغيرت سياسة امريكا ، واصبحت لها سياسة مستقلة فى المنطقة ، بعد ان كانت تصر على ان تكون ذيلاً بريطانيًا فى المنطقة ، وكان السر فى ذلك ان اهمية البترول فى السعودية بدات تظهر ، واصبح لامريكا مصالح هامة فى بترول هذه المنطقة ، وكثيرا ما انتقدت قبل ذلك سياسة الامريكان فى انهم يتلقون تعليماتهم من السفير البريطانى فى القاهرة ، وكانوا اشبه بالمنومين نومًا مغناطيسيًا ، لا يصدقون الا ما يقول لهم الانجليز .

ثم حدث بعد ذلك ان توقفت علاقتى بمستر كافرى السفير الامريكى الجديد وكنت اقابله باستمرار ، وكان مقتنعا برايى بان مصلحة امريكا هى مصلحة الشعوب العربية فى الوقت نفسه ؛ وهى ان تؤيد امريكا خروج المنطقة من النفوذ البريطانى ، وكان يكره الانجليز كراهة شديدة ، وعندما يسمعنى انتقد تصرفات الانجليز فى المنطقة يهتز طربا وكانه يسمع قطعة موسيقية ، ولكنه كان يعطف على الملك فاروق ، وكان الملك قد وطد علاقته به ، وكان يُفهمه انه يستشيره فى المواضيع ، وانه ياخذ رايه قبل ان يفعل اى شىء .

وبعد ان تولى نجيب الهلالى الحكم عرفت ان الملك فاروق اخذ رشوة قدرها مليون جنيه من احمد عبود باشا ؛ ليقيل نجيب الهلالى من الوزارة ، واخبرت كافرى بذلك فلم يصدق . ثم تحرى الخبر بطريقته الخاصة وتاكد انه صحيح . وكنت ابلغته كذلك لنجيب الهلالى ، ثم زار كافرى نجيب الهلالى ، وقال له انه تاكد ان الملك قبض فعلا مليون جنيه ؛ ليقيل الهلالى من رياسة الوزارة ، وعندئذ استقال نجيب الهلالى ، وراح يصرح للناس بحكاية رشوة المليون جنيه ، وهذا الموقف هو الذى جعل كافرى يغير رايه فى الملك ، ويرى ان بقاءه على العرش كارثة .

وعرفنى كافرى بمستر ليتلاند او ليكلاند وهو شاب اعور يعمل ملحقا فى السفارة ، واكتشفت انه اقوى موظف له نفوذ على كافرى ، برغم انه ملحق صغير فى السفارة ، وكان يجيد اللغة العربية اجادة تامة ، وكان يزورنى فى مكتبى وفى بيتى باستمرار ، واعتقد ان له فضلٌ كبيرٌ فى التاثير



على كافرى ، وعلى سياسة امريكا نحو مصر ، فقد كان من راى سفراء امريكا المتعاقبين ان مصلحة مصر ومصلحة امريكا فى ان يتولى الوفد الحكم ، وان النحاس هو احسن حاكم لمصر ، وان بعد الوفد ستجىء الشيوعية لمصر مائة فى المائة . وكنت انا اهاجم النحاس باستمرار ، وكان من راى الامريكيين ان هذا الهجوم لن يكسب منه الا الشيوعيون ، ولكن كافرى لم يلبث ان اقتنع بغير ذلك .

وعندما قامت الثورة ابلغنى ليتلاند انه فى ليلة قيامها ايقظ السفير البريطانى فى واشنطن مستر دين اتشنسون وزير الخارجية من النوم ، وابلغه ان ثورة شيوعية قامت فى مصر ، وان الحكومة البريطانية قررت التدخل العسكرى فورا ، وتحرك الجيش البريطانى من فايد لقمع الثورة ، وقال لى ليتلاند ان دين اتشنسون طلب مهلة لنتشاور ، وانه ابرق الى كافرى يساله رايه ، وان ليتلاند هو الذى اعد البرقية العنيفة التى على اثرها ابدت امريكا اعتراضها على التدخل العسكرى البريطانى فى مصر ، وشعرت ، بحكم اتصالى المستمر ، باهمية ليتلاند وقوته رغم صغر سنه ، وابلغت المرحوم صلاح سالم برايى ؛ ان ليتلاند هو السفير الحقيقى . وعقب ذلك ، حدث اتصال مستمر بين ليتلاند وبين الرئيس جمال عبد الناصر وصلاح سالم وبعض رجال الثورة وكان ليتلاند ، هو الواسطة بين الثورة والسفير الامريكى ، وشعرت ان ليتلاند فى اجتماعاتى معه المتكررة انه كثير الاسئلة وانه يتظاهر بالخوف ، وبانه لا قيمة له ، بينما شعرت انه صاحب اكبر نفوذ على السفير ، واكثر علما بالسياسة الامريكية من جميع موظفى السفارة الامريكية الذين اجتمعت معهم .

وقد ابلغنى صلاح سالم انه يشعر بل يعتقد ان ليتلاند من المخابرات الامريكية ، وان راى رجال الثورة انه من جهاز المخابرات الامريكية وطلب منى ان اساله بينى وبينه عن ذلك ، فسالته عن ذلك فنفى بشدة ، وقال انه طلب اليه ان يشتغل بالمخابرات ورفض ذلك .

وكان ليتلاند يسالنى اسئلة كثيرة جدًا ، ولكنه كان يبدو متحمسا للثورة ومؤيدا لها ، ولم اشعر فى علاقتى الوثيقة به انه كان يخدعنى او يضللنى او يستغلنى او يوهمنى بانه مع الثورة بينما هو فى الواقع ضدها . واعتقد انه قام بخدمات جليلة جدًا بشان علاقات امريكا مع الثورة فى بدء قيامها .

وكان ليتلاند يحضر الى اخبار اليوم يوميًا وفى بعض الاحيان يتناول الغداء معى او نتناول العشاء عنده .

وكان اهم ما يسال ليتلاند عنه هو هل هناك بين قادة الثورة من له ميول شيوعية؟ وعرفت منه ان الانجليز كانوا يقولون لهم باستمرار ان لديهم معلومات مؤكدة بان عددا من اعضاء مجلس الثورة من الشيوعيين ، وان اتجاهاتهم كلهم ضد الغرب . ومن ليتلاند عرفت ان الانجليز يؤكدون ان يوسف صديق شيوعى وان خالد محيى الدين شيوعى ، بل ان انور السادات شيوعى ايضا . وكنت على صلة بانور السادات فاكدت لليتلاند انه اذا كان تفكير خالد محيى الدين مثل انور السادات فلا يمكن ان يكون احد فى مجلس الثورة من الشيوعيين ، بل اننى على العكس ارى ان مجلس الثورة ضد الشيوعية .

وقد انزعج الامريكيون عندما افرجت الثورة عن المعتقلين فى اول قيامها ، وكان الانجليز يؤكدون لهم ان كثيرا من الذين افرجت عنهم الثورة من الشيوعيين ، وكان الانجليز يعتبرون كل من يهاجمون سياستهم من الشيوعيين .

وقال لى ليتلاند انه واثق ومتاكد من ان الثورة ليس اتجاهها شيوعى ، وان الانجليز مغفلون ، وانه غير صحيح انهم خير من يعرف المنطقة ، وانه جعل كافرى يكتب تقارير يهاجم هذه الآراء التى كانت تقدمها السفارة البريطانية فى واشنطن الى البيت الابيض والى وزارة الخارجية الامريكية ، وشعرت بان ليتلاند وكافرى امكنهما ان يقفا ضد كل محاولات المخابرات البريطانية لتصوير صورة الثورة امام واشنطن . وفى هذه الاثناء ، كان يحضر الى مصر من وقت الى آخر كريت روزفلت وكان كريت يقابلنى ، وكان يقابل الرئيس جمال عبد الناصر ، وكانت مقابلاتى لكريت روزفلت بعلم الدولة وبموافقتها التامة .

وقد علمت من الرئيس جمال عبد الناصر ان كريت من المخابرات الامريكية ، وانه عضو بارز فيها وابديت فزعى من ذلك ، ولكن الرئيس عبد الناصر وافق على استمرار صداقتى به .

وكنت اخبر الرئيس عبد الناصر باستمرار على كل ما يقوله كريت روزفلت ، وعن جميع الآراء التى يبديها فى مقابلاته معى .

وكنت ايضا على اتصال مستمر بمستر وزرزبى ومستر بين الموظف بقسم الاستعلامات الامريكى ، وكنت على صلة وثيقة ومستمرة بهم وكنت اشعر من اسئلتهم العديدة انهم ايضًا من رجال المخابرات وعرفنى

مستر وزرنى على ما اذكر او المستر بين بمستر ايكل بيرجر وكنت على اتصال مستمر بمستر ماملز كوبلاند الذى كان على صلة دائمة بالرئيس وبزكريا محيى الدين .

وفهمت من احاديث مع المسئولين ان قادة الثورة يعلمون جيدا ان كل هؤلاء من المخابرات الامريكية ، وانهم واثقون من ذلك ، ولكنهم يرون ان المصلحة فى الاتصال بهم ، وخاصة انه تبين بوضوح ان المخابرات الامريكية هى صاحبة السلطة الحقيقية فى امريكا ، وانها اقوى نفوذا من وزارة الخارجية الامريكية وانها قادرة على رسم السياسة ، فان كثيرا من الاشياء التى كنا نطلبها من امريكا او نسال عنها كانت تصل عن طريق المخابرات الامريكية قبل ان نعرفها بواسطة السفير الامريكى فى القاهرة بعدة شهور .

ومع علم المسئولين المصريين وتاكدهم بان هؤلاء جميعًا من المخابرات الامريكية فانهم كانوا يصرون دائما على ان هذا غير صحيح ، وان هذه معلومات خاطئة ، وان وظيفة كريت روزفلت مثلا هى انه مستشار سياسى لرئيس الجمهورية ولم يحدث مرة واحدة ان اعترف واحد منهم فى اى حديث ، لا مباشرة ، او غير مباشرة بانه من المخابرات الامريكية .

وكان لدينا اعتقاد بان كثيرين جدًا من موظفى السفارة الامريكية فى القاهرة من المخابرات الامريكية ، وكان يحدث فى بعض الاحيان ان يكون احد الموظفين من غير المخابرات ، ثم تظهر كفاءته ، فلا تلبث المخابرات الامريكية ان تجنده فيها .

وحدث فى عام ١٩٥٤ ان حدثت ازمة محمد نجيب وعلمت ان محمد نجيب اتصل بشخص من المخابرات الامريكية اسمه مستر لى وان هذا الشخص كان ملازما لمحمد نجيب طوال الوقت ، وافهم محمد نجيب مستر لى ان اعضاء مجلس الثورة كلهم شيوعيون ، وانه يريد ان يخلص البلاد منهم وانه يرغب فى تاييد الولايات المتحدة له فى معركته فى مجلس الثورة .

وكانت الحكومة البريطانية تؤيد محمد نجيب كل التاييد وتعتقد ان مصلحة بريطانيا فى الخلاص من جمال عبد الناصر واصدقائه .

وكان كوبلاند يخبرنى هو وايكل بيرجر عن تقارير تصلهم باستمرار من المخابرات البريطانية تؤكد ان جمال عبد الناصر هو الخطر الحقيقى ضد الغرب ،

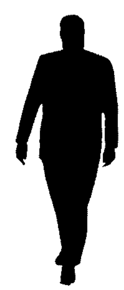
وان مصلحة الغرب فى بقاء محمد نجيب ، وان المصلحة ان يبدا انقلاب محمد نجيب بحكم مؤلف من الوفد والاخوان المسلمين والشيوعيين ، ثم بعد ذلك يتخلص الغرب من الشيوعيين ، ويبقى محمد نجيب الذى اكد مستر لى لهم انه سيكون اصدق صديق لامريكا وبريطانيا ، وانه اذا انتصر فريق عبد الناصر فانه سيصبح خطرا على مصلحة امريكا وبريطانيا لا فى مصر وحدها بل فى الشرق الاوسط كله .

وقد وقفت اخبار اليوم فى هذه المعركة ضد محمد نجيب ، ونشرت مقالا فى الاخبار بعنوان «سلاطة روسى» عن مشروع حكم محمد نجيب بوزارة من الوفديين والشيوعيين والاخوان ، ونشرت فى اخبار اليوم نص الحديث السرى التليفونى الذى جرى بين محمد نجيب ومصطفى النحاس وقد احدث نشر الحديث ضجة كبرى فى الراى العام ، واسقط محمد نجيب بين الجماهير .

وكان كوبلاند وايكل بيرجر ، على ما اذكر ، يتصلان بى فى تلك الايام باستمرار ، ويقابلانى يوميًا ، وكنت اطلع المسئولين على المحاولات التى تبذل من اجل تاييد محمد نجيب .

ولقد شعرت يومها بان نفوذ شخص مثل كوبلاند اقوى كثيرا من عدد من كبار موظفى السفارة الامريكية الذين كانوا يُجمعون على وجوب تاييد محمد نجيب ، وان الانجليز والمخابرات البريطانية اقدر على الحكم فى الحالة فى مصر منهم .

وقد حدث خلاف خطير بين الرايين فى هذا الشان ، وكان الانجليز يؤكدون ان محمد نجيب هو الذى سينتصر ، وحدث فى احد الايام ان بدا ذلك بانتصار مؤقت لمحمد نجيب ، وحل مجلس الثورة ، واخبرت كوبلاند ان رجال السفارة البريطانية فى القاهرة كانوا يتبادلون التهانى ، ولقد كانت واشنطن نفسها مقتنعة براى الحكومة البريطانية ؛ بحتمية انتصار محمد نجيب وبضرورة تاييده .



وكان رايى الذى ابديته دائما لكل من سالنى منهم ان «السلاطة الروسى» التى يدعو اليها محمد نجيب ستنتهى بان يستولى الشيوعيون على الحكم ، وانه من مصلحة امريكا ان يتولى الحكم جمال عبدالناصر وهو عدو للنفوذ الاجنبى فى المنطقة من ان يتولاه عميل شيوعى يحول كل المنطقة الى مستعمرة روسية .

وفى سنة ١٩٥٦ عندما حدث تاميم قناة السويس كنت على صلة ببيل ميلر ، وكان الرئيس جمال عبد الناصر على علم تام بهذا الاتصال ، وكان ميلر يحضر الى مكتبى يوميًا ، وكنت ابلغ الرئيس يوميًا بما يقوله ميلر ، وكان الرئيس يسميه على ما اذكر «ازمرلدا» او اسم آخر لا اذكره وسالت الرئيس لماذا يسميه هذا الاسم ، فقال انه اسم رواية قراها عن فتاة تسمع باسمها باستمرار ولا تراها .

وكان بيل ميلر يطلعنى باستمرار على كل الانباء والبرقيات الهامة التى تصل اليه ، كما كان يفعل كوبلاند وايكل بيرجر الذى كان من وظيفته فى السفارة ان يطّلع على البرقيات السرية .

وحدث فى سنة ١٩٥٤ ان اخبرنى ايكل بيرجر انه اطلع على برقية سرية جدًا وصلت على التو من السفير الامريكى فى تل ابيب بان الجيش الاسرائيلى سيقوم بعدوان فى يوم معين على مصر . والح فى ان لا اخبر الرئيس بهذا الامر ، وقال انه لو عرف احد ان هذه البرقية تسربت فسوف يفقد عمله .

واسرعت على الفور واخبرت الرئيس عبد الناصر بما حدث .

واهتم الرئيس بهذا النبا وطلب معلومات اوسع عن هذه العملية الخطيرة ومكانها .

واتفقنا ان اذهب انا ومحمد حسنين هيكل ونقابل مستر بايرود السفير الامريكى ، واستطعنا ان «ندحرجه» ونعلم ان الخبر صحيح مائة فى المائة .

واحضر بايرود البرقيات السرية التى وصلت اليه ، وتفاهمت انا وهيكل ان يشغله هيكل بالحديث بينما انا انقل البرقية .

وفعلا استطعت ان انقل نص البرقية وقدمناها الى الرئيس جمال عبد الناصر ، واصدر الرئيس على الفور امره الى الجيش المصرى بالاستعداد لهذا العدوان المفاجئ ، وتم العدوان فى موعده ، وكان الجيش المصرى مستعدًا له ، واعطى الجيش المصرى يومها درسا لليهود .

وقد شكرنى الرئيس جمال عبد الناصر يومها على هذا العمل الذى قمت به وقال اننى خدمت لبلادى خدمة كبرى .

ولقد كان ايكل بيرجر يسالنى دائمًا اسئلة تدور كلها حول موقف الرئيس جمال عبد الناصر من الشيوعية ، وموقف زملائه من الشيوعية ، وكنت اشعر ان اغلب

المعلومات التى كانت تستند اليها اسئلته فى هذا الموضوع مستندة على استفسارات تجيئه من واشنطن ، وانها مستمدة من معلومات كانت تبلغ الى امريكا بطريق التسرب بواسطة جهاز المخابرات البريطانى الذى كان يعمل باستمرار على تشويه حقيقة جمال عبد الناصر ، ويضرب باستمرار على هذه النغمة ؛ لانه يعرف ان امريكا تصاب بالجنون اذا عرفت ان الرئيس جمال عبد الناصر شيوعى .

ولقد حرصت باستمرار على ابلاغ المسئولين عن محاولات التشويه التى تقوم بها بريطانيا ضدنا ، وانها تعطى امريكا هذه المعلومات ، وهى تعلم انها كاذبة . ولكن ، كان جهاز المخابرات البريطانى يعمل باستمرار على اساس ان الرئيس عبدالناصر خطر على مصالح بريطانيا الاستعمارية والاقتصادية فى المنطقة ، وليس ان عبد الناصر يمثل خطرا شيوعيا .

وكان مايلز كوبلاند وميلر وايكل بيرجر وكريت روزفلت يقولون لى انهم مقتنعون بهذا الراى ، وكانوا يقولون ان المخابرات البريطانية تحاول تضليل امريكا لمصلحة بريطانيا ، ولكنهم مع ذلك ، ومع اننى احسست منهم دائما بهذا الاقتناع ، فانهم كانوا يجيئون كل يوم ويسالوننى عن اشخاص اثق جيدا بانهم غير شيوعيين ، يؤكدون انهم شيوعيون ، او يقولون ان معلومات جاءتهم بان لهم ميولا شيوعية ، ومن الاسماء التى كانوا يكثرون من السؤال عنها ويتهمونها بالشيوعية ؛ انور السادات وعبدالحكيم عامر وثروت عكاشة وعلى صبرى وكمال رفعت وغيرهم .

بل لقد حدث مرة بان كريت روزفلت قال لى ان لديهم معلومات مؤكدة جدًا بان عبدالحميد سراج شيوعى مائة فى المائة ، وانها معلومات لا يتطرق اليها الشك ، وانهم قاموا بتحريات واسعة فى هذا الموضوع فايدت ذلك وان المخابرات البريطانية قامت ايضًا بعمل جرد عام وفحص **Screening** على عبدالحميد سراج فعرفت انه شيوعى ، وان حكومة الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة مصر اذا استعمل عبد الناصر نفوذه فى سوريا لاخراج عبدالحميد سراج فى الحكم من سوريا .

وطلب منى كريت روزفلت ان اقول هذه الانباء للرئيس عبد الناصر على انها معلومات علمتها اثناء وجودى فى واشنطن اثناء اشتراكى فى مفاوضات الجلاء بعد العدوان ، لا على انها معلومات هو مصدرها .

ولكننى ذهبت الى الرئيس جمال عبد الناصر بعد عودتى مباشرة من رحلتى فى امريكا وقلت له : ان كريت روزفلت هو الذى قال لى هذه المعلومات .

فقال لى الرئيس جمال عبد الناصر ان الامريكيين مغفلون وجهلاء ، ومعلومات مخابراتهم كاذبة ، وانه لن يحارب عبدالحميد سراج ، بل على العكس سوف يؤيده ويدعمه .

وقبل قيام العدوان البريطانى الفرنسى الاسرائيلى على مصر ، كانت الولايات المتحدة بجميع اجهزتها على جهل تام بهذا العدوان .

وكان بيل ميلر يتردد علينا باستمرار فى اخبار اليوم ويؤكد هذا ، ويقول : ان امريكا لا توافق على هذا العدوان ، وما دامت هى لا توافق فلن يقوم العدوان .

ثم حدث ان اوفد الرئيس جمال عبد الناصر اخى على امين الى لندن للاتصال بحزب العمال المعارض وابلاغه وجهة نظرنا فى تاميم القناة .

وعاد على امين من لندن ، وقابلت معه ومحمد حسنين هيكل الرئيس فى القناطر الخيرية ، فقال على امين للرئيس : ان المعلومات السرية التى حصل عليها من انجلترا تؤكد بان انجلترا ستقوم بالعدوان ، وانها باتت تستعد له ، وتجهز القوات التى ستقوم بهذه المهمة .

ثم سافرت انا ومحمد حسنين هيكل الى امريكا فى مهمة اوفدنا اليها الرئيس فى امريكا اثناء عرض مسالة تاميم القناة فى مجلس الامن .

واتصلنا بكريت روزفلت وبايكل بيرجر وبعدد من كبار موظفى وزارة الخارجية الامريكية ، وابلغنا مستر دالاس ان العدوان اصبح فى ذمة التاريخ ، وانه واثق انه لن يحدث عدوان .

ولكن العدوان حدث بعد ذلك ببضعة اسابيع وكنا فى جميع اتصالاتنا بهؤلاء نعلم انهم متصلون بجهاز المخابرات الامريكية ، وكانت الدولة تعلم بهذه الاتصالات وتعرفها تفصيلا .

وكان يحدث كثيرا ان يسالنى هؤلاء اسئلة عن الموقف ولكن كانت كلها اسئلة سياسية ليست اسئلة محددة .

وعندما اوفدنى الرئيس جمال عبد الناصر فى مهمة الى امريكا اثناء العدوان قابلت كريت روزفلت عدة مرات ، فى حضور الدكتور احمد حسين سفير مصر فى واشنطن فى ذلك الوقت ، وبعلم الرئيس جمال عبد الناصر ، وعرفت ان المخابرات الامريكية فوجئت بالعدوان ، وانها لم تعلم به الا قبل حدوثه باربعة وعشرين ساعة ، وانها لم تعلمه من لندن او باريس ، وانما علمت به من تل ابيب .

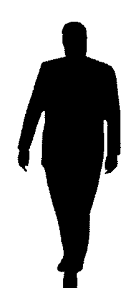
وفى ايام العدوان الاولى كان بيل ميلر يزورنا يوميًا فى اخبار اليوم ، واحيانا يقابلنا اكثر من مرة فى اليوم ، وكان السؤال الذى يساله دائمًا واحدًا لا يتغير وهو هل نستطيع الصمود؟ وكم ساعة نستطيع ان نقف على اقدامنا؟ وكان يسال هذا السؤال اكثر من مرة فى اليوم ، وعندما كنت اجيبه باننا سنستطيع الصمود كان يقول : لو صمدت مصر ثلاثة ايام فسوف تخسر بريطانيا المعركة .

وكنت على صلة مستمرة ودائمة بالليل وبالنهار تليفونيًا بالرئيس جمال عبدالناصر ، وكنت ابلغه اولاً باول بكل كلمة يقولها بيل ميلر فى مقابلاته العديدة المتكررة .

واستطعنا ان نعرف ان ايزنهاور غاضب من ان العدوان تم وراء ظهره وان ايدن استغفله وكانت هذه المعلومات قيّمة جدًا فى اثناء المعركة .

وكانت تجرى المباحثات بشان وقف اطلاق النار وارسال البوليس الدولى الى مصر فى مكتبى باخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكل وبيل ميلر .

وكنا نبلغ الرئيس جمال عبد الناصر اولا باول بكل المعلومات ونقوم بمهمة الاتصال بين الرئيس جمال عبد الناصر وايزنهاور ، حتى ان الرئيس جمال عبدالناصر قال يومها : ان اخبار اليوم اصبحت وزارة خارجية تحت الارض ، وكنا نشعر وقتها ان الرسائل تصل الى ايزنهاور بهذه الطريقة اسرع كثيرًا مما لو ارسلت بطريق السفير .



وكان بيل ميلر يقول : انه يقوم بهذه المساعدات لنا فى مقابل ان نعطيه ، سرًا طائرة ميج بعد انتهاء العدوان وهزيمته ، وابلغته كذبًا بان الرئيس جمال عبد الناصر وافق على ان نعطيه طائرة ميج روسية ؛ لان الامريكيين وقتئذ كانوا يحاولون الحصول على هذه الطائرة باى ثمن ، لانهم كانوا يجهلون سرَّ صنعها .

وابلغت الرئيس جمال عبد الناصر بما طلبه بيل ميلر ، وبالوعد الذى اعطيته له باسم سيادته .

وقلت لسيادتكم انكم فى اى وقت تستطيعون ان تكذّبوا علمكم بهذا الموضوع او انكم عرفتم اى شىء عن هذا الوعد .

وعندما انتهت المعركة بانتصارنا ، راح بيل ميلر يطالبنى بان اطلب الى الرئيس جمال عبد الناصر تنفيذ الوعد ، وكنت اتهرب منه وكان يلح فى ذلك الحاحا غريبا ، وكان يقابلنى يوميًا ولا يدور حديثنا الا عن الطائرة الميج التى وعدتهم بها باسم سيادتكم .

وكل ما حصل عليه بيل ميلر ان سيادتكم اهديتم له صورتكم ؛ تقديرا لموقفه معنا فى اثناء معركة العدوان .

ولم يكن بيل ميلر يسال اسئلة محددة ، ولكنه كان يطلب منى ان ابلغ الرئيس جمال عبد الناصر رسائل معينة عن وجهة نظر الحكومة الامريكية فى مسائل عديدة .

وكنت ابلغ سيادتكم بما يطلب منى بيل ميلر ابلاغه الى سيادتكم .

وكنت على اتصال وثيق بمستر بايرود السفير الامريكى وكنت اقابله باستمرار ، ولكن صلتى كانت اقوى بمستر بريموند هير ؛ لاننى كنت صديقا له منذ عام ١٩٤٠ عندما كان قنصلا لامريكا فى مصر وكان هير يسالنى فى كثير من الامور ويطلب منى ابلاغ رسائل معينة الى الرئيس جمال عبد الناصر .

وكانت اكثر اتصالاتى بمستر هير .

وذات يوم فى اثناء ثورة لبنان فى النصف الثانى من سنة ١٩٥٨ ، علمت من هير انه تلقى رسالة من وزير خارجية امريكا يطلب اليه ان يقدم انذارا الى الرئيس جمال عبد الناصر بان الاسطول الامريكى سيضرب فينا اذا اعتدى على الجنود الامريكيين الذين نزلوا فى لبنان ، وانه لم يتقرر بعد الموعد الذى يقدم فيه الانذار رسميا .

ولم تكن سيادتكم موجودين فى القاهرة ، فاسرعت وذهبت بعد منتصف الليل الى منزل السيد على صبرى بمصر الجديدة ، وابلغته بما سمعنا من هير . فقال على صبرى : ان الامر خطير جدًا ولا يمكن ان نسكت على هذا ، واصر على استدعاء

هير وايقاظه من نومه وذهابه اليه فى قصر القبة ، وتم اللقاء بينهما وابلغه على صبرى بان الجمهورية العربية سترفض هذا الانذار اذا وجّه اليها . وكانت قد وصلت الى المخابرات الامريكية فى بيروت بان الجمهورية العربية اصدرت قرارا سريّا بان يُغْتال عددٌ من رجال الاسطول الامريكى فى لبنان .

وفى هذه الاثناء ، قامت اخبار اليوم بحملة عنيفة جدًا ضد الشيوعية وتعرضت اخبار اليوم للاتهام فى كثير من الدوائر بان هذه الحملة موعز بها من امريكا .

وتعلمون سيادتكم بانكم الذين امرتمونى بهذه الحملة ، وانكم الذين طلبتم منى طبع كتاب «المحن» وهى الكراسة الحمراء التى دفعت الحكومة المصرية نفقات طبعها وان جميع هذه الحملة كنت استشير سيادتكم فيها وذلك فى اثناء تنظيم حملتنا على الشيوعية بعد خطاب سيادتكم فى دمشق ، وكذلك الحملة التى قامت بها اخبار اليوم عن مذابح الموصل بعد ثورة الشواف .

وقد سافرت بعد ذلك الى امريكا فى مهمة اوفدتمونى سيادتكم فيها وقد عرضت على سيادتكم بعد عودتى كل خطواتى ومقابلاتى واجتماعاتى وقد وفقت فيها بان احصل للصحافة المصرية على ورق بمليون جنيه مجانا من امريكا ، وتولى مستر هير السفير الامريكى فى القاهرة ابلاغ سيادتكم ذلك بنفسه .

وكنت على اتصال يومىٍّ بسيادتكم ، وكنت ابلغكم تفصيليّا بكل مقابلاتى مع الرجال الامريكيين الذين اتصلت بهم ، وكل ما كنت احصل عليه من انباء ومعلومات واسرار بحيث كنا نعرف اولا باول كل الانباء التى يهمنا ان نعلم بها سواء ما يجرى فى امريكا او يجرى فى المنطقة العربية .

وكنتم سيادتكم تطلبون منى الاستفسار عن مسائل معينة او ابلاغهم مسائل معينة .

وكان الاستاذ سامى شرف يتصل بى ويطلب منى ان احصل على معلومات معينة من اصدقائى الامريكيين ، واعتقد اننى كنت احصل على بيانات تهم بلادى فى فترات عصيبة مختلفة .

وحدث بعد تعيين الاستاذ خالد محيى الدين رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة اخبار اليوم ان قررت ايقاف اتصالى باى امريكى وسالت الاستاذ سامى شرف فى ذلك فطلب الىَّ الاستمرار كما انا .

ثم حدث وحصلتُ على بضعة اخبار هامة من محادثاتى مع بروس اوديل فابلغتها الى سيادتكم شخصيًا ، او ابلغتها الى الاستاذ سامى شرف او الى الدكتور عبد القادر حاتم .

وعند مقابلاتى مع بروس اوديل لم يكن يوجه الىّ اسئلة محددة ، ولكنه كان هو الذى يتحدث ويتكلم كثيرًا ثم يسالنى بعض اسئلة متناثرة .

ولكن فى الشهور الاخيرة ، بدات اسئلته تتحول الى اسئلة محددة ، وبدا يسال عن تفاصيل لم يكن الذين سبقوه يهتمون بها ، ولقد كنت اجيبه على اسئلته ، وكنت فى كثير من الاحوال اضلله واذكر على لسان سيادتكم اشياء لم تقولوها لى ، ولقد كنت اتصور اننى بهذه الطريقة استطيع ان احصل على معلومات هامة ، وان من واجبى ان اصحح بعض المعلومات الكاذبة ، وان اوهمهم بان قدراتنا ضخمة ، واننا قادرون على نسف آبار البترول وعلى صنع قنبلة ذرية ، وعندما اعود الى نفسى ، واتذكر كل ما قلت اجد اننى اخطات ، ولكن شفيعى فى ذلك حُسن نيتى ، واننى قدمت لبلادى - نتيجة هذه الاتصالات - خدمات عبرتم سيادتكم فى اكثر من مناسبة عن تقديركم لها .

هذه هى مجمل الاحاديث التى دارت تقريبا ، ويمكن تلخيص علاقاتى مع الامريكيين ؛ بان علاقتى الشخصية كانت طيبة دائما بالسفراء الامريكيين فى مصر ، ورجال السفارة الامريكية ، وكان هدفى الوحيد دائما من هذه العلاقات ، فى ذلك الوقت وفيما بعد ، خدمة بلادى .

وحدث بعد ذلك ان عرَّفنى السفير الامريكى مستر كافرى بمستر ليتلاند الملحق السياسى بالسفارة ، وهو الذى قال صلاح سالم لى بانه يشك فى انه ضابط مخابرات امريكى ، ولست اقطع بذلك ، ولكن دلت اسئلته انه فعلا ضابط مخابرات ، ولكنى كنت اتصل به بعلم الدولة .

ومنذ ذلك الحين ، بدات اتصالاتى برجال السفارة الامريكية بالقاهرة الذين اشك فيهم ، وتدل اسئلتهم على انهم من رجال المخابرات الامريكية وكانت السلطات المصرية تعلم ذلك تماما ، وتعرف بهذا الاتصال .

وقد بدات هذه العلاقات بطريقة مقابلات غير منتظمة ، وكانت فى مواعيد متغيرة ، وغير ثابتة ، وبحضور بعض اشخاص ، منهم الاستاذ محمد حسنين هيكل .

وبدات هذه المقابلات تصبح مقابلات شبه منتظمة ، وكانت تتم بينى وبينهم فى بيتى على انفراد بعد طلاق زوجتى وعودتى للاقامة فى منزلى وذلك من اواخر سنة ١٩٦٠ ، وكان يقابلنى فى ذلك الوقت مستر جون سيدل الملحق بالقسم السياسى بالسفارة الامريكية ، وكنت اشير الى اسمه دائما فى اتصالاتى بسيادتكم عندما ابلغكم الاخبار التى احصل عليها منه .

وكانت علاقتى بسيدل عبارة عن مناقشات ، وكان يسال فى خلالها بعض اسئلة ، واسزله بعض اسئلة اخرى ، ولم يحدث مرة واحدة ان اشعرنى بانه يسال اسئلة محددة ، وان كان يسال دائما عن الحوادث الجارية ويستفسر عنها .

وفى بعض المرات ، كان يطلب منى ابلاغ السيد الرئيس بعض رسائل معينة ، مثل : ان رئيس جمهورية امريكا يطلب تحديد موعد ليطير فيه مستر ماكلوى مندوبه الشخصى لمحادثة الرئيس جمال عبد الناصر فى امور هامة .

واستمر الحال هكذا بعد ان جاء الى مصر مستر بروس اوديل الذى بدا طريقته فى المناقشات مثل طريقة سيدل ، ثم حدث فى الشهور الثلاثة الاخيرة ان اصبح يوجه الىَّ اسئلة محددة ، ويشير اشارات جعلنى اشعر صراحة بانه يعمل فى المخابرات الامريكية ، فقد حدث ان سالته عن عنوان بيته فى الاسكندرية فرفض ، وطلب منى عدم التردد على منزله فى الاسكندرية ، كما طلب منى عندما اتصل بمنزله وقت غيابه فى اثينا ان لا اذكر اسمى كاملا ، بل اذكر اسم مصطفى فقط ، كما طلب ايضا انه يريد ان تكون مقابلاته لى فى الاسكندرية غير ملحوظة لاحد ، وكان عندما يريد ابلاغ توجيهات من الحكومة الامريكية للرئيس جمال عبد الناصر يطلب ان ابلغها للرئيس بطريقة كانها صادرة منى وبدون الاشارة اليه او ذكر اسمه ، وبهذه المناسبة اذكر انه طلب ما ياتى منى ان ابلغ الرئيس جمال عبد الناصر بهذا الاسلوب ما ياتى :

١- ان الحكومة الامريكية قررت انلا تدفع لمصر سنتا واحدا من المعونة الا اذا سحبت كل قواتها من اليمن ، والا اذا توقفت عن مساعدة الكونغو ، الا اذا هادنت اسرائيل .

ولم ابلغ سيادتكم هذا التهديد ، ثم عاد وسالنى : هل ابلغت الرئيس بما قلته؟ فكذبت عليه وقلت : نعم .

٢- ان الحكومة الامريكية قررت انتهاج سياسة القوة والحزم ؛ قاصدا من ذلك تخويف الرئيس جمال عبد الناصر واجباره على اتباع السياسة التى تتلاءم مع سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة .

ولم ابلغ سيادتكم هذا التهديد ، ثم عاد وسالنى فى الاسبوع التالى : وسالنى هل ابلغت الرئيس بما قلته لك فكذبت عليه وقلت : نعم .

٣- اشعار الرئيس جمال عبد الناصر دائمًا بان شخصية جونسون عنيدة غير مرنة ، ويتجه الى الاندفاع واستعمال القوة لتنفيذ رغباته .

ثم اراد ان يؤكد هذا المعنى فارسل لى كتابا الفه مستر هوايت عن الرئيس جونسون وطلب منى ان اعطى هذا الكتاب للرئيس عبد الناصر .

ولم ابلغ سيادتكم بهذا التهديد ، ثم عاد وسالنى فى الاسبوع التالى : هل ابلغت ما قلته لك للرئيس عبد الناصر ، فكذبت عليه وقلت له : اننى تحدثت تليفونيًا مع سيادتكم وابلغتكم كل ما قاله فى هذا الشان ، ولم ارسل لسيادتكم الكتاب كما طلب منى .

٤- محاولة الوقيعة بين مصر والاتحاد السوفيتى ؛ فقد اعطانى عدة مرات مقالات نُشرت فى صحف شيوعية وسوفيتية ، فيها ما يمس مصر وطلب منى ارسالها للرئيس جمال عبد الناصر ، وكان المقصود بهذا : الوقيعة بين مصر والكتلة الشرقية .

ولم ارسل لسيادتكم هذه المقالات وكذبت عليه وقلت : اننى ابلغتها لسيادتكم تليفونيًا .

٥- محاولة الايقاع بين مصر والدول العربية ، واذكر فى هذا المجال ما قاله عن ان الملك فيصل صرَّح بان اليمن ستكون مقبرة للمصريين الناجين .

٦- الاشعار دائما بعجز مصر المالى ؛ فقد طلب منى ان ابلغ سيادتكم بان قررت الاَّ تعتمد قروضها لمصر اذا ثبت لها ان الولايات المتحدة لن تستانف ارسال المعونة .

ولم ابلغ سيادتكم هذا الخبر ، وسالنى بروس بعد ذلك باسبوع فكذبت عليه وقلت : نعم ابلغت الرئيس .

وتنحصر باقى اهدافهم علاوة على ايصال هذه التوجيهات الى سيادتكم فى الحصول على معلومات بعضها سياسى ، وبعضها عسكرى وبعضها اقتصادى .

وقد كنت ارد على اسئلة بروس باجابات مضللة وغير صحيحة فى رايى ، ولاضفى عليها صفة الاهمية كنت انسبها او بعضها الى احاديث مزعومة مع سيادتكم ، والى بعض المسئولين المهمين .

وكانت اجاباتى عن الاسئلة كلها توهمه بان مصر فى حالة سيئة ، وانه على وشك ان يحدث فيها انقلاب شيوعى ضد الرئيس جمال عبد الناصر ، وانه قلق ، وان هناك خلايا سرية فى الجيش وانه لو اصيب عبد الناصر فى حادث اغتيال فسوف يحدث فى مصر انقلاب شيوعى وتعم الشيوعية فى المنطقة كلها ، واننى ارغب فى الحصول على اجازة طويلة ؛ حتى لا اتعرض لاخطار الشيوعية فى حالة حدوث انقلاب شيوعى .

ان هذا التصرف من جانبى ، دون توجيهات من سيادتكم كان خطا ، واننى اعترف بخطئى ، الا ان دافعى فى هذا ان استدرجه ؛ لاحصل على اكبر قسط من المعلومات مما يفيد البلاد ، ولا امكنه من الوصول الى اهدافه .

فاتنى ان اذكر فيما يختص بسيادتكم انه طلب منى فى احدى المرات - ولا اذكر التاريخ - نص خطاب سيادتكم فى الجلسة السرية لمجلس الامة ، ورغم اننى تظاهرت باننى ساحضره ، الا ان الحقيقة اننى لم اسلمه اليه .

بقى موضوع آخر احب ان اوضحه على حقيقته بصراحة تامة ، مهما كان يتضمن من اخطاء ، وهو العلاقات المالية مع الامريكيين ؛ فقد حدث ان قال لى بروس انه لو اراد ان يكون مليونيرًا لاستطاع ذلك ، فان كثيرين من الدبلوماسيين يعملون فى التهريب ويربحون ارباحًا طائلة .

وبعد ذلك طلبت اليه ان ياخذ خمسة آلاف جنيه مصرى ويحولها الى لندن فقال انه لا يستطيع ان يفعل ذلك ؛ لان تعليمات السفير مشددة فى عدم (. . . . .)(١) ، ولكن يمكن ان يحولها لى بصفته الشخصية بواسطة صديق له (. . . . .)(٢) يجب ان تحول اولاً الى ليرات ثم بعد ذلك الى جنيهات استرلينية ، ونظير عمولة بسيطة ، وان يتم البيع فى السوق السوداء .

وفى حديث آخر ، عدت الى مناقشة هذا الموضوع معه ، واشعرنى اولاً انه لا يستطيع ان يجزم بان فى مقدوره ان يقوم هو بهذا العمل ، بل يجب عليه ان يسال اولاً عن امكانية ذلك .

(١) غير واضحة بالاصل .

(٢) غير واضحة بالاصل .

وبعد ذلك ، افهمنى انه يستطيع تنفيذ ما اطلبه منه .

وعليه ، سلمته خمسة آلاف جنيه مصرى فى شهر مايو ، وطلبت منه ان يُودع المبلغ فى بنك ميدلاند فى لندن ، وابلغنى بعد ذلك بثلاثة اسابيع تقريبًا انه قد تم ايداعها فعلاً فى البنك المشار اليه فى لندن .

ثم بعد ذلك سلمته خمسة عشر الف جنيه على دفعتين ، دفعة عشرة ، ودفعة خمسة ، واتفقنا على ان يحولها الى بيروت ، الى ليرات لبنانية ثم دولارات ، ويفتح حسابًا لى باسمى فى بنك فى بيروت .

وقد افادنى بانه باع هذا المبلغ فعلا فى السوق السوداء ، الا انه قد باع المبلغ بسعر زهيد ؛ بسبب اغراق سوق بيروت بالجنيهات المصرية ، حسب ما ذكر لى ، نتيجة المؤتمر الفلسطينى بالقاهرة .

وكان المفروض ان يبلغنى يوم القبض علىَّ اسم البنك الذى اودع فيه فى بيروت المبلغ ، ولكن عملية القبض حدثت قبل ذلك .

وعندما تقرر سفر اخى على امين مندوبًا متجولا فى اوربا ، مركزه لندن ، رايت ان مما يفيده ؛ ان يكون له اتصالات باكبر عدد من الدوائر فيها ، خلاف الدوائر البريطانية ، واعتقدت ان على امين يستفيد صحفيًا من ان تكون له علاقات طيبة مع السفارة الامريكية فى لندن باعتبارها مركز اخبار هام ، نظرا لنفوذ امريكا فى اوربا .

وفى مقابلة لى مع بروس فى اوائل شهر مايو من هذا العام اخبرته بالموعد الذى سيسافر فيه على الى لندن ، وانه تقابل مع الملحق الصحفى البريطانى بالقاهرة ، الذى ابلغه ارتياح السفير البريطانى لوجود شخص يمكن ان تتحدث معه الحكومة البريطانية ؛ اذ انهم لا يرتاحون للاتصال مع السفارة المصرية هناك ، وانه سيتقابل مع السفير البريطانى بعد ذلك .

وقد سالنى بروس فى هذه المقابلة ان كان يعرف على امين حقيقة عمل بروس وجماعته ، وهل سبق له ان اتصل باحد من المخابرات الامريكية ، وسالنى ان كان على امين يعرف اسم بروس وان كان لم يقابله ، فاجبته بالنفى .

وقد سالنى بروس : هل يقبل على امين ان يتصل بالمخابرات الامريكية؟

فقلت ان على امين يرحب بالاتصال بهم كصحفى .

وفى مقابلة اخرى مع بروس اخبرته ان على امين تقابل فعلا مع السفير البريطانى بالقاهرة ، وتكلم عن موضوع التعويضات البريطانية كاحد المشكلات القائمة بين البلدين . ثم فى المقابلة التالية بعد ذلك باسبوع ، ذكرت لبروس على لسان سيادتكم انكم قلتم لعلى امين فى المقابلة التى تمت معكم انك تعتبر على امين السفير فى لندن ، وانك امرته بان يبعث رسائل يقوم بارسالها عن طريق السفير باسمكم مباشرة ، ان كانت على مستوى عال من السرية ، او باسم سامى شرف بالنسبة للرسائل الاخرى ، على ان تكون كلها فى مظاريف مغلقة ومختومة ، وهى غير الطريقة المتفق عليها كما تعلمون سيادتكم .

وقد تقابلت مع بروس بعد ذلك فوجدته يسالنى عن امكانية مقابلة على خارج لندن ، فاجبته بان ذلك ممكن ، فقال انهم يخشون ان تحس المخابرات الانجليزية بمقابلاتنا مع على امين ، فاقترحت عليه ان يقول الشخص الذى سيقابله انه من طرفى ، وان مصطفى قال انك تقابلنا خارج لندن اذا حصلت على دعوة والتذاكر وقد سالنى هل ناقشت هذا الموضوع مع على امين قبل سفره وانه من الممكن ان يتقابل مع احد رجال المخابرات الامريكية؟ فافدته بالايجاب ، ولكن الحقيقة يا سيادة الرئيس اننى لم افاتح على امين فى هذا الموضوع .

وحدث فى هذه المقابلة ان تحدثنا عن امكانية التعرف بعلى امين فى لندن ، فاقترحت ان يتصل به رجلهم تليفونيًا ، فاذا به يرفض ذلك بشدة ، معللا ان هذا سوف يثير شكوك المخابرات الانجليزية . وفى الاسبوع التالى ، سالنى بروس اذا كنت اذكر شخصا كان فى القاهرة سنة ١٩٤٤ اسمه ارشيليد روزفلت فقلت له نعم ، فقال بروس انه يعرفنى وشقيقى على ، وذكر ان ارش هو رجلهم فى لندن ، وتساءل اذا كان على سوف يذكره فافدته ان اعرف روزفلت وانه صديقى ، ولكن لا اعرف اذا كان على سوف يذكره ، فاقترح ان اكتب خطابا يوصله ارش الى على حتى يتم التعارف او يتذكره .

وذكر فى هذه المحادثة ان المخابرات الامريكية ليست واثقة ان كان الانجليز يعرفون حقيقة عمل ارش روزفلت . وانه على اى حال ، يجب ان لا تلفت مقابلاته مع على امين انظار المخابرات الانجليزية .

وذكرت له ان على امين سوف يكون شخصية مهمة فى لندن ، وانه سيقوم بكثير من الاتصالات الهامة ، وضربت مثلاً بالسفير السعودى والسفراء العرب .

وتكلمنا فى الخطاب الذى ارسله الى ارش ، وفعلا كتبت الخطاب وذكرت فيه ان الذى يحمل هذا اليه هو الصلة ، وانه يمكنه الاعتماد عليه ، كما اعتمدنا على ابن عمه فى كل ما يريد ، وذكرت فى الخطاب خروج السيد عين من الصحافة ، وان هذا سوف يتاخر الى آخر شهر سبتمبر تقريبا بعد التغييرات المرتقبة فى الاتحاد الاشتراكى ، وان الرئيس جمال عبد الناصر سوف يسافر الجزائر فى آخر هذا الشهر ، ثم يسافر بعد ذلك الى يوغوسلافيا ، واننى لا اتوقع حدوث اى تغيرات فى الصحافة قبل ذلك الوقت ، كما اننى علمت من الصحفى الاستاذ السعدنى انه اصبح عمدة لندن «المقصود على امين» وانه اصبح معروفا ، وذكرت له رايى فى كتاباته الاخيرة .

كان هذا الخطاب بتاريخ ٦٥/٦/١٦ ومحررًا باللغة العربية وسلمته الى بروس ليرسله بدوره الى ارشى روزفلت .

حدث بعد ذلك فى المقابلة التالية ، ان ذكر لى بروس انه تلقى رسالة يسالونه فيها ان كان على امين قد وصل الى لندن من عدمه وانه رد عليها بانه وصل فعلا ، وان عنوانه فندق هيلتون فى لندن .

وفى مقابلة لى مع بروس فى آخر شهر يونيو اخبرته بان على امين اتصل بى تليفونيًا يوم الاحد السابق وانه لم ير ارشى روزفلت بعد ، وسالت على ان كان قد تلقى خطابى فافاد بالنفى ، وقد قال لى بروس : لا تندهش من هذا ، فانى ارسلت الخطاب ، ويجب ان يمر على ست جهات مختلفة قبل ان يصل الى ارشى .

وفى المقابلة التى تلت ذلك فى ٧/٧ ذكر لى بروس خلال مقابلتى معه انه لا يستطيع ان يؤكد ان كان ارشى قد تقابل مع على او لا حتى ذلك التاريخ .

واحب ان اذكِّر سيادتكم باننى كنت دائمًا على اتصال بالامريكيين ، ومنهم من يعملون فى المخابرات الامريكية ، وان هذا تم بعلم سيادتكم ، وان مهمتى التى وافقتم عليها عدة مرات ، ووافقتم على ان اقوم بها ، هى ان احاول ان احصل على معلومات ، وان افهم سياستهم نحونا ، وان احصل على برقيات سرية منهم بالطريقة التى اراها .

وفى الوقت نفسه وافقتم سيادتكم على ان اؤلف داخل اخبار اليوم جهازا لجمع المعلومات ، وقد قدم هذا الجهاز لسيادتكم معلومات كثيرة ومتعددة ، وفى كثير من النواحى ، كانت موضع رضا سيادتكم ، وانه بعد اتمام تنظيم الصحافة سالت سيادتكم : هل استمر فى القيام بهذه العملية ، فاجبتم بالايجاب . ثم حدث ان سالتكم مرة اخرى بعد ان عينت رئيسًا لمجلس ادارة اخبار اليوم : هل استمر فى هذه العملية ام لا ، فامرتمونى سيادتكم بان استمر فيها .

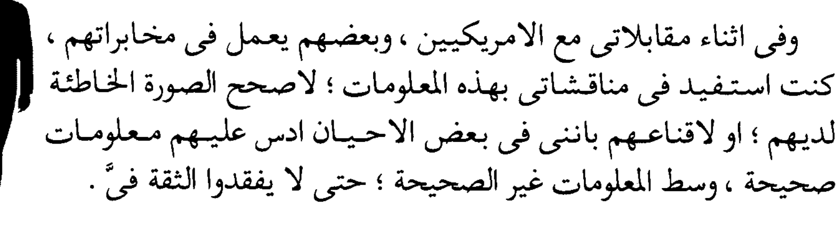
ولقد كان هذا الجهاز مؤلفا من مخبرى اخبار اليوم ، ولقد حدث فى اكثر من مرة ان وافقتم سيادتكم على ايفاد عدد منهم فى مهمات فى سوريا اثناء الوحدة وفى العراق وفى الاردن وفى غيرها ، وقد كنت ارسل لسيادتكم تقاريرهم الهامة ، وكثيرًا ما تفضلتم سيادتكم وابديتم رضائكم عن عملية جمع المعلومات التى يقوم بها هذا الجهاز ، وكنت احاول باستمرار ان اجعل سيادتكم على علم تام بما يدور ، وما نحصل عليه من انباء وكنت اتحدث الى سيادتكم يوميّا تقريبا ، وابلغكم اولا باول بكل جديد .

ثم حدث بعد ذلك ان انقطع اتصال التليفون اليومى بسيادتكم ، ومع ذلك فقد حدث اكثر من مرة ان اتصل بى الاستاذ سامى شرف ، وسال عن معلومات وطلب جمعها ، واذكر على سبيل المثال مسالة اضراب سائقى التاكسى .

وعندما كنت اتحدث مع سيادتكم عن هذا الجهاز ، والاخبار التى حصل عليها سواء فى مصر او خارجها ، كنت اشعر باستمرار ان سيادتكم لا تعارضون فى هذه العملية ، بل على العكس تؤيدون وترحبون بها .

ولم يكن احد من اعضاء هذا الجهاز يعلم انه عضو فى جهاز سرى لجمع المعلومات ، ولم يكن احد منهم يعلم ان هذه المعلومات تصل الى سيادتكم .

وكانت هذه المعلومات بطبيعة الحال فى بعض الاحيان ليست صالحة للنشر ، او غير مسموح بنشرها ؛ لطبيعة الظرف الذى حُصل عليه فيها ، او مصدره ، او لسريتها .



وفى اثناء مقابلاتى مع الامريكيين ، وبعضهم يعمل فى مخابراتهم ، كنت استفيد فى مناقشاتى بهذه المعلومات ؛ لاصحح الصورة الخاطئة لديهم ؛ او لاقناعهم باننى فى بعض الاحيان ادس عليهم معلومات صحيحة ، وسط المعلومات غير الصحيحة ؛ حتى لا يفقدوا الثقة فىَّ .

وقد حدث فى نهاية اتصالى بمستر بروس ، واكاد اجزم فى شهر مايو الماضى انه لاول مرة فى احاديثى معه وجدته فجاة يلح فى معرفة مصادر الاخبار التى تجىء فى الحديث ، فكنت ادعى انها من سيادتكم فى كثير من الحالات ، او من مسئولين كبار ، وذكرت مثلاً اسم شمس بدران ، وحاتم ، وكولونيل فى الجيش ، ومندوب لى فى مجلس الامة ومندوب لى فى المطار وبومدين وعبدالحميد سراج ؛ قاصدًا من ذلك ان اوهمه بقيمة هذه الاخبار ، وكثير منها غير صحيح ، هذا علاوة على قدرتى فى التحليل السياسى .

وقد كنت قبل تاميم الجريدة اكافئ هؤلاء الناس مكافآت اكثرها من الجريدة ، وبعضها من جيبى ، وعندما اممت الجريدة لم ادفع اى مكافاة من الجريدة ، ولم ادفع مليمًا واحدًا من جيبى الخاص .

وعندما امرتم سيادتكم بان اقوم بتحقيق فى دودة القطن لتضارب المعلومات التى تصل الى سيادتكم اخترت حوالى عشرين محررًا ، مهمتهم جمع المعلومات السرية عن الحالة فى الاقاليم ، وعندما امرتم سيادتكم بان اقوم بتحقيق عن الانتخابات ، وعن المرشحين واتجاهاتهم ، وعن المعركة الانتخابية ، اوفدت عددًا من المحررين للقيام بهذه المهمة السرية .

وعندما كان «البعثيون» فى القاهرة كلفت عددا من المحررين للقيام بهذه المهمة السرية وهى تتبع اخبارهم وتصرفاتهم .

واذكر اننى استفدت فى الفترة الاخيرة من مناقشاتى مع بروس من تقارير بعض هؤلاء الذين كنت استعين فى جهاز المعلومات السرى ، وكانوا يرسلون تقاريرهم اما الى الجريدة ، او يرسلونها الىَّ مباشرة داخل مظاريف مغلقة للعلم .

فمثلاً مصطفى سنان كان مكلفًا – بصفته مندوبنا فى نيابة امن الدولة ، واحد موظفيها السابقين – بقضايا الشيوعية التى لم تكن قد صرح بنشرها بعد .

وفى مجلس الامة اعتمدت على تقارير قدمها احمد نجم عضو مجلس الامة والذى عينه الاستاذ خالد محيى الدين لتغطية اخبار اللجان فى المجلس بمكافاة شهرية قدرها اربعون جنيهًا ، والاستاذ احمد يونس عضو مجلس الامة وشقيق الاستاذ اسماعيل يونس المحرر باخبار اليوم ، ومما اذكره لهذه المناسبة انه لما طلب منى بروس نص حديث سيادتكم فى مجلس الامة ، كان عندى هذا الحديث عن طريقهما ؛ نجم ويونس ، الا اننى لم اسلمه اليه كما يظهر ذلك فى التقارير المضبوطة .

وامدنى (. . .) مندوب اخبار اليوم فى الجهاز المركزى للتنظيم والادارة بخبر عن الجزائر ، ذكر انه استفاد من برقية بالشفرة ، واعلم تمامًا ان هذه البرقية غير صحيحة .

اما ما قلته عن وجود كولونيل فى الجيش فهو غير صحيح اطلاقًا وقد كنت اخدع بروس فى هذا .

اما مصدر حديثى فى موضوع عدم زيادة قواتنا فى اليمن وغيرها مما يتعلق بالنواحى العسكرية ، فان بعضها الاول كان كلامًا لم يحدث ، يعبر عن استنتاجى الشخصى ، وبعضها كان يثار من المحررين خلال مناقشات مجلس التحرير .

اما بخصوص المكافآت التى كانت تصرف للمجدين منهم فكانت اغلبها عن طريق الجريدة ، وهذه يمكن حصرها عن طريق الكشوف التى امرت انا بصرفها ، فاننى منذ تاميم الصحف لم ادفع مليما واحدا من جيبى لاحد من هؤلاء ولا لغيرهم ؛ وان كان قد حدث قبل التاميم ان دفعت من جيبى مبالغ صغيرة ولا اذكر قيمتها ؛ نظرًا لبعد المسافة من ايام تاميم الصحف سنة ١٩٦٠ الى اليوم وان كان الذين قدموا هذه المعلومات بعد ذلك قد استمروا فى القيام بما اكلفهم به بغير اى مكافاة ومما يجدر الاشارة اليه فى هذا المجال انى لم أُعْلِمْ احدًا بامر هذا التنظيم ، ولا امر احد من اعضائه لاى شخص ، لا للذين يعملون فى جهاز المعلومات انفسهم ، ولا للمسئولين الذين تعاقبوا على الجريدة .

اما (. . .) فلم ادفع له مكافآت ، وهو مكلف بالقيام باعمال مخابرات بناءً على اتفاق بينى وبين السيد صلاح نصر مدير المخابرات .

وعندما سافر على امين الى لندن ، فكرت فى ان ارسل اليه جميع اوراقه وكتبه ومجموعات «فكرة» منذ ظهورها عام ١٩٥٢ الى اليوم ، وخطاباته الخاصة ومجموعات مشروعات كتب كان يريد اصدارها ولم يراجعها بعد .

وخطر فى بالى ان اكلف بروس بان ينقلها الى لندن باسرع وقت .

ففى يوم ٢٦ مايو قلت لبروس : ان عندى ورق فى حقيبة ، وان عددها حقيبتان ، وسالته هل من الممكن ان ارسلهم الى بيروت ، فامهلنى

حتى ياخذ الرد ، وقال انه سيسال جماعته اذا كان فى الامكان نقلها وقلت له : اننى اريد ان ارسلها لاخى على امين .

فسالنى : هل على امين فى حاجة اليها الآن؟ فقلت : نعم ، انه يحتاجها ، وقد يكون فى خلال سنة .

وكانت وجهة نظرى بان على امين يقيم فى الفندق لمدة ستة اشهر على الاقل ، وانه سوف ينقل الى بيت بعد ذلك .

وفى خلال الحديث ، قلت له هل من الممكن ان آخذها معى عند سفرى ام لا؟

فاعترض على ذلك وقال : لا .

فافهمته انها عبارة عن اوراق هامة ، وفى مقابلة ٦/٢ سالته عما اذا كان قد تلقى ردًا بخصوص نقل هذه الاوراق ، فاجابنى بانه يمكنه ان ياخذها ويرسلها للخارج ، وتساءل : اين يجب ان يرسلها؟ فسالته اذا كان من الممكن ان يرسلها الى بيروت للاستاذ سعيد فريحة وسالته هل هو شخص مؤتمن؟

فاجاب بالنفى معلنًا بانه لا يدرى ما سوف يفعل سعيد فريحة بمثل هذه الاوراق اذا حصل عليها .

وقال انه مندهش كيف اننى احتفظ بهذه الاوراق فى بيتى فابديت رغبتى فى نقلها بسرعة ، فسالنى اين احتفظ بها ، فقلت انها موجودة فى بيتى ، واننى حريص فى نقلها بسرعة .

وفى مقابلة بعد ذلك باسبوع مع بروس ، سالته : متى يحضر سائقى بالاوراق؟ فقال : انى اخذت رفتًا طبيًا ؛ لان عائلته ستسافر الى الاسكندرية ، واقترح ان ارسل الاوراق اليه فى اليوم التالى ، وانه سيخلى منزله من الخدم ، وطلب ان يحضر السائق بعد المغرب فى الساعة الثامنة والنصف مساء يوم ١٩٦٥/٦/٢٤ وقال انه سيترك باب الجراج مفتوحًا ، وان على السائق ان يدخل مباشرة داخل الجراج ، وفى الدقيقة التى سيصل فيها السائق سيخرج ويقفل باب الجراج ، وذكر ان الاميرة دينا تسكن الى جواره ، وان لديها حارسان احدهما من رجال البوليس ، والثانى من رجال عبد الناصر وقال بروس : قد يكون هذا ليعرفوا من سيعاشرها ، وقلت لبروس اننى ساخبر السائق ان هذه كتب على .

وقد طلب منى بروس ان اطلب الى السائق بان يدخل الجراج بظهر السيارة وان يُدخل السيارة بكاملها داخل الجراج .

وقد ارسلت له الحقائب فى الموعد المحدد كالنظام المتفق عليه ، وكان عددها اربع حقائب حجمها ٨٠×٥٠×٤٠ تقريبًا من حقائب الملابس وكانت تحتوى على خطابات على امين الخاصة ومجموعات من مقالات على امين ومجموعات من فكرة ومذكرات عن ثورة ١٩١٩ وحركة محمد فريد وصور فوتوغرافية .

وحدث فى اجتماع بينى وبين بروس تم بين منتصف ابريل واوائل مايو ، او حوالى ذلك ان قال لى بروس انه تلقى تقريرًا من ليبيا يثبت ان الناصريين فى البلاد العربية اصبحوا اضعف من ان يقتلوا ذبابة ، وان الشبان القوميين فى ليبيا كانوا فى الماضى متحمسين لناصر ، وكانوا يريدون ان ينتهزوا فرصة وفاة الملك ادريس ليقوموا بضم ليبيا الى مصر ولكن هؤلاء الشبان انفسهم تحولوا بعد اكتشاف البترول فى ليبيا ، وتدفقه ـ وانقلبوا الى فكرة ان ليبيا لليبيين ، وبذلك اصبح ناصر لا يجد فى داخل ليبيا اعوانًا لهم قيمة ، بل ان الليبيين اصبحوا يكرهون المصريين ولا يثقون فيهم ، ويعتقدون انهم يريدون الاستيلاء على ليبيا ، واخذ خيراتها ، وان حكومة الملك تزداد قوة ونفوذًا .

وفى منتصف شهر مايو تقريبًا ، كنا نتحدث انا وبروس ، فقلت له ان شيئًا هامًا قد حدث ، وهو انفجار آبار البترول فى ليبيا .

وانه اثناء حديثى مع سيادتكم سالتمونى : ماذا اعتقد : من يكون وراء هذا الانفجار ولابد ان يكونوا هم المصريون ، وان نتيجة الانتخابات كانت ضدنا ، وان انصار مصر والناصريين قد سقطوا فى الانتخابات ، وانا قلت ان هذا محتمل ، وان انصار الحكومة الليبية كانت توهم انها هزمت الناصريين فى هذه الانتخابات ، واضفت الى حديثى مع بروس اننى رغم هذا الحديث مع الرئيس الا اننى تلقيت معلومات جديدة تفيد ان المصريين هم الذين فجروا الآبار ، وان بعضهم يجرى التحقيق معه ، وان الذى رتب هذا هو عزت سليمان وانه وكيل صلاح نصر ، وكان المسئول عن تهريب الرجال الى الجزائر .

فذكر بروس ان الرئيس جمال عبد الناصر قطع بان المصريين لم يشتركوا فى هذه العملية ؛ اى عملية نسف آبار البترول ، فاكدت له ان منظم العملية هو عزت سليمان ، وان قول الرئيس قد يكون صحيحًا ؛ اذ ان الذين نفذوا عملية النسف قد يكونوا من غير المصريين ، وتخطيط وتوجيه عزت سليمان ، وان هذا رد على اسقاط الناصريين فى ليبيا .

واننى اذكر لسيادتكم اننى التقيت بمستر كيم روزفلت ومستر ارشى روزفلت فى عام ١٩٤٤ وذلك فى مكتبى فى مجلة الاثنين التى كنت اراس تحريرها .

والذى قدمنى لهما هو الدكتور فؤاد صروف عميد الجامعة الامريكية فى ذلك الوقت .

وجرى الحديث فى ذلك حول ان كيم يؤلف كتابًا عن منطقة الشرق الاوسط والبترول العربى ، وانه سيستغرق عدة سنوات لاعداد هذا الكتاب .

وقد سالنى خلال هذا الحديث عن رايى فى سياسة امريكا فى المنطقة ، فقلت له ان امريكا لا سياسة لها ، وانها تسير فى رِكاب الانجليز ضد الشعب المصرى .

فقال كيم : اننا فى حرب ، ومشاكل مصر لا قيمة لها فى عملية كسب الحرب ، فسالته : لماذا وقفت امريكا ضد مصر فى حادث ٤ فبراير ، وايدت فرض رئيس وزارة على مصر بالدبابات؟

فقال لى كيم : ان على ماهر عميل المانى وان الملك فاروق عميل المانى ، وان لديهم من الوثائق ما يؤكد هذا ، وان هناك خطابات سرية ضبطت تدل على ان المراسلات السرية مع المانيا تدور بواسطة شاه ايران ، وان السفير الامريكى لو كان محل السفير البريطانى فى هذا الموقف لاتخذ خطوات اعنف .

وكان كيم وقتها يرتدى ملابسه العسكرية كضابط فى الجيش الامريكى ولا اذكر رتبته .

ولم يتكلم ارشيليد فى اثناء مناقشتى مع كيم وكان يرتدى ايضا ملابس عسكرية كضابط بالجيش الامريكى ، كان هذا سنة ١٩٤٤ ، ولم يحدث بعد ذلك ان تقابلت مع احدهما او مندوبٍ عنهما ، كما لم تحدث فى خلال هذه المقابلة اى اتفاقات او ارتباطات بمواعيد لاحقة .

ثم حدث ان اقام مستر كافرى مادبة غداء او عشاء لا اذكر وكان ذلك بعد سنة ١٩٥٠ فتقدم الىَّ خلال هذه الدعوة كيم ويده فى يد مستر كافرى السفير الامريكى وكان فى ذلك الوقت شخصًا مدنيًا ، وسالنى كيم اذا كنت اذكره ، وكنت فى ذلك الوقت صاحب جريدة اخبار اليوم ومجلة آخر ساعة ، وكنا نهاجم سياسة الوفد والنحاس ، فاجبته اننى اذكره ، وان شكله لم يتغير وتحدثنا على ما اذكر فى استنكاره لسياسة اخبار اليوم فى مهاجمة النحاس وان هذا يضر الموقف الدولى ، ولا يساعد على مقاومة الشيوعية فى المنطقة .

فقلت له ان الفساد هو الذى يؤدى الى نشر الشيوعية واننا نحارب الفساد وانتهت هذه المقابلة ايضًا دون ارتباط ، ولكن اذكر هنا اننى شعرت باهميته غير العادية من الطريقة التى كان يمسك بها يد السفير ، وكان كافرى مشهورًا بالعجرفة والرسمية .

وبعد تشكيل وزارة على ماهر بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ كنت موجودًا عند رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، ودخل السكرتير يعلن وصول مستشار الرئيس ايزنهاور ، وقد بدا على على ماهر مظاهر الاهتمام بالضيف الكبير ، وطلب الىَّ الانتظار فى غرفة السكرتير حتى تنتهى زيارة هذا الشخص ، فاذا به كيم روزفلت ، ولكن لم احضر المقابلة وعلمت بعد ذلك من رئيس الوزراء انه كان يتحدث فى موضوع استئناف المفاوضات مع انجلترا ، وكان هذا اول اتجاه لامريكا للتدخل فى سياسة مصر .

ودعيت بعد ذلك فى احدى الحفلات ووجدت ان كيم موجودًا فيها ، فتوجهت اليه بعد ان عرفت من على ماهر اهميته ، وتحدثت اليه عن مقابلته لرئيس الوزراء وقد ذكر لى ان امريكا مهتمة باستئناف المفاوضات التى انقطعت بين مصر وبريطانيا ، وان لندن مستعدة ان تذهب الى نصف الطريق ، وانتهت المقابلة .

وكان كيم قد حضر الى مصر فى هذه المرة فى مهمة قصيرة لا تزيد عن يومين ، ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وحضر كيم الى القاهرة ايضًا فى مهمة للاتصال بقيادة الثورة ولم اقابله فى هذه المرة ولكن عرفت بحضوره من بعض مجلس قيادة الثورة ، وزاد تردده على القاهرة

بعد ذلك فى مهام قصيرة وقد قابلته فى اغلب المرات وسيادتكم تعلمون اننى قابلته كثيرا فى هذه المرحلة .

والحقيقة اننى كنت اسعى الى لقائه عندما اعلم بحضوره وكنت اجتمع به فى حضور الاستاذ محمد حسنين هيكل ، وكنا نتغدى معا فى بيتى وقد توطدت علاقاتنا به .

وكانت مناقشاتنا تدور حول المشكلات التى تدور فى الاذهان وجرى حديث ايضا عن محمد نجيب وراينا انه لا يصلح ، وكانت هذه المرحلة خلال الفترة ما بين سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٤ .

وكان كيم روزفلت على اتصال وثيق بالثورة ، وكان يقوم بنشاط واسع فى هذا المجال لدرجة انه كان فى ذلك الوقت : الامريكى صاحب اقوى نفوذ من الامريكيين فى مصر ، بما فيهم السفير الامريكى نفسه .

ولعل سيادتكم تذكرون انكم اتصلتم بى تليفونيًا فى احد الايام ، ورويتم لى المشادَّة التى وقعت بينكم وبين مستر بايردد السفير الامريكى فى منزل الدكتور احمد حسين ، وكيف انه نتج عن هذا ازمة بينكم وبين السفير ، وكيف استفدت من علاقتى بكريت روزفلت الذى تصادف وجوده فى تلك الليلة ، وبصرته باثر هذا الحادث السيئ على امريكا ، واستطعنا ان نرغم بايردد على الاعتذار ، وكيف ان السفير الامريكى ذهب صاغرًا الى المشير عامر راجيا متوسلا ان تقبلوا سيادتكم اعتذاره الرسمى ، واسفه الشديد عما حدث ، وهو امر لم يحدث له مثيل فى تاريخ سفراء امريكا .

ومع ذلك ، ونتيجة للاتصالات المستمرة مع اصدقائنا الموجودين فى القاهرة مثل ايكل بيرجر ومايلز كوبلاند ، امكن تحويل بايردد الى رجل آخر كما تذكرون ، واصبح موقفه مع بلادنا طيبًا ، بشهادة سيادتكم ، واختلف بايردد مع حكومته بسبب حماسه لسياسة عبد الناصر ، واخرجه مستر دالاس وزير الخارجية من منصبه ، وانزله الى سفارة من الدرجة الثالثة .

وتذكرون سيادتكم كيف اننى استطعت ان اعرف من ايكل بيرجر ان الرئيس ايزنهاور ارسل مندوبًا خاصًا لمقابلتكم ، هو چورچ اين بعد صفقة الاسلحة ، وانه سوف يفاجئكم بانذار من امريكا .

ويومها قلت كلمتك المشهورة انه اذا حدث وقدَّم لكم مندوب ايزنهاور هذا الانذار فسوف تطردونه من مكتبكم ، وقد ابلغت هذا الى ايكل يرجر وكيم روزفلت ، وكان موجوداً فى القاهرة وقتئذ ، وافهمتهم ان مثل هذا الانذار يعتبر كارثة عليهم .

فما كادوا يسمعون كلمة سيادتكم حتى اضطر مندوب ايزنهاور ان يؤجل موعده ٢٤ ساعة حتى يرجع الى حكومته ، ويبلغها انكم تنوون طرده من مكتبكم ، وعلى الاثر ابرقت اليه حكومته تطلب اليه ان يقابل سيادتكم دون ان يقدم الانذار .

استمرَّت علاقتى مع كيم روزفلت على هذا ، عندما يحضر فى ماموريات قصيرة وكانت مامورياته متعددة ، فى مهمات تتعلق باتصالاته مع رجال الثورة ، وكنت فى كل مرة يحضر فيها اتقابل معه ، وذلك اما عن طريقى بالمبادئة فى الاتصال ، او هو يتصل بى فى بعض الحال ، وكنا نجتمع ايضًا فى منزلى فى وقت الغداء فى حضور الاستاذ حسنين هيكل ، وكان الاستاذ هيكل يشغل وظيفة رئيس تحرير الاخبار باخبار اليوم فى ذلك الوقت .

ولا تزال علاقتى به ، كما تعلمون ، قائمة بمعنى انه اذا حضر اتصل به .

اقرر هنا ان اتصالاتى مع كيم روزفلت لم تحدث الا فى خلال فترات حضوره فى القاهرة والمرات التى سافرت فيها الى امريكا ، وكنت فى كل مرة اسافر فيها الى امريكا احرص على لقائه ، وفى بعض المرات لم اقابله لتغيبه ، هذا بشان كيم روزفلت .

اما بخصوص مستر لتيلاند الذى ذكر لى المرحوم صلاح سالم انه يعتقد بانه ضابط مخابرات امريكى ، والذى شككت من بعض تصرفاته واسئلته انه يعمل بالمخابرات فقد عرفنى عليه السفير الامريكى كافرى خلال احدى حفلات السفارة . والذى اتناقش معه فى المسائل السياسية ، وكان هذا الرجل ذو نفوذ على السفير ، ومصدر قوة ، لا يتفق مع وظيفته فى السفارة ، وكان على علاقة دائمة باعضاء مجلس الثورة فى مصر .

استمرت مقابلاتى مع لتيلاند ، وكانت تتم اما فى مكتبى بدار اخبار اليوم او فى مكتب الاستاذ حسنين هيكل باخبار اليوم ، وكنا نتناقش فى الموضوعات السياسية وتتناول وجهات النظر فى سياسة بلدينا .

وقد استمرت هذه العلاقة حتى انتهاء مهمته فى القاهرة ولا اذكر على وجه التحديد تاريخ مغادرته مصر ، واذكر فى خلال علاقتى هذه مع مستر لتيلاند ان تعرفت عن طريق مراسل الاسوشيتدبرس بالقاهرة فى ذلك الوقت سنة ١٩٥٤ بالمستر ايكل بيرجر وهو مستشار بالسفارة الامريكية .

وكانت مناقشاتى معه تدور حول السياسة ايضا ، وكان يعرف علاقتى بمستر لتيلاند ، وان كنا لم يجتمع ثلاثتنا الا فى حفلات كبيرة .

وتعرفت فى هذه الفترة ايضًا بمستر مايلز كوبلاند ضابط المخابرات الامريكى وكان يعمل فى سفارتهم بالقاهرة ، وعرفنى به وزرزبى نائب مدير مكتب الاستعلامات الامريكى بالقاهرة فى ذلك الوقت ، وكانت علاقتى به جيدة ، وكان يحضر الى مكتبى واحيانًا فى منزلى .

واستمرت علاقتى مع مايلز طول فترة وجوده فى القاهرة وبعد ان انتقل الى بيروت وعمل مديرًا لاحدى الشركات الامريكية هناك ، ولازلت اتقابل مع مايلز كوبلاند كما تعلمون سيادتكم فى كل مرة يحضر فيها الى القاهرة ، او اتوجه فيها الى بيروت ، وان كان مقابلات بيروت لم تزد عن مرتين ، وكان يطلب منى خدمات وهى ان اتوسط لدى سيادتكم فى مسائل تجارية ولم اتحدث الى سيادتكم بخصوصها ، وهى بشان شراء مصر لمكِنات حسابات للحكومة المصرية على حساب المعونة الامريكية .

وفى بعض الاحيان ، يكتب الىَّ طالبا تحديد موعد لمقابلة سيادتكم وكانت محادثاتى مع مايلز كوبلاند تتصف بنفس الاسلوب وهى المناقشات السياسية ، وهو يطوف المنطقة بعد سفره الى بيروت ولاحظت عند مقابلتى له الاخيرة فى بيروت انه واسع النشاط والاتصالات ، وانه يتنقل بين السعودية ولبنان ومصر وتكلم معى فى موضوع اليمن وذكر ان من مصلحتنا ان ننسحب فورًا من اليمن ، ورايى فى عمل كوبلاند الحالى انه عميل مخابرات منظمة باسم شركة .

وفى سنة ١٩٥٦ قدمنى الاستاذ محمد حسنين هيكل الى مستر وليام دوران ميلر الملحق السياسى بالسفارة الامريكية وهو كما علمنا فيما بعد انه احد ضباط

المخابرات الامريكية خلال فترة اتصالاتى به خلال تاميم قناة السويس والعدوان الثلاثى وما بعدها .

ومكث فى مصر فترة طويلة ، كنت اتقابل معه خلالها باستمرار اما فى مكتبى بالجريدة وفى بعض الاحيان فى منزلى حيث كنا نتناقش كالعادة فى الموضوعات السياسية وفى العلاقات المصرية الامريكية وسياسة مصر بصفة عامة .

وكنت اطلع سيادتكم يوميا على هذه الاتصالات وكنتم سيادتكم تسمونه «ربيكا» ، وقد اصبح ميلر الآن منذ عهد كنيدى نائبا لمدير الاستعلامات الامريكى وهو منصب كبير جدًا هناك ، وانا لازلت على اتصال به كلما عندما يحضر الى القاهرة .

ولم يحدث ان سافرت الى امريكا بعد ان عين فى منصبه هذا ، وتذكرون سيادتكم انه قبل وقوع عدوان اسرائيل اخبرنى ميلر بالامر الذى سيصدر للامريكيين بمغادرة مصر ، وابلغت سيادتكم بذلك .

وعندما وقع العدوان ، كنت انا ومحمد حسنين هيكل على اتصال يومى ، بل وعدة مرات فى اليوم بمستر ميلر .

ولقد كنا يومها على اتصال مستمر بسيادتكم ، وكنا نبلغ امريكا باستمرار اثناء المعركة ، وبطريقة سريعة ، غير الطريقة الدبلوماسية ، وجهة نظر بلادنا وذلك عن طريق ميلر كما تعلمون .

وتذكرون ان فكرة البوليس الدولى ولدت اثناء اجتماعاتنا فى اخبار اليوم بحضور محمد حسنين هيكل .

ثم تفضلتم واوفدتمونى فى مامورية اثناء العدوان فى امريكا لنشر صور العدوان ، وفى واشنطن علمت ان الولايات المتحدة مترددة فى قبول وجهة نظرنا بالجلاء بلا قيد ولا شرط وقمت بعدة اتصالات ، وصلت بفضلها الى حلٍّ ؛ وهو ان اكتب مشروع تصريح تدلون به سيادتكم من القاهرة ، ينشر فى امريكا ، وعلى اثره تؤيد الولايات المتحدة موقفنا ، وارسلت لسيادتكم المشروع تلغرافيّا ، وحرصت فى مشروع التصريح ان يعبّر عن راى سيادتكم ، وليس فيه ذرة من التفريط فى ايِّ حق من حقوق الوطن ، ولكنه فى الوقت نفسه يزيل المخاوف التى ترددت فى الاوساط الفكرية نتيجة للمناورات البريطانية والفرنسية .

واقتضت مهمتى فى امريكا ان اتقابل مع كبار المسئولين هناك ، وهم على وجه التحديد شيرمان ادامس مساعد ايزنهاور ، وهمفرى وزير المالية ووزير الحربية والسيناتور فولبرايت وهمرشولد ولودج مندوب امريكا فى مجلس الامن .

وحدث عند اجتماعى بشيرمان ادامس مساعد ايزنهاور ان سالنى عن ما اذا كان من نتائج العدوان على مصر انتشار الشيوعية فيها؟

فاخبرته بان موقف امريكا فى اثناء العدوان كان عاملا خلق نوعا من التوازن فى المنطقة ؛ اذ انه لطف من الانذار الروسى الذى لو بقى وحده دون موقف امريكا لكان بلا جدال عاملاً قويّا فى انتشار الشيوعية فى هذا البلد .

فقلت انه يجب ان تعمل امريكا على الاسراع فى الجلاء ، وبعد ذلك تقدم مساعدات لمصر .

وفى هذه المناقشات ، اقترح ان اقابل الن دالاس مدير المخابرات المركزية حتى نتكلم فى موضوع اثر العدوان فى انتشار الشيوعية ، وقال انه سيدبر لى هذا اللقاء وتقابلت مع كريت روزفلت واخبرته بما حدث فقال ان هذا امر مستحيل .

ثم حدث ان اتصل بى كيم ، وقال لى ان ادامس دبَّر موعدًا لك مع مدير المخابرات المركزية .

وقابلت مستر الن دالاس فى مكتبه لمدة ١٥ دقيقة ، وقد شرحت له وجهة نظر بلادنا باختصار ورغبتنا فى الاسراع بجلاء قوات العدوان ، فى اسرع وقت ، وان اى تاخير سيؤدى الى كارثة ، وقدمت تقريرًا بذلك الى سيادتكم فور عودتى شرحت فيه كل هذه المقابلات واحدة واحدة ونص ما جرى فيها .

وفى سنة ١٩٥٨ التقيت عند الاستاذ محمد حسنين هيكل بمستر جون يرنم وهو يتولى منصب الملحق السياسى بالسفارة الامريكية وكنا نتقابل فى اخبار اليوم ونتقابل فى المنزل اذا كان معه زوجته ولكن مقابلات المكتب اكثر بطبيعة الحال .

وكنت اتناقش معه فى نفس الموضوعات التى كنت اتناقش فيها مع سابقيه ، واستمرت علاقتى معه حتى غادر مصر ، وفى سنة ١٩٥٨ ايضًا كنت على اتصال بمستر روبرت انشوتس ، وكان رئيس القسم السياسى فى السفارة الامريكية وكان يتميز على زملائه بانه كان كثير الاسئلة بطريقة ملفتة ، وكنا

نتناقش ايضا فى الموضوعات السياسية والوحدة مع سوريا ولم يكلفنى بارسال اى معلومات للرئيس ، بل كان يقوم بهذا يونم وكان روبرت انشوتس يقابلنى فى مكتبى وفى بيتى ولم يحدث ان لاحظت انه يعرف علاقتى مع يونم ولم يحدث ان تقابل ثلاثتنا معًا .

وفى اثناء ذلك عرفنى مراسل جريدة نيويورك تايمز بالقاهرة فى فندق لوزموبوليتان بمستر جدن سيرل الملحق السياسى للسفارة ، واعتقد انه ضابط مخابرات امريكى واستمر هذا فى القاهرة لفترة ٤ سنوات وكنت اتقابل معه على مدد متقاربة ، وكنا نتفق على مواعيد وكانت المقابلات تتم فى المكتب او فى المنزل وان كانت اغلبها يتم فى المنزل .

وكانت مناقشاتنا عن المعونة الامريكية والشئون السياسية المختلفة ، وتذكرون سيادتكم انه هو الذى ابلغنا بنبا الانقلاب الذى سيقوم به زياد الحريرى فى سوريا ، قبل قيامه بوقت غير قصير ، وهو ايضًا الذى كنت احصل منه على برقيات الشفرة التى كنت اقراها باستمرار لسيادتكم عن الموقف فى العراق وفى البلاد العربية .

وعرفنى مستر سيدل بضابط المخابرات الامريكى بروس اوديل الذى حل مكانه فى بيته فى المعادى بعد سفر الاول .

وقد سبق ان شرحت الفترة الاخيرة فى علاقتى مع بروس ، وهى انه فى الثلاثة الاخيرة داب على توجيه اسئلة محددة ، او طلب ان ارسل لسيادتكم توجيهات الحكومة الامريكية فى قالب لا يظهر انه مصدره بل كانت الى مَن فى مناقشتى معه ، ولعل سيادتكم تذكرون اننى فى الثلاثة اشهر الاخيرة لم ابلغكم اى شىء .

اما علاقته السابقة بى التى بدات تنظم بعد حريق مكتب الاستعلامات الامريكى فى القاهرة ، فكانت مقابلات تتم بينى وبينه فى منزلى وكانت مناقشات عن الشئون السياسية والامور التى تشغل الاذهان ، وعلى الاخص كان يتظاهر بانه يبلغنى انباء هامة .



وبطبيعة الحال ، كان لابد فى مناقشاتى مع هؤلاء جميعا ان القى اليهم بعض الاخبار اقلها صحيح ، واكثرها غير صحيح ، كنوع من الاستدراج ، وهذا يتطلب ان اذكر اخبارًا غير صحيحة فى بعض الاحيان ؛ لارى رد الفعل لها ، واخبارًا صحيحة قبل نشرها ؛ حتى يمكن ان يطمئنوا الى ما اقوله لهم .

وفى بعض الحالات ، لم استطلع راى سيادتكم فيما ذكرته من اخبار صحيحة ، وذلك فقط فى محادثاتى الاخيرة مع بروس اوديل ؛ بسبب انشغال سيادتكم ، وقد سبق ان ذكرت ما قلته لبروس اوديل بالتفصيل فى صدر مذكرتى هذه .

وهناك شخصان كنت اتصل بهما باستمرار ايضًا وهما توماس سورنسون الملحق الصحفى بالسفارة الامريكية من ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٧ الى سنة ١٩٦٠ وريتشارد هلريسون الملحق الصحفى ايضًا من سنة ١٩٦٥ ، وكنت اقترحت على الذين اجتمع بهم من الامريكيين ان يتبادل الرئيس ايزنهاور خطابات مع الرئيس جمال عبدالناصر ؛ حتى تكون بينهما علاقة مباشرة يستطيع كل منهما ان يفهم وجهة نظر الآخر ، ولكن ايزنهاور لم يوافق على هذا الاقتراح ؛ لانه اذا كتب لعبد الناصر فيجب ان يكتب لكل رؤساء الدول العربية الاخرى حتى لا يغضبوا من هذا الاتصال مع الرئيس جمال عبد الناصر وحده ، ولكن سورنسون اقتنع بالفكرة ، فلما عين الرئيس كنيدى شقيقه سورنسون مساعدًا له ، اقنعه بهذه الفكرة ، وبدات الخطابات المتبادلة بين الرئيس كنيدى وسيادتكم .

والخص اتصالاتى فى المدة الاخيرة مع بروس ، وهو ان كلامنا كان يمارس ضغطًا على الآخر ، هو يحاول ان يضغط على سيادتكم بواسطتى ، وانا اضغط عليه باحاديث معه ؛ انه اذا قُضى على عبد الناصر فسيكون نتيجة ذلك انقلاب شيوعى والفرق بيننا ان ضغطه على سيادتكم لم يصل اليكم كما تعلمون وان ضغطى عليه كان يصل الى واشنطن باستمرار .

فمن رايى ان الامريكيين لا يساعدون مصر الا اذا شعروا ان هناك خطرٌ من الشيوعية عليها ، ولا يتوقفون عن الضغط على قدراتنا الا اذا عرفوا ان بعد عبد الناصر انقلاب شيوعى مائة فى المائة .

ولم يحدث فى اثناء اجتماعاتى بهؤلاء ان عرفت اسماء العملاء الذين يشتغلون معهم ، ولو عرفتهم لسارعت بالتبليغ عليهم ، ولم تكن ثقتهم بى تسمح لهم بان يفشوا لى عن هذه المسائل .

ولم يكلفنى احد من المسئولين المصريين بان اسال او ابحث عن امر هؤلاء العملاء ولو كنت قد تلقيت اى تعليمات او توجيهات فى هذا الشان لما ترددت فى محاولة الحصول عليها ، فقد كانت كل اهتماماتى فى هذه الاجتماعات هى من الوجهة السياسية ومن الوجهة الصحفية .

اما بخصوص الاوراق التى ضبطت مع بروس يوم القبض علىَّ يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٦٥ والتى اطلعتنى عليها نيابة امن الدولة فاقرر بشانها اننى لا اعلم شيئًا عن ورقة الاسئلة ، ولا اعلم ان كان بروس ينوى ان يسالنى كل هذه الاسئلة من عدمه ، ولم يخرجها امامى فى اثناء الحديث ، الا انه سالنى عن السؤال الاول وهو ما اتوقع ان يكون خطاب السيد الرئيس يوم ٢٢ يوليو ، ولم اقل له اكثر من كلمة اننى اتوقع ان يتناول الخطاب المسائل الداخلية والدولية وما قدمه الاتحاد السوفيتى لنا من معونة القمح الروسى دون ان يطلب شروطًا ، ولم يكن يكتب فى ورقة امامى ، وان كانت عادته فى المرات السابقة ان يخرج ورقة ويكتب فيها رءوس مواضيع فقط ، واننى استشهد برئيس النيابة الذى تدل عملية القبض بان الورقة المضبوطة لم تكن امامى ولا امامه ، وانما كانت فى جيبه ، وقد ذكرت هذا فى اقوالى .

وباطلاعى على ما ورد على ترجمة التقرير الذى كتبه بروس بخطه بان الذى ورد فيه موضوعات لم تطرق فى الجلسة الاخيرة ، وانما ورد على لسانى بعض ما جاء فيها فى مقابلات حدثت منذ ثلاثة شهور على الاقل وهى على وجه التحديد ما يلى : اذكر اننى على لسان سيادتكم انكم منحتم اكثر من اللازم فى فترة قصيرة بان (. . . . .)[1] لكى يمكن منحها ، وبخصوص تغيير العملة اذكر انه سالنى منذ اكثر من ثلاثة شهور ان لديه معلومات باننا قررنا تغيير العملة واننى اجبت على لسانكم بالنفى ، وبخصوص مناقشات حول سياسة ج .ع .م انه قال انه لو اهتم جمال عبد الناصر بشئون بلده الداخلية فقط وابتعد عن موضوعات التدخل فى الكونغو والعراق واليمن فان الحكومة الامريكية (. . . . .)[2] ان تساعد مصر ماليًا مساعدات ضخمة ، فقلت له على لسان سيادتكم انكم تعتقدون بانه لولا نفوذنا الخارجى لما اهتمت امريكا بنا ولما اعطتنا دولارًا واحدًا ولو اننا بقينا على حالنا فى الداخل لما استطعنا ان نتحول الى دولة كبيرة ولا ان نحصل على برنامج واسع من المعونة وذلك بقوتنا فى الخارج .

وقلت له على لسانكم انكم تعلمون ان كل ما يحدث من حركات ضدنا من الخليج الفارسى الى المغرب هو من تخطيط وعمل المخابرات

(١) غير واضحة بالاصل .

(٢) غير واضحة بالاصل .

الامريكية ولكن هذا الحديث جرى من حوالى اربعة او خمسة شهور ولم يكن فى المقابلة الاخيرة .

سيادة الرئيس

واحب ان اثير سؤالاً : هل كان المقابل الذى حصلت عليه من اتصالاتى بالمخابرات الامريكية او الامريكيين المسئولين يساوى ما قدمته لهم؟

والجواب على ذلك ، اننى لم اتقاض ثمن هذه الصلة ، مالاً او مرتبًا شهريًا او سنويًا انما جاء المقابل فى الصور الآتية فقط :

١ ـ اخبار امدنى بها المسئولون الامريكيون ورجال المخابرات الامريكية ، خلال هذه السنوات العديدة ، وكنت انوى نشرها فى اخبار اليوم والاخبار وباقى صحف الدار ، وتنفرد بها دون باقى الصحف الاخرى التى تصدر فى القاهرة ، ادت الى زيادة توزيع صحف اخبار اليوم ، وبالتالى ادت الى زيادة ايراداتها .

ومن هذه الاخبار ؛ خبر مفاوضات الهدنة بين الحلفاء والنازيين ، وكانت تجرى سرًا فى اوربا فى ذلك الحين ، وكانت اخبار اليوم اول جريدة فى العالم سبقت بنشر هذا النبا ، كذلك خبر عن اول تفصيلات من اختراع القنبلة الذرية ، كذلك خبر عن موعد ومكان فتح الجبهة الثانية فى اوربا ، وكذلك خبر عن موعد الهجوم المنتظر الذى سيقوم به هتلر على روسيا ، وكذلك اول خبر عن مفاوضات ايطاليا للتسليم للحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكذلك اول خبر عن ان الروس بداوا يعرفون سر القنبلة الذرية .

٢ ـ وبهذه الصلة حصلت على امتياز اصدار مجلة المختار ، وهو يدر على اخبار اليوم مبلغًا طائلاً سنويًا ، وقد وافقتم سيادتكم على ان نحصل على امتياز اصدار هذه المجلة .

٣ ـ وبهذه الصلة حصلت على امتياز طبع مجلة الصداقة ، وهو يدر على اخبار اليوم مبلغًا كبيرًا سنويًا .

٤ ـ وبهذه الصلة حصلت اخبار اليوم وصحفها على اعلانات من شركات ارامكو و**T.W.A** و«بان امريكان» ، وكانت كل الصحف الاخرى ، كالاهرام مثلاً ، تاخذ نفس القدر من الاعلانات .

٥ ـ وبهذه الصلة حصلت على ورق من امريكا لمصر بحوالى ٢ مليون جنيه ، وهو الورق الذى تسلمته الحكومة المصرية ، ولكنى كصاحب اخبار اليوم استفدت من هذا الورق ؛ لانه وزع على الصحف بنسبة توزيعها فحصلت اخبار اليوم من الحكومة على نسبة كبيرة من هذا الورق ، وكان الورق الذى اشتريناه من الحكومة ارخص من ورق السوق ، فربحنا بطبيعة الحال .

٦ ـ حاولت ان استفيد من هذه الصلة بشراء مطابع جديدة من امريكا ، وطلبت منهم ان يعاونونى فى ان احصل على قرض من بنك التسليف والاستيراد الامريكى ؛ لشراء مطبعة وكان المبلغ المطلوب ١٠٠ الف جنيه ، فلم يوافق البنك ؛ لانه يطلب ضمانًا من الحكومة المصرية ؛ ولان تقاليد البنك هو قروض الصحف .

وبهذه الصلة امكننى ان اوفد ام كلثوم لتعالج فى امريكا بالذرة بدون مقابل وفى الوقت نفسه حصلت لبلادنا من الامريكيين على معلومات هامة وخطيرة عن موعد هجوم اسرائيل سنة ١٩٥٤ ، نوهتم سيادتكم بفضل هذه المعرفة فى كسب المعركة ، وجميع الاخبار عن الحالة فى سوريا من الانفصال وانقطاع وسائل الاتصال بالاقليم السورى ، وجميع الاخبار عن الحالة فى العراق بعد نزاعنا مع عبد الكريم قاسم ، وجميع اخبار الموقف فى السعودية بعد الازمة التى وقعت بيننا وبين سعود ، وانا الذى ابلغت سيادتكم بنبا المؤامرة التى يقوم بها الملك سعود مع احمد ابو الملح وسعيد رمضان ، وبعد ان ابلغتكم هذه المعلومات ومصدرها ، عرفت من سيادتكم انكم بوسائلكم الخاصة عرفتم تفاصيل اسرار هذه المؤامرة .

مصطفى امين

هذا الاقرار والالتماس المكون من ستين صفحة الموقع عليه منى محرر بمعرفتى وقد ضمنته تفاصيل اتصالات برجال السفارة الامريكية التى تمت بعد استئذان السلطات وموافقتها وليست هناك اتصالات اخرى غير ما دونت باقرارى هذا .

١٩٦٥/٨/٥ .



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحـــة
كلمة أولى	٤
حدث فى مثل هذا اليوم من ٢٥ عامًا	١٣
اخرج ولا تعد بأمر الرئيس	١٥
الخواجة لامبو وحمار الشيخ عبد السلام	٢٩
ضعف قوتى . . وقلة حيلتى وهوانى على الناس	٤٣
ثم انشغلت بحمير أخرى	٥٩
الحركة الواحدة والعشرون للرئيس عبد الناصر	٧٧
ولكن الرئيس يريد أن يضحك	٩٣
كابوس لن يعود	١١٣
كلمة الهزيمة لأول مرة	١٣٥
لوحات على جدران الخوف	١٥١
ولكن لاحياة لمن تنادى	١٦٥
لكى يحبه الناس لابد أن يقطع قلوبهم	١٧٩
غلطة كوك وورقة بنى سويف	١٩٥
ياجمال يامثال الوطنية . . أغنية الإخوان والشيوعيين	٢١١
وكم شهيد فى اليمن؟! وكم سبيكة ذهبية؟!	٢٢٧

الموضوع	الصفحة
تجريف الحاضر لبناء الماضى مأساة	٢٤٩
خرجت اليابان من هيروشيما وخرجت أمريكا من فيتنام ولكننا لم نخرج من يونيو	٢٦١
المثل الأعلى يدخل قلبك ويسرق عقلك	٢٧٥
حتى يعود نهر عمر بن عبد العزيز	٢٩١
نهاية كرة الندم . . بداية كرة القدم	٣٠٩
لا أدخلكم الله هذه البوابة السوداء	٣٢٩
هل عاد ذو الوجه الكئيب؟	٣٣٩
لابد من القضاء على مصطفى أمين وأخبار اليوم	٣٤٣

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(ا) ترجمة ذاتية:

1 – فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.

2 – عاشوا فى حياتى.

3 – إلا قليلاً.

4 – طلع البدر علينا.

5 – البقية فى حياتى.

6 – نحن أولاد الغجر.

7 – من نفسى.

8 – حتى أنت يا أنا.

9 – أضواء وضوضاء.

10– كل شىء نسبى.

11– لأول مرة.

12– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13– الحائط والدموع.

14– وجع فى قلب إسرائيل.

15– الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).

16– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترى علينا.

17– فى السياسة (3 أجزاء).

18– الدين والديناميت.

19– لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.

20– السيدة الأولى.

21– التاريخ أنياب وأظافر.

22– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).

23– على رقاب العباد.

24– ديانات أخرى.

25– وكانت الصحة هى الثمن.

26– الغرباء.

27– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28– عزيزى فلان.

29– هى وغيرها.

30– بقايا كل شىء.

31– يا من كنت حبيبى.

32– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريدريش ديرنمات:

33– رومولوس العظيم.

34– زيارة السيدة العجوز.

35– زواج السيد مسيسبى.

36– الشهاب.

37– هى وعشاقها.

** للأديب السويسرى ماكس فريش:

38– أمير الأراضى البور.

39– مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسى جان جيرودو:

40– من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:

41– بعد السقوط.

** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:

42– فوق الكهف.

** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:

43- الإمبراطور جونس.

•• للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:

44- تعب كلها الحياة.

•• للأديب الفرنسي أداموف:

45- الباب والشباك.

•• للأديب الإسبانى أرابال:

46- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.

48- من أول نظرة.

49- طريق العذاب.

50- ألوان من الحب.

51- شباب.. شباب.

52- مذكرات شاب غاضب.

53- مذكرات شابة غاضبة.

54- جسمك لا يكذب.

55- الذين هاجروا.

56- غرباء فى كل عصر.

57- أظافرها الطويلة.

58- هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.

60- الحب الذى بيننا.

61- عذاب كل يوم.

62- كيمياء الفضيحة.

63- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.

65- الذين عادوا إلى السماء.

66- القوى الخفية.

67- أرواح وأشباح.

68- لعنة الفراعنة.

69- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

70- يسقط الحائط الرابع.

71- وداعًا أيها الملل.

72- كرسى على الشمال.

73- ساعات بلا عقارب.

74- مع الآخرين.

75- شىء من الفكر.

76- لو كنت أيوب.

77- يعيش.. يعيش.

78- الوجودية.

79- طريق العذاب.

80- وحدى.. مع الآخرين.

81- ما لا تعلمون.

82- لحظات مسروقة.

83- كتَاب عن كتب.

84- أنتم الناس أيها الشعراء.

85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.

86- أوراق على شجر.

87- فى تلك السنة.

88- دراسات فى الأدب الأمريكى.

89- دراسات فى الأدب الألمانى.

90- دراسات فى الأدب الإيطالى.

91- فلاسفة وجوديون.

92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم فى 200 يوم.

94- بلاد الله خلق الله.

95- غريب فى بلاد غريبة.

96- اليمن ذلك المجهول.

97- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.

98- أطيب تحياتى من موسكو.

99- أعجب الرحلات فى التاريخ.

100- ماذا يريد الشباب؟

101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.

103- حلمك يا شيخ علام.

104- مين قتل مين؟

105- جمعية كل واشكر.

106- الأحياء المجاورة.

107- سلطان زمانه.

108- العبقرى.

109- كلام لك يا جارة.

110- فوق الركبة.

111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).

112- يوم بيوم.

113- إنها الأشياء الصغيرة.

114- إلا فاطمة.

115- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.

117- اتنين.. اتنين.

118- عريس فاطمة.

119- من الذى لا يحب فاطمة؟

120- غاضبون وغاضبات.

121- هى وغيرها.

122- هى وعشاقها.

123- العبقرى.

124- القلب أبدًا يدق.

125- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.

127- النجوم تولد وتموت.

128- هناك أمل.

129- أحب وأكره.

130- الحيوانات ألطف كثيرًا.

131- مصباح لكل إنسان.

132- أتمنى لك.

133- لعل الموت ينسانا.

134- اقرأ أى شىء.

135- ولكنى أتأمل.

136- حتى تعرف نفسك.

137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

138- نحن كذلك !!

139- اللهم إنى سائح.

140- كائنات فوق.

141- تعال نفكر معًا.

142- آه لو رأيت !

143- النار على الحدود: لعبة كل العصور.

144- انتهى زمن الفرص الضائعة !

145- هناك فرق.

146- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثانى.

147- يا نور النبى.

148- وأنت ما رأيك؟

149- حضارة الإوز والبقر.

150- حلمنا الجميل.

151- ضاع الجيل ضاع.

152- قالوا (الجزءان الأول والثانى).

153- وآخرتها.

154- من أول السطر.

155- أظافرها الطويلة.

156- القلب لا يمتلئ بالذهب.

157- تكلم حتى أراك.

158- الذى خرج ولم يعد.

159- ليلة فى بطن الحوت.

160- والله زمان يا حب.

161- أجيال من بعدنا.

162- قلبك يوجعنى.

(ل) الترجمات القصصية:

163- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.

164- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.

165- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.

166- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.

167- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.

168- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169- الفلسفة الوجودية الألمانية . لإميل تسلر.

170- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.

171- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.

172- مسرح العبث الفرنسى - لإتيان ماريبو.

173- الفيلسوف الروسى برديائف - لفيكتور لوزتسيف.

174- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.

175- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.

176 - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.

177- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.

178- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.

179- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.

180- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.

181- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.

182- شمعة فى كل طريق.

183- أكثر من رأى.

184- معذبون فى كل أرض.

185- تعالوا نفكر.

186- معنى الكلام..!

